د. الأزهر الزّناد

النّص والخطاب

مباحث لسانيّة عرفنيّة



دار محمد علي للنشر

مركز النشر الجامعي

د. الأزهر الزّناد

النّص والخطاب

مباحث لسانيّة عرْفنيّة




مركز النشر الجامعي


دار محمد علي للنشر

مقدّمة الكتاب

مثّلت العناية بالنّصّ أو بالخطاب- أي ما جاوز حدود الجملة- في تاريخ اللّسانيّات الحديث، مبحثا متأخّرا في الزّمان إذا ما انطلقنا من 1916 سنة ظهرت دروس دو سوسّير. وهي كذلك إذا ما انطلقنا من 1980 سنة ظهر كتاب "الاستعارات الّتي نحيا بها" (لايكوف 1980) واحدا من ثالوث من الأعمال تعتبر تأسيسا للّسانيّات العرفنيّة (النّحو العرفنيّ (لانقاكر)، الدّلالة العرفنيّة (طالمي)). ولكنّ هذه الأعمال الثّلاثة مفترقة في اتّجاه العناية فيها:

فنظريّة الاستعارة المفهوميّة (لايكوف 1987) بحث في اشتغال الاستعارة آليّةً ذهنيّة في تمثّل المجال الواحد على أساس مجال آخر، وهذا جار في جميع الأنشطة اللّغويّة ما كان منها يوميّا عفويّا وما كان منها أدبيّا إنشائيّا شعريّا. وهي جارية في نصوص أو في خطابات لا محالة ولكنّ المشغل فيها لا يتمثّل في ذلك إذ يكتفي لايكوف في الأغلب بنماذج لا تتجاوز الجملة في شكلها النّحويّ.

وأمّا نظريّة النّحو العرفنيّ فتنصبّ فيها العناية على جميع الأبنية النّحويّة الموافقة لمستوى الجملة وما دونها من الأبنية الصّوتيّة والصّرفيّة الجارية في المركّبات وما جاوزها. فقد مثّل كتاب "النّحو العرفنيّ" (لانقاكر1987) تناولا متكاملا للنّظام اللّغويّ وإن تقلّصت فيه العناية صراحة بمّا جاوز حدود الجملة. ولكنّ صاحبه يشير في مناسبات عديدة إلى أنّ مبادئ النّحو العرفنيّ تستوعب النّصّ والخطاب (لانقاكر1999، 2001).

وأمّا طالمي (الدّلالة العرفنيّة) فالعناية عنده بالمفاهيم من حيث تكوّنها وانتظامها وهي جارية في الوحدات المعجميّة أساسا. وإن طرح اشتغال تلك المفاهيم في مستوى النّصّ والخطاب – دون أن يسمّيه كذلك- إذ عرض تصوّرا متكاملا في إطارها للبنية السّرديّة[1] نُشر أوّل مرّة سنة 1995 ثمّ موسّعا منقّحا في طالمي (2000 الجزء الثّاني). وإلى هذا الثّالوث تنضاف نظريّة الأفضية الذّهنيّة

[1] Narrative Structure in a cognitive framework (in Bruder & alee 1995)

(فوكونياي1985) وهي المنوال النّظريّ الوحيد الّذي يتّخذ من الخطاب مجالا صريحا يبحث في ترابطاته العرفنيّة وفي ما به تنبني عوالمه وتتبلور في الذّهن.

وإذ استوت اللّسانيّات العرفنيّة تيّارا جامعا للكثير من الرّوافد النّظريّة من سائر العلوم العرفنيّة وشاملا للكثير من الظّواهر اللّغويّة بما في ذلك التّداوليّة والتّفاعل الحواريّ والإنحاء وما إليها، وواسِما لكلّ فرع في الدّراسة اللّسانيّة مخصوص بنظام لغويّ فرعيّ بالعرفنيّ (الصّوتميّة العرفنيّة[2] مثلا)، توجّهت العناية شيئا فشيئا إلى الخطاب. بل التحق بهذا التّيّار العرفنيّ من الباحثين من كان ذا عناية بالنّصّ والخطاب وإن في إطار نظريّ آخر، ليؤسّس لتناول عرفنيّ لهما في إطار عرفنيّ عامّ وفي إطار العرفنة الاجتماعيّة،على وجه الخصوص، لعلّ أبرز ممثّل لذلك هو فان ديك. كما توفّر في هذا التّيّار العرفنيّ إطار مناسب ينصهر فيه ما كان من النّظريّات القائمة في لسانيّات النّصّ، توليديّ المنبع مثل نظريّة النّحو الوظيفيّ النّظاميّ لهاليداي، لينشأ بذلك إطار التّحليل النّقديّ للخطاب في أعمال فاركلاف خاصّة.

ولكن لم يُستكمل إلى الآن، في حدود ما اطّلعنا عليه، إطار لسانيّ عرفنيّ مخصوص بالنّصّ أو بالخطاب يمكن له أن يستوي المبحث في نحو النّصّ العرفنيّ[3] أو لسانيّات النّصّ العرفنيّة[4] أو التّحليل العرفنيّ للخطاب[5] قياسا على ما يُتداول من نحو النّصّ أو لسانيّات النّصّ أو تحليل الخطاب بما تتضمّن التّسمية الواحدة منها من خلفيّات نظريّة هي واحدة من اثنتين إمّا إطار جامع لشتات من المداخل أو إطار مخصوص بالتّوليديّ.

فكلّ ما يتوفّر، في حدود ما اطّلعنا عليه، فصول يُدرجها أصحابها في المداخل الّتي ينشئونها في اللّسانيّات العرفنيّة، موسومة بكونها تناولا للنّصّ (درفان وفرسبور 2004 : الفصل الثّامن 179-197)[6] أو بكونها تناولا للخطاب (لي

[2] Lakoff, G: Cognitive Phonology, in Goldsmith, J. (ed.) 1993. 117-145.
[3] Cognitive Text Grammar.
[4] Cognitive Text Linguistics.
[5] Cognitive Discourse Analysis.
[6] Dirven, René & Verspoor, Marjolijn, 2004: Chapter 8: Structuring Texts: Text Linguistics, 179-197.

2000 : الفصل الحادي عشر : اللّسانيّات العرفنيّة وتحليل الخطاب 170-180)[7]، في حين يرد سائرها خلوا من المبحث بل خلوا من مفهوم النّصّ أو مفهوم الخطاب فلا تجده فيها جاريا أبدا، كما هو الأمر في كتاب تايلر(2002) بل لا وجود لذينك المفهومين في ثبت المفاهيم الجارية فيه[8] رغم امتداد الكتاب من حيث موضوعاته واتّساعه من حيث صفحاته (621 ص).

ولكنّ هذا الواقع لا يمنع من ظهور بوادر تناول عرفنيّ لقضايا عامّة يتعلّق بعضها بمباحث عهدناها في النّصوص الأدبيّة من قبيل الإنشائيّة، فقد ظهر كتاب ستوكوال 'مدخل في الإنشائيّة العرفنيّة'[9] سنة 2002 مخصوصا بآليّات القراءة في النّصّ الأدبيّ شعرا ونثرا قائما على الأركان الثّابتة في اللّسانيّات العرفنيّة مبوّبا في ضوئها. وهو إذ يمثّل تناولا لسانيّا عرفنيّا لمبحث الإنشائيّة إنّما يذكّرنا بما كان به ظهور الإنشائيّة من رحم اللّسانيّات البنيويّة لعلّ أبرز ممثّل لها جاكبسون[10] (1960 و1963 في ترجمته الفرنسيّة[11]) وما كان له من أثر في تبلور مباحث كثيرة مدارها الإنشائيّة واللّسانيّات في المدرسة الأوروبيّة عامّة وفي الفرنسيّة على وجه الخصوص.

فهذه ومضة نختصر فيها اعتمال المباحث العرفنيّة في اللّسانيّات من حيث تتوازى فيها العناية بالنّظاميّ النّحويّ وحدوده الجملة مكوّنا مطّردا قابلا للضّبط والتّحديد بنية ودلالة، والعناية بما جاوزها من التّحقّقات في الخطاب أو النّصّ في جميع أبعادهما بما في ذلك الاجتماعيّ الثّقافيّ والبيئيّ بمعناه الواسع.

وإذ كان الأمر كما أسلفنا في الغرب عامّة، وفي شقّه الأمريكيّ خاصّة، كان له أصدية في سائر الأقطار من العالم يعنينا منها ما هو كائن في البلاد العربيّة. وهي في العموم متابعة لما يجري هناك وإن بفارق زمانيّ يقصر أحيانا ويطول في

---

[7] Lee, David, 2001: Chapter 11: Cognitive Linguistics and Discourse Analysis, 170-180.

[8] Taylor, John R. Cognitive Grammar (2002).

[9] Stockwell, P. 2002. Cognitive Poetics, an Introduction. New York: Routledge.

[10] Jakobson: Closing Statements: Linguistics and Phonetics, in Seboek,T.A. (ed.). 1960. Style in Language. New York.

[11] Jakobson. 1963. (chapitre 11: Linguistique et Poétique, 209-248).

شخص بعينه، وإن كنت واجدا في الاستعمال ما لا يتميّز به الواحد منهما من الآخر.

وقوام هذا الكتاب، الجمع بين النّظريّة وتحليل المعطيات، ولعلّ بعض النّاس ينفر من تحليل المعطيات على أساس أنّه عمل ثانويّ أو من درجة ثانية في سلّم المعرفة، وهو موقف لمن لا يعرف أنّ قوّة النّظريّة تكمن في سعة انطباقها بمعنى شمولها لأقصى عدد ممكن من النّماذج المتحقّقة تتنبأ بها إن لم تكن وتستوعبها إن كانت. وهو كذلك موقف من لا يعرف أنّ صغار الأشياء ودقائقها قائدة إلى بناء عظامها، في بنية هرميّة متدرّجة من المخصوص العينيّ إلى العامّ الكلّيّ. وهو موقف من لا يتحكّم في الأداة النّظريّة لسبب ما، تحكّما يمكّنه من الإفادة منها إن اعتمدها، ومن إفادتها بسبرها فنقدها فتطويرها إن سعى إلى ذلك.

فقد تنوّعت المعطيات الخطابيّة العربيّة، في هذا الكتاب، زمانا ومكانا وجنسا وموضوعا ونثرا وشعرا. فاجتمعت فيها نصوص قديمة وأخرى حديثة، فيها الأخبار والنّوادر والمقامات، والأحاجي والألغاز وقصص الأمثال وفيها التّرجمة الذّاتيّة وفيها النّصوص العلميّة، وفيها ما يزدوج فيه الخطاب والرّسم أو الصّورة من لوحات إشهاريّة وأخرى كاريكاتوريّة تتظافر في جميعها الصّورة مكوّنا إيقونوغرافيّا والنّصّ مكوّنا لغويّا.

ولجميع ذلك قد يجد القارئ شتّاتا من النّصوص من شتات من المصادر القديمة والحديثة في شتات من المواضيع والغاية ليست جمعها ولا الإحاطة بكلّ ما يُكتنز في الخطاب. وإنّما هي نماذج، لعلّ الكثير منها قد أُهملت العناية به لسبب من الأسباب يعود بعضها إلى طبيعة الاختصاص في البحث كأن يهتمّ الباحث في السّرديّة بمظاهر السّرد دون غيرها فلا يدرس إلاّ ما كان قائما على السّرد، بل لا يعلم أنّ ما يسمّيه سردا إنّما هو تمثيل لعوالم ذهنيّة ليس غير، أو يهتمّ الباحث في العربيّة الفصحى بالفصيح من النّصوص فيهمل سائرها أو يهتمّ دارس الأنتروبولوجيا بالتّمثيلات الثّقافيّة دون غيرها فيهمل بنية الخطاب وما إليها. وبعضها يعود إلى مواقف إيديولوجيّة يعتمدها مدخلا في دراسة الخطاب فيتحوّل كلّ ما في الخطاب المدروس من الخصائص إلى مظاهر تثبت بها الإيديولوجيا

دون غيرها من المظاهر العاملة في الخطاب. وعلى هذا ينقاس كلّ تناول مخصوص للخطاب مختصّ بمجال بحث بعينه.

وجميع هذه النّماذج مأخوذ من زاويتين: أولاهما من حيث هو معطى خطابيّ يجري تحليله باعتماد أدوات نظريّة عرفنيّة سبيلا إلى تأصيل تلك الأدوات وتجذيرها في عادات الباحثين من النّاشئة وبه نتجاوز مجرّد العروض النّظريّة الّتي يكون بها نقل المعرفة، إلى توظيفها والإفادة منها إفادة أقلّ ما يكون فيها تناول آخر للمعطى نفسه ينير جانبا ما كان له أن يظهر في المعهود من وجوه التّناول. وثانيتهما من حيث هو معطى خطابيّ تُسبَر فيه تلك الأدوات النّظريّة فيكون إقرارها إن ثبتت أو تحويرها إن توفّر ما يدعو إلى ذلك أو إبطالها إن بان قصورها. وذاك ما به نتجاوز نقل المعرفة نقلا مجرّدا وتطبيقها تطبيقا حاجيّا أو نفعيّا، إلى المساهمة في بناء المعرفة وإنتاجها في المستويات المعلومة عربيّة كانت أو عالميّة. وفوق هذا وذاك يمثّل المعطى الخطابيّ موردا تُستمدّ منه أدوات نظريّة تفسّر اشتغاله، في مستوى أوّل، سبيلا إلى إقامة ما قد يمثّل منوالا للعرفنة العربيّة، في مستوى ثان.

فالعماد النّظريّ في هذا الكتاب، قائم على الخطاب في تجلّياته المتنوّعة، مادّةً للتّحليل باعتماد المداخل العرفنيّة. فتكون تلك التّجلّيات تحقّقا للعرفنة العامّة وتحقّقا للعرفنة العربيّة في آن. وهما متكاملان بمعنى أنّ الغوص على البنية العرفنيّة العربيّة في الخطاب يكون من مدخلين: أدوات نظريّة ثابتة في الدّراسات العرفنيّة يكون بها استجلاء بعض المظاهر العرفنيّة الموجّهة للنّصّ عملا عرفنيّا بناء وتأويلا، هذا من جهة. ومن أخرى، النّصّ مادّة تستجلى منها المظاهر العرفنيّة لتستقلّ بذاتها في التّصوّر. فمدار هذا العمل هو النّصّ مادّة والعرفنة إطارا، تُعتمَد في ولوجه أدوات نظريّة عرفنيّة تستجلى بها المظاهر العرفنيّة، ويُعتمد مباشرة لاستجلاء مظاهر عرفنيّة تنعكس فيه انعكاسا طبيعيّا. فالبنية اللّغويّة تعكس مظاهر العرفنة البشريّة من حيث كانت صنيعتها وأداة لها في آن.

ونعتقد أنّ المداخل من هذا القبيل، تفتح آفاقا لتناول الخطاب عامّة والخطاب الأدبيّ على وجه التّحديد، يفيد منها تاريخ الأدب ونقده كما يفيد منها تاريخ الأفكار ما اتّصل منها بالعلوم والحقول المعرفيّة المعلومة وما اتّصل منها بالثّقافة في عمومها، كما يفيد منها المهتمّ بالإشهار وبالصّحافة وبالاجتماع وما إلى ذلك.

ولا يبادرنّ القارئ إلى رفع ورقة الفيتو المعرفيّة القائلة بالعسف والإسقاط، فهي ورقة قد زال عهدها واندثر أهلها. فقد نوّعنا من المعطيات التّنويع الكبير واجتهدنا في الغوص على خفاياها وجعلناها الأميرة الأولى على ما قرّرنا من نتائج بعضها ثابت في المطلق وبعضها من خصوصيّات العرفنة العربيّة ثقافة وتصوّرا للكون ولمنزلة الإنسان فيه وفي علاقته بالإنسان وبالكون. ولنا في جميع ذلك مساهمة بالنّقد والتّحليل دون أن نرفعها شعارا أو لافتة في الصّدارة.

والكتاب أربعة أبواب: أوّلها في الأسس العرفنيّة في تحليل النّصّ والخطاب، وذلك ببيان المبادئ الكبرى الّتي قامت عليها اللّسانيّات العرفنيّة من قبيل كون اللّغة جزءا من النّظام العرفنيّ وكون النّظام العرفنيّ مجسدنا وكون اللّغة موردا رمزيّا تكون به صياغة المضامين العرفنيّة يكون له النّحو مفهوميّا وتكون له الدّلالة تشكّلا لغويّا للمفاهيم. كما نفرد فصلا للنّصّ في الإطار اللّسانيّ العرفنيّ من حيث طبيعته وتكوّنه واشتغاله في تناسقه وترابط أبعاضه وفي معالجته، يكتمل ذلك بإطار العرفنة الاجتماعيّة من حيث مثّل النّصّ إنتاجا جماعيّا للخطاب. ويكون الباب الثّاني في الأبنية العرفنيّة المشتغلة في إنتاج النّصّ وفي تأويله أو فهمه وهي المعرفة الموسوعيّة والأطر والخطاطات والمناويل الثّقافيّة. ويكون الباب الثّالث في المضامين العرفنيّة في النّصّ بما تتضمّن من تموضع المعرفة في محيط الذّات المعرفنة تستمدّ منه تمثيلاتها الذّهنيّة بما في ذلك تمثيل المكان وتمثيل الزّمان وفيه يكون تجذّر الخطاب. والباب الرّابع في آليّات بناء النّصّ من حيث بناء الأفضية الذّهنيّة فيه وترابطها ومن حيث عمل الاستعارة في بناء النّصوص المثليّة والرّمزيّة على أساس المناويل الاستعاريّة ومن حيث المزج المفهوميّ جاريا في الخطاب وفي الإشهار وفي الكاريكاتور، ومن حيث آليّة الاستدلال في الخطاب الملغز وما شاكلها ومن حيث آليّة التّذكّر في بناء النّصوص وتنوّعها.

وقد جعلنا الباب الواحد عددا من الفصول على عدد المشاغل فيه وجعلنا الفصل الواحد قسمين نظريّا نورد فيه المعالم النّظريّة المفيدة وتحليليّا يكون فيه تناول المعطيات الخطابيّة.

كما التزمنا بإثبات المصطلح عربيّا في متن الكتاب وأجنبيّا في الهوامش حيثما رأينا الحاجة إلى ذلك، فبعض العربيّ متداول معلوم بمقابله الأجنبيّ المتداول المعلوم، وبعضه جديد اجتهدنا في صوغ مقابله العربيّ، وجميعها مثبت في نهاية الكتاب جدولا ثنائيّ المدخل عسى أن يكون مساهمة في إثراء الرّصيد الاصطلاحيّ العرفنيّ العربيّ.

المؤلّف

تونس، جانفي 2010.

الباب الأوّل
في الأسس العرفنيّة
في تحليل النّصّ والخطاب

مقدّمة الباب

لئن تبدّلت المداخل وتنوّعت أدوات التّناول فالأسئلة واحدة في قيامها وفي ما تنشده:

فإذا ما قامت الجملة على عدد من المظاهر البنيويّة والدّلاليّة نوع القيام المعلوم الضّامن لاستقامتها بناء وتأويلا، وإذا ما لم يكن ذلك متوفّرا دائما، بمعنى أنّ الجملة لا تتكوّن لمجرّد ترابط بين كلماتها ترصف وتتتابع وإنّما هي محكومة بقواعد ومبادئ يتضمّنها النّحو، كان السّؤال نفسه مشروعا ليقوم في مستوى النّصّ – الخطاب- فهل يكون للجمل أو الأقوال المتعدّدة أن تكوّن وحدة هي نصّ أو خطاب بمجرّد أن تتراصف من قائل واحد أو متعدّد. فالسّؤال يظلّ دائما مطروحا في ما به يكون نسيج النّصّ أو في ما به يكون الملفوظ نصّا (الزّنّاد 1993).

فقد كان النّسيج مسايرا لبحوث توجّهها هواجس نظريّة عامّة أساسها البحث عن مولّدة من القواعد تنتظم وفقها العناصر في جملة من المنظومات المتعاملة المتكافئة المتفاصلة، وهذا من تبعات البرنامج التّوليديّ تيّارا جامعا للكثير من القضايا منذ بداياته.

وقد تبيّن أنّ النّصّ محكوم لاّ محالة بمثل هذه المظاهر، ولكنّ النّسيج الحقيقيّ إنّما يكمن في طبقة أمضى، عموما وخصوصا، اطّردا وانعكاسا، ذهنا ومحيطا، فردا وجماعة، هي ما به يكون النّشاط القوليّ -- المنتِج للخطاب- مظهرا عرفنيّا من جملة مظاهر أخرى يكون بها الذّكاء متجلّيا عند الكائن المعرفِن[12]. يتجلّى ذلك عنده، منشئا ومخبرا ومؤثّرا وصانعا لعوالم ذهنيّة، بعضها لصيق بواقعه كما يتمثّله تمثّلا ذهنيّا، وبعضها إنشاء لواقع يتخيّله. وهو في الحالين ممثّل لهما بتمثيل لغويّ يوسم مرّة بالجملة ومرّة أخرى بالخطاب أو بالنّصّ.

ولا يذهبنّ الظّنّ إلى أنّ ما سطّر من مبادئ وقواعد ومفاهيم في إطار نحو النّصّ[13] قد اندثر وأتت عليه 'الثّورة' العرفنيّة بما فيها الأدنويّة[14]، فالكثير منها ما

---

[12] Cognizer.
[13] Text Grammar.
[14] Minimalism (Chomsky : Minimalist Program).

يزال عاملا قائما بأشكال عديدة، فيكفي أن نتصفّح أيّا من المؤلّفات في النّصّ أو في الخطاب لنجد صداها تتراجعه المقالات والكتب وتتعاوده النّظريّات وإن خالف بعضها بعضا في التّفسير والتّناول. ولكنّ الكثير من القضايا في النّصّ والخطاب ما يزال مطروحا كذلك. فتكون، على هذا، الحاجة إلى استكمال العدّة النّظريّة من مواردها المتنوّعة لاستكمال عدّة التّحليل أداة لسبر النّظريّة وأداة لاستيعاب الظّاهرة الخطابيّة في تنوّعها وتفاعلها وتجدّدها، في المطلق العامّ، وفي الثّقافة العربيّة على وجه الخصوص سبيلا إلى الإسهام في إقامة نهج في الدّرس عربيّ أوّلا وعالميّ من درجة ثانية.

وموارد العدّة النّظريّة عرفنيّة لسانيّة ونفسيّة واجتماعيّة، خصّصنا هذا الباب لها لتقديم المبادئ العامّة إطارا جامعا تتحدّد فيه المسائل في عمومها وما كان من الجزئيّات تركنا النّظر فيه إلى موطنه المناسب من سائر الأبواب في هذا العمل، حيث يكون التّحليل باعتماد المعطيات من العربيّة سبرا ونقاشا سبيلا إلى الإسهام في إقامة البديل أو الأفضل.

والموارد النّظريّة في هذا الباب ثالوث من الجداول منتم إلى التّيّار العرفنيّ: لسانيّ عرفنيّ واجتماعيّ عرفنيّ ونفسيّ عرفنيّ.

يمثّل التّيّار اللّسانيّ العرفنيّ جملة من النّظريّات والمناويل قد تختلف في ما بينها اختلافا على درجات، ولكنّ الجامع بينها قيامها على تصوّرات نظريّة مخالفة للتّصوّرات التّوليديّة، وذلك في عدد من المظاهر نستعرضها في الفصل الأوّل بعد هذا. ينضاف إلى ذلك، التّيّار الاجتماعيّ بشقّيه: "التّحليل النّقديّ للخطاب" كما تبلور في أعمال فاركلاف متابعا لما بدأ فيه هالّيداي في اللّسانيّات النّظاميّة الوظيفيّة منذ 1980، ومواصلا لأعمال ڤرامشي وباختين ومن لفّ لفّهما، والعرفنة الاجتماعيّة كما تبلورت في أعمال فان ديك.

ولذلك يكون هذا الباب الأوّل في تقديم ما نراه صالحا لتناول النّصّ والخطاب من أطر نظريّة عامّة تتضمّن المبادئ العاملة في مختلف النّظريّات نتدرّج فيها من العامّ الجامع إلى العينيّ المخصوص. فيكون الفصل الأوّل في اللّسانيّات العرفنيّة ويكون الفصل الثّاني في النّصّ والخطاب في إطار لسانيّ

عرفنيّ ويكون الفصل الثّالث في النّص في إطار العرفنة الاجتماعيّة من حيث مثّل نتاجا لها، وجاريا في مراتب الخطاب، جميع ذلك يُتّخَذ سبيلا إلى رتق الفجوة بين الدّراسة البنيويّة والذّهنيّة الفرديّة والاجتماعيّة. فالعرفنة ملكة تشتغل في جميع الأنشطة البشريّة إنتاجا وتأويلا، وما الخطاب إلاّ مظهر من جميع ذلك.

الفصل الأوّل

اللّسانيّات العرفنيّة

تمثّل اللّسانيّات العرفنيّة[15] تيّارا (مدرسة) لسانيّا حديث النّشأة، يقوم على دراسة العلاقة بين اللّغة البشريّة والذّهن والتّجربة بما فيها الاجتماعيّ والمادّيّ البيئيّ. وقد نشأ هذا التيّار مناهضا للشّكلنة الغالبة على اللّسانيّات والكثير من العلوم الإنسانيّة في الثّلثين الأوّلين من القرن العشرين. وتمثّل العلوم العرفنيّة[16] عامّة وعلم النّفس العرفنيّ[17] خاصّة موردا أساسيّا تفيد منه اللّسانيّات العرفنيّة في دراسة اللّغة والعرفنة[18] عند الإنسان.

وللّسانيّات العرفنيّة – على اختلاف النّظريّات والاتّجاهات فيها– عدد من المبادئ تعمل جميعها في إطارها، نورد في ما يلي ما نراه مفيدا منها في متابعة سائر القضايا المطروحة والنّماذج المعتمدة مادّة للتّحليل في سائر الأبواب من هذا العمل. وللقارئ أن يعود إلى عدد من المؤلّفات المداخل في اللّسانيّات العرفنيّة يسيرة التّناول من قبيل لي (2001) أو دِرفان وفرسبور(2004)[19] أو إيفانس وقْرين (2006) أو إيفانس وجماعته (2007) أو الزّنّاد (2010)، وغيرها كثير.

اللّغة جزء من النّظام العرفنيّ

تقوم النّظريّة التّوليديّة على أساس النّحو الكونيّ، تلك الملكة الفطريّة القائمة على عدد من المبادئ تمكّن صاحبها من اكتساب اللّغة متحقّقة في لغة بعينها ممّا تسمح به تنويعاتها في ضوء البرامترات[20]، فالنّحو الكونيّ بمبادئه وبرامتراته مركوز في عضو ذهنيّ من الدّماغ مخصوص هو اللّغة.

---

15 Cognitive Linguistics.
16 Cognitive Science.
17 Cognitive Psychology.
18 Cognition.
19 Lee, David (2001); Dirven, René & Verspoor, Marjolijn (2004). Evans, Vyvyan and Green, Melanie (2006); Evans, Vyvyan; Bergen, Benjamin and Zinken, Jörg, (eds.) (2007).
20 Parameter(s).

وخلافا لهذا يذهب التّيّار العرفنيّ إلى تجذّر تلك المبادئ الكونيّة في الملكة العرفنيّة فينتفي بذلك وجود عضو ذهنيّ مخصوص باللّغة. فاللّغة مثل سائر الأنشطة الرّمزيّة إنّما هي وليدة نشاط عرفنيّ مركوز في المولّدة العرفنيّة العامّة الّتي تمثّل نشاط الدّماغ عضوا ماديّا.

وتمثّل اللّغة من حيث خصائصها وطبيعتها وانتظامها جزءا من النّظام العرفنيّ عند الإنسان ولذلك تكون لها خصائصه وتمثّل بوّابة عليه يمكن التّوسّل بها لولوجه. ولذلك تراعَى في دراستها الحقائق الّتي استقرّت في شأن العرفنة في سائر العلوم العرفنيّة وخاصّة في علم النّفس العرفنيّ منها وهو ما يطلَق عليه الالتزام بالتّعميم[21] (لايكوف 1990)[22].

العرفنة مجسدنة

من أبرز المبادئ الّتي أثبتتها الأبحاث اللّسانيّة العرفنيّة عامّة والأبحاث الدّلاليّة فيها على وجه الخصوص أنّ العلاقة ما بين الكلمات واللّغة ليست مباشرة وإنّما هي كائنة بتوسّط المتكلّم المستعمل، جسدا أو كائنا حالاً في المكان والزّمان، وفي العالم بشكل أوسع، له معه بما يضمّ من الأشياء تفاعل وتعامل، فعلا فيها وانفعالا بها. ومن الحجج في ذلك أنّنا لا نفهم المعاني ونتصوّرها إلاّ في إطار تجاربنا الجسديّة في محيط عيشنا وذلك من قبيل الأحجام في الأشياء والوزن والخفّة والثّقل، وهي لا تُتصوّر إلاّ في علاقتها بتجربة الجسد في محيطه يحمل الثّقيل منها والخفيف فيتمثّل الواحد منهما مفهوما ذهنيّا لا يتخلّص أبدا من جذوره الجسديّة.

ومن قبيل تمثّل الأشياء المتداولة في حياتنا اليوميّة كالكراسيّ أو الأرائك وما إليها من الأثاث والأدوات كالأقلام أو مفكّ البراغي وما إليهما من حيث نتمثّلها بما لنا من تعامل معها في الواقع المعيش. وجميع ذلك، دون شكّ، كائن على درجات

---

[21] Generalisation Commitment.
[22] Lakoff, 1990.

بعضها بسيط وبعضها مركّب معقّد، وبعضها متّصل بالتّجربة الحسّيّة وبعضها متّصل بالتّصوّرات التّجريديّة.

ويمثّل الجسد – وقد عاد مفهوما عاملا في المنزع التّجريبيّ بعد أن غاب في المنزع الموضوعيّ– أساسا لاعتبار النّظام المفهوميّ (التّصوّريّ)[23] وتمثيل المفاهيم (التّصوّرات)[24] محكومين بطبيعة الجسد عند البشر من حيث تكوينه وتمثّله وتفاعله مع محيطه الاجتماعيّ الثّقافيّ والمادّيّ الفيزيائيّ. وهذا ما تقوم عليه نظريّة الجسدنة[25] أو نظريّة العرفنة المجسدنة[26]، في العرفنة عامّة وفي اللّسانيّات العرفنيّة خاصّة (لايكوف 1987، جونسون 1987)[27]. فالذّهن المعرفِن يعيش في جسد مادّيّ (فاركلاف 1995).

النّحو مفهوميّ

النّحو مفهوميّ بطبيعته (لانقاكر1987، طالمي 2000)[28] وهو جزء من الملكة العرفنيّة والتّصوّرات الذّهنيّة وليس مكوّنا شكليّا منفصلا عن الجهاز العرفنيّ بملكاته العامّة. فالمعنى وليد اشتغال الأبنية المفهوميّة[29] (التّصوّريّة) الّتي تكوّن معارفنا في تفاعلها مع محيط وجودنا بما يكتنفه من أوضاع وسياقات ومقامات مختلفة، فلا فصل ما بين النّحو والتّداولـــ(ـــيّة) أو بين النّظام والاستعمال.

الدّلالة العرفنيّة تشكّل لغويّ للمفاهيم

يتكوّن تيّار اللّسانيّات العرفنيّة من وجهتين متكاملتين هما الدّلالة العرفنيّة[30] والنّحو العرفنيّ[31] وكلاهما قائم على تصوّر النّشاط اللّغويّ جزءا من النّشاط

[23] Conceptual system.
[24] Conceptual representation.
[25] Embodiment.
[26] Embodied Cognition.
[27] Lakoff 1987; Johnson 1987.
[28] Langacker 1987; Talmy 2000.
[29] Conceptual structure(s).
[30] Cognitive semantics.
[31] Cognitive grammar(s).

العرفنيّ عند الإنسان ولا فصل بينهما. فاللّغة ملكة جزء من العرفنة البشريّة وليدة اشتغاله وأداة له ومورد تكون به صياغة مضامينه.

يتمثّل محور العناية الأساسيّ في الدّلالة العرفنيّة في دراسة العلاقة ما بين ثالوث عناصره: النّظام المفهوميّ[32] (التّصوّريّ) والتّجربة[33] (بما في ذلك المحيط المادّيّ الفيزيائيّ والاجتماعيّ الثّقافيّ بأبعاده المختلفة) والبنية الدّلاليّة اللّغويّة.

فالعلاقة بين الثّالوث يمكن تمثيلها على أنّ النّظام التّصوّريّ تمثيل للتّجربة بوسائط عديدة منها الموارد الحسيّة وتتشكّل المضامين التّصوّريّة في المنظومة اللّغويّة في مظهرها الدّلاليّ. وما الدّلالة اللّغويّة إلاّ صياغة لمضمون تصوّريّ ذهنيّ بوسائط لغويّة نطقيّة، ذلك أنّ اللّغة مورد رمزيّ لصياغة المضامين التّصوّريّة صياغة لغويّة (لانقاكر 1987).

فيكون على هذا في الدّلالة العرفنيّة فرعان: أوّلهما بحث في تمثيل المعرفة أو ما يطلق عليه البنية المفهوميّة (التّصوّريّة)[34]. وثانيهما بحث في انبناء المعنى (المفهمة)[35].

ولكنّ الغاية من الفرعين واحدة تتمثّل في إقامة منوال نظريّ في اشتغال النّظام المفهوميّ في العرفنة من خلال المنظومة اللّغويّة في مظهرها الدّلاليّ.

ويتمثّل محور العناية الأساسيّ في النّحو العرفنيّ في اعتماد مقاربة عرفنيّة غايتها إقامة منوال نظريّ في اشتغال النّحو العرفنيّ (النّحو الذّهنيّ[36] في عبارة توليديّة متداولة).

النّحو خلو من المعجم

يمثّل المعجم الذّهنيّ[37] مكوّنا قاعديّا في النّحو التّوليديّ وتمثّل المعرفة به جزءا من المعرفة بالنّحو، ولكنّ النّظريّة اللّسانية العرفنيّة (الدّلالة، النّحو، التّداوليّة)

---

[32] Conceptual system.
[33] Experience.
[34] Knowledge representation (conceptual structure).
[35] Conceptualization.
[36] Mental Grammar.
[37] Mental Lexicon.

تنفي وجود المعجم الذّهنيّ مستقلاً بنفسه يتضمّن جملة المعارف أو المعلومات اللّغويّة الشّكليّة النّحويّة والدّلاليّة المقترنة بجملة الوحدات المعجميّة منقطعة عن سائر المعارف غير اللّغويّة المتعلّقة بالموجودات والمحيط والثّقافة وما شاكلها من المعارف الموسوعيّة.

فاستعمال وحدة معجميّة لا يعني مجرّد إجراء لها في سياق إعرابيّ تخاطبيّ تُستعمل فيه جملة من المعارف المعجميّة النّحويّة (الأصوات، الاشتقاق، التّعليق) وإنّما هو إجراء لجملة المعارف العامّة (الموسوعيّة) في ترابطها وتداخلها وتعاملها ما كان منها مباشرا وما كان منها من درجات ثانويّة. وبهذا تكون المعلومات التّداوليّة جزءا من المعلومات الموسوعيّة توجّه البنية اللّغويّة دون أن تكون منها بالضّرورة.

فالوحدة المعجميّة- في هذا التّصوّر- ليست مجرّد حاوية أو خزّان يتضمّن جملة من المعلومات الفرديّة أو حزمة من الخصائص الدّلاليّة الجاهزة – على حدّ عبارة إيفانس[38] (2007، 5)- بل لا معنى للوحدة المعجميّة في ذاتها خارج كلّ سياق أو مقام، وإنّما هي مدخل أو نقطة اهتداء[39] تنفتح على شبكة المعرفة الموسوعيّة[40] في امتدادها واتّساعها (لانقاكر 1987).

والوحدة المعجميّة جزء من إطار[41] كامل تستصحبه وتستدعيه فلا تجري ولا تفهَم إلاّ فيه (فيلمور 1982، فيلمور وآتكينس 1992)[42]. وذلك من قبيل يوم "الأحد" – مثلا- لا يمكن تصوّرها خارج إطار سباعيّ من الأيّام تتوزّع بمقتضاه أنشطة اجتماعيّة متنوّعة فيكون مقترنا بالرّاحة وبالعطلة أو بقضاء الشّؤون الأسبوعيّة فيه وما إلى ذلك، ومن قبيل "ثلاّجة" في قيام تصوّرها على عدد من العناصر المتنوّعة تنتمي إلى شبكة كاملة تمثّل المطبخ وما إليه. وهذا ما نخصّص له الفصل الثّاني من الباب الثّاني بعد هذا[43].

---

38 Evans, V.(2007).
39 Access .
40 Encyclopaedic knowledge.
41 Frame.
42 Fillmore (1982); Fillmore and Atkins (1992).
43 راجع فصل "الأطر العرفنيّة في النّصّ".

والوحدة المعجميّة، في هذا التّصوّر، مفهوم من مجموعة تجتمع في إطار منضدّ من المعارف العامّة المتّصلة بالحياة في بعديها الرّمزيّ التّجريديّ والمادّيّ الفيزيائيّ بما في ذلك الاجتماعيّ الثّقافيّ.

ومن أبرز ما كان للّسانيّات العرفنيّة من آثار في تغيير التّناول اللّسانيّ للظّاهرة اللّغويّة ما أحدثته نظريّة الاستعارة المفهوميّة[44] (التّصوّريّة) (لايكوف 1980،1987) من قلب للمفاهيم في تناول العبارات المجازيّة عامّة والاستعاريّة خاصّة. وهو ما نخصّه في الباب الرّابع بقسم قائم برأسه في تناول الاستعارة في مستوى الخطاب حيث نمضي بالمفهوم مسافة أرقى بها يتجاوز الدّرس مستوى العبارة الاستعاريّة المفردة إلى مستوى الخطاب أو النّصّ الاستعارة، إذ يخضع كلاهما للآليّات نفسها من حيث قيامها على الإسقاط ما بين المجالات، وهو ما يمثّل كذلك مفتاحا لدراسة أنواع أخرى من الخطاب أو النّصوص بعضها نصوص مثليّة وبعضها ألغاز أو أحاج وبعضها نصوص رمزيّة من الشّعر والنّثر.

وجميع ذلك مندرج في توجّه تجريبيّ[45] قامت عليه اللّسانيّات العرفنيّة، خلافا لما كان سائدا في جميع المجالات من النّظرة الموضوعيّة[46] في دراسة العلاقة ما بين العالم من جهة واللّغة والذّهن (الفكر) من جهة ثانية (لايكوف 1987).

اختلاف أنماط التّعبير لاختلاف أنماط التّناول

تتحدّد البنية في العبارات اللّغويّة، في النّظريّة التّوليديّة، على أساس نظام من القواعد الشّكليّة منفصلة عن المعنى، ومقابل ذلك تمثّل البنية اللّغويّة، في النّظريّة اللّسانيّة العرفنيّة، انعكاسا مباشرا للعرفنة. يعني ذلك أنّ كلّ عبارة لغويّة مخصوصة إنّما تعبّر عن وجه مخصوص في تصوّر وضعيّة مخصوصة من حيث زاوية التّناول فيها وزاوية عرضها واستحضارها وبنائها. فالاختلاف في التّعبير عن الوضع الواحد عائد إلى الاختلاف في زاوية التّناول وليس الواحد مشتقّا أو محوّلا من الآخر.

[44] Conceptual Metaphor Theory (CMT).
[45] Experientialist view (Experientialism).
[46] Objectivist view (objectivism).

وينضوي التّوجّه القائل بالتّحوّل أو الاشتقاق في تصوّر يفصل بين أداة التّعبير (أو اللّغة) ومرجعها (الواقع أو العالم أو حال الأشياء في الكون).

ومن المواقف المعلومة في ذلك كون اللّغة "مرآة" تعكس حال الأشياء فتكون العلاقة بين عناصرها وعناصر ما تعبّر عنه قائمة على التّناسب، يناسب العنصر الواحد من هذا، العنصرَ الواحد من ذاك في ضوء تراتبيّة نظاميّة بنيويّة تحكمها قواعد شكليّة. وينجرّ عن ذلك كون العبارات المتقاربة في المعنى أو المتكافئة فيه، مشتقّا بعضها من بعض كما هو الأمر في اعتبار التّوليديّة، مثلا، جملة من الأبنية ذات القيمة القضويّة الواحدة متولّدا بعضها من بعض عن طريق التّحويل أو الاشتقاق كما هو الأمر في البناء إلى المفعول (المجهول) أو الاستفهام أو التّقديم والتّأخير وما إلى ذلك.

ومقابل هذا تتوفّر في الإطار العرفنيّ رؤية أخرى قوامها نفي الانعكاس المباشر ما بين اللّغة والواقع، وإثبات طواعية في التّعبير عن الوضع الواحد بطرق متعدّدة هي موارد رمزيّة مختلفة توفّرها اللّغة للتّعبير عن المضمون الواحد من زوايا مختلفة تجتمع في "الانبناء"[47] أو زاوية التّناول أو نمط التّناول (لانقاكر 1987).

يندرج هذا في رؤية أشمل قوامَها أنّ العبارة اللّغويّة الواحدة الّتي تنقل واقعا أو تصفه إنّما تنتقي مظهرا واحدا من مظاهره يكون صالحا لغرض تواصليّ محدود. فالعبارة الواحدة تنقل مظهرا واحدا من واقع متعدّد المظاهر في تصوّره. وإذ يكون ذلك مثّلت العبارة بالمظهر الّذي تتضمّنه، نافذة واحدة من جملة نوافذ أخرى على ذلك الواقع المنقول، يكون بمقتضاها ذلك المظهر حاضرا متحقّقا وسائر المظاهر مهملة.

ومن نماذج ذلك ما يرد في (1) :

(1) الكتاب فوق الطّاولة

[47] Construal.

تنقل العبارة (1) مظهرا واحدا هو تموضع الكتاب على الطّاولة، وأمّا سائر المظاهر فمهملة من قبيل ما يتعلّق بالكتاب أو بالطّاولة من حيث الشّكل واللّون والبعد والمدى والاتّجاه وعلاقة الكتاب بسائر الأشياء على الطّاولة أو علاقة الطّاولة بسائر الأشياء في الغرفة وكذلك موقع الكتاب فيها إن متطرّفا أو متوسّطا وما إلى ذلك ممّا يطول ذكره من التّفاصيل الّتي بها يكتمل تصوّر المشهد كاملا كما لو كنّا نراه رؤية العيان أو تلتقطه صورة فوتوغرافيّة كاملة.

والأمر ليس اختيارا ينشئه المتكلّم المعرفن في إدراك الأشياء أوفي تصوّرها وتمثيلها وإنّما يتوفّر له في اللّغة أبنية مختلفة متنوّعة تنقل الواحدة منها مظهرا مخصوصا من الواقع.

كما يقوم الاختلاف في التّعبير عن الوضع الواحد على تعدّد في زوايا النّظر أو المنظور[48]، ذلك أنّ جميع الأوضاع، سكونيّة[49] كانت أو حركيّة[50]، تقبل أن تصاغ في عبارات لغويّة مختلفة أساس الواحدة منها موقع مطلق تتّخذه الذّات المعرفنة في تصوّر الوضع الواحد وفي تمثيله.

فإذا كان على سبيل المثال المشهد واحدا، وليكن سفحا لجبل متّصل بالبحر في وضع سكونيّ، أمكن للذّات المعرفنة[51] نقله من منظورين متقابلين :

أولهما يتّخذ من مستوى البحر منطلقا ثمّ يتابع، في حركة ذهنيّة، الجبلَ في ارتفاع سفحه عن البحر وتباعده في اتّجاه عموديّ إلى قمّة الجبل فتنشأ العبارة (2):

(2) يرتفع الجبل من البحر.

وثانيهما يتّخذ من قمّة الجبل منطلقا نزولا إلى البحر في حركة ذهنيّة تتابع الخطّ المنحدر متباعدا من القمّة في اتّجاه البحر فتنشأ العبارة (3) :

(3) ينحدر الجبل إلى البحر.

---

[48] Perspective, vantage.
[49] Static.
[50] Dynamic.
[51] Cognizer.

فحركة النّزول أو الارتفاع إنّما هي حركة ذهنيّة تتصوّرها الذّات المعرفنة جارية في المكان أو التّضاريس جريانها من شخص أو ذات أو آلة يكون منها الصّعود أو الانحدار في ذلك الإطار لو كانت فيه.

وتوفّر اللّغة لكلّ منظور ممكن موارد رمزيّة تصوغه. ولهذا الأمر نماذج كثيرة فانتقال المِلك من شخص إلى آخر مقابل مبلغ ماليّ يسمّى بيعا من زاوية انتقال المملوك من مالك قديم إلى آخر جديد، أو شراء إذا كان ذلك من زاوية المالك الجديد. وكذا الجلوس من شخصين متجانبين يكون يمينا أو يسارا بناء على المنظور الّذي تُنقل منه الأوضاع والأحوال والعمليّات، وغير هذا من النّماذج كثير.

واختلاف أنماط الانبناء لاختلاف زاويا التّناول وارد في مستوى العبارات المفردة من جمل وغيرها وهو كذلك في مستوى الخطاب في تجلّياته المتنوّعة، إذ يمكن أن تُنقل الوقائع نقولا مختلفة فتنشأ لها نصوص مختلفة في العديد من المظاهر وإن اتّفقت جميعها في المضمون المنقول.

ولقد بات من الثّابت أنّ مستعملي اللّغة لا يتعاملون مع عناصر مادّيّة ذات وجود موضوعيّ مستقلّ بنفسه هي الوحدات والأبنية اللّغويّة تتوفّر جاهزة ثابتة على ذمّة المستعمل ينتقي منها ما يصلح للتّعبير عن حاجاته التّواصليّة، كما أنّهم لا يتعاملون بمفاهيم موضوعيّة مستقلّة ثمّ إنّهم لا يقتصر نشاطهم على أن يقرنوا ما بين البنية والمعنى قرنا آليّا ساذجا وإنّما لهم في جميع ذلك مساهمة وبناء آن-قوليّ ينشئون فيه ومن خلاله الوقائع الذّهنيّة والثّقافيّة.

ويمثّل التّواصل العفويّ اليوميّ في مختلف الأنشطة التّفاعليّة القوليّة سلاسل لامتناهية من عمليّات الانبناء الجارية آن القول. ويتحقّق التّواصل بين الأشخاص باتّفاقهما في بناء الخطاب من زاوية في التّناول مخصوصة عند المتكلّم وفي الاهتداء إليها عند سامعه. ويمكن تلخيص ذلك في ما يسمّى بالاتّفاق ما بين الطّرفين في زاوية التّناول، وهي عمليّة مسترسلة، طالما استرسل الخطاب والتّبادل، قائمة على معالجة مسترسلة يكون فيها السّعي إلى المطابقة ما بين زوايا

التّناول عند طرفي الخطاب، متبدّلة يكون فيها التكيّف لما يجدّ في مقاطع الخطاب النّاشئة، متطوّرة بتطوّر المقاطع في الخطاب.

ويجعل الكثير من الدّارسين من مفهوم الانبناء (زاوية التّناول) عماد التّفاهم في مستوى الجملة المفردة سبيلا إلى مستوى الخطاب في عمومه، وبها- متّفقة أو مختلفة بين المتخاطبين- يفسّرون نجاح التّفاهم في حال الاتّفاق أو فشله في حال الاختلاف العائد إلى اختلاف في الثّقافة أو الرّؤية أو الأصول الاجتماعيّة في معناها الواسع[52].

تجري عمليّة المقْولة أو التّصنيف جريانا آليّا في مظهر من مظاهرها كما هو الأمر في الألوان وفي تصنيف الموجودات من الأشياء والحيوان والنّبات (روش، ماك لوري).

وهي في قسم منها خاضعة لنمط التّناول الّذي يكون منه تصنيف الحدث المفرد أو الشّيء الواحد عددا من التّصانيف للواحد منها مدخل ذاتيّ أو سياقيّ مقاميّ يقترن رأسا بحال ذهنيّة تساهم فيها عدد من العناصر المتفاعلة:

من ذلك أنّ متابعة مقابلة في كرة القدم – مثلا- قد تصنّف أو تُعتبر من زوايا عديدة أصنافا من العمل عديدة، فتكون "ترفيها" أو "إضاعة للوقت" أو "توسيعا لمعارف في لعبة كرة القدم" أو "علامة على الوطنيّة" إن كان الفريق الوطنيّ مشاركا فيها أو "هروبا من الواقع المرير" ولِم لا "تبذيرا للمال" إذا ما تعلّق الأمر بالدّخول إلى الملعب ومشاهدة المباراة فيه؟ وغير ذلك ممّا يمكن تصوّره من مواقف تكون جارية في بلادنا عند جميع النّاس مجتمعين.

ولنا نماذج عديدة في التّاريخ حيث يُعتبر الحدث الواحد أو الظّاهرة الواحدة من زاويتين مختلفتين أو زوايا متعدّدة أشياء مختلفة من قبيل وجود بعض الدّول الغربيّة (الأوروبيّة والأمريكيّة) بأشكال مختلفة في بعض البلدان الإفريقيّة أو غيرها:

---

[52] Eades, 1982 ; Gumperz, 1982; Clyne, 1994; Scollon & Wong Scollon, 1995.

فهذا العمل "احتلال" أو "استعمار" أو "استيطان" أو "هيمنة" أو "نهب للثّروات الطّبيعيّة" أو "توسّع" أو هو جميع ذلك عند من يرفضه وهو "حماية" أو "دفاع عن الدّيمقراطيّة والحرّيّة وزرع لهما" أو "نشر لحقوق الإنسان" أو "منع لحدوث كوارث إنسانيّة" أو "مطاردة لمجرم حرب" أو "ضربة استباقيّة" أو جميع ذلك وما إليه عند المدافعين عنه.

ولهذا الأمر تبعات عديدة في تصوّر الانبناء في الخطاب من قبيل ما به تتنوّع صياغات المضمون الواحد من الأخبار أو الوقائع أو المشاهد اعتمادا على موقع للذّات المعرفنة متنوّع فتتعدّد النّقول في الخبر الواحد أو الحادثة الواحدة. ولنا عود إلى هذا في الفصل الخامس من الباب الرّابع من هذا العمل.

التّجذّر الإبستيميّ

أساس التّجذّر الإبستيميّ[53] أن لا سبيل إلى تصوّر الواحد من الأوضاع إلاّ متجذّرا إبستيميّا، أو بعبارة أخرى لا يمكن فهم الكلام إلاّ متجذّرا في حال معرفيّة بالأشياء وبالكون. وآليّات هذا التّجذّر متعدّدة في الدّراسات اللّسانيّة العرفنيّة.

فمنها ارتكاز المعروض[54] على الأساس[55] عند لانقاكر (1987)، والمنطلق في ذلك أنّ العبارة اللّغويّة لا يُتصوّر معناها في ذاتها أي معروضها إلاّ مرتكزا على أساس يعمّه ويجمعه بعدد من المكوّنات تمثّل الكلّ، فالعبارات من قبيل "أخ" أو "بؤبؤ" أو "إصبع" لا يمكن تصوّر المعنى في الواحدة منها دون أن يستصحب أساسا يندرج فيه هو الأسرة ببنيتها المعلومة أو العين أو اليد تباعا. فمفهوم الأخ معروض العبارة "أخ" وأساسه الشّبكة الأسريّة بما فيها من الإخوة و/أو الأخوات والأب والأمّ وما إلى ذلك، والبؤبؤ معروضٌ أساسه العين بمكوّناتها المعلومة، والإصبع معروض أساسه اليد كاملة بعناصرها.

---

[53] Epistemic grounding.
[54] Profile (profiling).
[55] Base.

كما يشار إلى التّجذّر الإبستيميّ بمفهوم البروز النّسبيّ[56] (لانقاكر 1987) حيث يكون المعنى المدلول عليه بالعبارة المكوّنَ البارزَ عرفنيّا. ولا يُتصوّر إلاّ في إطار أوسع عناصرُه خافتة أو هي موجودة في الظّلّ:

فالعنصر البارز يمثّل محطّ العناية والتّبئير[57] وهو مركز الانتباه والوعي، وسائر العناصر محطّ عناية ثانويّة. ويجري تحقيق البروز بأدوات متعدّدة في مستوى الجملة والخطاب كذلك من قبيل التّقديم أو التّسطير التّنغيميّ أو البناء إلى المفعول حيث يكون ما يسمّى بنائب الفاعل محطّ العناية والإبراز، وما إلى ذلك من الأبنية الّتي يكون بها إبراز واحد أو أكثر من المشاركين في الحدث أو في الوضع الواحد.

كما يشار إليه بمفهوم جامع تبلور في الدّراسات النّفسيّة العصبيّة عامّة والدّراسات الإدراكيّة بصفة خاصّة هو "الإطار[58]" وإن اقترن –عند اللّسانيّين– بواحد من أبرز أعمال فيلمور[59](1982) :

يجتمع في الإطار جميع المعارف والعناصر والمفاهيم الّتي تستصحبها العبارة الواحدة من حيث تقتضيها ركائزَ بها يكون فهمها أو تصوّر المعنى المدلول بها عليه، وهو أمر جار في جميع الأنشطة الذّهنيّة:

فالعبارة من قبيل "نادل" – مثلا– لا تُتصوّر خارج إطارها من مطعم بما فيه من المأكل والمشرب والمقاعد والطّاولات وبطاقة الأطعمة معروضة على الواجهة أو ملقاة على الطّاولة والنّوادل والمطبخ والحرفاء والدّفع دفع ثمن المأكول والمشروب أو ما يوهب إلى النّادل، إلخ.

وعلى هذا تنقاس جميع المفاهيم. فالمفهوم الواحد– النّادل في مثالنا– عنصر مندرج في إطار متكامل من العناصر المترابطة مفهوميّا وهي كذلك في المنظومة الاجتماعيّة التّجاريّة الاقتصاديّة، قد لا تظهر الحدود في ما بينها. وهذا الإطار

---

[56] Relative prominence.
[57] Focalization.
[58] Frame, framing.
[59] Fillmore: Frame Semantics (1982).

مرتبط دون شكّ بالبيئة الّتي أنشأته فلا حديث عن إطار المطاعم مثلا في بيئة لا يعرف أهلها هذا الإطار.

وينقسم الإطار في ضوء هذا إلى مستويين:

(أ)- مستوى مفهوميّ هو ما به يستقيم المفهوم مطلقا مأخوذا في حال إفراده أو في حال اندراجه في إطاره.

(ب)- مستوى ثقافيّ عامّ تجتمع فيه جملة التّرابطات الّتي تتجاوز حدود الإطار إلى ما عداه من القيم أو المواقف أو التّصوّرات المتّصلة بما يحايث الإطار الأساسيّ من قبيل أن يكون النّادل -مثلا- مهنة محقورة محفوفة بالكثير من الأمور المنافية لأخلاق قوم أو عصر أو جهة أو دليلا على استعباد أو اشتغال على الكفاف.

كما يشار إلى مفهوم التّجذّر الإبستيميّ بالمنوال العرفنيّ المؤمثل[60] عند لايكوف[61] (1987)، وهو أبنية خطاطيّة بها يفهم البشر الكون من حولهم وبها يصنّفون الموجودات وينضّدونها وبها ينظّمون معارفهم في مختلف الثّقافات من النّبات والحيوان والأشياء والتّجارب وغير ذلك كثير.

وجميع هذه المفاهيم قوامه أسس إدراكيّة بصريّة بما تتضمّنه من آليّات يكون بها إدراك المشهد المتكامل أو التّركيز في نقطة أو عنصر أو مقطع منه فيكون محطّ العناية والتّبئير. وقريب من هذا تقنيات تُعتمد في فنون الفرجة من قبيل إضاءة الشّخصيّة على خشبة المسرح أو المغنّي دون عناصر الفرقة العازفة أو من قبيل التّقنيات التّصويريّة في التّزويم الدّاخل[62] يطلب التّركيز والتّزويم الخارج[63] يطلب التّعميم والشّمول.

---

[60] Idealized cognitive model(s), (ICM).
[61] Lakoff, G.
[62] Zoom, zooming in.
[63] Zooming out.

وهي مفاهيم مشتغلة في مستوى الخطاب على مقاطع أو محطّات يكون بها تركيز العناية في عنصر أو حدث ثمّ تتحوّل العناية شيئا فشيئا من موقع إلى آخر بأدوات لغويّة ذهنيّة تتبني بها العوالم في الذّهن وفي الخطاب.

ولعلّ المشترك بين جميع المقاربات وإن اختلفت في بعض جزئيّاتها، كون التّجذّر الإبستيميّ قائما على ضرورة الاشتراك بين جميع الأفراد في المجموعة اللّغويّة في الأطر العرفنيّة سبيلا إلى التّواصل والتّفاهم.

خاتمة

يمكن أن نجمل في خاتمة هذا التّقديم، الأفكار الأسس في اللّسانيّات العرفنيّة في عدد من المبادئ أوّلها كون اللّغة جزءا من النّظام العرفنيّ فما يطلق عليه الملكة اللّغويّة جزء من الملكة العرفنيّة العامّة، فمعرفتنا باللّغة غير منفصلة عن معارفنا بالكون وبالتّجربة فيه بأبعادها المتنوّعة. وثانيها كون النّظام العرفنيّ مجسدنا، متجذّرا في بيئة الجسد الّذي يحمله وينتج ويعيش فاعلا في محيطه بعناصره ومنفعلا بها فيه.

وثالثها كون النّحو مفهوميّا في جميع مظاهره ومستوياته المعهودة، وليس انعكاسا للعالم وإنّما هو أداة من أدوات متعدّدة بها ننشئه ونبنيه تمثيلا وتخيّلا أو استحضارا وتذكّرا. وما الدّلالة اللّغويّة إلاّ تشكّل لغويّ للمفاهيم وصوغ لها من مورد رمزيّ مخصوص هو اللّغة، وتبعا لذلك يكون النّحو خلوا من المعجم، وما المعارف المعجميّة إلاّ عناصر من معارف موسوعيّة وما الوحدة المعجميّة إلاّ قادح لبعضها ومدخل في الاهتداء إليه وإنشاطه عنصرا كائنا في إطار واسع. وتبعا لجميع ذلك يكون اختلاف أنماط التّعبير لاختلاف زاوية التّناول، تصوّر به الوقائع أو تتخيّل أو تستحضر من زاوية تلتقط منه مظهرا مخصوصا، فتتعدّد لذلك موارد التّصوير تعدّد زوايا النّقل، وليس الواحد منها مشتقّا من سائرها بتوسّط الاشتقاق وما إليه من العمليّات كالتّحويل أو الخزل وما إليهما. وإذ كانت العرفنة مجسدنة وكان الجسد في محيطه وجب أن ترتبط المضامين العرفنيّة بأطرها بتوسّط أدوات التّجذّر الإبستيميّ سبيلا إلى الفهم والإفهام.

الفصل الثّاني

النّصّ والخطاب في إطار لسانيّ عرفنيّ

مقدّمة

قد يميل المتأمّل في الأشياء والظّواهر ساعيا إلى تفسيرها، إلى اختصار تكوّنها وعناصرها في ثنائيّة التّوليف والتّركّب، وذلك من قبيل توالف الذّرّات في المادّة لإحداث مركّبات منها، ومنه توالف ذرّة من الأكسجين واثنتان من الهيدروجين على شاكلة معلومة ليكون الماء مركّبا من كليهما، وهو في جميع الأحوال ماء ما لم يخالطه بالتّوليف والتّركّب، مادّة أخرى. والأمر مستقرّ في الظّواهر الفيزيائيّة لاستقرار التّوليف والتّركيب في المادّة، وله تستقرّ الحقائق في علومها، فقواعد التّوليف واضحة والنّاتج مركّب واضح.

وقد يميل البحث في الظّواهر الإنسانيّة، واللّغة منها، قياسا على ذلك إلى اعتماد التّوليفيّة مبدأ جاريا على العناصر فيها منتجا لما هو مركّب، ولكنّ الأمر غير مستقرّ في الظّواهر الإنسانيّة استقراره في الظّواهر الفيزيائيّة، ولا المركّب في الظّواهر الإنسانيّة جامع للعناصر الّتي يتركّب منها فيكون حتما من طبيعتها أو ممّا تستوجبه تلك الطّبيعة. ورغم ذلك كانت التّوليفيّة والتّركّبيّة محرّك المباحث اللّغويّة إذ لا يتوفّر أحسن منها صلاحا للوصف وللتّفسير.

فالخطاب في تصوّره السّاذج جملة من الجمل والجملة جملة من الكلمات، وفيها يستقيم مبدئيّا مبدأ التّوليف بين المكوّنات في كليهما ولكن هل يكون دائما الحاصل من ذلك التّوليف مركّبا مستخلصا من مدلول الأبعاض فيهما، أو بعبارة أخرى، جامعا لمعاني الألفاظ في الجملة ولمعاني الجمل في الخطاب. فكم من جملة تدلّ على معنى لا صلة له بمعاني الألفاظ فيها، وكم من خطاب معناه الحاصل غير المعاني الّتي في جمله؟ وهل يكون تركّب المعنى في الخطاب متضمّنا لمعاني الألفاظ في الجمل؟

ولئن استقام مبدئيّا ذانك المبدآن في الخطاب وفي الجملة فلهما اطّراد في الجملة أكثر منه جاريا في الخطاب: فأبعاض الجملة ذات استقرار واطّراد توليفا وتركيبا إذ يمكن أن تضبط فيها مكوّنات أساسيّة تخضع للتّوليف على وجوه مستقرّة ولكنّ حال الخطاب والنّصّ على خلاف ذلك. فمن المتصوّر أنّ الخطاب جملٌ متوالفة ولكن وجوه التّوليف تظلّ دائما عامّة بل لا يكفي القول بتراصفها أو بتتابعها ليكون الحاصل نصّا فمن النّصوص ما يكون فيه ذلك ولا معنى له. ولذلك كان البحث عن وحدات نصيّة (مفاهيم، مقولات، أطر، أحداث مركّبة) تكوّن في درجة بسطى الجملة وتدخل في تكوين النّصوص مقاطع أو وحدات أكبر وأوسع في منظومة شبكيّة.

وهذا إشكال أساسيّ طُرح في جميع العصور بأشكال مختلفة، صراحة أو ضمنيّا، ويُطرح اليوم في جميع النّظريّات. وذاك مشغلنا في هذا الفصل نخصّصه للنّظر في النّصّ من حيث مثّل نشاطا لغويّا وحدثا تواصليّا تُستجلى منه طبيعته وتكوّنه واشتغاله والقواعد المولّدة له، في رؤية منظوميّة، والبانية إيّاه في تصوّر آخر شبكيّ، ومن حيث الانسجام فيه، على أن يكون جميع ذلك في إطار لسانيّ عرفنيّ وفي جملة أطر أخرى ترفد هذا الإطار وتحايثه.

النّصّ: الظّاهرة وحدود تناولها

يجد المتتبّع للتّوجّهات النّظريّة في العناية بالنّصّ أو بالخطاب مداخل عديدة بعضها اجتماعيّ ثقافيّ وبعضها نفسيّ وبعضها لسانيّ، واللّسانيّ تتقاسمه وجهتان أولاهما متّصلة بالنّهج التّوليديّ وثانيتهما متّصلة بالنّهج العرفنيّ.

فالمداخل الاجتماعيّة الثّقافيّة قوام الأعمال المهتمّة بالتّواصل عبر الثّقافات[64] ومنابتها أنتروبولوجيّة وإثنوغرافيّة. وتنصبّ العناية في الأعمال المنضوية فيها على ما ينشأ من العراقيل والمشاكل في التّفاهم أو التّواصل ما بين المشاركين في حدث تواصليّ ما في حال انتمائهم إلى أطر ثقافيّة مختلفة متنوّعة بما تتضمّنه تلك

[64] Cross-cultural communication.

الأطر من تطلّعات وانتظارات مختلفة بحكم ما استقرّ في الواحدة منها من قواعد التّفاعل والتّعاون والأسس النّفسيّة الاجتماعيّة الّتي تحكم سير العمليّة التّواصليّة التّفاعليّة عند أهلها.

فقوام النّظريّة التّوليديّة مولّدة من القواعد تنتج بنيويّا عددا من الأشكال باشتغال خوارزمات وقد كان ذلك وراء عدد من الأنحاء المنظوميّة التّكراريّة، وأمّا التّحليل النّقديّ للخطاب[65] واللّسانيّات النّقديّة[66] فكلاهما ذو منابت توليديّة ونحويّة نظاميّة وظيفيّة.[67] ولكنّ العناية فيهما لم تقتصر على الجزء النّظاميّ من الخطاب وإنّما هي منفتحة على الإجراء الاجتماعيّ تفاعلا بين عناصر المجموعة في إطار المنوال الذّهنيّ الجماعيّ.

وفي هذا الإطار تطرح قضيّة مهمّة مدارها مدارج الظّاهرة الخطابيّة على مستويات فرديّة واجتماعيّة، نفسيّة وتاريخيّة ثمّ على مستويات علم الاجتماع الفرديّ والجماعيّ، وعلم النّفس الاجتماعيّ ثمّ ما به يتجاوز تحليل الخطاب مستوى المعالجة النّفسيّة الفرديّة للبحث في مستويات أرقى وأكثر تجريدا من قبيل المؤسّسات والمجموعات والفئات وما إلى ذلك. ولعلّ أعمال فان ديك وأعمال فاركلاف من أبرز ما يمثّل هذا التّوجّه في تحليل الخطاب في تلك المستويات المختلفة، ولنا عود إلى ذلك في بابه.

النّصّ: طبيعته، تكوّنه واشتغاله

التّوليفيّة

يمثّل النّحو في التّصوّر التّوليديّ، خوارزميّة تشتغل على أساس التّوازي مكوّناتها ثالوث يضمّ الدّلالة والإعراب والصّوتميّة (جاكندوف[68] 2002). ويمثّل الواحد من تلك المكوّنات نحوا توليديّا في ذاته، أي نظاما مستقلاّ بأوّليّاته[69] الخاصّة

65 Critical Discourse Analysis (CDA).
66 Critical Linguistics.
67 Systemic Functional Grammar (SFG).
68 Jackendoff, Ray (2002).
69 Primitives.

به وبمبادئ التّوليف[70] بينها. كما يمثّل كلّ واحد منها مستوى مستقلاّ بنفسه ولكنّه يرتبط بالمستويين الآخرين بمجموعة من قيود التّصافح[71] تضمن التّناسب[72] بين المكوّنات واحدا بواحد.

فالجملة ذات البناء الجيّد تتضمّن ثالوثا من الأبنية ذات التّكوّن الجيّد تترابط ترابطا جيّدا في ما بينها بتوسّط تلك القيود: بنية صوتميّة وبنية إعرابيّة وبنية دلاليّة (جاكندوف 2002، 198). وينبثق الوصف البنيويّ للجملة من تناسب الأبنية في كلّ عناصر الثّالوث. فالنّحو في مجمله مكوّنات ثلاثة تشتغل اشتغالا منطوميّا ويمكن تصوّره على أنّه ثالوث خوارزميّ أساسه التّوازي وقوامه التّصافح على أساس التّناسب بين المكوّنات المتصافحة.

فالتّوليفيّة[73] أساس النّحو، وهي من خصائص الأنحاء في اللّغات البشريّة، لا تتوفّر في سائر النّظم التّواصليّة، هي ما به يكون في اللّغة تكوين عدد غير محدود من الأقوال وفهمها في عدد غير محدود من الموضوعات، والمنطلق في ذلك عدد محدود من العناصر يجري التّوليف بينها بوجوه غير محدودة. وذاك ما تتأسّس عليه الطّاقة التّوليديّة[74] في النّحو (اللّغة).

والتّوليفيّة مهارة يتجاوز بها الدّماغ البشريّ قصوره عن حفظ العدد اللاّنهائيّ من الأقوال، بأن يكون المنطلق أدوات محدودة يمكنه استيعابها، وطاقة توليفيّة بها يكون توليد اللاّمحدود من ذلك المحدود: فالأدوات وحدات تمثّل مادّة التّوليف هي المعجم بعناصره والطّاقة هي قواعد التّوليف متمثّلة في النّحو تركيبا واشتقاقا وتوسيعا وتضمينا وإدراجا وتحويلا ونقلا وما إلى ذلك.

وفي ضوء هذا التّصوّر، يكون النّصّ أو الخطاب خاضعا لنفس العمليّات التّوليفيّة يتولّد بها ويحتكم إليها بصرف النّظر عن إطاره المنشئ له وعن السّمات الفرديّة المقاميّة الّتي ينطبع بها في الإجراء المخصوص بالمقام وبغايات تواصليّة تفاعليّة مخصوصة.

---

70 Combinatorial principle(s).
71 Interface
72 Correspondence.
73 Combinatoriality.
74 Generative.

التّركّبيّة

تمثّل التّركيبيّة[75] المبدأ الّذي بمقتضاه يمكن استصفاء المعنى الكلّي في عبارة لغويّة ما، انطلاقا من معاني أبعاضها ومن الوجوه الإعرابيّة الّتي تتوالف بها تلك الأبعاض.

فالمتصوّر أنّ العبارة اللّغويّة يفهم معناها الكلّيّ فيها بنوع من الحوسبة تجتمع به معاني المفردات أو المركّبات المكوّنة لها باعتماد ما يكون بينها من التّوليف الدّاخليّ فيها. ويُعتمد مبدأ التّركّبيّة أساسا تثبت به الطّاقة الإبداعيّة[76] في اللّغة عامّة وهي ما به تنشأ العبارات الجديدة وتفهم على أساس التّركّبيّة.

ويطّرد مبدأ التّركّبيّة في العبارات الجارية من قبيل "الطّقس جميل" أو "ذهب زيد إلى المدرسة" حيث يكون معنى الجمال مسندا إلى الطّقس على أساس الإخبار والذّهاب كائنا من زيد محدثا له يطلب المدرسة اتّجاها، وفيها يكون المعنى الكلّي جمعا للمعاني الجزئيّة المدلول عليها بالألفاظ المكوّنة لها.

ولكنّ هذا المبدأ تعارضه عبارات لغويّة ذات جريان منتشر متواتر من قبيل العبارات الجاهزة والأمثال الّتي لا يكون معناها الكلّيّ جمعا لمعاني ألفاظها، وذلك من قبيل "الصّيفَ ضيّعتِ اللّبن" (بمعنى : فات الأوان) أو "زاد الطّين بلّة" (بمعنى : ازداد الأمر سوءا). فمنها يُفهم معنى لاَ صلة له بمعاني الوحدات المكوّنة لها، وإذا كان ذلك قد يكون من المضحكات.

وهذا أساس نهضت عليه رؤية كاملة في اللّسانيّات العرفنيّة بفروعها المختلفة، تنفي التّركّبيّة مطلقا على أساس أنّ البنية اللّغويّة خطاطيّة في بنائها واستعمالها وفهمها (لانقاكر 1987، 279-282).

وقياسا على ما تطرحه التّركّبيّة من قضايا في مستوى العبارات اللّغويّة الواقعة في حدود ما يُعرف بالجملة تطرح قضيّة أوسع في مستوى الخطاب أو النّصّ:

---

[75] Compositionality.
[76] Creativity.

فإذا ما تقلّص سلطان التّركيبيّة في مستوى العبارات الجارية المتداولة وانتفى في العبارات الجاهزة، طُرح الإشكال نفسه في دلالة الخطاب: أتكون جملةَ المعاني الجزئيّة في مكوّناته ألفاظا مفردة كانت أو مركّبات أو جملا ففقرات وأبوابا وفصولا وما إلى ذلك، أم هي شيء آخر؟

فإذا ما استقام تصوّر النّصّ ناتجا باشتغال قواعد توليفيّة تكراريّة تشمل مستويات التّحليل الشّكليّة المختلفة يندرج صغيرها في كبيرها وسافلها في أعلاها، واستقام تصوّر المعنى الكلّيّ فيه على أساس تركّبه من معاني أبعاضه كما عرضنا، إذا كان ذلك وجب البحث في ما به يكون تفسير ما يفلت من الوصف البنيويّ من مظاهر الدّلالة الرّمزيّة والاجتماعيّة الثّقافيّة وهي كما هو معلوم تصعب الإحاطة بها بأدوات خوارزميّة قوامها المنظوميّة والتّكراريّة في التّوليف والتّركيبيّة.

ويطرح في هذا المستوى مبحث قد يعين على تبيّن المسالك أساسه النّصّ كائنا ما بين القواعد تولّده والانبناء صياغة لمضامين من زوايا متنوّعة تتوفّر في اللّغة والعرفنة العامّة نوافذُ لها وموارد.

النّصّ: قواعد مولّدة أو عمليّة انبناء

شهد كلّ من نحو النّصّ[77] أو لسانيّات النّصّ[78] من جهة، وتحليل الخطاب[79] من جهة ثانية، نقلة في محاور الاهتمام في الدّرس والتّحليل. كان ذلك من البحث في ما به تتوالف الجمل بعناصرها الفرعيّة لتكوين وحدة أكبر تتجاوز المستوى الجمليّ، حيث تكون الأدوات والقواعد شكليّة في الأغلب، سيرا على النّهج البنيويّ الّذي وجّه عقودا طويلة من البحث اللّسانيّ، إلى البحث في ما به يكون فهم النّصوص (الخطاب) وتأويلها عند المتكلّمين. وقوام التّأويل أو الفهم معالجة أساسها أرضيّة عرفنيّة تكون بمقتضاها جزءا من المعالجة العرفنيّة العامّة وما النّصّ إلاّ مجال مخصوص منها.

---

[77] Text Grammar.
[78] Text Linguistics.
[79] Discourse Analysis.

فالنّصّ لا يتضمّن جميع المفاتيح الّتي تيسّر فهمه فالكثير منها غائب في مستوى أوّل منه، وهو حاضر في إطار التّجربة الجماعيّة المكوّنة للمعرفة الجماعيّة على درجاتها المعلومة في اتّصالها بالمحيط ممثّلا في العالم بما فيه، ماديّا حسّيا ورمزيّا تجريديّا، ضيّقا محدودا وشاسعا فسيحا، محدودا في حقبة زمانيّة ضيّقة وضاربا في التّاريخ يتراكم فيه من التّجارب ما به يكون النّشوء في المجموعة والانتماء إليها. وإذ ينشأ النّصّ حدثا قوليّا يستوي مادّة للمعالجة العرفنيّة[80] ليتحقّق التّواصل بغاياته المعلومة.

النّصّ حدث تواصليّ

يمثّل التّواصل خصيصة للكائنات الذّكيّة في المطلق بما يكون بين أفرادها من تبادل للمعلومات بوسائل شتّى، وانطلاقا من مفهوم التّبادل يمكن توسيع التّواصل إلى ما يتجاوز الكائنات الذّكيّة من الحيوان إلى ما عداه من الكائنات الحيّة بعضها مرئيّ ذو جثّة كبيرة وبعضها مجهريّ ومن الآلات "الذّكيّة" الاصطناعيّة.

ذلك أنّ السّاري في الأذهان- عند الحديث عن التّواصل- كونه جاريا بين آدميَّيْن اثنين- على الأقلّ- في مجموعة بشريّة ولعلّ ذلك مرتبط بما يتعرّف به الإنسان ويتميّز به من نطق وعقل، ولكنّ التّواصل، مأخوذا في معناه الأساسيّ، ظاهرة قائمة ما بين جميع الكائنات الّتي يتبادل فيها عنصران أو فردان منها شيئا هو مضمون رمزيّ.

فالحشرات تقيم شبكة من التّواصل بعضها حركيّ من قبيل رقص النّحل المعلوم، وبعضها كيمياويّ من قبيل التّواصل ما بين النّمل المعلوم، وبعض الحيوان من الكائنات المائيّة يتواصل باعتماد أطياف لونيّة وما إلى ذلك من تنويعاتها كما يعتمد بعض الحيوان الأصوات أو عددا من الهيئات يكون بها التّنبيه إلى خطر أو الإشارة إلى حال.

فالخلايا العصبيّة بتعدّد أنواعها تقيم شبكة من التّواصل الكيمياويّ عبر الأعصاب وعبر الشّرايين بتوسّط مركّبات كيمياويّة مشفّرة على شاكلة ما، يكون

---

[80] Cognitive processing.

بها تبادل "معلومات" من قبيل مخصوص فيكون لها ردّ الفعل المناسب، ولذلك تنقطع العديد من الوظائف في الجسم بانقطاع التّواصل، وهو تواصل "سلكيّ" – على المجاز – شبكيّ حامله عصبيّ أو ليمفاويّ يسري في الدّم وغيره من الحوامل.

وكذا الآلات "الذّكيّة" من قبيل الحواسيب والهواتف المحمولة والرّوابيت والآلات المتآدمة تقيم شبكة من التّواصل تتبادل بها المعلومات الكهربائيّة ذات التّشفير المخصوص.

والتّواصل أساسه جهاز أو نظام به يجري تركيب عدد من العناصر أو الوحدات المعلومة عند الطّرفين هو الهباءة الكيمياويّة في التّواصل الكيمياويّ، وهو عناصر من منظومة حركيّة تكتمل لتمثّل هيأة في التّواصل الإشاريّ، وهو أصوات تتوالف لتكوّن كلمات تتوالف بدورها لتكوّن جملا تتوالف لتكوّن ما نسمّيه "نصّا" أو "خطابا". ولعلّ أفضل النّظم التّواصليّة اقتصادا ونجاعة وشمولا كائن في اللّغة. ورغم ذلك لم يخلص التّواصل اللّغويّ من أدوات محايثة للمتواصلين بعضها هيآت وبعضها إشارات وبعضها غائب من محيط التّواصل محفوظ بشكل رمزيّ في الذّاكرة.

ومن القضايا الّتي تظلّ قائمة في التّواصل مطلقا، ما به تتميّز اللّغة بإنتاج نصوص أو خطابات دون سائر الأدوات الكيمياويّة أو الإشاريّة؟ أو بعبارة أخرى لمَ كان البشر الكائن الوحيد القادر على إنتاج النّصوص والخطابات؟ فجميع الكائنات المتواصلة تتبادل رسائل ولكنّها لا تنتج نصوصا، ولذلك لا يمكن الحديث عن نصّ كيمياويّ ينتقل من خليّة عصبيّة أو مركز عصبيّ في الدّماغ إلى عضلة في السّاق، وإن كان ذلك فهو تجوّز واستعارة.

وما يتبادله حاسوبان من الرّسائل تعتبر نصوصا، لا من حيث أنشأها الحاسوب أو تلقّاها أو أوّلها وفق نمط وقواعد معلومة في الأحوال الثّلاث، وإنّما من حيث كان وراءها آدميّ ينشئها ويرسلها متوسّلا بالحاسوب أداة إلكترونيّة وآخر يتلقّاها ويؤوّلها وفق القواعد الّتي بها نشأت. بل إنّ الحواسيب تتبادل لغة إلكترونيّة شكليّة صرفا تتحوّل إلى حروف أو أصوات طبيعيّة تُقرأ وتُسمع في شكلها

الطّبيعيّ، وهي في جميع الأحوال نصوص أو خطابات بالعود إلى الإنسان متوسّلا باللّغة في إنشائها وتأويلها.

ثمّ إنّ التّواصل لا يشترط وعيا أو قصدا من الطّرفين ليكون، فبعضه فيزيولوجيّ طبيعيّ ضروريّ وظيفيّ دائم أو متقطّع مرتبط بالمنبّهات أو بدورات حيويّة لا إفلات منها. وإذا كان ذلك انتفى القصد والوعي.

ينطبق هذا على التّواصل العصبيّ ما بين الدّماغ وعضلة السّاق –وقد اعتمدناه مثالا– لإنشاطها، وإذا تعطّل التّواصل تعطّلت الوظيفة، وعلى التّواصل ما بين النّحل والنّمل مرتبطا بحوافز الطّعام أو الإنذار وما إلى ذلك من سائر الكائنات المشابهة لها، فالخليّة العصبيّة لا تختار قطع التّواصل أو "الصّمت" –بعبارة بشريّة– لأنّ صمتها يعني تعطّل الوظيفة وليس صدفة أن تجري عبارة "السّكتة" على الدّماغ أو القلب عندما يتعطّل الأوّل ويصمت فلا يرسل شيئا ويتعطّل الثّاني لانقطاع الشّحنات العصبيّة المحرّكة له انقباضا وارتخاء.

والنّص اللّغويّ وظيفيّ ولكنّه ليس بيولوجيّا وليس ضروريّا، إذ لا تقوم حياة الكائن البشريّ عليه ولا تنقطع بغيابه. ويمكن أن ينشئه إن شاء وأن يسكت إن شاء، ولا أثر لذلك على حياته جسدا وإن تأثّر لذلك إنّما يكون أثرا اجتماعيّا علائقيّا ثقافيّا ليس غير.

ويمكن أن نواصل في هذا، والمهمّ أنّ النّصّ أو الخطاب نتاج ثقافيّ اجتماعيّ غير حاجيّ في المعنى الأساسيّ وما الحاجة إليه إلاّ حتميّة اجتماعيّة، دليل ذلك أنّ روبنسون كريزو لم يمت على جزيرته لغياب النّصّ وإن كان يحدّث نفسه وما حوله، قبل وصول جمعة، فذلك ليملأ خطاطة اجتماعيّة تواصليّة افتقد عنصرا منها هو الشّخص الآخر مطلقا.

ولعلّ تميّز البشر بإنتاج النّصوص بأنواعها وبتداولها وليد الوظائف العرفنيّة العليا بما تقتضيه من تأليف وبلورة وحفظ وإبلاغ وتبادل، يطول عنده الكلام لطول الفكرة ويتشعّب الحديث لتشعّب المواضيع، وهي أمور، وإن تكوّنت من جزئيّات (أفكار صغرى، مفاهيم...)، محتاجة إلى مراتب عليا من التّأليف تتوالف بها تلك الجزئيّات لإنتاج وحدة لغويّة فكريّة هي النّصّ أو الخطاب.

والنّص اللّغويّ بضاعة في دورة اقتصاديّة تبادليّة، يّباع ويُشترى فيكون سعره مشطّا أو شعبيًا في متناول الجميع، له مالك أو صاحب يُنسب إليه وتحفظ حقوقه ويعاقب القانون كلّ سارق إيّاه أو متاجر به دون إذن من صاحبه. والنّصّ اللّغويّ صناعة ومهارة تتجلّى في مناهج البحوث وفي كتابة الخطب وفي البروتوكولات وما إلى ذلك.

والنّصّ في جميع ذلك حدث تواصليّ[81] صالح للوظائف الدّنيا متمثّلة في تبادل البسيط الحاجيّ من المعلومات صلاحَه للوظائف العرفنيّة العليا متمثّلة في إنتاج المعرفة وبناء الثّقافة، مختصرةً للتّجارب الجماعيّة الآدميّة. وهو في جميع ذلك متجذّر في محيط إنتاجه وتأويله.

وإذ كان النّصّ حدثا تواصليّا، قام على عدد من الأركان قيام جميع النّظم التّواصليّة نكتفي بأهمّها ونوردها معمّمة موجزة في (1)، فغايتنا ليست استقصاءها (عن دِرفان وفرسبور 2004، 180): يحدث النّصّ بأدوات لغويّة في شكلين منطوق ومكتوب وتتضمّن مفاتيحُ تأويله وفهمه إضافة إلى الأدوات اللّغويّة عناصر لغويّة محايثة[82] (الإشارات بالأعضاء تصاحب القول وما إليها) وأخرى غير لغويّة. ويقوم تأويله وفهمه على أسس تتضمّن المعرفة المشتركة بين المتخاطبَين بالعالم وبالثّقافة الجماعيّة تنضاف إلى ما لهما من مشاعر وأفكار ووعي بالوجود في العالم.

(1)

<table dir="rtl">
<tr><td colspan="5">التّواصـــــــــل</td></tr>
<tr><td colspan="4">أدوات التّعبير</td><td>العـــــالم
(المتكلّم/السّامع)</td></tr>
<tr><td colspan="2">اللّغويّة</td><td>لغويّة محايثة</td><td>غير لغويّة</td><td>أفكار ومشاعر</td></tr>
<tr><td>منطوق</td><td>مكتوب</td><td colspan="2" rowspan="2">مفاتيح التّأويل والفهم</td><td>المعرفة بالعالم وبالثّقافة الجماعيّة</td></tr>
<tr><td colspan="2">النّصّ/الخطاب</td><td>أسس التّأويل والفهم
(إطار التّجذّر الإبستيميّ)</td></tr>
</table>

[81] Communicative event.
[82] Paralinguistic.

النّصّ شبكة عرفنيّة

يقوم فهم النّصّ على إنشاء تمثيل ذهنيّ[83]، وهو الأداة الّتي يُبنى بها ذلك التّمثيل في الذّهن. والشّرط في ذلك التّمثيل أن يكون مشتركا بين طرفين على الأقلّ. وهو بذلك يقيم تمثيلا للمضامين العرفنيّة المتّصلة بالتّجربة وبالثّقافة وبالمحيط في المطلق.

فهو وسيلة من جملة وسائل تقوم عليها المعرفة في الذّهن، وإذ كانت المعرفة في جوهرها شبكيّة الانتظام، كان تمثيل النّصّ شبكيّا مثلها. فهو جملة أوضاع للواحد منها إطار ومشاركون، والمشاركون جملة من العناصر لكلّ واحد منها دور أو وظيفة في تفاعله مع سائر العناصر المشاركة، ولذلك يكون الوضع الواحد وحدة علائقيّة[84]. وتتعدّد أنواع العلاقات بتعدّد الأوضاع وتتشابك بتشابكها. وهذا ما نتبيّنه في ما يلي.

النّصّ جملة أوضاع والأوضاع وحدات علائقيّة

الوضع كلّ حال تكون عليها الأشياء في الكون وفي التّجربة أو ما نتمثّلها كائنة عليه فيهما، وهو الأساس.

والأوضاع نوعان حركيّة[85] وسكونيّة[86]، باعتماد التّغيّر أو عدم التّغيّر والتّفاعل أو عدم التّفاعل أو التّشكّل المادّي للعمليّات وعدمه، أو ما لجميع ذلك من أثر على العلاقات بين المشاركين. فما تضمّن من الأوضاع تفاعلا فقام على التّغيّر في العلاقات فتبدّلت خلال الزّمن، كان حركيّا وما كان على خلاف ذلك اعتبر سكونيّا.

يكون في الأوضاع الحركيّة الأحداث أو العمليّات الحركيّة من قبيل فتح الباب أو المشي أو الكتابة وما إلى ذلك، وقوام هذه العمليّات ذات محدثة يكون منها تحويل طاقة وتسليطها على متحمّل بأيّ وجه من الوجوه.

---

[83] Mental representation.
[84] Relational unit(s).
[85] Dynamic situation(s).
[86] Static situation(s)

ويكون في الأوضاع السّكونيّة جملة من العمليّات العرفنيّة[87]، تجمع هذه العبارة كلّ العمليّات الّتي دأبنا على تسميتها بالذهنيّة أو النّفسيّة أو العقليّة أو الانفعاليّة وما إليها. يكون "المحدث" في هذه الحال نوعا من المنبّه أو الإشارة الّتي تنقدح بها العمليّة العرفنيّة الشّعوريّة من قبيل الإبصار أو الرّؤية أو السّماع أو الشّمّ أو التّألّم أو المرض وما إلى ذلك. فيكون "المحدث" في هذه الحال ذاتا تعيش التّجربة[88] تنفعل بها فتتأثّر بها وإن كان يجري صوغها النّحويّ اللّغويّ في مظهر الفاعليّة فتسند إليها العمليّة إسنادا نحويّا إعرابيّا ولكنّها في الواقع متحمّلة لها كما في قولك:

(2) أ- سمعت زيدا يتكلّم.

ب- رأيت هندا فأعجبتني.

كما يجري صوغ التّجربة من هذا القبيل بأن يُسند الفعل إلى مصدره أو المنبّه الّذي انقدح به الحدث كما يُسند إلى متحمّله أو من يعيشه تجربة فيكون (3):

(3) أ- يخاف زيدٌ الأسدَ.

ب- يخيف الأسدُ زيدا.

كما تضمّ الأوضاع السّكونيّة أحوالا للمشاركين في إطار من الأطر يكون فيها الواحد موجودا على شاكلة هي موقع أو محلّ لا تفاعل فيه وإنّما هي هيأة وجود تستغرق زمنا تمثّل حالا للكون. وذلك من قبيل وجود الذّات أو الشّيء في موقع ما إزاء ذات أو شيء آخر، كقولك: الكتاب فوق الطّاولة.

النّصّ مشهد: المشاركون وأدوارهم

يمكن تمثيل النّصّ مشهدا بإطار ومشاركين (أساسيّين وثانويّين) بأدوارهم (الدّلاليّة) فيه. ذلك أنّ كلّ وضع (حركيّ أو سكونيّ) يقتضي جملة من العناصر تكوّنه، ولكلّ عنصر منها علاقته بسائر العناصر. فجميعها مشارك[89] في تأليف

---

[87] Cognitive process(es).
[88] Experiencer.
[89] Participant(s).

ذلك الوضع مأخوذا من زاوية تبدّله وتغيّره أو تطوّره في الزّمان و/أو في المكان، يكون له به دور[90] في المشهد كاملا. ولا يتمثّل الدّور ضرورة في الحركة أو التّفاعل وإنّما يضمّ كذلك المواقع والأحوال والعلاقات.

وتتمثّل خطاطة الوضع الحركيّ في ما يكون من تحويل طاقة من المحدث[91] تتوجّه إلى متحمّل[92] بتوسّط وسيلة أو أداة[93]. فيكون المحدث قادحا للطّاقة وموجّها لها والوسيلة أداة أو وسيطا بها تنتقل الطّاقة إلى مقرّ لها هو المتحمّل، تمثيل ذلك كما يلي (لانقاكر 1991، 283):

(4) محدث ← وسيلة ← متحمّل

فجميع الأوضاع الحركيّة قائمة على تفاعل أساسه هذا التّبادل أحاديّا كان أو متعدّدا ما بين المشاركين، لطاقة ما، يكون بها الفعل أو الانفعال حسب موقع العنصر المشارك في العمليّة كاملة.

ويتمثّل دور **المحدث** في وجود ذات حيّة (آدميّة أو حيوانيّة) أو شبيهة بذلك (الآلات) في مظهرها الطّرازيّ يكون منها تأثير على ذات أو شيء بأن توجّه نوعا من القوّة إليها، فيكون "دورُ المحدث النّموذجيُّ متمثّلا في أنّ شخصا يحقّق عن طريق الإرادة والقصد عملا فيزيائيّا مادّيّا يؤول إلى اتّصال بشيء خارجيّ يكون به انتقال القوّة أو الطّاقة منه إليه" (لانقاكر1990، 210). ويكون في ضوء ذلك المتحمّل العنصر الّذي ينفعل بتلك الطّاقة مباشرة أو بتوسّط الأداة.

ويجري المشهد في إطار يضمّ الملابسات [94] أو كلّ ما يمثّل ظرفا للعمليّة من قبيل المكان والزّمان بانقسامهما إلى مصدر وهدف أو غاية ومسلك وهيأة وما إلى ذلك.

وتتحقّق هذه الأدوار في نماذج لانهائيّة تعبّر عنها اللّغة بوجوه متعدّدة تعدّد التّجربة وزوايا تناولها وبنائها تبعا لتعدّد تمثيلاتها الذّهنيّة. كما أنّ الطّاقة الصّادرة

---

[90] Role(s), participant role.
[91] Agent.
[92] Patient / Undergoer.
[93] Instrument.
[94] Circumstance(s).

من المحدث والمسلّطة – في المعنى التّجريدي العامّ– على أيّ من سائر المشاركين في العمليّة المكوّنة للوضع، تُتَمثّل في الذّهن في شكل خطاطات هي عبارة عن تمثيلات فقيرة تجريديّة لا تفاصيل فيها تكون لأجناس الأحداث المطلقة أو الطّرازيّة، من ذلك خطاطة التّنقّل من حيث مثّلت مجرّد تحوّل في المكان من موقع إلى آخر يكون من شيء، فكلّ ما يتوفّر فيها هو الانطلاق من نقطة في الفضاء تكون مصدرا للحركة وانتهاء عند نقطة أخرى فيه تكون غاية لها وما بينهما مسلك يحتلّه المتنقّل بوجوه مختلفة أثناء الحركة، ولذلك يكون من اليسير على الأذهان جمع الشّتات ممّا يكون تنقّلا من الحركات العينيّة من قبيل المشي والسّير والطّيران والسّباحة وما إلى ذلك، ولا يعني هذا غياب التّفاصيل والفوارق ما بين أنماط التّنقّل مطلقا وإنّما تتحقّق هذه الخطاطة العامّة بتوسّط عدد من التّفاصيل أو الخصائص في خطاطات مندرجة في تلك وهو ما به تُعيّن حركة السّباحة مثلا في اقتضائها للسّائل مجالا، من الطّيران في اقتضائه للهواء، وكلاهما تحقّق لخطاطة التّنقّل.

وتُسقط الأدوار الدّلاليّة في العبارات اللّغويّة على مستويين :

(أ)– مستوى الوحدات الجمليّة المحكومة بمستوى التّعليق الإعرابيّ الجمليّ.

(ب)– مستوى الخطاب أو النّصّ عن طريق التّركّب والتّأليف اللّذين يُستصفى بهما دور دلاليّ خِطابيّ من مستوى أعلى. هو ما نجده في جملة الدّراسات المهتمّة ببنية الرّواية أو القصص والخرافات في التّناول السّرديّ من قبيل البطل أو المعرقل أو المساعد.

فالنّصّ تمثيل لمشهدٍ مكوّناته أوضاع قوامها عدد من المشاركين يتفاعلون فتنشأ بينهم علاقات متشابكة ثابتة أو متبدّلة، فيكون بها وحدة خطابيّة منسجمة.

النّصّ وحدة خطابيّة منسجمة

يقوم مفهوم الانسجام[95] على مظهرين عفويّ عاديّ وتقنيّ لسانيّ:

فالنّصّ المنسجم– في المظهر العفويّ– هو ما كان مفهوما واضحا بوجه يكون فيه جميع ما فيه من المضامين مترابطا منتميا إلى مجال واحد فلا نشاز بين مكوّناته ولا نقص في بعضها. فقوام الانسجام التّرابط ما بين العناصر من الأفكار وما سايرها.

---

[95] Coherence.

وأمّا المظهر التّقنيّ فيتوفّر فيه مدخلان في دراسة الانسجام في الخطاب: لسانيّ ولسانيّ نفسيّ.

الانسجام : المدخل اللّسانيّ

المعنيّ بالمدخل اللّسانيّ لسانيّات النّصّ المتداولة أو التّقليديّة، وفيها يمثّل الانسجام خصيصة ذاتيّة داخليّة[96] في النّصّ، بمعنى يحمل النّصّ جملة من الخصائص في بنيته يكون بها منسجما أو لا يكون. ومن هذه الخصائص:

1- ترابط الجمل فيه ترابطا واضحا بأدوات محقّقة.

2- ترابط الجمل ترابطا منطقيّا ومعنويّا.

3- كلّ جملة من الجمل مفيدة وظيفيّة في بناء المعنى الكلّيّ في النّصّ.

4- اكتفاء النّصّ بذاته بأن تتوفّر علامات ذلك التّرابط من حيث الأدوات والقرائن.

وإذ كان التّرابط المعنويّ والإفاديّ بين الجمل أمرا ذهنيّا مثّل ذلك مدخلا للتّناول النّفسيّ كما يأتي بيانه بعد هذا.

يكون التّرابط (الاتّساق، التّماسك)[97] بجملة من الأدوات اللّغويّة يطلق عليها مؤشّرات التّرابط[98]:

1-حروف الاستئناف جمعا وربطا وحروف الاستدراك والإضراب وحروف الاستنتاج وما إليها.

2- مؤشّرات التّرابط الإحاليّ[99] بالضّمائر وبأسماء الإشارة وما إلى ذلك.

3- أدوات إحاليّة انعكاسيّة تترابط بها أبعاض النّصّ أو الخطاب حيث تحيل الوحدة على مقطع من النّصّ ذاته من قبيل تسمية الأبعاض فيه، وذلك من قبيل

---

[96] Intrinsic property.
[97] Cohesion.
[98] Cohesion marker(s).
[99] Anaphora.

"بادئ الأمر"، "الفقرة الأولى" وما إلى ذلك ممّا يفيد ترتيبا زمانيّا أو موضعيّا في النّصّ من قبيل "وفي النّهاية" أو "وكنّا قد ذكرنا سابقا"، إلخ.

ولكنّ هذه المؤشّرات غير كافية بمفردها لضمان الانسجام في النّصّ وإن توفّرت فيه. ولذلك يعمد الكثير من الدّارسين إلى إنشاء نصوص لا انسجام فيها رغم توفّر المؤشّرات جميعها من قبيل ما في (5). وقد أنشأناه نموذجا في إثبات هذا المبدإ، كما هو الحال في دراسات عديدة (إنكفست[100] 1978، دِرفان وفيرسبور[101] 2004):

(5)

شربت قهوة هذا الصّباح، والقهوة كلمة عربيّة تحوّلت إلى الدّلالة على صنف راق من هذا المشروب في الغرب هو الأرابيكا، والغرب دائما يأخذ من الشّرق كلمات تفقد معناها الأصليّ، وقد كان لكلمة السّكّر الّذي تحلّى به القهوة المصير نفسه في بعض لغات الغرب الّذي استعار القهوة منّا صحبة السّكّر ولكنّهم يشربون القهوة دون سكّر، ونحن نشربها بالسكّر.

توفّرت في (5) الرّوابط بأنواعها من قبيل تكرار الكلمات المشتركة في المرجع الواحد والضّمائر والموصولات وحروف الرّبط. ولكنّ النّصّ فيه شبيه بالهذيان.

وعلى خلاف ذلك لا يمثّل غياب المؤشّرات عائقا لقيام الانسجام والتّرابط. وفي هذه الحال تتوفّر مفاتيحهما في المعرفة العامّة أو في العلاقات المنطقيّة الاستدلاليّة. وذلك من قبيل ما يكون من ترابط بين جمل النّصّ دون توفّر رابط صريح كما يبين في (6) :

(6)

صدم القطار الحافلة. الحافلة مليئة بالمسافرين. كانت الإشارات الضّوئيّة معطّلة. كانت فرامل الحافلة ضعيفة. كان السّائق مرهقا. حالت فرحة العيد إلى مأتم.

---

100 Enkvist (1978).

101 Dirven and Verspoor (2004).

تترابط الجمل في(6) ترابطا منطقيّا يكون له تمثيل منسجم متّسق في الذّهن. فالاصطدام كان أيّام العيد ما بين الحافلة والقطار ولذلك كانت الحافلة مكتظّة لكثرة المسافرين في العيد ومن أسباب الحادث تعطّل الإشارات الضّوئيّة وضعف الفرامل وهذا مظهر من مظاهر الإهمال والتّهاون في الصّيانة والتّعهّد مرتبط بنقص في الأسطول وتعب السّائق لكثرة ما اشتغل أيّام العيد، ونتيجة ذلك كلّه أن تحوّلت الفرحة إلى حزن.

وهذه التّرابطات بأنواعها إنّما منشؤها المعارف العامّة المشتركة بين المتكلّم/الكاتب والسّامع/القارئ، تجري عند الواحد منهما في بناء رابط ما بين الوحدات في النّصّ دون الحاجة إلى مؤشّر صريح، فالعلاقة بين الجملتين الأخيرة والأولى في (6) لا تكون إلاّ قائمة على الاستدلال من درجة عليا من حيث كان ناتج العلاقة تاريخا لحدث الصّدام، وهذا التّاريخ قادح لسلسلة الاستدلال الّتي بها قام الانسجام والتّرابط في (6).

وتصنّف أنواع الرّبط في النّصّ عند هالّيداي وحسن[102] (1976) إلى أنواع كبرى تتضمّن التّرابط الإحاليّ[103] والاستبداليّ[104] والاختزاليّ بالحذف[105] والجمعيّ[106] (عطف، استئناف، استدراك وما إلى ذلك) والمعجميّ.[107] وللواحد منها فروع يطول ذكرها، ولذلك نكتفي بموجز في الكبرى منها في الجدول (7) :

[102] Halliday and Hasan.
[103] Reference.
[104] Substitution.
[105] Ellipsis.
[106] Conjunction.
[107] Lexical cohesion (lexical connectedness).

(7)

الرّبط	تعريف	مثال
إحاليّ	اتّفاق وحدتين في الإحالة على مرجع واحد (الاسم الظّاهر والضّمير مثلا).	لزيد سيّارة فـــهو يمتطيـــها كلّ يوم.
استبداليّ	تعويض وحدة بما يجري لذلك من وحدات معجميّة من غير الضّمائر.	لزيد من السّيّارات على عدد الأيّام في الأسبوع فهو يمتطي واحدة كلّ يوم.
اختزاليّ	حذف ما يتكرّر من العناصر اختزالا.	لزيد من السّيّارات على عدد الألوان. فعنده الصّفراء والزّرقاء والبيضاء...
جمعيّ	إيراد أداة ربط عاطفة أو معلّلة أو مفسّرة وما إلى ذلك.	لزيد سيّارة فارهة ولكنّه يستعملها لماما.
معجميّ	يكون بتكرار الوحدة المعجميّة نفسها أو بترابط وحدتين بالانتماء إلى حقل واحد عن طريق العلاقات الدّلاليّة المعلومة (تضمّن، تكافؤ، ترادف...)	- ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر (أبونواس). - لزيد من السّيّارات أنواع. فله الفورد والمرسيداس واشترى هامّر جديدة منذ أسبوع.

كما يجري تصنيف التّرابطات إلى قسمين كبيرين هما الانسجام الإحاليّ[108] والانسجام العلائقيّ[109] (درفان وفيرسبور 2004) :

الانسجام الإحاليّ قوامه عدد من العناصر اللّغويّة (الأسماء، الضّمائر وما إليها) تشترك في الإحالة على مفهوم أو مرجع واحد مستقرّ مستمرّ في كامل أجزاء الخطاب. فيكون لذلك بتعدّد تلك العناصر في المواضع المتباعدة من الخطاب نوع من الإنشاط[110] المتعدّد للمرجع المعنيّ أو المفهوم أو الفضاء الذّهنيّ[111].

وينتج عن ذلك أن يظلّ المفهوم الواحد نشيطا على مرّ المفاصل من الخطاب بمعنى حاضرا في الذّهن يكون الاهتداء[112] إليه بيسر. وإذ كان الأمر كذلك مثّلت أدوات الانسجام الإحاليّ مفاتيح في المعالجة الذّهنيّة توجّهها وتقودها.

[108] Referential coherence.
[109] Relational coherence.
[110] Activation.
[111] Mental space(s).
[112] Access.

وأمّا الانسجام العلائقيّ فقوامه التّرابط الدّلاليّ (المعنويّ) بين مختلف المضامين الواردة في مختلف المقاطع من الخطاب، من قبيل الجمل أو الأقسام سواء تقاربت أو تباعدت.

يكون ذلك بروابط منطقيّة دلاليّة متعدّدة منها ترابط السّبب بنتيجته، أو ترابط الأبعاض بالكلّ وما إلى ذلك. فالأساس في الانسجام العلائقيّ التّرابط ما بين العناصر أو المكوّنات في التّمثيل الذّهنيّ الّذي يكون للنّصّ عند السّامع/القارئ.

والرّابط كلمة مفردة أو مركّب من الوحدات المبنيّة تجري للتّعبير عن العلاقات ما بين الجمل أو الأقسام والمقاطع في النّصّ الواحد أو ما بين النّصوص المختلفة المتباعدة. ولعلّ أبرز وظيفة للرّابط تتمثّل في بيان ما به تكون الجملة الّتي تتضمّنه مفيدة في بناء التّمثيل الكلّيّ للخطاب.

وعلى هذا الأساس يجري التّفريق في بعض الدّراسات اللّسانيّة المهتمّة باشتغال الخطاب بأشكاله المختلفة من النّصوص والمحاورات وما إليها، ما بين الرّوابط[113] ومؤشّرات الخطاب[114] (سكورب 1999)[115] :

مؤشّرات الخطاب أدوات لغويّة لا تأثير لها في مضمون العبارة، فلا هي محوّرة له ولا رابطة بين أبعاضه. وموقعها في البنية الإعرابيّة من الجمل الّتي تتضمّنها غير ضروريّ ولا أساسيّ في استقامتها ولذلك يمكن جريانها في العديد من المواضع دون أثر لها في الخطاب الحاضن بمستوياته المختلفة.

وهي عبارات عديدة من قبيل ما يُتلقّى به القول في "حسنا" أو "نعم" أو "إيه"، أو ما يتردّد في كلام الشّخص الواحد عادة لا ينفكّ منها من قبيل " فهمت الحاصل معناها" أو "حينئذ" وما إليها.

وأمّا الرّوابط فأدوات ذات أثر في المضمون، مندرجة في البنية الإعرابيّة جزءا منها. ومن هذه الرّوابط تلك المعبّرة عن الجمع المتّصل بوجوهه المختلفة (و، فـ، ثمّ) أو الجمع المنفصل (أو) أو الاستدراك (لكنّ، إلاّ أنّ، غير أنّ...) أو السّبب أو النّتيجة أو المقارنة (من جهة أخرى، وأمّا...فـ،) وما إلى ذلك.

[113] Connective(s).
[114] Discourse marker(s).
[115] Schourup, L. (1999).

الانسجام : المدخل اللّساني النّفسي

تنصبّ العناية في التّناول النّفسيّ للنّصّ عامّة ولمظاهر الانسجام والتّرابط فيه خاصّة، على عمليّات المعالجة الذّهنيّة الّتي يكون بها الفهم.

فالفهم عامّة، وفهم النّصّ بوجه خاصّ، عمليّة نفسيّة ونشاط ذهنيّ عند السّامع/القارئ ولذلك يكون التّركيز فيها على ما به ينشأ في الذّهن تمثيل منسجم للنّصّ بمضامينه، إذ النّصّ منسجم ما كان تمثيله الذّهنيّ منسجما.

ولعلّ الإضافة الأساسيّة للمدخل النّفسيّ اللّسانيّ (والعرفنيّ اللّسانيّ) في تناول النّصّ، تتمثّل في نقلة مفهوم التّرابط من كونه جاريا بين وحدات النّصّ مدلولا عليه بقرائن ومؤشّرات لغويّة في التّناول اللّسانيّ (البنيويّ، التّوليديّ) إلى كونه عملا ذهنيّا ينشئ به الشّخص ذلك التّرابط إنشاء إيجابيّا أثناء بناء التّمثيل الذّهنيّ لمضمون النّصّ. فالانسجام كائن في التّمثيل، وليس في الحامل اللّغويّ المنجَز (هابّس1979، براون ويول 1983، ساندرس وريديكِر 1996).[116]

ولعلّ أعمال والتر كينتش[117] (1993، 1994) من أبرز ما كُتب في معالجة الخطاب في إطار نفسيّ لسانيّ. ويمكن تلخيص أفكاره في عدد من النّقاط الأساسيّة:

- يمكن اعتبار المضامين في النّصّ جملة من القضايا بمعنى وحدات من الأفكار.

- تترابط الأفكار ويقوم بعضها على بعض ولكنّها تنقسم في ذلك إلى قسمين: قسم مستقلّ بنفسه وقسم تابع لذلك الأوّل.

- كلّما كانت الفكرة مستقلّة كانت أساسيّة في تمثيل المضمون الخطابيّ.

- الأفكار القائمة بنفسها هي ما تحفظه الذّاكرة دون سائر الأفكار في عمليّات من قبيل تلخيص الخطاب أو استحضاره أو اختصاره.

---

[116] Hobbs (1979); Brown and Yule (1983); Sanders and Redeker (1996).
[117] Kintsch, Walter.

- يعتبَر النّصّ منسجما ما كانت فيه جملة العناصر أو المفاتيح الّتي تيسّر فهمه دون إشكال، وهو على خلاف ذلك ما كان عسير الفهم أو مستحيله، أمّا ما أمكن فهمه ولكن بجهد فهو بين بينَ.

وقد ثبت في الدّراسات النّفسيّة اللّسانيّة أنّ الرّوابط، وإن كانت غير ضروريّة لقيام الانسجام والتّرابط في النّصّ، تيسّر بحضورها عمليّة الفهم والتّذكّر.

وكذلك يتوفّر التّرابط المتدرّج: التّرابط ما بين وحدتين ذهنيّتين أساس لقيام التّرابط ما بين جملتين، ويمضي التّرابط متدرّجا بشكل يكون له تمثيل النّصّ تمثيلا منسجما على درجات.

وفهم النّصّ معناه تجذير المضامين الواردة فيه في إطار معرفيّ عامّ يمثّل الخلفيّة المعرفيّة المشتركة بين النّاس، وأساس تلك الخلفيّة هي الأوضاع الّتي تستقيم فيها الأحداث والهيئات والأحوال وجميعها جزء من معارف حاصلة عليها يقوم التّمثيل الذّهنيّ لمضمون الخطاب.

المعالجة الانتقائيّة

يمثّل الانتقاء[118] في المعالجة الانتقائيّة[119] عمليّة أساسيّة في قيام التّمثيل الذّهنيّ، وأساس ذلك أنّ ما يتضمّنه النّصّ قد يلغي المعرفة بالعالم أو يُبطلها فتتقلّص في معالجته ذهنيّا فلا يكون لها أثر. وقد يُنشط المعرفةَ بالعالم فتكون أساسيّة في المعالجة الذّهنيّة فيكون أثرها كبيرا في تمثيل المضامين النّصّيّة، من ذلك ما وجده بعض الباحثين (سانفورد وموكساي[120] 2003، نقلا عن سانفورد[121] 2006) من فارق في المعالجة والموقف بين نصّين متكافئين في المضمون ولكنّهما متقابلان نفيا أو إثباتا بطريقة صريحة أو ضمنيّة (8):

(8) أ- هذا الحليب خال من الموادّ الدّسمة بنسبة 90%.

ب- في هذا الحليب 10% من الموادّ الدّسمة.

---

[118] Selection.
[119] Selective processing.
[120] Sanford and Moksey (2003).
[121] Sanford , A. (2006).

وفيهما اعتبر النّاس أنّ النّوع الثّاني من الحليب الموصوف في العبارة (8-ب) أقلّ نسبة من الدّهون من النّوع الأوّل وأحسن منه وأنفع، والحال أنّهما متساويان فيها. والاختلاف بين العبارتين كائن في موطن التّبئير والتّركيز فقد كان التّركيز في (8-أ) في نسبة الخلوّ من الدّهون وكان في (8-ب) في نسبة حضور الدّهون المتوفّرة.

ويكون لهذا التّركيز أثر في تأويل العبارة عند النّاس، ففي (8-أ) لا يتمّ تأويل النّسبة المائويّة في الخلوّ من الدّهون بالقياس إلى نسبة حضورها في الغذاء نفعا أو ضرّا، أمّا في (8-ب) فيكون التّأويل بالقياس إلى نسبة نافعة لا يتجاوزها الحاضر منها في الحليب.

فالتّعبير عن نفس النّسبة كان بطريقتين متكافئتين ينشأ بهما نصّ متجانس منسجم لا يثير إشكالا في الفهم، ولكنّ المعالجة الانتقائيّة الّتي يوجّهها موطن التّبئير بالتّركيز في نسبة الخلوّ يعطّل معرفة المتقبّل بالعالم، وذلك بحكم غياب مرجع على أساسه يكون التّأويل. أمّا في نسبة الحضور فهو بخلاف ذلك منشّطٌ لمرجع تتضمّنه المعرفة بالعالم، ولذلك يكون فهم العبارة (8-ب) أسرع والنّوعُ الثّاني من الحليب أحسن.

وقد تتنوّع تلك الصّياغة فتكون كما في ما يلي:

(9) أ- يتضمّن هذا الحليب 50% من الموادّ الدّسمة.

ب- يتضمّن هذا الحليب 25% من الموادّ الدّسمة.

ولا يتردّد النّاس في اعتبار النّوع الثّاني من الحليب (9- ب) أنفع من الأوّل (9- أ) وأقلّ ضررا منه، وذلك بحكم احتكام النّسبتين إلى سقف واحد احتكاما إثباتيّا.

ويبدو أنّ هذه التّجارب منقاسة على حقيقة نفسيّة عرفنيّة قوامها سهولة تأويل العبارات المثبتة بالقياس إلى العبارات المنفيّة من قبيل ما يكون بين "زيد كريم" و"زيد ليس ببخيل". ولكنّ الفارق بين هذا وما سبق في نوع النّفي أو الإثبات صريحا في أمثلة زيد وضمنيّا غير مباشر في الأمثلة الواردة أعلاه.

خاتمة

النّصّ حدث تواصليّ تتحقّق به الوظائف الدّنيا في تبادل البسيط من المعلومات والوظائف العرفنيّة العليا من إنتاج للمعرفة والثّقافة، بما تختصره من التّجارب الجماعيّة. ولجميع ذلك يتجذّر النّصّ في محيط إنتاجه وتأويله. فيكون على هذا، النّصّ أو الخطاب نتاجا ثقافيّا اجتماعيّا غير حاجيّ وما الحاجة إليه إلاّ 'حتميّة' اجتماعيّة من زاويتين: تواصليّة مخصوصة وتفاعليّة عامّة.

والشّرط في جميع ذلك قيام النّص على الانسجام بنوعيه الإحاليّ والعلائقيّ. يكون الإحاليّ باستمرار الإحالة واستقرارها على عدد من المفاهيم أو المراجع في كامل أجزاء الخطاب، وذلك بأدوات مؤشّرة تيسّر المعالجة الذّهنيّة بتوجيهها أو بقيادتها. ويكون الانسجام العلائقيّ بالتّرابط الدّلاليّ بين مختلف المفاهيم مفردة أو مجموعة، في مختلف المقاطع في الخطاب. وهي روابط منطقيّة دلاليّة منها ترابط السّبب بنتيجته، أو ترابط الأبعاض بالكلّ وما إلى ذلك.

ومن أبرز ما سطّر في ذلك، قيام الانسجام بنوعيه (الإحاليّ والعلائقيّ) في التّمثيل الذّهنيّ الّذي يكون للنّصّ عند السّامع/القارئ، لا في النّصّ نفسه. وهذا ممّا تركّز بالتّناول النّفسيّ للنّصّ على أساس عمليّات المعالجة الذّهنيّة الّتي يكون بها الفهم. فالفهم هو أن ينشأ في الذّهن تمثيلٌ منسجم للنّصّ بمضامينه، فالنّصّ منسجم ما قام له تمثيل ذهنيّ منسجم. وانسجام النّصّ في المجمل قائم على التّرابط ما بين العناصر في النّصّ وما بين النّصّ والخلفيّة المعرفيّة العامّة يقوم له تمثيل ذهنيّ منسجم.

الفصل الثّالث

النّص في إطار العرفنة الاجتماعيّة

> النّصوص أفضية اجتماعيّة تجري فيها عمليّتان اجتماعيّتان أساسيّتان على وجه التّزامن: أولاهما العرفنة وتمثيل العالم وثانيتهما التّفاعل الاجتماعيّ. ولذلك يكون من الأساسيّ أن تتعدّد المداخل في تناولها.
>
> (فاركلاف 1995 ص6)

مقدّمة

عرضنا في ما مضى إلى أبرز القضايا المتعلّقة بالنّصّ حدثا تواصليّا منسجم الأبعاض مترابط العناصر بنيويّا وما يكتنف فهمه أو تأويله من عمليّات نفسيّة، وذلك في إطارين لسانيّ ونفسيّ لسانيّ. ولكنّ النّصّ من حيث كان حدثا تواصليّا جاريا في محيط اجتماعيّ على غاية من التّشابك والتّعقيد، يستوجب النّظر في ما يكون به حدثا تواصليّا نتاجا لنشاط اجتماعيّ، بمعنى وليدا للذّهن الاجتماعيّ ينشأ به ويبنيه في آن. ولعلّ هذا الأمر كان المحرّك الأساسيّ في تبلور العرفنة الاجتماعيّة. تعنينا منها مباحث الخطاب والنّصّ في حدود ما ضبطناه لأنفسنا من المشاغل في هذا العمل.

فللعرفنة الاجتماعيّة تجلّيات عديدة، لعلّ من أبرزها الخطاب في أبعاده الجماعيّة من حيث تظافر الموارد الجماعيّة في إنتاجه وتأويله وتداوله وتناقله واستعماله وتوظيفه، ولعلّ من أبرز الأطر النّظريّة، وهي عديدة متداخلة في ذلك، نظريّة العرفنة الاجتماعيّة كما تبلورت في أعمال فان ديك المتأخّرة، ونظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب (فاركلاف) سليلة لنظريّة اللّسانيّات الوظيفيّة النّظاميّة (هاليداي)، نفيد منها في تبيّن الخطاب نتاجا واشتغالا جماعيّين، ثمّ يكون التّركيز في مرحلة أخيرة في تصوّر النصّ في مراتب الخطاب حدثا اجتماعيّا.

العرفنة الاجتماعيّة

يسعى فان ديك في مجمل أعماله المتأخّرة إلى رتق الفجوة بين العرفنة والمجتمع وبين البنية الكبرى[122] والبنية الصّغرى[123] وهو شرخ يعمّ جميع العلوم الإنسانيّة بتركيزها على البنية الفرديّة أساسا أو منطلقا يُعتقَد أنّه موصل إلى البنية الجماعيّة بحكم ما يُفترض في شأنها من كونها ملخّصا للأبنية الفرديّة – على وجه الخطإ في الأغلب–ويكثر أن تقف البحوث عند الأولى. ولعلّ المفهوم الجامع لجميع ذلك كائن في العرفنة الاجتماعيّة[124].

وقوام هذا المفهوم ثالوث من العناصر: الخطاب والعرفنة والمجتمع. وفيها لا يُتناول الخطاب من حيث كان مجرّد بنية لغويّة ولا تُتناوَل العرفنة من حيث كانت مجرّد عمليّات نفسيّة ذهنيّة وإنّما يُتناولان من حيث كان للواحد منهما بعد اجتماعيّ يمثّله ويحدّده. فالعرفنة الاجتماعيّة إنّما تُكتسَب وتُستعمل وتتطوّر وتتغيّر في وضعيّات اجتماعيّة ويمثّل الخطاب، في جميع ذلك، واحدة من أبرز الأدوات والوسائل (فان ديك 1993، 122).

وتمثّل العرفنة الاجتماعيّة التّصافح ما بين الخطاب والمجتمع، وما بين الأفراد المشاركين في الحدث التّواصليّ والفئات الاجتماعيّة الّتي ينتمون إليها، كما تمثّل جملة الإستراتيجيّات الجماعيّة وجملة التّمثيلات المشتركة الّتي توجّه إنتاج الخطاب وتحكم تأويله (فان ديك 1993، 110).

فالخطاب يَجري في مظهريه إنتاجا وتأويلا، جريانا فعليّا حقيقيّا ما بين الأفراد في مقامات حقيقيّة واقعيّة، وذلك قائم على أساس جملة من المعارف والمعتقدات المشتركة بين أفراد المجموعة.

ولا يكون للخطاب من أثر في الأبنية الاجتماعيّة إلاّ من خلال الذّهن الاجتماعيّ الحاصل عند المشاركين فيه، وكذلك لا يكون للأبنية الاجتماعيّة من أثر في أبنية الخطاب إلاّ بتوسّط العرفنة الاجتماعيّة.

---

[122] Macrostrcture.
[123] Microstructure.
[124] Social cognition.

وتستلزم العرفنة الاجتماعيّة وجود نظم في الإستراتيجيّات والأبنية الذّهنيّة مشتركة ما بين الأفراد في المجموعة، تنهض بها نظريّة الذّهن الاجتماعيّ[125] (فان ديك 1993، 110). وأهمّها تلك الإستراتيجيّات الّتي يكون بها إنتاج "الأشياء" الاجتماعيّة وفهمها وتمثيلها، وهي أشياء من قبيل الأوضاع[126] والتّفاعلات[127] والفئات[128] والمؤسّسات[129] وما إلى ذلك.

ومن أساسيّات نظريّة الذّهن الاجتماعيّ ما يجتمع في ركيزتين هما مناويل وعمليّات إستراتيجيّة :

المناويل نوعان :

(أ)- مناويل[130] فرديّة شخصيّة لصيقة بأحداث عينيّة.

(ب)- مناويل أمضى في التّجريد مشتركة بين أفراد المجموعة من حيث كانت تمثيلات اجتماعيّة عامّة أو فئويّة تتضمّن المعارف والمواقف والعقائد والإيديولوجيّات.

وكلا النّوعين من المناويل مسجّل محفوظ في الذّاكرة طويلة المدى.

وأمّا العمليّات فهي الإستراتيجيّات المؤسّسة على تلك المناويل وهي من قبيل الإدراك وإنتاج الخطاب وفهمه. وجميعها جار في الذّاكرة العاملة (قصيرة المدى).

وتحتكم جميع الأعمال والتّصوّرات بما فيها إنتاج الخطاب وتأويله إلى جملة من التّمثيلات الذّهنيّة المتعلّقة بأحداث عينيّة يعيشها الفرد بصفة شخصيّة معزولة أو تعيشها مجموعة الأفراد تجربة جماعيّة عامّة.

وهذه التّمثيلات ذاتيّة مخصوصة وليس من المفروض أن تجد مثيلا لها عند فرد آخر من المجموعة، فهي عبارة عمّا يتوفّر في الأذهان عن ذلك الحدث العينيّ

125 Theory of the social mind.
126 Situation(s).
127 Interaction(s).
128 Group(s).
129 Institution(s).
130 Model(s).

من معارف ومواقف عند مستعملي الخطاب. ولذلك يطلق عليها فان ديك مناويل الأحداث[131] أو مناويل الأوضاع[132].

ولهذا المفهوم صلة بالانسجام في الخطاب:

فالخطاب منسجم ما كان موافقا لمنوال ذهنيّ، فأن يكون النّصّ منسجما عند شخص ما معناه أن يكون هذا الشّخص قادرا على جعل النّصّ في منوال ذهنيّ أو على إسناد منوال ذهنيّ إلى النّصّ (فان ديك 2000). معنى ذلك أنّ الفرد عندما يفهم نصّا ويقيم له تمثيلا ذهنيّا منسجما إنّما يقيم له في ذهنه جملة من الأوضاع يقبل ذلك النّصّ أن يقوم فيها وينسجم.

التّحليل النّقديّ للخطاب : معالم نظريّة

تبلورت اللّسانيّات الوظيفيّة النّظاميّة في أعمال هالّيداي (1989)، ولعلّ من أبرز معالمها النّظريّة قيام اللّغة على ثالوث من الوظائف المتزامنة المتعاظلة : وظيفة استحضاريّة تمثيليّة[133] ووظيفة تفاعليّة[134] ووظيفة نصّيّة.[135]

تتمثّل الوظيفة التّمثيليّة الاستحضاريّة في إقامة تمثيلات للكون في الأذهان، وتكمن الوظيفة التّفاعليّة في ما تؤدّيه اللّغة من مظاهر التّفاعل الاجتماعيّ ما بين الأفراد في المجموعة، وتتمثّل الوظيفة النّصّيّة في إنشاء نصوص هي أحداث تواصليّة، منضّدة ذات بنية مترابطة العناصر منسجمتها.

وقد مثّلت تلك الوظائف أساسا منطلقا في نظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب[136]، كما تبلورت في أعمال فان ديك (1993a، 1993b) وفاركلاف (1993، 2000)[137] وغيرهما. وقوامها العناية بما يكون من تفاعل بين الخطاب والأطر الاجتماعيّة الّتي تحضنه من ذلك ما تجري فيه اللّغة من نشر للمضامين

[131] Event model(s).
[132] Situation model(s).
[133] Ideational function.
[134] Interpersonal function.
[135] Textual function.
[136] Critical Discourse Analysis (CDA).
[137] Fairclough.

الإيديولوجيّة من حيث كان الخطاب تمثيلا مخصوصا لرؤية للكون مخصوصة بشخص أو بفئة أو بطبقة اجتماعيّة ذات سلطة ونفوذ، فيجري في الاستعمال جريانا مخصوصا على شاكلة مخصوصة لنشر تلك الرّؤية ولإقامة نوع من السّيطرة على المجموعة والحفاظ على السّلطة فيها، كما يجري لإقامة نوع من الهويّة الجماعيّة تكون من الأمم أو من الأقوام أو من الأقلّيات أو من الجماعات القائمة على أساس الانتماء العرقيّ أو الفكريّ أو العقائديّ الدّينيّ وما إلى ذلك. ويمكن أن ينضاف إلى تلك الوظائف الثّلاث وظيفة أسلوبيّة[138] وأخرى إستراتيجيّة حجاجيّة [139] ووظائف سرديّة[140] تخدم جميعها ما مضى ذكره منها.

الخطاب الجماعيّ: الموارد الجماعيّة في إنتاج الخطاب

تبلورت فكرة الموارد الجماعيّة (موارد الأعضاء في المجموعة)[141] في إطار التّحليل النّقديّ للخطاب عامّة، وفي أعمال فاركلاف[142](1989، 1995) بوجه خاصّ.

وهذه الموارد نوعان: عرفنيّة ذهنيّة بحكم كمونها في أذهان الأفراد واجتماعيّة بحكم تحقّقها في المجموعة.

وقوامها أنّ الأبنية المعرفيّة المخزّنة عند الأفراد والمتراكمة عند المجموعة تمثّل موارد ذهنيّة يعودون إليها فينهلون منها لإنتاج النّصوص وتأويلها (فهمها). وتضمّ من جملة ما تضمّ المعرفة باللّغة وتمثيلات العالمين الطّبيعيّ المادّيّ والاجتماعيّ اللّذين يعيشون فيهما والقيم والعقائد والمعتقدات والفرضيّات والمسلّمات وما إليها (فاركلاف 1989، 24).

ولعلّ مفهوم الموارد الجماعيّة قريب جدّا من المناويل العرفنيّة المؤمثلة (لايكوف 1987) في التّصوّر وخاصّة في كونها ذات أساس تجريبيّ إذ تتبلور في

[138] Style(s).
[139] Argumentation strategies.
[140] Narrative(s).
[141] Members' resources (MR).
[142] Fairclough.

إطار التّجربة والعيش في العالم إطارا ماديّا واجتماعيّا ثقافيّا، وفي كونها عرفنيّة بحكم تخزينها في الأذهان واجتماعيّة في آن بحكم منابتها الاجتماعيّة.

فالنّصوص–عند فاركلاف (1995،6)– أفضية اجتماعيّة تجري فيها عمليّتان اجتماعيّتان جريانا متزامنا أولاهما العرفنة وتمثيل الكون، وثانيتهما التّفاعل الجماعيّ. وهذا ما يستدعي – في رأيه– مدخلا نظريّا في الدّراسة عماده التّعدّد في الأدوات وفي المبادئ.

وينطلق فاركلاف في دراسته من فكرة قوامها أنّ النّصوص عناصرُ من الأحداث الاجتماعيّة[143]، تتشكّل وفقها وتُشكّلها في أبنية أكثر تجريدا ودواما في الزّمن. فالنّصوص أبنية اجتماعيّة[144] وممارسات اجتماعيّة[145] في آن.

ويذهب فاركلاف إلى أنّ النّصّ جزء من الاجتماعيّ دون أن يختصر الاجتماعيّ كلّه فيه، وهو يمثّل مدخلا أساسيّا في دراسة الاجتماعيّ، ولذلك كان تحليله للخطاب موسوما بالنّصّيّة –على حدّ عبارته (فاركلاف 2003، 2).

ويبرّر فاركلاف اعتمادَه على المكوّن اللّسانيّ أساسا في تحليل الخطاب جزءا من الاجتماعيّ ومدخلا لدراسة الاجتماعيّ في الخطاب بما ينقص المهتمّين بالمظهر الاجتماعيّ في تحليل الخطاب دون اللّسانيّ، من إمكانيّة التوصّل إلى الحقائق الّتي يقود إليها اعتماد البنية اللّغويّة في النّصوص. جميع ذلك في إطار تعدّد الموارد في تحليل الخطاب منهجا وأدوات نظريّة في رأيه (فاركلاف 2003،6).

فالنّص جزء من الأحداث الاجتماعيّة ومظاهر ذلك عديدة منها كون آثار النّص الاجتماعيّة سببيّة[146] في مستويين قصير المدى وطويل المدى: فالنّص يحدث تغييرا في المعتقدات والمواقف والمعارف بكلّ ما يجري في الحياة اليوميّة، وينحت الهويّة ما تعلّق منها بالانتماء إلى مجموعة أو إلى جنس (ذكوريّ أو

---

[143] Social event(s).
[144] Social structure(s).
[145] Social practice(s).
[146] Causal effect(s).

أنثويّ) أو إلى واحدة من الإيديولوجيّات بفعل الإشهار المتواتر، ويغيّر من العادات الاستهلاكيّة ويصنع الأذواق ويوجّهها في الإشهار التّجاريّ، كما تتهيّأ الظّروف بالنّصّ فتحدث الحروب ويحدث السّلام، وبالنّصّ تتغيّر المناهج التّربويّة والعلاقات بين الأمم والعلاقات الصّناعيّة والتّجاريّة وما إليها.

وإجمالا يكون للنّصوص آثار علّيّة سببيّة في النّاس من حيث معتقداتهم ومواقفهم وأعمالهم وفي العلاقات الاجتماعيّة وفي العالم المادّيّ، وله مساهمة كبيرة في تغييرها (فاركلاف2003،8-12) والوسيط في جميع تلك التّغيّرات إنّما هو إنشاء المعنى[147] الكائن في النّصوص وبالنّصوص.

ويدحض فاركلاف التّناول الاجتماعيّ للخطاب من زاوية بنائيّة اجتماعيّة[148] ومفادها أنّ الواقع الاجتماعيّ مبنيّ اجتماعيّا وأنّ الخطاب ذو دور أساسيّ في بنائه وتشكّله، ولكنّ الواقع خلاف ذلك. فالواقع الاجتماعيّ قائم من حيث مؤسّساته وقيمه وقواعده دون أثر كبير للخطاب إذ مثّل جميعها حقائق ثابتة قائمة وما الخطاب إلاّ نقل لها من زوايا مختلفة وفق مداخل متنوّعة، فالبنائيّة الاجتماعيّة رؤية لا يميّز أهلها بين البناء[149] وزاوية التّناول[150]- والرّأي لفاركلاف- إذ لا تعني زاوية التّناول (الانبناء) أثرا في إقامة الواقع وبنائه بقدر ما هي زاوية في نقله وتصوّره، وينتهي به الأمر إلى التّسليم بجزء من هذا ومن ذاك.

ويذهب فاركلاف (2003،14) إلى أنّ تحليل الخطاب والنّصوص جزء من علم الاجتماع. فإذا كان علم الاجتماع يدرس الواقع الاجتماعيّ وكان النّص جزءا من ذلك الواقع الاجتماعيّ، وجب أن يكون المدخل في تحليل الخطاب اجتماعيّا عرفنيّا لا اجتماعيّا بالمعنى التّقليديّ، فالخطاب لا يعكس البنية الاجتماعيّة كما هو المتصوّر في علم الاجتماع وإنّما هو نتاج لها وصانع إيّاها في آن.

---

147 Meaning making.
148 Social Constructivism.
149 Construction, Constructivism.
150 Construal.

النّص في مراتب الخطاب

يميّز فاركلاف (1989، 2003) في سياق رصده للظّاهرة الخطابيّة ما بين عدد من المظاهر يمكن قسمتها إلى قسمين تجريديّ وعمليّ، يمثّل المظهر التّجريديّ استجلاء للخصائص النّظريّة تهمّ تصنيفيّة المادّة المندرجة في ظاهرة الخطاب ويمثّل المظهر العمليّ ما يكون من أنشطة اجتماعيّة في إنتاج الخطاب وتحقّقه في مستوى الفرد إنجازا عينيّا وفي مستوى الموضوع انتماء مضمونيّا أو مؤسّسيّا وفي مستوى التّعامل الجماعيّ مع الخطاب مادّة متحقّقة في ذاتها أو متبادلة في إطار دورة تبادليّة اقتصاديّة فاعلة في نشر الخطاب واستهلاكه بضاعة لها قيمة تبادليّة. إيجاز هذه المظاهر في ما يلي: ـ

يطلق "نصّ" على كلّ ما هو منطوق مسموع أو مكتوب مقروء بما في ذلك قائمة في المشتريات أو نشرة أخبار وما إليها، ويجري "لغة" على معناها المعهود (اللّغة عامّة أو اللّغة الفلانيّة.)، فيكون النّصّ تحقّقا للّغة وأمّا "خطاب" فتؤخذ على أنّها زاوية النّظر المخصوصة إلى الخطاب على أنّه جزء من الحياة الاجتماعيّة لا ينفصل عن سائر مظاهرها (فاركلاف 2003، 3).

يجري الخطاب[151] اسما للجنس دالاّ على المفهوم العامّ الّذي يتضمّن إجراء اللّغة أو استعمالها من حيث مثّل نشاطا اجتماعيّا شاملا لجميع الأنشطة التّواصليّة والتّفاعليّة الجماعيّة .

ويتحقّق الخطاب عينيّا في الحدث الخطابيّ[152]، وهو حدوث الخطاب الّذي يمثّل تحقّقا من تحقّقات اللّغة، هو ما يحلّل على أنّه نصّ أو ملفوظ نتاج لكلّ نشاط تخاطبيّ في إطار الممارسة الجماعيّة للخطاب. والحدث الخطابيّ حدث اجتماعيّ (فاركلاف 2003، 16). أمّا النّصّ [153] فهو المادّة وقد تشكّلت منطوقة أو مكتوبة ناتجة أثناء الحدث الخطابيّ.

---

[151] Discourse.
[152] Discursive event.
[153] Text.

وإذ يحدث النّصّ فيستقلّ بذاته شيئا مادّيّا يدخل دورة أخرى هي الممارسة الخطابيّة[154]، وهي منقاسة على الممارسة الاجتماعيّة الّتي تتضمّن ما به يكون التّمفصل بين عناصر البنية الاجتماعيّة في حدث اجتماعيّ ما، وذلك من قبيل ممارسة خطابيّة تجري في فصل من فصول الدّرس في المدرسة إنّما تمثّل تشكّلا لممارسة لغويّة في مظهر من مظاهرها محكوما بجملة من عناصر اجتماعيّة مقاميّة أخرى متنوّعة تتمفصل في ذلك المقام لتكون الممارسة الاجتماعيّة المعلومة في فصول الدّراسة والتّعليم (علاقات السّلطة (معلّم، تلميذ)، فضاء القسم، ممارسة خطابيّة، برنامج تدريس ومضمون فكريّ... (فاركلاف 2003،25). ومن الممارسات الخطابيّة أدوات متنوّعة تحكم الخطاب (النّصّ) بعضها صناعيّ وبعضها ثقافيّ، تتضمّن ما به يكون إنتاج النّصوص ومعالجتها وحفظها وتوزيعها واستعمالها أو استهلاكها.

وقد تتمايز النّصوص في خصائصها كما يمكن أن تتداخل فيحدث التّداخل الخطابيّ[155] أو التّناصّ[156]– بأن يتكوّن النّصّ من أنواع مختلفة من الخطاب أو من نصوص من أجناس مختلفة: "هو ما به يتحوّل ما كان خارج النّصّ إلى داخله وما به ينهل النّص من سائر النّصوص ويتضمّنها ويحاورها" (فاركلاف 2003،17).

كما يتحقّق النّصّ من زاويتين: أولاهما ما هو مقول فيه ظاهرا منجزا، وثانيتهما ما ليس مقولا فيه، هو بمثابة الخلفيّة الّتي نقيمها في أذهاننا لفهم النّصّ دون أن تظهر بجلاء، فاعتبار النّص قائما على التّناصّ مرتبط بما نفترض وجوده فيه من نصوص مخفيّة. فيكون على هذا تداخل الأجناس نوعا من التّهجين[157] أو الخلط[158] ما بينها (فاركلاف 2003،34).

وبناء على الإطار الاجتماعيّ الّذي يتحقّق فيه الخطاب حدثا ونصّا أحاديّا أو متعدّدا يكون النّاتج خطابا فرديّا شخصيّا أو خطابا فئويّا أو جماعيّا عامّا. فالخطاب

---

[154] Discourse practice.
[155] Interdiscursivity.
[156] Intertextuality (intertextualité).
[157] Hybridization.
[158] Genre mixing.

العينيّ[159] نتاج لطريقة مخصوصة في صياغة مضمون ما، أساسها منظور فرديّ شخصيّ أو ذاتيّ. ولذلك يكون متعدّدا بتعدّد الأفراد لتعدّد الرّؤى وزوايا النّظر واختلافها.

وإزاء الخطاب العينيّ يوُجد الجنس الخطابيّ[160] من حيث مثّل إجراء للّغة مخصوصا بنشاط اجتماعيّ خطابيّ مخصوص، كما يوجد النّاموس الخطابيّ[161] وهو جملة الممارسات الاجتماعيّة في مظهرها اللّغويّ (فاركلاف 2003،24) ومنها جملة من الممارسات الخطابيّة المخصوصة بمجموعة ما، تمثّل ناموسا اجتماعيّا[162] مخصوصا (الخطاب الفئويّ)، مهنيّة كانت أو طبقة اجتماعيّة أو مجموعة علميّة أو تنظيميّة أو مؤسّسيّة أو إيديولوجيّة وما إلى ذلك. هي ممارسات يتداولها الأفراد المنتمون إلى تلك الفئة في إطار مخصوص. وهي ممارسات تتحكّم في التّنوّع الخطابيّ وتضبطه، وذلك من قبيل قيام نظام العولمة ناموسا اجتماعيّا له ناموس خطابيّ ينشئه وينشأ به.

تقوم كلّ ممارسة اجتماعيّة على أنشطة[163] أو أعمال وفواعل أو أشخاص[164] وعلاقات اجتماعيّة بينهم، وأشياء[165] وزمان[166] ومكان[167] وأنماط في الوعي[168] وقيم[169] وخطاب[170] (فاركلاف 2003، 205). وهذه الأركان عاملة في جميع النّصوص ما كان منها متداولا قد لا يستوقفنا أبدا من ذلك ما يكون من تبادل الأقوال والأعمال بين البائع والزّبون- والمثال من فاركلاف (2003،74)- على مخطّط واحد:

---

[159] Discourse.
[160] Genre.
[161] Order of discourse.
[162] Social order.
[163] Activities.
[164] Subject(s).
[165] Object(s).
[166] Time.
[167] Place.
[168] Form(s) of consciousness.
[169] Value(s).
[170] Discourse.

(1)- يطلب الزّبون البضاعة.

(2)- يعدّها البائع اقتطاعا ووزنا وتعليبا.

(3)- يسأل البائع الزّبون عند الفراغ، إن كان له طلب آخر.

(4)- الزّبون يجيب بالنّفي ويشكره.

(5)- البائع يعطي مجموع الثّمن.

(6)- الزّبون يدفع الثّمن.

(7)- البائع يرجع الباقي ويعدّ النّقود بصوت عال مسموع.

ويكون إجمال ما مضى من المراتب في الجدول (1):

(1)

الخطاب	مفهوم عامّ، اسم الجنس: إجراء اللّغة واستعمالها من حيث مثّل نشاطا اجتماعيّا+ جميع الأنشطة العلاميّة[171]
الخطاب الحدث الحدث التّخاطبيّ	تحقّق من تحقّقات اللّغة، يحلّل على أنّه نصّ أو نشاط تخاطبيّ في إطار نشاط أو ممارسة جماعيّة
النّصّ	المادّة المنطوقة أو المكتوبة المُنتجة أثناء النّشاط التّخاطبيّ أو أثناء حدوث الخطاب.
الممارسة الخطابيّة	إنتاج النّصّ، توزيعه واستعماله أواستهلاكه.
التّداخل الخطابيّ	تكوّن النّصّ من أنواع مختلفة من الخطاب أو نصوص من أجناس مختلفة
الخطاب العينيّ	اسم عين، معدود، محدود: طريقة في صياغة مضمون ما من منظور أو زاوية (فرديّة، شخصيّة، ذاتيّة) ما.
الجنس (الخطابيّ)	إجراء للّغة مخصوص بنشاط اجتماعيّ خطابيّ مخصوص
الخطاب الفئويّ	جملة من الممارسات الخطابيّة المخصوصة بمجموعة ما (مهنيّة، اجتماعيّة، علميّة، تنظيميّة، مؤسّسيّة...) يتداولها الأفراد المنتمون إليها في إطار مخصوص.

[171] Semiosis.

خاتمة : في سبيل تحليل عرفنيّ للخطاب

لعلّ أفضل ما يمكن أن نختم به هذا الفصل ما لخّصه فانديك في قوله متحدّثا عن تجربته ورحلته باحثا في الخطاب (فان ديك 2004 a،37) : "ولقد حاولت تبعا لذلك أن أرتق عددا من الفجوات أوّلها ما بين دراسة اللّغة ودراسة الأدب، ثمّ ما بين نحو الجملة ونحو الخطاب، وكذلك ما بين مختلف النّظريّات المتعلّقة بالعلاقات ما بين العمل والخطاب، وما بين الخطاب والعرفنة، ثمّ في نهاية المطاف ما بين العرفنة والمجتمع كذلك."

ومن أفضل ما يمكن أن ينضاف إلى برنامج فان ديك ما كتب فاركلاف(2003،123) : "أرى في النّصوص طرقا في تمثيل المظاهر الكائنة في العالم: العالم المادّيّ بما فيه من العمليّات والعلاقات والأبنية، و'العالم الذّهنيّ' بما فيه من الأفكار والمشاعر والمعتقدات وما إليها، والعالم الاجتماعيّ. وقد يجري تمثيل مظاهر مخصوصة من العالم بطرق مختلفة ولذلك نكون في العموم في موقع يقتضي منّا الانتباه إلى العلاقة ما بين النّصوص المختلفة. وتمثّل النّصوص المختلفة زوايا نظر مختلفة إلى الكون، وترتبط بالعلاقات المختلفة الّتي تكون للنّاس بالعالم، هذه الّتي ترتبط بدورها بمواقعهم في العالم وبهويّاتهم الاجتماعيّة والفرديّة وبالعلاقات الاجتماعيّة الّتي تكون لهم بسائر النّاس. ولا يقتصر دور النّصوص على تمثيل العالم كما هو (أو بالأحرى كما يُعتقد أنّه كائن) وإنّما تكون كذلك منشئة متخيّلة تمثيلا لعوالم ممكنة تختلف عن العالم الواقعيّ ومشدودةً إلى مشاريع في تغيير الكون في اتّجاهات مخصوصة. فالعلاقات ما بين النّصوص المختلفة إنّما هي عنصر من العلاقات الكائنة ما بين النّاس المختلفين، إذ يمكن أن تتكامل وأن تتنافس وأن يسيطر الواحد منها على سائرها وما إلى ذلك. وتمثّل النّصوص قسما من الموارد الّتي يعود إليها النّاس في تعالقهم من حيث تباعدهم وتعاونهم وتنافسهم وسيطرة بعضهم على بعض، وفي سعيهم إلى تغيير الوجوه الّتي بها يتعالقون."

خاتمة الباب

بسطنا في ما مضى جملة من المفاهيم والمبادئ العاملة في تناول النّصّ والخطاب في إطار عرفنيّ بفروعه اللّسانيّ والنّفسيّ والاجتماعيّ، واكتفاؤنا بالمفاهيم العاملة أطرا في هذا المستوى مفيد لما سيكون في المقبل من الأبواب مجالا لتحليل أنواع مختلفة من الخطاب العربيّ بأدوات نظريّة أمضى وأكثر دقّة وتفصيلا. ولعلّ هذا الاكتفاء مغن لنا عن الإحاطة بجميع المباحث في تحليل الخطاب وفي نحو النّصّ وما إليها، إحاطة تاريخيّة شاملة، فمشغلنا في هذا العمل ليس ذاك، وإن كان فيه بعض من ذاك فلحاجة معرفيّة لبّيناها بما رأيناه ضروريّا أدنى، ويمكن أن نختصر ما عرضنا في تحديد إطار نظريّ مثاليّ عامّ يستقيم فيه تناول النّصّ والخطاب شمولا وعمقا، تتقاسمه جملة من النّقاط.

أمّا الإطار فهو ثلاثيّ الأبعاد: الخطاب والعرفنة والمجتمع. ولم تجتمع ثلاثتها في نظريّة واحدة إلى اليوم في حدود ما نعلم، وقد لا تجتمع في نظريّة واحدة.

وأمّا النّقاط فشتات من المبادئ مشتركة بين الحقول المعرفيّة المختلفة نتصوّر أنّها عاملة في الأبعاد الثّلاثة المذكورة. والمنطلق فيها كون المعرفة باللّغة غير منفصلة عن معارفنا بالكون وبالتّجربة فيه بأبعادها المتنوّعة. ومنها كون اللّغة جزءا من النّظام العرفنيّ فتكون تبعا لذلك الملكة اللّغويّة جزءا من الملكة العرفنيّة العامّة.

ومنها كون النّظام العرفنيّ مجسدنا، متجذّرا في بيئة الجسد الّذي يحمله وينتجه ويعيش به ذاتا فاعلة في محيطها ومنفعلة بما فيه في آن.

فيكون النّحو –على هذا– مفهوميّا وأداة من أدوات المفهَمة وتكون الدّلالة اللّغويّة صوغا لغويّا للمفاهيم باعتماد مورد رمزيّ مخصوص هو اللّغة، فالمعارف النّحويّة بما فيها المعجميّة جزء من المعارف الموسوعيّة، وما الوحدة اللّغويّة (كلمة، جملة، نصّ...) إلاّ قادح لبعضها ومدخل في الاهتداء إليه وإنشاطه في

الذّهن عنصرا كائنا في إطار تلك المعرفة الموسوعيّة ذات الانتظام الشّبكيّ المتوزّع.

وإذ كان ذلك مثّلت اللّغة موردا من موارد التّصوير الذّهنيّ جاريا على المضامين المعرفيّة، موفّرة للكائن المعرفِن أنماطا في التّعبير مختلفة لاختلاف زوايا التّناول الذّهنيّ لتلك المضامين. وإذ كانت العرفنة مجسدنة وكان الجسد في محيطه وجب أن ترتبط المضامين اللّغويّة بأطرها بتوسّط أدوات التّجذّر الإبستيميّ سبيلا إلى الفهم والإفهام.

ويكون بالاستتباع الانسجام في النّصّ قائما في التّرابط ما بين الوحدات في النّصّ وما بين النّصّ والخلفيّة المعرفيّة العامّة، فيقوم لجميع ذلك تمثيل ذهنيّ له منسجم.

ولجميع ذلك كانت الوظيفة الأساسيّة في الخطاب تواصليّة بها تقوم تمثيلات للكون في الأذهان، وبها يكون التّفاعل الاجتماعيّ ما بين الأفراد، وبها يكون الخطاب ذاته حدثا لغويّا تواصليّا وذهنيّا واجتماعيّا في آن. هو جميع ذلك لأنّ موارده جماعيّة تتضمّن الأبنية المعرفيّة المخزّنة عند الأفراد وفي مستوى المجموعة، مواردَ ذهنيّة ينهل الجميع منها لإنتاج النّصوص وتأويلها.

الباب الثّاني

الأبنية العرفنيّة في النّصّ

مقدّمة الباب

النّصّ صوغ لغويّ رمزيّ لمضامين عرفنيّة هي جملة معارف موسوعيّة في أطر ومناويل وخطاطات يكون بها تأويله، وهي تشتغل آن-قوليّا، وقد مثّل مفهوم الإطار وما قام عليه من نظريّات في الدّلالة، لعلّ أبرزها نظريّة الدّلالة الإطاريّة[172]، ركيزة أساسيّة في اللّسانيّات العرفنيّة، قام عليها المنوال الموسوعيّ في المعرفة[173] عامّة وفي الدّلالة اللّغويّة بوجه خاصّ. وتبلورت فكرة الإطار في منابت عديدة منها النّفسيّ (نظريّة الجشطلت، أعمال بارتلات في الذّاكرة وخاصّة ما تعلّق منها بالخطاطة) ومنها اللّسانيّ (نظريّة الدّلالة السّيميّة) ومنها النّفسيّ اللّسانيّ في ما يتعلّق بالمقولة والمعرفة.

وجعلنا هذا الباب أربعة فصول: أوّلها في المعرفة الموسوعيّة في النّصّ مهّدنا له بمعالم نظريّة مفيدة في تمثّل ما يقوم عليها من تحليل لنماذج من الخطاب العربيّ في غضون الفصل، وجميع ذلك ببيان كون المعرفة منظومة منضّدة من المفاهيم، وكون المعنى موسوعيّا وسياقيّا مقاميّا، وما به تمثّل العبارات اللّغويّة مداخل للمعرفة الموسوعيّة، وهي معرفة حركيّة في انتظامها واشتغالها، ويكون النّموذج المعتمد مادّة للتّحليل نصّا من التّراث ينتمي إلى جنس المقامة هو المقامة الحلوانيّة للهمذاني.

أمّا مدار الفصل الثّاني فعلى الأطر العرفنيّة في النّصّ بما يقتضي ذلك من تقديم لمفهوم الإطار العرفنيّ بمعالمه النّظريّة من حيث النّشأة والانتظام، ومن حيث اعتماده أداة تحليل في دراسات تحليل الخطاب، ومن حيث اشتغال الأطر العرفنيّة في الخطاب باعتماد نماذج خطابيّة متنوّعة يوفّر الإطار بمفاهيمه، جملة من المفاتيح والأدوات الذّهنيّة بها يكون الاهتداء إلى المعنى، وبها يتوجّه التّأويل والفهم وذلك من قبيل كون الإطار مفتاحا قادحا لفهم الخطاب من خلال خبر تراثيّ هو جسر الرّصافة، ومن قبيل الإطار مرسوما بالكلمات من خلال قصيد للطّاهر الهمّاميّ "قلب العاصفة" من مجموعته "تأبّط نارا" ومن قبيل الإطار مكوّنا لغويّا وإيقونوغرافيّا في الكاريكاتور باعتماد نموذج للرّسّام الكاريكاتوريّ محمود كحيل موضوعه هجرة الأدمغة العربيّة مأخوذا من جريدة "الشّرق الأوسط".

---

[172] Frame semantics.

[173] Encylopedic knowledge model.

وقد خصّصنا الفصل الثّالث للخطاطات العرفنيّة في النّصّ، بما يقتضيه ذلك من تقديم عامّ لنظريّة الخطاطة من حيث معالمها وكون المقام خطاطات وأطرا، ومن حيث اشتغال الخطاطات العرفنيّة في النّصّ باعتماد نماذج منها خبر الأصمعي والرّشيد، ومن حيث الخطاطة وتحقّقاتها إمّا بالتّرسيخ ونماذجه عديدة وإمّا بالانهيار، ونماذج ذلك في الخطاب الهزليّ أساسا بما يتفرّع إليه ذلك الانهيار من أنماط تتضمّن الانهيار الأحاديّ المجمل المفرد ونموذجه خبر جحا والقميص، والانهيار الأحاديّ المتكرّر في خبر تذكرة الأضاحي، والانهيار المتعدّد المتّصل باعتماد المقامة الحلوانيّة نموذجا والانهيار المتعدّد المنفصل باعتماد قصّة الطّائيّ والطّائيّة، وما إلى ذلك.

أمّا الفصل الرّابع، وهو آخرها، فمخصّص للمناويل العرفنيّة في النّصّ وقد تضمّن تقديما للمعالم النّظريّة الأساسيّة في مفهوم المنوال العرفنيّ من حيث طبيعته وانتظامه ودوره في تمثّل التّجربة وتأويلها وجميع ذلك باعتماد نموذج من التّراث العربيّ تبين فيه اشتغال المناويل العرفنيّة العربيّة هو خبر المنصور بن أبي عامر الأندلسيّ.

فيجتمع لنا في هذا الباب أبنية عرفنيّة أربع هي المعرفة الموسوعيّة والأطر العرفنيّة والخطاطات العرفنيّة فالمناويل الثّقافيّة. نتوسّل بالمقرّرات النّظريّة أداة في تحليل الخطاب ونتوسّل بالخطاب العينيّ المدروس سبيلا إلى استكناه اشتغالها في الذّهن بانيا للخطاب أو محلّلا إيّاه.

الفصل الأوّل

المعرفة الموسوعيّة في النّصّ

مقدّمة

للمعرفة مفهومان: علميّ إبستيمولوجيّ خاصّ وثقافيّ عامّ. فهي بالأوّل جملة المعارف والمعلومات الثّابتة الصّحيحة الّتي كانت البرهنة عليها في مختلف المجالات والعصور. وهي بهذا المفهوم عدد من الأفكار أو المهارات يتلقّاها الفرد أو المجموعة، في إطار تعليميّ أو صناعيّ مهنيّ قد تضمّه مؤسّسة تعليميّة بالمعنى المتداول أو مجال مهنيّ تُتلقّى فيه الحقائق بشكل محدود لا يتجاوز أهل المهنة أو الحرفة أو الصّناعة أو قوما محدودين عرقا أو عقيدة.

أمّا المعرفة في المفهوم الثّقافيّ العامّ فهي كلّ ما يمثّل معتقدات الفرد أو المجموعة في جميع مظاهر الفكر والحياة في علاقة الفرد بمحيطه البيئيّ أو الاجتماعيّ وفي علاقته بالكون وبما يسعه، من معتقدات. وهي جملة الأفكار والقيم الّتي بها ينقاد الفرد في سلوكه وبها يفسّر ما بان من الظّواهر وما خفي في شكل منظوميّ يستقيم به عنده نوع من التّوازن ما بين السّؤال وجوابه أو ما بين الظّاهرة وتفسيرها.

ففي الكثير من الأحيان تكون الظّاهرة واحدة– ولتكن كسوف الشّمس مثلا– ولكنّ التّفاسير متنوّعة بصرف النّظر عن طبيعتها العلميّة الثّابتة أو الخرافيّة وما تستتبعه الواحدة منها من مظاهر السّلوك الطّقوسيّ في الخرافيّة أو التّوثيقيّ التّسجيليّ (الوضعيّ) في العلميّة. فالكسوف دافع عند بعض الأفراد – في المجتمع الواحد– إلى التّشاؤم إذ كان يمثّل نذيرا بالكوارث أو بالمصائب المجهولة، ودافع عند بعضهم الآخر إلى الاستزادة ممّا يوفّره غياب قرص الشّمس أو تقلّص لفحه من فرص لدراسة نشاط الهالة التّاجيّة فيها. كما يختلف التّفسيران العلميّ والخرافيّ بل ويتلابسان في مجموعة واحدة بأن يتعايشا في المجتمع الواسع موزّعا على فئتين أو كائنا في الذّهن الواحد مميّزا ما بينهما ومنتصرا للواحد على نقيضه.

فالواحد منّا يجتمع في معرفته جملة من التّفسيرات يعتقد أنّ بعضها صحيح ثابت مقنع حديث مؤسّس على المعاينة والتّجربة ويعتقد أنّ بعضها خرافيّ ضاربة جذوره في القدم، ولكنّ كليهما يمثّل مادّة معرفيّة يلمّ بها، فهي جزء من معرفته الّتي ينتمي بمقتضاها إلى مجتمعه الواسع وينتمي في قسمة أخرى إلى مجموعة التّفسير الخرافيّ أو مجموعة التّفسير العلميّ.

فالمعرفة تنشأ في الذّهن الجماعيّ نشوءها في أذهان أفراده نشوءا أساسه التّعامل الاجتماعيّ ما بين الأفراد وما بين الأفراد ومحيطهم بعناصره الآنيّة الفوريّة أو الزّمانيّة المتناقلة بتعدّد الأجيال وتمازجها.

وفي تصوّر المعرفة مستويات يمكن العود بها إلى مراتب. فبعضها نوويّ تفكيكيّ تكون فيه الوحدات المعرفيّة الجزئيّة. وموسوعيّ عامّ تكون فيه المعرفة بالكون من زاوية ثقافيّة اجتماعيّة. ويمثّل كلا النّوعين من المعرفة بما يتضمّن الواحد منهما من عناصر، أساسا لإنتاج الخطاب وفهمه. والشّرط في نجاح هذين العملين توفّر المعرفة أساسا ما قبليّا يكون به ضمان الانسجام في الخطاب واستقامته في أبنيته المعلومة.

المعرفة الموسوعيّة: معالم نظريّة

يقوم التّصوّر الموسوعيّ للمعرفة عامّة، وللمعرفة اللّغويّة خاصّة، في إطار اللّسانيّات العرفنيّة على عدد من الأسس يتميّز بها من النّظريّة الدّلاليّة القائمة على التّصوّر الكلاسيكيّ للمعرفة، ومن أهمّها:

لا انفصال ما بين الدّلالة والتّداوليّة ولا بين المعرفة والاستعمال، ولا بين المعجم (الذّهنيّ) والنّحو، ولا بين المعرفة باللّغة والمعرفة بالكون والتّجربة. فجميعها متداخل متعاظل مسترسل.

فكلّ عبارة لغويّة إنّما هي جزء من إطار متكامل من المفاهيم المترابطة بعلاقات تنتظم وفقها وتتنضّد في منظومة، يجري استعمالها في المقام أساسا فتكون تحقّقا لخطاطات تجريديّة في أوضاع مادّية تفاعليّة واقعيّة. فالمتكلّم بالعربيّة مثلا له في معرفته الموسوعيّة المتعلّقة بالعبارة "رأس" مثلا ما يعود إلى إطار متكامل فيه

من الخصائص المعجميّ المفهوميّ الصّرف والنّحويّ والتّداوليّ (الثّقافيّ العامّ والاجتماعيّ) ما به يكون تمثيلها مسترسلا بشكل تساهم فيه كلّ خصيصة في تصوّر جميع المعاني المقترنة بها وفي فهم المعنى المتحقّق منها في السّياق العينيّ.

ولذلك لا يجد المتكلّم بالعربيّة إشكالا في تأويل "رأس" في جميع سياقاتها ما كانت فيه دالّة على العضو المعلوم أو على خيار الشّيء في جميع المجالات (رأس القوم) أو على نتوء للبرّ يدخل البحر (رأس الرّجاء الصّالح) أو على المتقدّم من الأشياء جامعا لها (رأس العلوم، رأس البلاء) أو على طرف حادّ في الأداة (رأس الحربة) أو منتهى لمسلك ممتدّ (رأس الشّارع، رأس النّهج) وما إلى ذلك من المعاني المختلفة تتضمّن صفات من قبيل البلاهة أو البلادة (رأس اللّحم) أو العناد (رأس نحاس) وما إلى ذلك.

وهذا تصوّر تنتفي به قسمة المعنى إلى معنى نوويّ لغويّ حقيقيّ أصليّ نظاميّ ومعنى آخر سياقيّ مقاميّ إجرائيّ ثقافيّ لهجيّ مجازيّ. وإذ اجتمع القسيمان في واحد في مستوى العبارة المفردة، اجتمعا بالاستتباع في تصوّر المعرفة باللّغة عامّة يتوحّد فيها الذّهن بعالمه وتجربته وواقعه بما فيه من حركيّة وتفاعل فينتفي الفصل ما بين الدّلالة والتّداوليّة.

المعرفة الموسوعيّة منظومة منضّدة من المفاهيم

تنتظم جملة المفاهيم المكوّنة للمعرفة الموسوعيّة في شكل شبكيّ تترابط فيه جميعها بوجه تتحدّد فيه مراتب بروزها ودرجات مركزيّتها[174] في تحديد المفهوم وفي وجوه تحقّقه في السّياقات المختلفة، وقد تتنوّع المفاهيم المكوّنة للعبارة اللّغويّة الواحدة فتمتدّ على مجالات كثيرة وبانتظامها ذاك تتحدّد قيمة الواحد منها على درجات ما بين مركزيّ أو هامشيّ وما بينهما، وموقعه في تكوين الإطار الدّلاليّ المقترن بها (لانقاكر 1987، 63).

ويجمل لانقاكر (1987، 159) عددا من العوامل تنتظم وفقها العناصر في الإطار في مظهره الموسوعيّ انتظاما شبكيّا فتتوزّع تبعا لذلك على مختلف المراتب بعدا أو قربا من المركز تناسب الواحدة منها قيمة مسترسلة على درجات بعدا وقربا من المركزيّة.

---

[174] Centrality.

وهي أربعة أنواع : تواضعيّة وجامعة وذاتيّة ومميِّزة.

فالتّواضعيّة نوع قائم على المواضعة[175] أي مشترك بين أفراد الجماعة اللّغويّة، فما كان عامّا من العناصر المساهمة في تكوين المعنى المقترن بالعبارة اللّغويّة كان أقرب من المركز وكانت قيمته مركزيّة في تحديد الإطار وتكوينه. فتكون في ضوء هذا، كلّ الخصائص المكوّنة لمفهوم "رأس" عضوا معلوما من حيث موقعه في الجسم وشكله وكونه موطن الشّعر وحامل العينين والأذنين وما إلى ذلك، خصائص مشتركة.

والجامعة نوع يكون جامعا[176] عامّا منطبقا على الكثير من النّماذج يعمّها بتوفّره فيها، وإذ يكون ذلك كان موقعه في المركز أو قريبا وقيمته في تحديد الإطار مناسبة لذلك الموقع. وذلك من قبيل خصائص الرّأس الّتي بها تنضوي الكثير من نماذج العضو المعلوم في مختلف الكائنات الحيّة مثلا فيكون رأس الإنسان ورأس الحيوان ورأس الأفعى ورأس الشّاة وما إلى ذلك. فجريان "رأس" على هذه الكائنات جميعا يكون لخصائص مشتركة بينها جامعة ما تعلّق منها بالوظيفة أو الموقع من البدن، فهي قيم مركزيّة في الإطار، أمّا ما تعلّق باللّون مثلا أو بالشّكل أو بالحجم أو بخصائص أخرى مقترنة بذات معلومة من شخص أو حيوان فتكون في موقع من الشّبكة بعيدا عن المركز ولا تمثّل بعدا أساسيّا في تحديد الإطار.

وتُعتبر الخصيصة ذاتيّة[177] عندما تقوم – وجودا أو تصوّرا- دون علاقة لها بالخارج من العوامل عن الذّات أو الوحدة أو المفهوم (لانقاكر1987، 160). وتضمّ كلّ الخصائص المكوّنة للوحدة أو للمفهوم في ذاته ولذلك يطلق عليها الخصائص الدّاخليّة الّتي لا صلة لها بما عداه من المفاهيم أو الوحدات أو العالم الخارجيّ والثّقافة. ولكنّ أغلب الخصائص الذّاتيّة المتوفّرة في وحدة ما، تجري في الخصائص العامّة المنطبقة على الجنس أو الطّراز. وذلك من قبيل خصائص "رأس" من حيث شكله وموقعه ومكوّناته ووظيفته بما فيه من أعضاء. ولكن إن

---

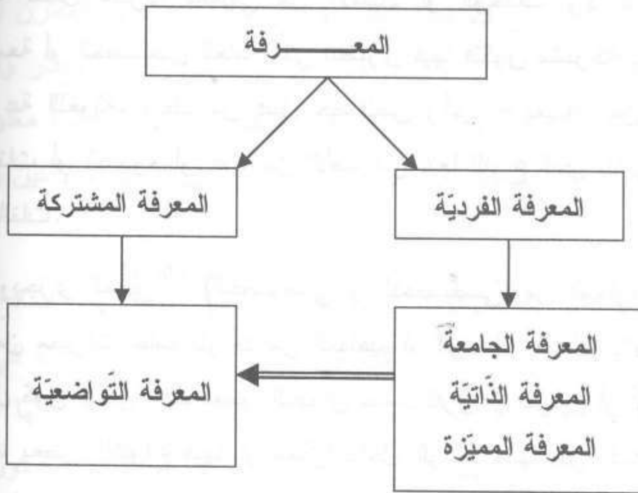
[175] Conventional.
[176] Generic.
[177] Intrinsic.

أخذت رأسا بعينه وجدت هذه الخصائص من ذاتيّته أو ممّا يميّزه من جميع الرّؤوس. ولكنّ بعض الخصائص الذّاتيّة ممّا لا يمكن الاهتداء إليه من الخصائص الجامعة فتظلّ مقترنة بالعينيّ من الأشياء أو الوحدات ولا تدخل في إطار المواضعة أو الخصائص العامّة الّتي تنضوي فيها فتكون مشتركة بين جميع أفراد المجموعة اللّغويّة، وذلك من قبيل خصائص رأس - بعينه- من حيث تضمّنه للبروتينات أو الشّحوم أو عدد من الأضراس تبعا للنّوع الّذي ينتمي إليه صاحبه من الكائنات.

ويجري المميّز[178] (الخصوصيّ أو التّخصيصيّ) من المعارف على كلّ ما يكون من مميّزات عامّة للواحد من المفاهيم أو الوحدات فيعمّها بالاستتباع، وذلك من قبيل كون "رأس" عند بعض الحيوان حاملا لقرن أو لقرنين أو أكثر فيكون من مميّزات بعض الأنواع فيها أو مميّزا داخل الواحد منها بين الذّكَر (أو الفحل) والأنثى فيها إمّا بحضوره عند الذّكر وغيابه عند الأنثى أو باعتماد الحجم والشّكل فارقا بين الذّكر والأنثى في النّوع الواحد صغيرا عند الأنثى كبيرا ضخما عند الذّكر، ومن ذلك تميّز وحيد القرن بقرن واحد أو تميّز بعض الأيائل بتعدّد القرون المتفرّعة إلى أغصان وهلمّ جرّا. فكون الرّأس حاملا لقرون ليس من المواضعة ولا من الذّاتيّ إذ من الرّؤوس ما لا قرون فيه، فليست من مكوّنات الإطار المركزيّة ولكنّها بعد يختصّ به الرّأس عند بعض الأنواع من حيث العدد والشّكل والحجم والتّشابك وما إلى ذلك. وفي العموم يمكن قسمة المعارف إلى معرفة مشتركة[179] وأخرى فرديّة[180] شخصيّة ومعرفة جامعة[181] ومعرفة ذاتيّة[182] ومعرفة مخصوصة[183] ومعرفة تواضعيّة[184]:

[178] Characteristic.
[179] Shared knowledge.
[180] Individual knowledge.
[181] Generic knowledge.
[182] Intrinsic knowledge.
[183] Characteristic knowledge.
[184] Conventional knowledge.

(1) أنواع المعارف وتعاملها (إيفانس وقرين 2006)



المعنى موسوعيّ وسياقيّ مقاميّ

يجري التّمييز في الدّراسات الدّلاليّة العرفنيّة ما بين المعنى الموسوعي[185] والمعنى السّياقيّ[186] المقاميّ أو المعنى المُمَوضع[187]. وهو في نوعيه مختلف عن تصوّر النّظريّات الدّلاليّة المعهودة.

فالمعنى الموسوعيّ ناشئ باعتماد العوامل الّتي أوردناها في الفقرة السّابقة (تواضعيّة وجامعة وذاتيّة ومميّزة) ولكنّه متحقّق في الاستعمال الّذي يجري في مقام بما يتضمّن ذلك من مكوّنات لغويّة (سياقيّة) وأخرى غير لغويّة. فيكون نوع من الاختيار أو الانتقاء يجري على المعاني الموسوعيّة يترشّح بعضها في سياق عينيّ وينتفي سائرها بحكم ما يستصفيه المقام.

فمعنى الوحدة اللّغويّة لا يتحدّد في المطلق سلفا يكون جاهزا منقسما إلى معان نوويّة مكتملة ومعان سياقيّة مقاميّة هي فرع من تلك تهمّ التّداول، كما هو

[185] Encyclopedic meaning.
[186] Contextual meaning.
[187] Situated meaning.

الحال في التّصوّر المعجميّ المعهود وإنّما يكون المعنى موجّها بالسّياق في مستوى مخصوص أو بالاستعمال في مظهره العامّ، وقد نشأ في هذا التّوجّه عدد من النّظريّات توصف بالمناويل القائمة على الاستعمال أو المناويل الاستعماليّة[188].

وفيها يُعتبر المعنى متحقّقا أو ناشئا آن-القول[189] في ضوء المعطيات المتوفّرة من المقام والمعرفة بالعالم زمن القول. فلا يكون للوحدة المعجميّة معان جاهزة سلفا محدّدة تحديدا دقيقا بصرف النّظر عن طريقة انتظامها في شكل قائمة أو انتظاما شبكيّا، وإنّما يكون اختيارها من معرفة موسوعيّة هي عبارة عن رصيد من المعاني الممكنة[190] (ألّوُود2003) أو مخزون من المعاني تقترن بالوحدة المعجميّة تمثّل مدى[191] لها (كروز2000).

ويجمل إيفانس وقرين (2006، 221) أنواع السّياق الفاعلة في تحقّق الوحدة المعجميّة وهي متكاملة متفاعلة في جميع ذلك:

(1)- جملة المعلومات الموسوعيّة بما في ذلك موقع المفهوم المتحقّق في السّياق، من شبكة المعارف المخزّنة في المعرفة المشتركة بين النّاس.

(2)-السّياق الجمليّ[192](الإعرابيّ) يطابق العلاقات النّسقيّة ما بين مكوّنات الجملة.

(3)-السّياق العروضيّ[193] بما يجتمع فيها من الظّواهر ما فوق القطعيّة كالتّنغيم والنّبرة والارتفاع النّغميّ وما إلى ذلك.

(4)-السّياق المقاميّ[194](المموضع) متمثّلا في الإطار الماديّ المحيط بعمليّة القول.

(5)- سياق التّفاعل ما بين المشاركين[195] في عمليّة التّخاطب من حيث العلاقة القائمة بينهما زمن القول.

---

188 Usage based model(s).
189 On line.
190 Meaning potential (Allwood 2003).
191 Purport (Cruse 2000).
192 Sentential context.
193 Prosodic context.
194 Situational context.

من المتصوّرات النّظريّة السّائدة في الدّرس الدّلاليّ كون الوحدة المعجميّة نوعا من الحاوية[196] تتضمّن المعاني مخزونة فيها تنفضّ عند الاستعمال ليتفكّك ما فيها. وهذه المعاني تصحب الوحدة المعجميّة حال انتقالها من المتكلّم إلى السّامع. ولكن لا شيء ينتقل من هذا إلى ذاك ماعدا التّموّجات الصّوتيّة بذبذباتها المعلومة. والأصل –عند لانقاكر– قائم على التّناسب الرّمزيّ[197] ما بين البنية الصّوتميّة والبنية الدّلاليّة.

فكلّ وحدة معجميّة تُنشِط عددا من المفاهيم المترابطة في شكل تجمّعات كلّ واحدة منها تمثّل روتينا عرفنيّا[198] من حيث كان ذلك الإنشاط آليّا أوتوماتيكيّا هو ثمرة تواتر الاقتران أو التّلازم ما بين البنية الصّوتميّة والبنية الدّلاليّة (لانقاكر1987، 162). فالوحدة المعجميّة لا تقترن مباشرة بمفهوم واحد بسيط مفرد وإنّما تمثّل نقطة اهتداء[199] إلى شبكة كاملة من المفاهيم تجتمع في منظومة مترابطة المكوّنات للواحد منها موقع في سلّميّة منضّدة، مثال ذلك أنّ "رأس" في العربيّة لا تدلّ على الجزء من البدن المعلوم أو على سائر المفاهيم المقترنة بها، دلالة مفردة، وإنّما تمثّل مدخلا لحقل كامل من المفاهيم المترابطة والمتشابكة سبق أن عرضناها، فإذا ما حدث أن دلّت على معنى واحد من تلك الشّبكة – دلالة سياقيّة– إنّما يكون ذلك المعنى مدخلا أو نقطة اهتداء إلى تلك الشّبكة في عمومها. فالمعنى المتحقّق في سياق بعينه من لفظ بعينه ليس إلاّ مدخلا لشبكة متكاملة من المفاهيم يمثّل فيها ذلك المدخل مشدّا أوّل يكون به إنشاطه أوّلا وإنشاط سائر العناصر في الشّبكة في درجات أخرى. وهذا نتيجة لاشتغال الذّهن اشتغالا منظوميّا شبكيّا لطبيعة الدّماغ المنظوميّة الشّبكيّة فالذّهن ليس إلاّ نشاطا عصبيّا دماغيّا.

---

195 Interpersonal context.
196 Container(s).
197 Symbolic correspondence.
198 Cognitive routine(s).
199 Access (point of).

فالعبارة اللّغويّة من قبيل الوحدات المعجميّة أو ما نطلق عليه العبارات الجاهزة والأمثال وما إليها، جارية في الاستعمال، إنّما تتحقّق في سياقات مقاميّة يكون لها فيها إنشاط لمعارف موسوعيّة عامّة كما سبق بيانه، وهي إذ تُنشط المفهوم العينيّ في الذّهن إنّما تُنشطه من حيث هو منتم إلى شبكة متكاملة من المفاهيم المنتظمة المنضّدة.

ولهذا الأمر لا يكون بناء الخطاب أو فهمه قائما على معان إفراديّة للوحدات المعجميّة أو معان جمليّة هي خلاصة المعاني الجزئيّة لألفاظ الجملة الواحدة فالجمل المكوّنة للخطاب، وإنّما قوامه ما يَنشط من الشّبكات المفاهيميّة في ضوء ما يكون في بنية الخطاب من توليف بين الوحدات اللّغويّة ألفاظا كانت أو مركّبات أو جملا.

فالعبارة اللّغويّة الواحدة تستصحب معنى واحدا في ظاهر الأمر استصحابا آنيًا فوريًا ولكنّها في الأساس مستصحبة لما وراء ذلك المعنى من معان مترابطة متشابكة. ولنا عود إلى توضيح هذا في نصّ من مقامات الهمذانيّ نموذجا لما نحن فيه من الطّرح النّظريّ.

حركيّة المعرفة الموسوعيّة

تمثّل القواميس أو المعاجم تسجيلا لجملة من المعاني المقترنة بالوحدات اللّغويّة بأشكال مختلفة تبعا لنوع القاموس وتوجّهه مجالا واختصاصا وخلفيّة نظريّة وأدوات صناعيّة طباعيّة. ولهذا التّسجيل بمختلف أنماطه أثر في تصوّر الدّلالة المعجميّة على أنّها شيء ثابت يقترن فيها المدخل المعجميّ بالمعنى الواحد أو بالعدد من المعاني اقترانا مستمرّا لا يتغيّر.

ولكنّ المعاجم لا تمثّل إلاّ حالا لغويّة مقتطعة من مسترسل زمانيّ قوامه الاستعمال مبدّل الأحوال والقيم، ولذلك تجد المعاجم في نشرات متلاحقة على وتيرة منتظمة يجري في اللاّحق منها تنقيح السّابق بالتّعديل أو بالتّوسيع أو بالحذف وما إلى ذلك. ورغم هذا فهي عاجزة عن الإحاطة الكمّيّة بالمعاني اللّغويّة النّاشئة في حركيّتها المقترنة بحركيّة الإنسان.

ولا يعني هذا أن لا ثبات في المعاني أو في الألفاظ أو في التّقارن ما بينها واحدا بواحد، وإنّما الأمور نسبيّة. ففي الدّلالة المعجميّة- دلالة الألفاظ- ثبات لا شكّ فيه واستمرار، هذا في تصوّر الدّلالة المعجميّة المعهودة على أنّها تقارن أحاديّ ما بين اللّفظ الواحد والمعنى الواحد، ولكن إذ ثبت أنّ الدّلالة مقترنة بالمعرفة، وثبت أنّ المعرفة موسوعيّة وأنّ اللّفظ لا يقترن بمعنى مفرد وإنّما يقترن به جزءا من منظومة شبكيّة منضّدة فيكون لذلك نقطة اهتداء للمعرفة العامّة جزءا من النّظام العرفنيّ العامّ، كان من الضّروريّ إعادة النّظر في طبيعة المعرفة المعجميّة، من حيث حركيّتها وثباتها.

فمن الثّابت أنّ كلمة "رأس" مثلا تدلّ على العضو المعلوم بالأصالة – في عبارة متداولة- إذ هو المعنى الّذي يبدر إلى الذّهن، وهذا ما تسجّله المعاجم، ولكن إذ يكون مفهوم الرّأس العضو مرتبطا بعدد متنوّع من المفاهيم انتفت الأصالة لهذا المفهوم وأصبح الأمر متغيّرا متبدّلا من حيث مداخل تلك المفاهيم.

فعندما يجري "رأس" في عبارة من قبيل "رأس الإبرة" يبدر معنى آخر هو طرف الأداة المعلومة أو من قبيل "رأس الحربة" يبدر معنى آخر هو شخص أو مجموعة ذات موقع طرَفيّ ظاهر في صراع أو في مواجهة ووراءه في الواقع أطراف أخرى، ويمكن المواصلة في هذا، والمهمّ أنّ طرف الأداة في سياق معلوم يمثّل معنى مبادرا ونقطة اهتداء إلى الشّبكة كاملة كما هو الأمر في رأس الحربة وما شابهها، فكلمة "رأس" غير ذات دلالة ثابتة، وما تبرير التّنوّع في دلالاتها بتوسّط المجاز وما إليه إلاّ توصيف لمظهر عامّ أساسيّ هو حركيّة الدّلالة اللّغويّة.

ولكنّ حركيّة الدّلالة ليست كائنة لذاتها وإنّما هي مرتبطة بحركيّة في المعرفة الموسوعيّة العامّة، وهي، ما كانت مظهرا للنّشاط العرفنيّ، شأنها عدم الثّبات وحتميّة التّوسّع والتّمطّط والتّطوّر.

ولنعد إلى "رأس"، فهو نقطة اهتداء إلى جميع المفاهيم المترابطة المكوّنة لمجال عرفنيّ كامل مترامي الأطراف يداخل مجالات أخرى ويقاطعها، وهو عند التّأمّل حركيّ متّسع:

فإذا ما اعتبرنا أنّ دلالته على العضو المعلوم ثابتة يمكن انطلاقا منها أن نهتدي إلى مجال الميكانيكا حيث نجد عبارات من قبيل "رأس حصان" جارية على العربات الّتي امّحى فيها رقمها التّسلسليّ الأصليّ المحفور في هيكلها، بفعل الاهتراء أو الصّدإ وما إليه، وذلك بعلامة على شكل رأس الحصان، تُحفر بأداة على الهيكل دليلا على تغيّر رقمها الأصليّ ومرورها من المراقبة المنجميّة في مصالح الجولان الحكوميّة.

كما نجد الخوذة يغطّى بها الرّأس عند راكب الدّرّاجة النّاريّة، أو عند سائق سيّارات السّباق أو في مجال الطّيران بل في مجال ريادة الفضاء، كما يكون الاهتداء إلى حيّز من مجال الحرب بما فيه من سلاح ورأس الحربة منه، والبيضة - في القديم- خوذة المحارب ورأس الدّبّوس وما إليها، ويكون الاهتداء كذلك إلى مجال النّحو في رأس الجملة ورأس المركّب وقريب منه مجال الكتابة في رأس السّطر ورأس الصّفحة، وما إلى ذلك.

والمهمّ أنّ المعرفة الموسوعيّة إطار متكامل به يكون إنشاء الخطاب وتأويله وبه تكون دلالة الوحدة اللّغويّة، وفيه من الحركيّة ما لا يمكن السّيطرة عليه إلاّ بتصوّر الدّلالة منبنية آنَ-القول تشتغل فيها آليّات عرفنيّة قوامها التّوزّع والتّوازي في إطار شبكيّ تشتغل فيه بعض المواطن فتكون نشطة بارزة في المستوى الأوّل المباشر وما وراءها حاضر عامل ناشط ولكن من درجة ثانية. وهذا أمر روتينيّ آليّ يفلت في الأغلب من الوعي أو الإدراك إفلات حركات التّنفّس أو دقّات القلب منّا لا نعي بها وإن كنّا بها نعيش ونحيا.

انتظام المعرفة في الخطاب: المقامة الحلوانيّة نموذجا

نتّخذ من التّراث الأدبيّ العربيّ قسما من المقامة الحلوانيّة من مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ نموذجا نصّيّا تبين به مظاهر الانتظام في المعرفة الموسوعيّة واشتغالها في بناء الخطاب وفي تأويله:

(2) المقامة الحلوانيّة

حدّثنا عيسى بن هشام قال:

لمّا قفلتُ من الحجّ فيمن قفل، ونزلت حلوانَ مع من نزل قلت لغلامي: "أجد شعري طويلا، وقد اتّسخ بدني قليلا، فاختر لنا حمّاما ندخله وحجّاما نستعمله. وليكن الحمّام واسع الرّقعة نظيف البقعة طيّب الهواء معتدل الماء وليكن الحجّام خفيف اليد حديد الموسى نظيف الثّياب قليل الفضول. فخرج مليّا وعاد بطيّا وقال: قد اخترته كما رسمت، فأخذنا إلى الحمّام السّمتَ وأتيناه فلم نر قوامه. ولكنّي دخلته ودخل على إثري رجل وعمد إلى قطعة طين فلّطخ بها جبيني ووضعها على رأسي، ثمّ خرج ودخل آخر فجعل يدلكني دلكا يكدّ العظام، ويغمزني غمزا يهدّ الأوصال ويصفّر صفيرا يرشّ البزاق ثمّ عمد إلى رأسي يغسله وإلى الماء يرسله. وما لبث أن دخل الأوّل فحيّا أخدع الثّاني بمضمومة قعقعت أنيابَه وقال: يا لُكَعُ، ما لك ولهذا الرّأس وهو لي. ثمّ عطف الثّاني على الأوّل بمجموعة هتكت حجابه وقال: بل هذا الرّأس حقّي وملكي وفي يدي. ثمّ تلاكما حتّى عييا وتحاكما لِما بقِيا. فأتيا صاحب الحمّام فقال الأوّل: أنا صاحب هذا الرّأس لأنّي لطّخت جبينه ووضعت عليه طينه، وقال الثّاني: بل أنا مالكه لأنّي دلكت حاملَه وغمزت مفاصله، فقال الحمّاميّ:ائتوني بصاحب الرّأس أسأله، ألك هذا الرّأس أم له. فأتياني وقالا: لنا عندك شهادة فتجشّم. فقمت وأتيت، شئت أم أبيت. فقال الحمّاميّ: يا رجل لا تقل غير الصّدق، ولا تشهد بغير الحقّ، وقل لي هذا الرّأس لأيّهما؟ فقلت: يا عافاك اللّه، هذا رأسي قد صحبني في الطّريق وطاف معي بالبيت العتيق، وما شككت أنّه لي. فقال لي: اسكت يافضوليّ، ثمّ مال إلى أحد الخصمين فقال: يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع النّاس، بهذا الرأس، تسلَّ عن قليل خطَره إلى لعنة اللّه وحرّ سقَره، وهب أنّ هذا الرّأس ليسَ وأنا لم نر هذا التّيسَ. قال عيسى بن هشام: فقمت من ذلك المكان خجِلا ولبست الثّياب وجِلا وانسللت من الحمّام عجِلا وسببت الغلام بالعضّ والمصّ ودققته دقّ الجصّ(...).

الهمذاني(398 هـ): المقامات

تحقيق وشرح: محمّد عبده

دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.2005.

يمثّل هذا النّصّ نموذجا من كثير تتجلّى فيه مظاهر التنضّد في المعرفة بأنواعها ثمّ اشتغالها في تحديد الدّلالة في الخطاب بوجوه يكون تراكب مكوّنات تلك المعرفة المنضّدة في ذهن القارئ/السّامع شيئا فشيئا إلى أن يبلغ النّصّ منتهاه، ومدار جميعها الخصائص الذّاتيّة الدّاخليّة وعلاقتها بالخصائص الخارجيّة في

مفهوم "الرّأس" وقد صُوِّر من رؤيتين أو زاويتين: زاوية الرّاوي حامل الرّأس من جهة، وزاوية المدلّكيْن وزاوية الحمّامي من جهة أخرى، ثمّ ينتهي الأمر في النّهاية إلى انتفاء وجود الرّأس مطلقا تختصره العبارة (وهب أنّ هذا الرّأس ليسَ). فالوجود مطلقا، ليس مشروطا بالشّيء في ذاته وإنّما الشّيء موجود من حيث هو قيمة تبادليّة هي رقم يعني أجرا ماليّا (درهما أو فلسا) مقابل العمل على الرّأس (موضوع العمل). وفي جميع ذلك تنشط مظاهر من المعرفة العامّة، عند القارئ/السّامع شيئا فشيئا وتتحدّد شيئا فشيئا. وكذا تبنى بها عوالم الخطاب.

ويمكن أن نجعل النّصّ جملة من المَشاهد تنقسم قسمة كبرى إلى ما هو خارج الحمّام وما هو داخله، وينقسم ما يجري داخل الحمّام إلى مشاهد أو أطوار يمكن للقارئ أن يهتدي إليها بيسر: دخول الحمّام، عمل الرّجل الأوّل وخروجه، عمل الرّجل الثّاني ودخول الأوّل، الخصومة بالقول والمصارعة بالعنف، الاحتكام إلى الحمّاميّ وفيها شهادة الرّاوي، صاحب الرّأس الحقيقيّ، فخروجه هاربا.

وكلّ ما يعنينا من جميع ذلك هو الرّأس وما به تتعامل مختلف الأنماط المعرفيّة في بناء المعنى وانتظامه في المقامة الواردة نموذجا لانتظام تلك الأنماط في الخطاب.

فمثار الإشكال في شأن الرّأس مرتبط بالمقام: الحمّام مجال لتقديم خدمة فهو مؤسّسة اقتصاديّة، والخدمة عمل يستفيد منه شخص (زبون) يدفع مقابله قيمة نقديّة تمثّل أجرا لشخص يؤدّي تلك الخدمة. وإذ يتعدّد الأشخاص المأجورون تنشأ المنافسة والمنافسة سبيل إلى التّنازع، فيكون الرّأس محلّ تنازع متشابك بين الرّجل الأوّل والرّجل الثّاني وعيسى بن هشام. وكلّ تنازع عمليّة جارية بين أطراف النّزاع يدلي فيها الطّرف الواحد بحججه بها يسعى إلى حقّه أو ما يراه حقّا له بالأعمال البدنيّة ضربا ومصارعة وبالأعمال اللّغويّة حجاجا وإقناعا. وعند غياب الحلّ يكون النّزاع محتاجا إلى حكَم أو قاض يفصل بأن يدلي عنده كلّ طرف من المتنازعَين بحججه، وشاهد يدلي بشهادة قد يرجح بها طرف على آخر، وبأن يعود إلى مرجع ما هو إطار فقهيّ أو قانونيّ أو عرفيّ يمثّل تراكما لتجربة جماعيّة،

عليه تُعرض الحالة بتفاصيلها العينيّة المقترنة بالنّزاع ويكون الحكم لواحد من الطّرفين أو عليه.

وهذا جزء من المعرفة الموسوعيّة العامّة في إطار ثقافيّ عربيّ شرقيّ يكون الحمّام جزءا من حياته، فيكفي أن يُذكر الحمّام لتنشط جملة من المفاهيم المترابطة تمثّل إطارا حاصلا في الذّاكرة العامّة، وكذلك إطار القضاء والشّهادة وما إليها من الأطر الّتي يستدعيها النّصّ في مشاهده المختلفة فتنشط، من قبيل مشهد الدّلك والتّطيين والتّلاكم جاريا في الحمّام وما إليها.

قال الرّجل الأوّل : (ما لك ولهذا الرّأس وهو لي ؟) وقال الرّجل الثّاني: (بل هذا الرّأس حقّي وملكي وفي يدي)، وما بين القولين انتقال من نسبة الرّأس إلى الرّجل الأوّل متكلّما في (لي) إلى كونه حقّا وملكا في اليد. فالخلاف ليس في وجود الرّأس إذ تكون الإشارة إليه بـــ(هذا) عند الخصمين واحدةً، دليلا على وجوده في ذاته مستقلاّ عنهما وعن صاحبه عيسى بن هشام. ولكنّه كائن في علاقة له نشأت في مقام الحمّام.

ولعلّ مجرّد نسبة الرّأس نسبة مطلقة إلى الرّجل الأوّل بحرف النّسبة (لـــ) ونسبته إلى الثّاني بوحدات معجميّة من حقل دقيق هو حقل الحقّ والملكيّة، والتّصرّف مدلولا عليه بـــ(في يدي)، مناسبة لقدر الشّغل أو العمل المنجَز من كليهما. فقد اكتفى الأوّل بحجز الرّأس بأن عمد إلى قطعة طين لطّخ بها الجبين ووضعها على الرّأس وانصرف قد يكون طلبا لرأس آخر يحجزه أو انتظارا للطّين يفعل فعله بالوسخ في الشّعر، أمّا الثّاني فقد كان شغله أي طاقته البدنيّة أكبر، وعنايته أدقّ وأعمّ شملت البدن كاملا بل إنّه لم يبادر بغسل الرّأس وإنّما اعتنى بسائر الأعضاء من الجسم، وأنهى جميع ذلك بغسل الرّأس، يسكب الماء سكبا كأنّه يمحو آثار الحجز السّابق من الرّجل الأوّل. ثمّ إذا ما اعتبرنا الزّمان في هذا المشهد يكون الرّجل الثّاني حائزا للرّأس موضوع النّزاع زمن التّبادل القوليّ يدعم ذلك قوله (في يدي)، فيزداد حقّه في الرّأس رسوخا ويزداد الرّجل الأوّل تشبّثا بحقّه في الرّأس بحكم أسبقيّة حجزه في الزّمان ويزداد صاحبه البيولوجيّ –عيسى بن هشام– غيابا وامّحاء وتشيّؤا في ذلك الحيّز من الزّمن.

ومن قرائن ذلك ورود الرّأس منسوبا إلى صاحبه نسبة مطلقة في قوله متحدّثا عن الرّجل الأوّل (وعمد إلى قطعة طين فلّطخ بها جبيني ووضعها على رأسي) وفي قوله عن الرّجل الثّاني:(ثمّ عمد إلى رأسي يغسله)، ولكنّ ذلك يتحوّل -عند طرفي النّزاع – إلى إشارة تعيينيّة بها يتحدّد الرّأس شيئا في العالم والتّجربة يدّعي الواحد منهما ملكيّته.

وينشط إطار التّقاضي بما فيه من العناصر والعمليّات بجملة مفردة هي (تحاكما لما بقيا) وتتحقّق تلك العناصر في شخص صاحب الحمّام قاضيا أو حكما، وفي المتنازعَين كلاًّ يثبت دعواه في ملكيّة الرّأس وفي شخص الزّبون الشّاهد (عيسى بن هشام). كما يتحقّق الإطار في العمليّات من سماع الطّرفين أوّلا فالشّاهد ثانيا فالحُكم ثالثا.

أمّا السّماع فقد ورد فيه المضمون السّابق بمعناه وإن زاد كلّ من المتنازعين درجة في نسبة الرّأس إليه: "قال الأوّل: أنا صاحب هذا الرّأس لأنّي لطّخت جبينه ووضعت عليه طينه، وقال الثّاني: بل أنا مالكه لأنّي دلكت حاملَه وغمزت مفاصله."

وإذ يكون ذلك يترسّخ إطار الملكيّة، من العموم في (صاحب الرّأس) مناسبةً للعمل المنجز عليه من حيث كان مجرّد تلطيخ للجبين ووضع الطّين على الرّأس، فهو عمل لم يتجاوز حدود الرّأس إذ اكتفى بالشّعر والجبين من البدن، يترسّخ بأن يتحوّل من ذلك العموم إلى ملكيّة صريحة عامّة تناسب العمل المنجز إذ كان شاملا للبدن ظاهره وباطنه متمثّلا في مفاصله وقد غُمزت. ولأوّل مرّة يشار إلى صاحبه البيولوجيّ إشارة محايدة – يزيد بها صاحبه تشيّؤا- وذلك باستعمال صفة الحمل جارية في اسم الفاعل في قول الثّاني:(لأنّي دلكت حاملَه). فهو مالك الرّأس والرّاوي حامله. فإذا ما تضمّن الكلُّ الجزء وإذا ما دلك الثّاني الجسم كاملا وكان الجسم حاملا للرّأس، كان من حقّه أن يُتبع الرّأسَ الجسمَ إتباعَ الجزء للكلّ.

أمّا الشّهادة فمنشّطها دعوة الحمّامي الّذي نُصّب قاضيا حكَما إلى إحضار (صاحب الرّأس) لسؤاله في ملكيّة رأسه لأيّ من المتنازعين تكون. وهو إطار

يكتمل بعدد من العناصر بعضها عمليّ ماديّ يتمثّل في إرسال المتخاصمين لإحضار عيسى بن هشام فهما يؤدّيان دور الشُّرَط، وبعضها نفسيّ اجتماعيّ من حيث صعوبة الشّهادة (فتجشّم)، ومن حيث واجب الشّهادة عملا اجتماعيّا يؤدّى بالذّهاب إلى مقرّ القاضي وجوبا (قمت وأتيت، شئت أم أبيت)، ومضمونا مطابقا لحال الأشياء صادقا أساسا لقيام الحكم العادل (يا رجل، لا تقل غير الصّدق، ولا تشهد بغير الحقّ)، وبعضها في السّؤال يكون من القاضي تطلب به الشّهادة (قل لي هذا الرّأس لأيّهما؟).

فيكون صاحب الرّأس البيولوجيّ مرجعا شاهدا يُسأل في شأن جزء من جسده: هو شيء ورأسه شيء آخر، يتجلّى ذلك في مناداة الحمّاميّ إيّاه بـ (يا رجل)، وبتعيين رأسه بالإشارة في (هذا الرّأس).

وينشط إطار الموعظة والنّصح من الحمّاميّ يرجّح واحدا من المتخاصمين -لا يحدّده الرّاوي- باعتماد الاستعاضة عن متاع الدّنيا الزّهيد متمثّلا في الرّأس القليل الخطر والقيمة، بالفوز بالآخرة اتّقاء لغضب اللّه والنّار، فيكون المحوُ المطلق لرأس الرّاوي من الوجود في قوله (وهب أنّ هذا الرّأس ليسَ)، ومسخ صاحبه تيسا (وأنّا لم نر هذا التّيس). وهذا آخر ما يبلغه التّشيّؤ، فقد دخل الرّاوي الحمّامَ إنسانا عاقلا وخرج منه تيسا بلا عقل، إذ فقد ما بين هذا وذاك رأسَه موطن العقل وحامله، فقد بدأ الرّاوي جسدا حاملا لرأس وانتهى برأس غير موجود، صاحبُه تيس غير محمود، يستوي فيه حضور الرّأس وغيابه، وهو – فوق ذلك- فضوليّ إذ تدخّل في ما لا يعنيه فكان أن سمع ما لا يرضيه.

فيكون الرّاوي -عيسى بن هشام- منشطرا إلى قسمين انشطارَ العضو لانعكاسه على عدد من المرائيّ (مرآة نفسه، الرّجل الأوّل، الرّجل الثّاني، الحمّاميّ): الرّأس عضوا ذاتيّا والرّأس شيئا بضاعة. ولكنّه في شهادته يعود بذلك الانشطار المتعدّد، إلى واحد بإثبات نسبة أساسيّة دائمة مطلقة بين جسمه ورأسه بقوله (هذا رأسي) وأخرى يتلازم فيها الرّأس والبدن في العيش والحياة في الزّمان وفي المكان مطلقين في قوله (قد صحبني في الطّريق)، أو معيّنين محدودين بالكعبة بقوله (وطاف معي بالبيت العتيق)، وأخرى يتلازم فيها العضو بوظيفته

العقليّة متمثّلة في الوعي بالعالم والتّجربة بما فيها هو ذاته أداة يقين أو شكّ، في قوله (وما شككت أنّه لي).

كانت البداية في النّصّ بالبدن (مفهوما عامّا مشتركا جنسيّا يتضمّن الأطراف والعظام والصّدر والرّأس تضمّنا) وبطول الشّعر (هو الشّعر في ذاته وهو جزء من البدن ومن مستلزماته الرّأس الكائن في البدن ولكنّه مخصوص بالطّول المستدعي للحجامة والحلاقة)، ليستقرّ ما بعد ذلك في الرّأس مفهوما محرّكا في بناء النّصّ وتمثيله، وفي جميع ذلك تتدخّل عناصر المعرفة الذّاتيّة المكوّنة لمفهوم الرّأس كما يلي:

اشتغلت المعرفة الموسوعيّة مقترنة بالرّأس، بأنواعها التّواضعيّة والجامعة والذّاتيّة والمميّزة، اشتغالا واحدا في جميع المقاطع من النّصّ، وقد كانت متداخلة بشكل يطول عرضه، ولذلك قد اكتفينا بالإشارة إلى بعض ذلك التّداخل. ولكنّ المظهر الأساسيّ الغالب في اشتغالها ذاك إنّما هو التّفاوت بينها في نسبة الاستمرار بانية لعالم الخطاب، فتتقلّص الواحدة منها بعد الأخرى على تدرّج يناسب عكسا موقعها في السّلّميّة المذكورة. فينتهي النّصّ وقد أصبح ترتيبها كما يلي: المميّزة والذّاتيّة والجامعة والتّواضعيّة، كما تنتفي الواحدة منها بعد الأخرى بتقدّم النّصّ، على ذلك التّرتيب.

فقد دخل الرّأسُ الحمّامَ وهو رأس (التّواضعيّة) لشخص ليس مختلفا عن سائر الرّؤوس البشريّة (المعرفة الجامعة) وعومل كذلك بأن جعل عليه بعض الطّين ثمّ دُلك (المعرفة التّواضعيّة والجامعة)، فكان إلى هذا الحدّ رأسا لصاحب معلوم، وإذ أصبح محلّ اختلاف بين المتخاصمَين تقلّص كونه رأسا، ثمّ كونه لشخص، ليتعلّق الأمر برأس بعينه (المعرفة الذّاتيّة) وصاحبه لا يهمّ في هذا الشّأن، وإذ يُرفع الخلاف إلى الحمّاميّ قاضيا، يتحوّل البحث إلى ما به يتميّز الرّأس من كونه رأسا لصاحبه أو رأسا للمدلّك الأوّل أو للمدلّك الثّاني (المعرفة المميّزة)، لينتهي النّصّ على اكتساب الرّأس خصيصة لم يدخل بها هي كونه رأس تيس بما يمكن أن يتصوّره الواحد منّا من خصائص لرأس التّيس وما يندرج فيه هذا المفهوم من المعرفة الموسوعيّة. وفي ذلك يكمن انهيار الخطاطة ومثار الهزل، وأساس

جميع ذلك انهيار لبنية معرفيّة على درجاتها المعلومة. فقيمة الرّأس رهينة المقام ورهينة الأطراف تتخالط فيه المعارف بأنواعها متفاعلة متشابكة حركيّة حيّة.

والمهمّ أن نثبت من خلال ما تقدّم أنّ فهم الخطاب وتأويله يقومان على ركيزة أساسيّة تتلخّص في مفهوم المعرفة بما فيها من معلومات حاصلة عند الفرد بعضها اجتماعيّ ثقافيّ وبعضها يهمّ العالم مطلقا، وهي من المفروض أن تكون حاصلة، فالاتّساق أو الانسجام في العلاقات ما بين الجمل في الخطاب لا يكون دون توسّط المعرفة، وهي كذلك سبيل إلى إقامة الأبنية الكبرى الّتي تتوزّع الخطاب بنية ومعنى.

جميع ذلك انهيار لبنية معرفيّة على درجاتها المعلومة. فقيمة الرّأس رهينة المقام ورهينة الأطراف تتخالط فيه المعارف بأنواعها متفاعلة متشابكة حركيّة حيّة.

والمهمّ أن نثبت من خلال ما تقدّم أنّ فهم الخطاب وتأويله يقومان على ركيزة أساسيّة تتلخّص في مفهوم المعرفة بما فيها من معلومات حاصلة عند الفرد بعضها اجتماعيّ ثقافيّ وبعضها يهمّ العالم مطلقا، وهي من المفروض أن تكون حاصلة، فالاتّساق أو الانسجام في العلاقات ما بين الجمل في الخطاب لا يكون دون توسّط المعرفة، وهي كذلك سبيل إلى إقامة الأبنية الكبرى الّتي تتوزّع الخطاب بنية ومعنى.

خاتمة

يجري مفهوم المعرفة الموسوعيّة على جملة المعتقدات تكون للفرد أو للمجموعة في جميع مظاهر الفكر والحياة في العلاقة بالمحيط البيئيّ أو الاجتماعيّ وبالكون. هي جملة الأفكار والقيم الّتي بها ينقاد الفرد في سلوكه وبها يفسّر ما بان من الظّواهر وما خفي في شكل منظوميّ يستقيم به عنده نوع من التّوازن ما بين السّؤال وجوابه أو ما بين الظّاهرة وتفسيرها.

والمعرفة الموسوعيّة منظومة من المفاهيم المنضّدة، مرنة حركيّة متبدّلة في الخطاب بجميع أصنافه العلميّ والتّسجيليّ الوثائقيّ والإبداعيّ، ولذلك ما من طائل في قسمة المعنى إلى موسوعيّ ومقاميّ أو سياقيّ ما عدا كونها تصنيفيّة. فجريان الوحدة اللّغويّة قد توجّهه ما يقترن به من معان موسوعيّة ولكنّ ذلك غير محدّد سلفا لما قد يتّسع له من معان في سياقاته المختلفة. فحركيّة الدّلالة ليست كائنة لذاتها وإنّما هي مرتبطة بحركيّة في المعرفة الموسوعيّة العامّة، وذاك شأنها، ما كانت مظهرا للنّشاط العرفنيّ.

تنتظم جملة المفاهيم المكوّنة للمعرفة الموسوعيّة في شكل شبكيّ تترابط فيه جميعها بوجه تتحدّد فيه مراتب بروزها ودرجات مركزيّتها في تحديد المفهوم وفي وجوه تحقّقه في السّياقات المختلفة، وقد تتنوّع المفاهيم المكوّنة للعبارة اللّغويّة الواحدة فتمتدّ على مجالات كثيرة.

فالعبارات اللّغويّة مداخل للمعرفة الموسوعيّة، وهي معرفة حركيّة في انتظامها واشتغالها، تنشأ في الذّهن الجماعيّ نشوءها في أذهان أفراده نشوءا أساسه التّعامل الاجتماعيّ ما بين الأفراد وما بين الأفراد ومحيطهم بعناصره الآنيّة الفوريّة أو الزّمانيّة المتناقلة بتعدّد الأجيال وتمازجها.

ويقوم الخطاب إنتاجا وتأويلا على إنشاط المعارف الموسوعيّة على درجتين ما يتعلّق بالمفاهيم مفردة ومتعالقة منتظمة، فيكون شحن للمفاهيم بقيم مقاميّة سياقيّة تتظافر فيها القيم مستصحَبة من المعارف العامّة فيعاد تنظيمها وتنضّدها، وذاك مظهر الحيويّة فيها وتجدّدها.

الفصل الثّاني

الأطر العرفنيّة في النّصّ

مقدّمة

يكون في هذا الفصل تقديم يراعي اندراج المفهوم الواحد في ما هو أكبر منه فنبدأ بتقديم مفهوم الإطار فالخطاطة فالمنوال الذّهني (العرفنيّ أو الثّقافيّ)، وهي تسميات في العموم مترادفة وإن اختلفت استعمالاتها حسب المجال. فالغالب في الدّراسات النّفسيّة (منوال ذهنيّ) ولذلك كان أعمّ واحد في الثّالوث، وفي الدّراسات الأنتروبولوجيّة يغلب المنوال الثّقافيّ، وفي الدّراسات اللّسانيّة العرفنيّة (المنوال العرفنيّ المؤمثل) وخاصّة ما سلك منها سبيل لايكوف. وفي العموم أنت واجد هذه المصطلحات الثّلاثة متوازية جارية دون تمييز في الأغلب عند جمهور الباحثين في العرفنيّات.

ونعتمد في قسم لاحق من الفصل نماذج خطابيّة متنوّعة يبين بها مظاهر اشتغال الأطر العرفنيّة في الخطاب بما تتضمّن من المفاهيم والأبنية هي بمثابة الأدوات تقود بناء الخطاب إنتاجا وتأويلا فيكون بها الاهتداء إلى المعنى. وتكون العناية بالإطار مفتاحا قادحا لفهم الخطاب من خلال خبر تراثيّ هو جسر الرّصافة، وبالإطار المكانيّ الجغرافيّ يُرسم في الخطاب فلا يُفهم النّصّ إلاّ بمعرفة ذلك الإطار، وذلك باعتماد "قلب العاصفة"، وهو قصيد واقعيّ رمزيّ للطّاهر الهمّامي. ثمّ تكون العناية بالإطار يتظافر في رسمه المكوّن اللّغويّ والمكوّن الإيقونوغرافيّ في نوع من الخطاب مخصوص تزدوج فيه الموارد العرفنيّة ونموذجه لوحة كاريكاتوريّة موضوعها هجرة الأدمغة العربيّة للرّسّام محمود كحيل (الشّرق الأوسط).

الإطار: معالم نظريّة

يتمثّل المشغل الأساسيّ في نظريّة الأطر الدّلاليّة (فيلّمور[200]) في إقامة منوال يستوعب جملة الخصائص الّتي تنتظم وفقها المعاني والمعارف في اقترانها بالمداخل المعجميّة في الذّهن. ومن المعلوم أنّ هذا المبحث كان المشغل الأساسيّ القاعديّ، في السّنوات 1970، في النّظريّة التّوليديّة عامّة وفي النّظريّة الدّلاليّة التّوليديّة بوجه خاصّ، ولعلّ فيلّمور يمثّل واحدا من أبرز الأعلام المشتغلين في الدّراسات الدّلاليّة لخصوصيّة فيه قادرة على صهر تيّارين أخوين متخاصمين – وإن كان ما بينهما من المشترك النّظريّ الكثير– التّوليديّة والعرفنيّة، ولذلك يجد موقعا له في كليهما. فقد بدأ توليديّ الانتماء خالصا مثل الكثير من أعلام العرفنيّة ثمّ كان الخروج من جميعهم عليها ولكنّه حافظ على بعض الوشائج صريحة وإن طمسها الآخرون.

وتتمثّل الفكرة الأساسيّة الّتي تقوم عليها نظريّة الأطر في كون الوحدات المعجميّة والأبنية النّحويّة لا تشتغل ولا تعمل إلاّ مرتبطة بأطر. ذلك أنّ المعنى المقترن بلفظ أو بعبارة لا يمكن أن يُتصوّر أو يُفهم إلاّ في إطار من المفاهيم المترابطة. فكلّ معنى مقترن بوحدة معجميّة جارية في الاستعمال إنّما يستمدّ قيمته من سائر المعاني المترابطة المكوّنة للإطار.

فالإطار في الدّراسات العرفنيّة –وعند فيلّمور أساسا– مفهوم ذهنيّ عرفنيّ وهو جملة المعارف (المفاهيم، التّمثيلات، الصّور) المترابطة المنضّدة المحفوظة في النّظام العرفنيّ. وهو مفهوم نحويّ في اتّصاله بدلالة الوحدات اللّغويّة من حيث انتظامها في أطر تترابط فيها معان عديدة ترابطا يجعل منها كلاّ منضّدا. فالإطار مفهوم واحد ذو مظهر عرفنيّ تصوّريّ صرف وذو مظهر لغويّ دلاليّ وكلاهما يعاظل الآخر.

---

[200] Charles Fillmore (1975, 1977, 1982, 1985); Fillmore and Atkins (1992).

الإطار العرفنيّ : النّشأة والانتظام

لعلّه يحسن الانطلاق من مثال في تبيّن مفهوم الإطار. فمن نماذج ذلك أنّ "الثّلاّجة" (آلة حفظ الغذاء والشّراب) تمثّل قطعة من تجربتنا في العالم، هي رؤية الآلة المعلومة بألوانها وأشكالها المتنوّعة وتسجيل وظيفتها المعلومة (حفظ الغذاء والشّراب في درجة من البرودة معلومة)، يتبلور مفهومها في الذّهن بتجريد خصائصها الثّابتة المتواترة الّتي تشترك فيها جميع الثّلاّجات باختلاف أحجامها وأشكالها وموادّ صنعها وأعلامها التّجاريّة – تبعا للمصنّعين- وهي كونها حاوية تشتغل بالكهرباء وظيفتها حفظ الأطعمة. هذا في حدود المفهوم معزولا في ذاته، ولكنّ التّجربة (الواقع) لا تتوفّر فيها الثّلاّجات إلاّ في أمكنة معلومة كالمطبخ لضرورة عمليّة، إلى جوار أثاث متنوّع للواحد منه وظيفة مخصوصة في المطبخ (آلة الطّهي، طاولة، كراس، أوان، خزانة حفظ الأواني، غاسلة أوان، حامل الأبزار وما إلى ذلك). كما يتوفّر في التّجربة أماكن أخرى فيها الثّلاجات من قبيل محلاّت بيع الآلات المنزليّة (الكهرومنزليّة) أو محلاّت إصلاح الثّلاّجات، وما إلى ذلك من الأمكنة بما تتضمّنه من أشياء أخرى يتواتر حضورها مع الثّلاّجة. تتقارن تلك العناصر جميعها عن طريق التّجريد وتستصفى الثّوابت فيها لتكوّن في أذهاننا إطارا للثّلاّجة.

فإذا همّ الواحد منّا بتأثيث بيته –وليكن حديث الزّواج- كانت الثّلاّجة في المطبخ صحبة آلات وأثاث مخصوص بالمطبخ، وإذا ما بنى بيتا جديدا جعل في غرفة ينويها مطبخا موقعا أو خانة مخصوصة بالثّلاّجة، وإذا أردت الحصول على شراب بارد بمفردك اتّجهت رأسا إلى المطبخ موقع الثّلاّجة، ويمكن المواصلة في هذا إلى أن نستوفي أقصى ما نتصوّره من اتّساع لهذا الإطار بما في ذلك اتّساع الدّورة الصّناعيّة لتشمل محلاّت التّبريد الضّخمة الّتي تتّخذ لخزن الأغذية بالجملة، وما إلى ذلك من المجالات الطّبّيّة والصّيدليّة وغيرها.

ولجميع ذلك مظهر سلوكيّ يتمثّل في أنّك إذا دخلت مكتب المدير مثلا ورأيت إلى يمينه ثلاّجة صغيرة فكّرت في كونها للتّبريد، وليست للبيع، وهو ما

تفكّر فيه عند دخولك محلاً تجاريّا تُعرض فيه الأجهزة الإلكترومنزليّة، ولا للإصلاح، وهو ما تفكّر فيه عندما ترى العديد منها في محلّ تصليح الآلات من ذلك القبيل، ولو كان ذلك لطردك السيّد المدير شرّ طرد.

والمهمّ أنّ "الثّلاّجة" مفهوم غير منقطع ولا معزول، فلا يُتصوّر إلاّ في إطار من الأشياء أو المفاهيم المترابطة تكوّن كلاّ متكاملا. وهذا الإطار منتزع من التّجربة، تجربتنا في العالم بما فيها من أوضاع متعدّدة متشابهة نعيشها ونسجّلها وننضّدها في أذهاننا في شكل أطر. وهذا بعدٌ تجريبيّ حسّيّ، يمكن أن ينضاف إليه بعد رمزيّ ثقافيّ ترتبط فيه الثّلاّجة سعة وثمنا بمركز اجتماعيّ قيميّ دليل على الرّفاه أو الفقر، وترتبط فيه الثّلاّجة بالوظيفة الإداريّة جمودا وحركيّة فيقال "وُضع فلان في الثّلاّجة" ولا قصد إلى الآلة المِعلومة وإنّما المقصود جموده في رتبته وانعدام مشاركته، كما ترتبط الثّلاّجة بما في ثقافتنا اليوم من مظاهر قد تكون الثّلاّجة فيها معلما أساسيّا كما هو الأمر في القصص البوليسيّة أو في الأفلام أو في الصّور المتحرّكة على سبيل المثال (طوم وجيري، أوجي والمشاغبون ...) وما إلى ذلك.

فإذا ما أجريت كلمة "ثلاّجة" في سياق ما، دلّت دون شكّ على المفهوم المعلوم، ولكنّ سائر العناصر المنتمية إلى ذلك الإطار تكون حاضرة وإن من مستوى ثان خافت.

فللإطار بهذا المفهوم بعدان (وظيفتان): تنضيديّ وإجرائيّ استعماليّ، بالأول تتنضّد معارفنا ومظاهر تجربتنا تنضيدا جشطلتيّا، وبالثّاني يكون تصوير المفاهيم في العبارة اللّغويّة إنتاجا وتأويلا.

فالأطر أبنية مفهوميّة معقّدة تجري لتمثيل المقولات بجميع أنواعها بما فيها الأحياء والأشياء والأحداث المادّيّة الفيزيائيّة والمواضع والعمليّات الذّهنيّة الرّمزيّة وما إلى ذلك (بارصالو[201] 1992).

---

[201] Barsalou, Lawrence (1992).

وقد أقام فيلّمور (1982) عددا من المبادئ يشتغل في ضوئها الإطار نوردها بإيجاز:

لا قيام للمفاهيم أو المقولات أو الوحدات إلاّ بالإطار، ولا يُفهم معنى الوحدة المعجميّة إلاّ في إطار، فإذا ما انتفى الإطار انتفى الفهم:

توجد المفاهيم في شبكة من التّعالقات وإذا ما اندثرت الشّبكة اندثر المفهوم، من ذلك أنّ الكثير من المفاهيم والمعتقدات بما لها من طقوس لا نعرفها اليوم إلاّ من التّاريخ، بل لا يعرفها إلاّ أهل الاختصاص فقد اندثر الواحد منها فاندثر الإطار كاملا، وذلك من قبيل الرّقية -مثلا- عند التّعرّض للدّغ، فمن منّا يفكّر اليوم في ذلك، عوض أن يبادر بالذّهاب إلى المستشفى لتلقّي العلاج بالأمصال النّافعة. كما أنّ "الدّينصور" - مفهوما في إطار- لم يكن موجودا ثمّ تكتشف البقايا المتحجّرة لنموذج واحد منه أو لنماذج كثيرة منه، فيتكوّن الإطار الكبير شيئا فشيئا تتشابك فيه الأنواع وتتقارب وتتباعد شكلا وتكوّنا وانتظاما إلى لاحم وعاشب، أو زاحف وطائر، أو مفترس وفريسة وما إلى ذلك.

وكذلك لا معنى لوحدة معجميّة ما لم يتوفّر الإطار في ذهن الشّخص إمّا بحصوله ما قبليّا أو بتمكّنه منه آن المعالجة، فالكلمة المندرجة في إطار حاضر فاعل لا تثير إشكالا في إنتاج الخطاب أو في تأويله، ولكن ما خالف ذلك تعطّل فهمه وذلك من قبيل "حذوة" (الصّفيحة على شكل هلال تجعل للدّوابّ من خيول وبغال وأحمرة)، مثلا، اندثر إطارها من حياة المدينة فلا يعرفها النّاس فيها- على الأقلّ بعضهم- وإن حملوا بعض الألقاب العائليّة منها "الصّفايحي" وهي مهنة العناية بالخيل، وهي على خلاف ذلك متداولة لا تثير إشكالا في المناطق الرّيفيّة لاستمرار إطارها بما فيه. وكذا إطار البايات وإن بقيت النّسبة إلى الباي في بعض الأسر، أو مهنة القيادة في عهود البايات والاستعمار، وإن بقي لقب "القايد" أو "بلقايد". وجميع ذلك يدخل ضمن ما يسمّى بحركيّة الأطر وحيويّتها. ولهذا صلة بحركيّة المعرفة كما سبق بيانه[202].

---

[202] انظر الفصل السّابق.

الإطار في دراسات تحليل الخطاب

توسّع مفهوم الإطار العرفنيّ عندما جرى تطبيقه في مجال تحليل الخطاب ليشمل من جملة ما يشمل تجارب المشاركين في عمليّة التّخاطب والمحاورة أو إنشاء الخطاب عموما لما في ذلك من مضامين اجتماعيّة ثقافيّة تساهم في بناء المقام.

يمثّل التّخاطب حدثا يستوجب التّأطير، وهو ما يطلق عليه إطار حدث القول[203](أو الحدث القوليّ). يضمّ هذا الإطار كلّ المعارف المتعلّقة بملابسات القول من حيث التّفاعل ما بين المتخاطبين في العموم، ومن حيث الأطر المخصوصة بأجناس الخطاب من قبَيل ما يكون من تنوّع في المقام على أساس أنواع الخطاب، كلاّ بخصوصيّاته، كالأطر المميّزة ما بين الخرافات والمحاضرات والخطب الدّينيّة والمحاورات التّلفزيونيّة والمرافعات القضائيّة والمقال الصّحفيّ والرّيبورتاج (النّقل المباشر) والتّقرير والنّشرات الجويّة وحظّك اليوم، ونشرة الأخبار وجلسات التّندّر والمفاكهة بالنّوادر، وما إلى ذلك.

ولكلّ من هذه الأطر أدوات لغويّة مؤشّرات عليه من قبيل البسملة وما إليها من فواتح الخطب، أو تسمية المكان "هنا لندن، ومنها يحدّثكم فلان" أو "كان يا ما كان في قديم الزّمان" أو "يحكى أنّ" أو "زعموا أنّ" أو "يحكيوا على... في قديم الزّمان" وما إليها. وهذه عبارات ينشأ لها عند السّامع، بحكم ما تعوّد، تطلّعا إلى نوع مخصوص من الإطار تجري فيه الأحداث، وهي أطر ذات أرضيّة ثقافيّة اجتماعيّة.

وتنقسم الأطر العاملة في مستوى الخطاب وكذلك في مستوى المفردة، إلى أطر فاعلة خلفيّة وأخرى فاعلة ظاهرة: الفاعل الظّاهر إطار ناشط آن القول، يكون محطّ الوعي والانتباه يتغيّر ويتجدّد بتقدّم البناء في الخطاب، والخلفيّ ما اندرجت فيه الأطر الفاعلة آن القول دون أن تحضر حضورا ظاهرا، تتضمّن كلّ ما له صلة بالأرضيّة المعرفيّة العامّة المشتركة بين المتخاطبين، تقوم أساسا يتجذّر فيه الإطار النّاشط فينبني بناء مستقيما يكون له تمثيل ذهنيّ مناسب.

---

[203] Speech event frame.

اشتغال الأطر في الخطاب: نماذج

يوفّر الإطار بمفاهيمه الّتي عرضنا قبل هذا جملة من المفاتيح والأدوات الذّهنيّة بها يكون الاهتداء إلى المعنى، وتوجّه التّأويل والفهم. وفي ما يلي نعرض ثلاثة نماذج من أنواع مختلفة من الخطاب يحضر الإطار فيها بشكل متميّز عن قرينه من حيث عناصره وطبيعة الحضور: الأوّل خبر سرديّ من التّراث والثّاني نصّ شعريّ من الحديث والثّالث لوحة كاريكاتوريّة يبين في الواحد منها دور الإطار في بناء الخطاب وفي تأويله وذلك حسب العناصر المكوّنة له وانتظامها عرفنيّا تبعا لذلك.

الإطار مفتاحا قادحا لفهم الخطاب

من الأطر ما يكون ثقافيّا يتأسّس على الثّقافة المشتركة مفتاحا لبناء الخطاب ولتأويله، ولا يفتح مغالقه من كانت تلك المفاتيح غائبة من معرفته:

(1) خبر جسر الرّصافة

قال ابن المبارك بن أحمد:

خرجت راجلا على سبيل الفرجة فقعدت على الجسر، فأقبلت امرأة من جانب الرّصافة متوجّهة إلى الجانب الغربيّ فاستقبلها شابّ.

فقال لها: رحم اللّه عليّ بن الجهم.

فقالت المرأة في الحال: رحم اللّه أبا العلاء المعرّي.

وما وقفا ومرّا مغرّبة ومشرّقا فتبعتُ المرأة

وقلت لها: إن لم تقولي ما قلتما وإلاّ فضحتك وتعلّقت بك.

فقالت: قال لي الشّابّ رحم اللّه عليّ بن الجهم أراد به قوله:

"عيون المها ما بين الرّصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري."

وأردت أنا بترحّمي على المعرّي قوله:

"فيادارها بالحَزن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال."

ابن الجوزي: كتاب الأذكياء

دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 223.

يضمّ الإطار في الخبر جملة من الأعلام ومن عناصر المقام ومن الأوضاع وجميعها مفتاح للتّفاهم ما بين الفتاة والفتى، ويكفي أن يذكر عنصر من الإطار متظافرا مع بعض عناصر المقام ليستصحب الغائب المسكوت عنه فيقوم التّواصل بين المشاركَيْن الفاعلين وهو ما لا يتوفّر عند المشاهد المشارك، وكان استكمال الإطار بسؤال الفتاة وجوابها فكان ذلك مفتاحا للرّجل المشاهد أوّلا وللقارئ ثانيا.

فالإطار في الخبر مستويان: الإطار القادح والإطار الجواب.

أمّا الإطار القادح فإطار حقيقيّ مقاميّ يتمثّل في الجسر ممرّا ما بين الرّصافة والجانب الغربيّ من بغداد، يُنشط هذا الإطار مشهد الفتاة بجمالها مارّة على الجسر، في ذهن الشّابّ، بيتا شعريّا لابن الجهم، وعوض أن ينشده إيّاها اكتفى بالدّعاء لعليّ بن الجهم بالرّحمة، وجميع ذلك قائم على عمليّة عرفنيّة كان بها إجراء نوع من الإسقاط ما بين المقام المادّي المباشر والإطار الثّقافيّ متضمّنا لبيت ابن الجهم، وذلك على أساس تطابق التّضاريس قادحا لتطابق الإطار والمقام ومفتاحا للتّفاهم ما بين الفتاة والفتى. فالإطار المصدر في الإسقاط يتضمّن عناصر فيزيائيّة هي موقع في المكان (جسر الرّصافة) وامرأة كلّ ما نعرف عنها كونها مقبلة من الرّصافة، والإطار الهدف مضمون لبيت ابن الجهم وفيه تكتمل صفات المرأة وهي صاحبة عيون المها جالبة الهوى. ويمثّل علي بن الجهم القادح الهادي إلى مضمون البيت بفعل علاقة مجازيّة أساسها النّسبة يحضر بمقتضاها القول بحضور صاحبه.

وأمّا جواب الفتاة فإطارٌ جوابٌ بمعنى منقدح بالإطار الأوّل فكان بالتّرحّم على المعرّي، وهو نوع من الإسقاط آخر ما بين إطار مصدر هو حال ذهنيّة للمرأة مضمونها بيت شعر للمعرّي من الإطار الهدف. وهو ما يتّضح باستكماله مفتاحا بعد ذلك إذ يُفهم أنّ دارها قريبة ولكنّ مزارها من أصعب ما يكون لأنّها حرّة حصان يستحيل الوصول إليها.

والمهمّ أنّ الفتاة والفتى تفاهما بشذر من الكلام ولذلك لم يقفا ومرّا مشرّقة ومغرّبا، وما فهم المشاهد شيئا إذ كان خالي الذّهن من الشّفرة[204] أو من مفاتيح ذلك التّفاهم، ومن ورائه القارئ أو السّامع يمضي في القراءة أو السّماع إلى حدود سعيه إلى افتكاك المفتاح بالتّهديد بالتّشهير أو التّعلّق بها ففضحها.

وهذا النّوع من الإطار ثقافيّ بيئيّ محدود بمجتمع فيه استحضار للشّعر أو الأقوال الجاهزة وما إليها تمثّل نوعا من المناويل الذّهنيّة مشتركة ما بين النّاس تجري بعض عناصرها نائبة كافية عن الكلّ، فالحاضر المباشر الفوريّ وإن كان مقتطعا مجتثّا، سبيل إلى الغائب الكامن البعيد بتوسّط عمليّات من الاستلزام أو النّسبة أو ما إلى ذلك من العلاقات المجازيّة. وهو استحضار قائم على الإسقاط المطابقيّ ما بين أفضية ذهنيّة حاضرة وأخرى مستحضرة لأنّ حديثنا عن الحضور والغياب إنّما كائن في مستوى النّصّ والقول أو الخطاب فقط وأمّا المنوال كاملا فهو حاضر دوما في الذّهن.

الإطار مرسوما بالكلمات

من الخطاب ما ينسخ إطارا ويرسمه بالكلمات ولعلّ أبرز النّماذج في ذلك النّصوص الجغرافيّة وما إليها من النّصوص الوصفيّة الّتي تنقل المكان بتضاريسه. ومن النّصوص الشّعريّة ما يندرج في هذا القبيل. فقد اتّخذ الطّاهر الهمّامي في قصيد "قلب العاصفة" من شارع الحبيب بورقيبة، الشّارع الرّئيسيّ بتونس العاصمة، إطارا يرسمه نوعا من الرّسم يبين في التّمثيل (2) حيث نعرض نصّ القصيد وهندسة الشّارع مستوحاة منه إزاءه، مرجعا له في العالم الواقعيّ.

لا يخفى انبناء القصيد الهندسيّ، أي في توزّعه البصريّ على الصّفحة البيضاء، على شاكلة نخلة. ومن يعرف الطّاهر الهمّامي شاعرا يعرف أنّه كان من المجرّبين لهذا التّوجّه الشّعريّ ومن يعرفه إنسانا يعرف أنّه كان –رحمه اللّه– نخلة طويلا نحيفا. وأمارات تلك الهندسة قائمة على وجود كلمة "نخلة" في السّطر الأوّل

---

[204] Code.

ثمّ سلسلة النّقاط المسترسلة عموديّا وبعدها تكون الجمل الشّعريّة متباينة طولا وقصرا فكأنّها جذع النّخلة بنتوءاته المتباينة (انظر تصفيف القصيد في التّمثيل (2)).

أمّا عناصر الإطار فهي: نخلة وشجر وعصافير ومسرح وتمثال ابن خلدون، وقوس باب البحر. ويجري تنضيد العناصر على أساس الخطاطات الّتي تتوزّع وفقها في المكان الحقيقي إن كانت ثابتة بأبعادها ومسافاتها فيه أو حركتها فيه إن كانت من المتحرّكات من قبيل العصافير المحوّمة وهي من خصائص شارع الحبيب بورقيبة تسكنه لكثافة الأشجار فيه. فاجتماع هذه العناصر ما كان منها اسما عامّا مشتركا (نخلة، طير، ريح، مسرح، شجر) وما كان منها علما مخصوصا (باب البحر، ابن خلدون) موزّعة على شاكلتها في الواقع (صفّان من الشّجر، طير تحوّم عن مقر) كاف ليتعيّن الإطار الجغرافيّ المكانيّ في شارع الحبيب بورقيبة.

فيكون لنا نخلة في منتهى ما يبلغه البصر علوّا وارتفاعا، ثمّ أشجار مصفوفة صفّين، فطير يحوّم ما بينهما باحثا عن مبيت ليلة. هذا في حركة تصويريّة نازلة تتخلّل العدسة صفّي الشّجر ليكون في منتهاهما 'باب البحر' علَما وموقعا معروفا قائما في آخر مدّ البصر أفقيّا، فبناية المسرح البلديّ يسارا وإزاءها ساحة كبيرة فيها تمثال ابن خلدون ممسكا بكتاب يقرؤه، كما عرضنا في التّمثيل (2) حيث القصيد والمعالم المذكورة فيه مثبتة على الخارطة التّمثيليّة.

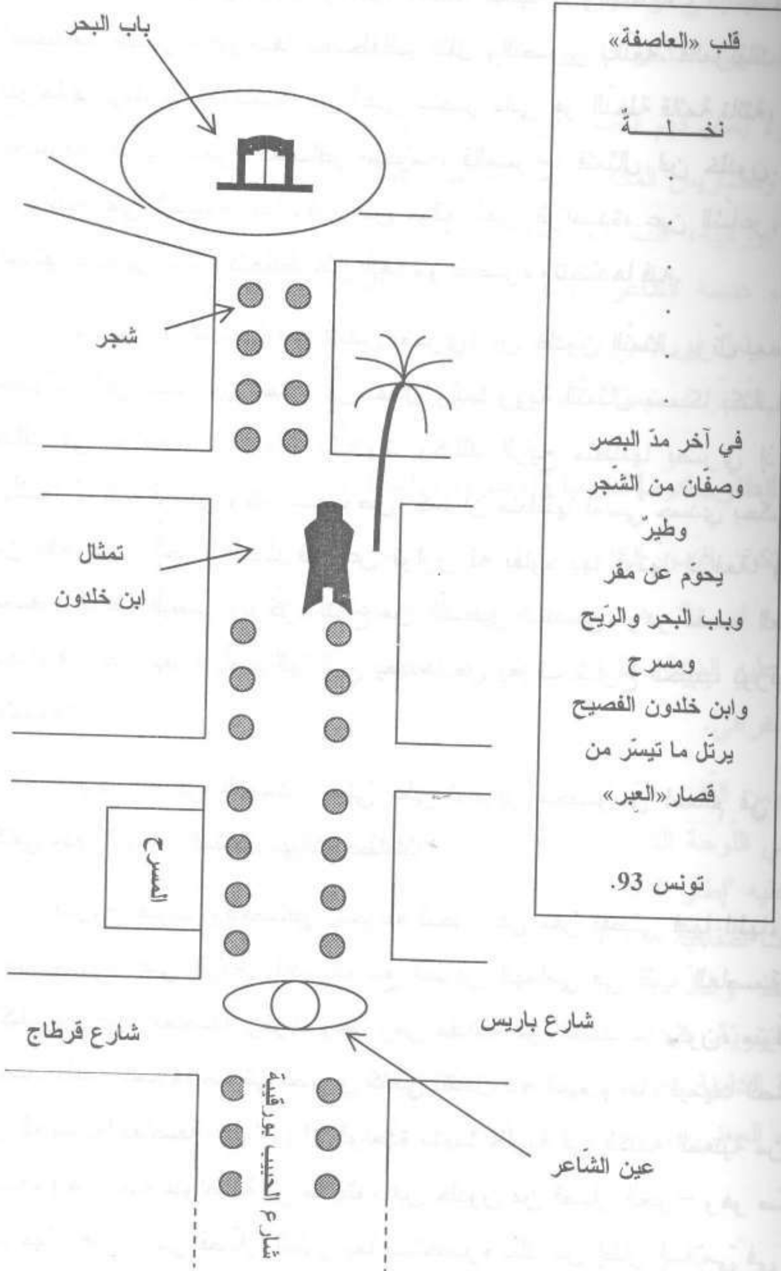
فتنضيد عناصر الإطار يعكس زاوية منها رصدت عين الشاعر المشهد بالعيان أوّلا فالتّصوير الذّهنيّ[205] ثانيا، تكون تقريبا في موقع ما في المكان أمام بناية البالماريوم ووجه الشّاعر مغرّب إلى باب البحر، وهذا موقع في خارطة مكانيّة ذهنيّة تتوزّع فيها تلك المعالم.

وإذ تمثّل اللّغة صوغا رمزيّا لمضامين ذهنيّة، وإذ كانت مصادر المضامين الذّهنيّة إدراكيّة حسّيّة متموضعة في المكان، كان الإطار منقولا من زاوية تموضع الذّات المدركة فيه، هي الزّاوية الّتي نمثّل لها بالعين في التّمثيل(2).

---

[205] Mental imagery.

(2) قلب العاصفة (الطّاهر الهمّامي)



وتتجلّى مظاهر التّموضع في التّصوير في تحدّد الإطار على أسس إدراكيّة بصريّة وسماعيّة: يبلغ البصر آخر مدّ له ما بين صفّين من الشّجر ينتهيان عند باب البحر أو باب قرطاجنّة (مدخل المدينة العتيقة)، واصطفاف البنايات يفرض اصطفاف الشّجر والأرصفة فاصطفاف النّقل والتّصوير باللّغة. فالمرئيّات منقولة، بدرجاتها ارتفاعا وانخفاضا، من أعلى عنصر ناتئ هو النّخلة قائمة ناتئة، فأشجار مصفوفة، فباب البحر، فعصافير محوّمة، فالمسرح، فتمثال ابن خلدون. وكذلك بتوزّعها على المسافة بعدا وقربا من موقع العين الرّاصدة، عين الشّاعر، تصوّر المشهد تصويرا ذهنيّا فتحافظ على أبعاده وعناصره وتنضّدِها فيه.

أمّا المورد السّمعيّ فذو أساس بصريّ: ابن خلدون التّمثال يرتّل بمعنى يتلو مصوّتا ولكنّ ذلك غير ممكن من تمثال وإنّما رؤية التّمثال ممسكا بكتاب- وهو كذلك في الواقع- متشارطة بالتّلاوة. وكذلك الرّيح منطلقها بصريّ إذ تحرّك الأشجار والنّخلة على وجه مخصوص، كما أنّ منطلقها لمسيّ جسديّ بحكم ما لها من دفع على الجسد يبحث فيه عن توازن له يقاوم بها قوّتها الدّافعة. والشّجر مصفوفا يوجّه البصر ويركّزه بنوع من التّسطير الهندسيّ، وهو مقصد العصافير تبحث فيه عن مقرّ، بأصواتها الّتي يعهدها من يعرف شارع الحبيب بورقيبة في الأمسيات.

فالرّمز – في القصيد- مبنيّ على تصوير مخصوص لمعالم في المكان يكتفي منها الشّاعر المتمثّل بهيآت خطاطيّة:

فالرّيح هبوب والعصافير محوّمة تبحث عن مقرّ تقضّي فيها ليلها، وباب البحر مشرع على الرّيح. فإذا بك مع الطّاهر الهمّامي في قلب العاصمة مكانا ولكنّك في قلب العاصفة رمزا. وهو رمز مفتاحه من ألطف ما يكون، متوفّر في القصيد بلعبة عمادها صوتيّ بصريّ كتابيّ تتبادل فيه الميم والفاء قيمهما الصّوتيّة في العاصمة/العاصفة، وما وراء الواحدة منهما جاريةً في الكلمة المعنيّة من أطر ذهنيّة، وهي لعبة متواصلة في ما يتلوه ابن خلدونَ من قصار العبر- وهو صاحبها ومؤلّفها- قياسا على قصار السّور بما يستحضره ذلك من إطار إسلاميّ في تلاوة القرآن.

والمهمّ أنّ انبناء القصيد قائم على التّداخل ما بين الأطر تأتلف في الرّمز وفي بنائه، يلبس فيه المجرّد ثوب المكان، ويتجسّد فيه. فيتداخل، عن طريق الإسقاط، المكانيُّ والتّاريخيّ، والجغرافيّ الفضائيّ والرّمزيّ، تخطيط المدينة وتخطيط الحياة، تداخلَ ما بين الواقع والخيال أو ما بين اليوميّ والخارق.

ولا يمكن فهم القصيد في بعده الرّمزيّ هذا، إذا ما لم يتصوّر القارئ أساسَه الواقعيّ وتضاريسَ المكان الّذي يلتقط منه القصيد مكوّناته. وهي صورة من شارع الحبيب بورقيبة، قلب العاصمة التّونسيّة النّابض بالحركة، من زاوية الطّاهر الهمّامي، عدسة الشّاعر الإنسان وعدسة الكاميرا بما يكون بينهما من التّماثل والتّباين. ولعلّ في جميع ذلك ما به يكون انشداد الإبداع إلى منابته، بعبارة عامّة أو يكون به التّجذّر إبستيميّا[206] ما بين الفرديّ والجماعيّ، بعبارة عرفنيّة نفسيّة.

الإطار مكوّنا لغويّا وإيقونوغرافيّا في الكاريكاتور

يتكوّن النّص الكاريكاتوريّ من عدد من الأركان بعضها لغويّ وهو مدخل العناية به في مثل هذا العمل، وبعضها إيقونوغرافيّ بصريّ يمثّل الأساس الّذي ينهض عليه المكوّن اللّغويّ ويكمّله من حيث يختزل الإطار الّذي ينقص المكوّن الإيقونوغرافيّ.

ومن الثّابت في الدّراسات المهتمّة بالكاريكاتور على اختلاف مداخلها فيه أن يتوفّر في اللّوحة الكاريكاتوريّة عدد من المفاتيح توجّه الفهم والتّأويل تجتمع في ما يطلق عليه "إطار التّجذير[207]" (كولسن وأوكلاي[208] 2005). يضمّ هذا الإطار جملة المسلّمات المقاميّة والعناصر بما فيها الأحداث والأمكنة والأزمنة والمشاركون فيها والوسائط والظّروف المحايثة لجميع ما يتوفّر من مكوّنات في اللّوحة الكاريكاتوريّة. فيكون في الإطار التّجذيريّ جميع ما به يكون إنشاط مظاهر المعرفة الكامنة عند القارئ وما به يكون استحضار المظاهر المقاميّة الّتي تساهم في بناء المعنى. وهو، في الجملة، ما به يكون التّجذّر الإبستيميّ في ذهن القارئ عموما.

---

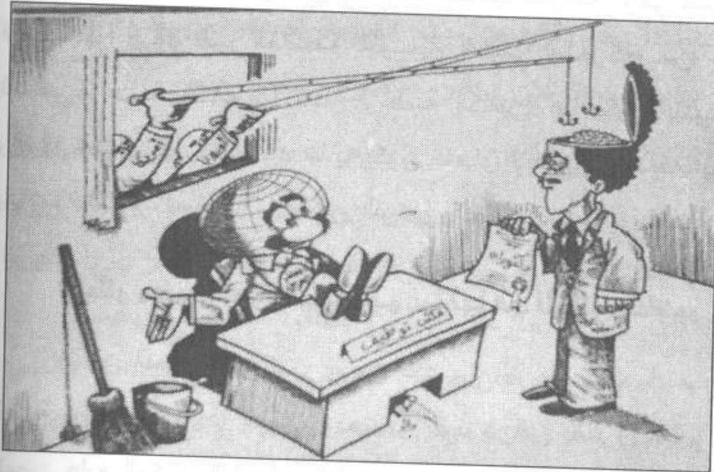
[206] – راجع ذلك في الفصل الثّالث من الباب الثّالث.

[207] Grounding Box.

[208] Coulson and Oakley (2005).

وللمكوّن اللّغويّ – على اقتضابه في الكاريكاتور – دور أساسيّ في ذلك الاستحضار. فالخطاب حاضر بشكلين إمّا مقولا واردا على لسان واحد من الأشخاص أو في شكل لافتة أو لافتات تعيّن الأطراف المشاركة في المشهد تخاطبيّا كان أو غير ذلك.

(3) هجرة الأدمغة العربيّة



محمود كحيل (الشّرق الأوسط، الأحد 29 جانفي/يناير 1989، العدد 3715 ص 9)

والإطار التّجذيريّ يتضمّن جملة ما يتصوّره الرسّام حاصلا عند القارئ إطارا عامّا يُتطارح فيه مبحث اجتماعيّ سياسيّ قوامه هجرة الأدمغة.

فالمشاركون في المشهد يقدّمهم المكوّن الإيقونوغرافيّ :

(أ)-المسؤول وراء مكتب التّوظيف :

هو مركز اللّوحة، شخص ذو رأس أصلع تتقاسمه خطوط عرض وخطوط طول، جالس على المكتب جِلسة استرخاء وعدم اكتراث، قد (لا) تليق بالإداريّ المسؤول. ووراء هذه الجِلسة ما وراءها من المعاني من قبيل عدم العناية واللاّمبالاة، هو العالَم العربيّ مختصَرا في شخص وحيد مدلول على هويّته بلافتة هي ربطة العنق من بذلته (العالم العربيّ).

(ب)- حامل الشّهادة طالب الشّغل:

الدّماغ العربيّ وقد حمل ورقة دكتوراه وهويّته على بذلته (الأدمغة العربيّة)، هو أشخاص كُثْر في شخص واحد، يمسك بشهادته وقد انفتح رأسه انفتاح العلبة مبينا عمّا فيه من الدّماغ، عضو التّفكير والمعرفة، وهو يعرضها على صاحب مكتب التّوظيف في هيأة المتذلّل المسكين يطلب الشّغل. فيكون جواب المسؤول بالإشارة التّعيينيّة مقترنة بالسّطل والمكنسة.

(ج)- صيّاد السّمك :

ذراعان تتخلّلان النّافذة تمسك الواحدة منهما بقصبة عند طرفها شصّ يتدلّى في دماغ طالب الشّغل، وتحمل الواحدة منهما لافتة تحدّد هويّتها الجماعيّة هي "أوروبا" وأمريكا".

(د)- الغراب :

يطلّ برأسه ومنقاره الكبير وعينيه النّاتئتين من تحت المكتب باكيا، هو عين الرّسّام محمود كحيل صاحب اللّوحة أو قل عين التّاريخ وعين الضّمير.

(د)-المكوّن اللّغويّ :

يتمثّل في جملة من اللاّفتات اللّغويّة يحملها لباس أو جزء من الجسم أو من الأشياء، وجميعها قائم على إنشاط علاقة مجازيّة عاملة في الكثير من الأبنية العرفنيّة أساسها دلالة الجزء على الكلّ: ربطة العنق هي مركز الجسم واللّباس جارية للتّزيين والتّأنّق تحمل اسم "العالم العربيّ" وهو جالس على "مكتب توظيف" من جملة مكاتب هي المجتمع العربيّ كاملا يقصده النّاس طلبا للشّغل، وفي اللّوحة يقصده شخص جامع يحمل على سترته "الأدمغة العربيّة" وبيمينه شهادة "دكتوراه" دليلا على علوّ في التّأهيل وسموّ في تحصيل العلم والمعرفة، وكمّان من سترتان عند الكوّة العلويّة -لا يراهما المسؤول في مكتب التّوظيف- هما "أمريكا" و"أوروبا" تقتنصان ما في الأدمغة العربيّة من مهارات وكفاءات.

فالمشاركون في المشهد ثالوث من الأطراف: الكفاءات العربيّة والعالم العربيّ وأوروبا وأمريكا، يتكوّن في العالم العربيّ أشخاص من أبنائه هم على غاية من الكفاءة، يهملهم بأن لا يوفّر لهم شغلا يليق بكفاءاتهم فيقتنصهم الغرب بشقّيه،

أوروبا وأمريكا، يتنافسان فيهما. جميع ذلك كائن والعالم العربيّ غير مبال، بل إنّ الصّيّاد لا يتبدّى من هويّته شيء في اللّوحة فكلّ ما يظهر يد تمسك بالشّصّ وعينان من رأس باهت الملامح تتخيّران ما يعلق بالشّص.

وللمكوّن اللّغويّ دور أساسيّ في تأطير اللّوحة وتجذيرها إبستيميّا في ذهن القارئ، وهو تجذير مخصوص بمعنى أنّ المعنى في اللّوحة يستقيم وإن غابت اللاّفتات وذلك في ضوء ما يتوفّر عند القارئ العارف بقضيّة هجرة الأدمغة، فمصدرها في العموم هو البلاد المتخلّفة أو ذات النّموّ المحدود من البلاد الإفريقيّة والآسيوية وغيرها ومقصدها الغرب في عمومه بما في ذلك أمريكا وأوروبا وكندا وأستراليا وجنوب إفريقيا وما إليها، ولكنّ لافتتين أساسيّتين في اللّوحة تجذّران جميع ذلك في البلاد العربيّة واحدة يحملها المسؤول عن مكتب التّوظيف والأخرى طالب الشّغل وهو "الأدمغة العربيّة".

فالاهتداء عامّة في اللّوحة وفي الأفضية الذّهنيّة المكوّنة لها بدرجاتها المختلفة إنّما يقوم على تظافر مفاتيح بصريّة بعضها إيقونوغرافيّ وبعضها لغويّ، يرسّخ الثّاني منهما الأوّل في نوع من التّزويم بالتّركيز على الأساسيّ المركزيّ من الأطر:

فالاهتداء أوّلا يكون إلى أبرز الأطر وهي أزمة التّشغيل في البلاد العربيّة والهجرة إلى الغرب. وينهض المكوّن اللّغويّ بتوجيه الاهتداء وتركيزه في مظهر من الإطار العامّ دون آخر، هو أزمة تشغيل أصحاب الشّهائد إمّا بغيابه مطلقا أو بتشغيلهم في ما لا يليق بهم من قبيل المسح أو التّنظيف، وهو شغل لا يحتاج صاحبه إلى مهارة مخصوصة، وتتخصّص الهجرة بهجرة الأدمغة أو بعبارة أدقّ اقتناصها من منابتها وتخيّرها -لاحظ أنّ حجم الشّصّ كبير ومن المعلوم في الصّيد البحريّ أنّ ذلك الحجم لا يقتنص من الأسماك إلاّ ما ضخم وعظم.

وينتهي التّوجيه في التّأويل باعتماد المكوّن اللّغويّ يرفده المكوّن الإيقونوغرافيّ إلى درجة أدقّ في التّأويل فتكون الإشارة من الموظّف المسؤول عن مكتب التّوظيف باليد إلى وظيفة الكنس مقترنة بالسّطل والمكنسة دالّة على توفّر تلك

الوظيفة دون غيرها، هذا في طالع الأمر وأوّل وهلة هو الفضاء المبادر في التّأويل من المستوى الأوّل، إشارة إلى سلّة المهملات تُلقى فيها الشّهادة وفيها يكون التّركيز على السّطل وعاء للمهملات دون المكنسة، فيتركّز الوعي على الوعاء دون ما جاوره في إشارة منبعها الإطار الثّقافيّ المقاميّ العامّ فيه تُعامل الشّهادة معاملة لا تليق بها أو معاملة الورق الّذي لا قيمة له، ولكنّ قيمته في الدّماغ حاملها ولذلك يقتنصه الغرب أيّما قنص.

فثنائيّة الرّسم والأرضيّة[209] فاعلة ناشطة في اللّوحة وبمقتضاها ينقسم مضمونها إلى أرضيّة هي الإطار العامّ جسما كان أو مكانا أو وضعا اجتماعيّا وفيها يكون البروز لرسم وهو العنصر المعنيّ بالنّظر ومحطّ العناية دون سائر العناصر المكوّنة للأرضيّة :

فاللّوحة الكاريكاتوريّة في عمومها أرضيّة عامّة تمثّل حال البلاد العربيّة في داخلها بجميع خصائصها وسماتها وما يمثّل هويّتها وواقعها، وذاك ما يمثّله المشهد جاريا في مكتب قوامه موظّف وطاولة ومقعد وجدران وطالب وظيفة، أمّا النّافذة فهي جزء مزدوج من المكتب وممّا هو خارج المكتب. وهذه الأرضيّة العامّة تنسلخ منها رسوم (بمعنى عناصر بارزة) بتوسّط المكوّن اللّغويّ (اللاّفتات) هي طالب الشّغل والمسؤول عن التّشغيل كما ينسلخ من طالب الشّغل إذ يُتّخذ أرضيّة رسم أدقّ وأمضى في البروز والتّخصيص هو حامل الأدمغة العربيّة حملة الشّهائد (دكتورا)، ومن حملة الشّهائد، وهي أرضيّة في هذا المستوى، ينسلخ رسم هو الدّماغ بانكشاف الغطاء عن الجمجمة انكشافا إيقونوغرافيّا. وتتوقّف ثنائيّة الرّسم/الأرضيّة عند هذا المستوى من التّدرّج، وهو مستوى يوافق تدرّجا آخر من زاوية اقتناص الغرب والهجرة إليه، فالغرب ليس محتاجا إلى كلّ من يشتغل من البلاد العربيّة وإنّما هو محتاج إلى حملة الشّهادات من الأدمغة العربيّة، ومن هؤلاء لا يحتاج إلاّ إلى ما في أدمغتهم وليس محتاجا إلى ما عندهم من تقاليد أو هويّة أو ثقافة وما إليها. ولذلك كان انصباب الشّصّ على الدّماغ، ولو كان من الممكن أن

[209] Figure/ground.

يُنتزع الدّماغ من صاحبه لفعلوا ذلك، سبيلا إلى الاستفادة منه دون مشاكل قد ترافق هجرة أصحابه إلى البلاد الغربيّة وما يطرحه من مشاكل معلومة من عيشهم هناك.

وخلاصة الأمر أنّ اللّوحة الكاريكاتوريّة خطاب وإن قامت أساسا على المكوّن الإيقونوغرافيّ، وذلك لتضمّنها اللّغة – وإن في أوجز عبارة– موفّرة للقارئ جملة من مفاتيح التّأويل بها يمكنه أن يحوّل اللّوحة إلى خطاب طويل لا ينتهي، وذاك ما تختزله اللّوحة. وذاك ما نعيشه اليوم في البلاد العربيّة بعد مرور عدد من العقود على صدور لوحة محمود كحيل. فالمبحث الّذي تضمّنته ما يزال مطروحا بل زاد الأمر تفاقما. فاللّوحة إطارٍ حاضر يقوم فهمه وتأويله على مفاتيح فيها تستحضر بها الأطر الغائبة منها والحاضرة في المعرفة العامّة جزءا من العرفنة العامّة.

خاتمة

توفّر الأطر العرفنيّة في الخطاب جملة من المفاتيح والأدوات الذّهنيّة بها يكون الاهتداء إلى المعنى، وبها يتوجّه التّأويل والفهم.

فمن الأطر ما يكون ثقافيّا يتأسّس على الثّقافة المشتركة مفتاحا لبناء الخطاب وتأويله، ولا يفتح مغالقه من كانت تلك المفاتيح غائبة من معرفته. ومن الأطر ما يوفّر الأسس الإدراكيّة البصريّة والسّماعيّة بها يتوفّر في الخطاب مفاتيح تتموضع بها مضامينه في العالم مكانا و/أو زمانا بأبعاده الثّلاثيّة، فيكون لها تنضيدها فيه، وهي في ذلك متداخلة تأتلف في الرّمز وفي بنائه، وفيها يلبس المفهوم الرّمزيّ المجرّد ثوب المكان ويتجسّد فيه. ومن الأطر ما يكون باللّغة وبالرّسم الخطّيّ وفيه للمكوّن اللّغويّ دور أساسيّ في تأطير اللّوحة وتجذيرها إبستيميّا في ذهن القارئ، تتظافر فيها المفاتيح الإيقونوغرافيّة واللّغويّة، يرسّخ الواحد منهما الآخر فينصهر الإطاران في واحد.

الفصل الثّالث

الخطاطات العرفنيّة في النّصّ

مقدّمة

تمثّل الخطاطات[210] أنماطا تجريديّة يكون بها تنضيد المعارف عند النّاس ما تعلّق منها بالمعهود المتداول من الأعمال والأشياء والأحداث من قبيل البيع والشّراء أو تناول الطّعام في مطعم أو صعود في الحافلة وما إلى ذلك (شانك وأبلسن[211] 1977). وقد كان لمفهوم الخطاطة توظيف في علم النّصّ أو الخطاب عند الكثير من الدّارسين على أنّ فهم النّصّ يقوم على إنشاط الخطاطة المناسبة تملؤها المعلومات المتوفّرة في المقام أو المستمدّة من المعارف العامّة، ويكون ذلك لإقامة تمثيل ذهنيّ للنّصّ في الذّاكرة العاملة.

الخطاطة : معالم نظريّة

الخطاطة بنية معرفيّة على غاية من العموم والتّجريد والفقر في الخصائص. وهي تمثيل عرفنيّ يتضمّن تعميما لمظاهر التّماثل المشتركة ما بين المدركات من النّماذج الجارية في الاستعمال (كمّار وبارلو 2000)[212]. والأساس في نشوء الخطاطة –في الدّراسات العرفنيّة– تمثيلا عرفنيّا عامّا شاملا للكثير من النّماذج هو التّجربة الإدراكيّة، فإذا ما شاهد الواحد منّا في مناسبات عديدة متكرّرة الكثير من الأجسام يسقط (من موقع عال إلى موقع مستفل) أو يرتفع (من موقع مستفل إلى موقع عال) قد يكون ريشة أو كرة أو حصاة أو كجّة أو ورقة أو شخصا أو تفّاحة أو قميصا وهلمّ جرّا، جرّد في ذهنه مخطّطا أدنى ما يكون فيه حركة عموديّة واقعة ما بين طرفين أو معلمين واحد منهما يمثّل طرفها الأقصى علوّا من مسطّح المكان (الأرض) والآخر يمثّل طرفها الأدنى من مسطّح المكان (المحور الأفقيّ). فإذا كانت الحركة متباعدة من مسطّح الأرض كانت ارتفاعا وإذا كانت مقتربة منه أو بالغة إيّاه كانت سقوطا أو نزولا. هذا كلّ ما في هذه الخطاطة، ولكنّ نماذجها –

---

210 Schema.
211 Schank and Abelson (1977).
212 Kemmer and Barlow (2000).

أو بعبارة أخرى تحقّقاتها[213]- غير محدودة عدّا، وهي ما به يتمثّل الفرد الواحدة من تينك الحركتين كائنتين من الأشياء والذّوات وما به يعبّر عنها ببنية لغويّة مخصوصة بها تصوّرها، بما في ذلك الارتفاع والنّزول أو السّقوط جاريين في مجالات قيميّة رمزيّة من قبيل النّزول والارتفاع في الأسعار أو القيم أو الحرارة.

وما اكتشاف نيوتن لقانون الجاذبيّة المسيّر لهذه الظّاهرة إلاّ تفسير فيزيائيّ لها، أمّا الخطاطة فسابقة حضورا وتصوّرا وتحقّقا لذلك الاكتشاف عند جميع النّاس وعند نيوتن نفسه. فالخطاطة واحدة عامّة فقيرة لا تخصيص فيها وهذا ما يجعلها منطبقة على الكثير من الوقائع حسّيّها وتجريديّها كما يبين في الأمثلة الواردة في (1) بعد هذا.

وهي أمثلة متقاربة، مردّ ذلك إلى تصوّر مفهوم النّزول لا إلى الفعل الّذي عبّر عنه – كما قد يتبادر إلى الأذهان- ولكنّ الغاية من إيرادها بيان ما به يكون إثراء الخطاطة في تحقّقاتها بجملة من التّفاصيل (المعلومات) فيكون انطباقها على واقع تتحقّق فيه وذلك ببيان عدد من العناصر البنيويّة المكوّنة للخطاطة وملئها (المصدر، الغاية، المسلك، السّرعة، الأداة والوسيلة...) وذلك في عدد من المجالات بعضها ماديّ فيزيائيّ في تصوّره وبعضها تجريديّ قيميّ :

(1)

أ- نزل زيد من الجبل.

ب – نزل زيد إلى الوادي.

ج – نزل زيد إلى الوادي من (عبْر) الطّريق المعبّدة.

د- نزل الحمار بزيد من الجبل إلى الوادي.

هـ نزل زيد من الطّابق العاشر في المصعد الكهربائيّ.

و- نزل زيد من بطن أمّه سريعا.

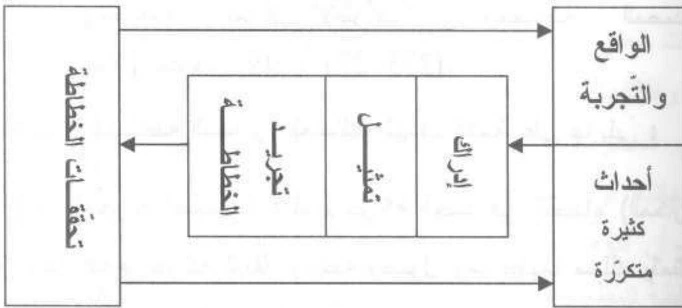
ز- نزلت أسعار البترول من 140 دولارا إلى 70 دولارا.

ح- نزلت درجات الحرارة تدريجيا.

[213] Instantiation(s).

ويثبت داندراد[214](1995) أنّ الخطاطة منطلقها إدراك الأشياء أو الأحداث في التّجربة فتمثيلها وحفظها في شكل شبكات من المفاهيم والصّور، ثمّ تُنتزع المظاهر القارّة، من التّجربة الواحدة المتعدّدة المتكرّرة أو المتواترة فينشأ من ذلك ما يشبه الإطار لها في أعمّ مظاهرها. وهذا الإطار هيكل عامّ منضّد بما فيه من العناصر والعلاقات، ينطبق على ما لا نهاية له من النّماذج أو التّحقّقات. ويظلّ هذا الإطار في حاجة إلى أن يُملأ بالتّفاصيل والخصائص الماديّة، واختصار ذلك في السّلسلة الواردة في التّمثيل (2) :

(2)



ويمكن للصّور الذّهنيّة أن تمثّل أساسا لقيام الخطاطة من حيث كانت منطلقا لعمليّة تعميم وتجريد تنتزع به الخصائص العامّة فيتكوّن قالب عامّ مجرّد ثابت من التّفاصيل على غاية من الفقر فيها. وهي إذ كانت فقيرة في تفاصيلها أمكنها استيعاب كلّ ما استجاب لتلك السّمات العامّة، فالصّورة تمثيل ثريّ لموضوعها والخطاطة قالب ثابت فقير. وقد اجتمع المفهومان في واحد هو ما يطلق عليه الخطاطة الصّورة[215] عند جونسون ولايكوف، حيث تعتبر الخطاطةُ الصّورةُ بنية على غاية من العموم والتّجريد وعلى غاية من المرونة ومن الفقر في التّفاصيل بوجه تكون به أداة أوّليّة يشتغل بها الذّهن. فالخطاطة الصّورة جشطلت من حيث كانت كلاّ منضّدا وليست مجرّد أجزاء مجمّعة (لايكوف 1987، 272) من حيث كانت إطارا من العلاقات المنتظمة تُملأ بتفاصيل ماديّة عينيّة.

---

[214] D'Andrade, Roy.
[215] Image Schema.

ولكلّ خطاطة- حسب لايكوف- رباعيّ من الأركان :

1-التّجربة المجسدنة : جملة المظاهر الّتي بها نتمثّل أجسادنا وما به يكون للخطاطة معنى من حيث ارتباطها بتجربتنا الجسديّة.

2-العناصر البنيويّة : الأركان الأساسيّة لقيام الخطاطة.

3-المنطق الأساسيّ : تنضيد داخليّ تقوم عليه الخطاطة ويمثّل منطقها.

4- النّماذج : جملة العبارات الاستعاريّة-عند لايكوف-ويمكن توسيعها لتشمل كلّ ما يهمّ الخطاب ويتضمّنه كما نبيّن لاحقا.

ومن الخطاطات : خطاطة الحاوية[216] وخطاطة الكلّ-الجزء[217] وخطاطة الرّبط[218] وخطاطة المركز-الأطراف[219] وخطاطة المصدر-المسلك-الغاية[220](الهدف) (لايكوف 1987، 271-275).

فتكون الخطاطة **المصدر-المسلك-الهدف** قائمة على ما يلي :

(أ)- التّجربة المجسدنة : قوام حركة الجسد في الفضاء (المكان) من نقطة انطلاق تبدأ عندها حركة التّنقّل ونقطة وصول وما بينهما مسلك يتمثّل في جميع النّقاط المسترسلة تعمّها الوجهة أو الاتّجاه.

(ب)- العناصر البنيويّة : **مصدر** (نقطة البداية)، **هدف** أو **نقطة وصول**، **مسلك** (سلسلة من المواضع المسترسلة تربط ما بين الانطلاق والوصول) و**اتّجاه** (إلى نقطة الوصول).

(ج)- المنطق الأساسيّ : كلّ انطلاق من مصدر إلى نقطة وصول عبر مسلك يقتضي مرورا بكلّ موضع من المواضع الوسيطة ما بينهما.

---

216 CONTAINER schema.
217 PART-WHOLE schema.
218 LINK schema.
219 CENTER-PERIPHERY schema.
220 SOURCE-PATH-GOAL schema.

(د)- نماذج استعاريّة : نتمثّل الغايات والأهداف على أنّها وجهات أو نقاط وصول، وتحقيق الأهداف على أنّه مرور على مسلك طرفاه بداية ونهاية، فتكون الحياة رحلة والنّجاح غاية يتوصّل إليها بعد أن قطعت مسافة طويلة من الكدّ في العمل وما إلى ذلك.

ولذلك يكون للخطاطة دوران مهمّان -عند لايكوف (1987، 283)- أولهما كون الخطاطة مفهوما قابلا للتّمثّل في ذاته من حيث بنيته وعناصره ومنطقه الأساسيّ الكامن فيه، وثانيهما كونها جارية على سبيل الاستعارة لتنضيد المركّب من المفاهيم الأخرى.

والخطاطات قوالب ثابتة تتركّب بها المدركات والمتصوّرات لتكوين تمثيلات ذات معنى بناء على عناصر جزئيّة (جونسون1987، أوكلي[221] 2005). فمن أبرز وظائفها ملء الفراغ، وذلك بأن يتوفّر فيها ما هو مسلّم به مشترك حاصل من المعلومات أو العناصر، أساسا يكون به الاهتداء إلى الأعمال أو الأحداث الغائبة أو المخفيّة انطلاقا من معلومات جزئيّة أو مقتضبة. وليس من الضّروريّ أن تتوفّر سبيل ذلك الاهتداء في منطوق الخطاب، وإنّما يقوم على أساس خطاطة تنتظم وفقها المعلومات في أذهاننا بطريقة توجّه استدلالنا.

المقام : خطاطات وأطر

يجري التّخاطب باعتماد معارف لغويّة تهمّ الأبنية وما يقترن بها من معان، ومعارف أو معلومات متوفّرة زمن التّخاطب ولا صلة لها بالشّكل اللّغويّ إذ هي من قبيل آخر بعضه مادّيّ فيزيائيّ يهمّ المحيط والأشخاص الحاضرين بمن فيهم المتكلّم والسّامع المعنيّ، وبعضه ذهنيّ حاصل في المعرفة بالكون والتّجربة. وقوام النّجاح في التّخاطب الاهتداء إلى تأويل القول تأويلا مناسبا – أي موافقا لما خطّط له منتجه- باعتماد بنيته اللّغويّة، وتأويل ما عداه من العناصر الحاضرة في المقام.

وإذ يضمّ المقام جملة الأوضاع البيولوجيّة في المطلق (وضع الوجود) كان بعض تلك الأوضاع ماثلا مفيدا في إنتاج الخطاب وتأويله وبعضها ماثلا دون أن

[221] Oakley, Todd.

يفيد في ذلك. فلكلّ شخص خطاطة عرفنيّة تتعلّق بالمقام مطلقا أو وضع الوجود مطلقا وبالمقامات المخصوصة بأعيانها أو أوضاع الوجود المتنوّعة، وهذه الخطاطات وظيفيّة في بناء الخطاب وتأويله وظيفيّتها في جميع أوضاع التّفاعل.

وفي هذا الإطار يثبت فان ديك (2006، 217) أنّ الشّخص لا يجرّد المقام من الوضع المادّيّ الفيزيائيّ فقط وإنّما ينقاد بخطاطات يحلّل بها مختلف المقامات، فيكون من الخطاطات ما هو مقاميّ يتحقّق في ملابسات متنوّعة، فكما يكون تأويل الكلام على أنّه استفهام أو أمر أو استخبار باعتماد خطاطة لغويّة أساسها أدوات نحويّة ونطقيّة معلومة، يكون تأويل المقامات وفق خطاطة ذهنيّة مقاميّة تهمّ الوضع عامّة والوضع الّذي يوجد فيه الشّخص مزامنا للقول، كما يحدث- والمثال لفان ديك- أنّك إذا ما كنت مارّا في الشّارع، وانتبهت إلى شخص أجنبيّ (باعتماد عدد من المظاهر المميّزة من قبيل لون شعره، ولباسه وما إلى ذلك) مقبلا نحوك يهمّ بمخاطبتك، تتوقّع منه أن يطلب منك إرشادا أو استشارة تهمّ الطّريق أو موقعا من المواقع، كما يمكن أن تتوقّع منه التّحيّة سلوكا والاستفهام عملا لغويّا.

ويجعل فان ديك (2004، 219) المقام الاجتماعيّ العامّ أنواعا منها لكلّ منها خطاطة، فيكون المقام الخاصّ[222] والمقام العامّ[223] والمقام المؤسّسيّ/ الرّسميّ[224] والمقام غير الرّسميّ[225] ممّا لا كلفة فيه.

وتتحدّد تلك الأنواع من المقامات باعتماد مداخل متعدّدة متفاعلة منها مدخل المرتبة (الأدوار، المكانة الاجتماعيّة) ومنها مدخل خصائص المشاركين من حيث السّنّ والجنس والمظهر وما إليها، ومنها مدخل العلاقات بين المشاركين من حيث التّسلّط أو السّيطرة أو التّساوي (الزّمالة، المرافقة) وما إليها، ومنها مدخل الوظائف (أستاذ، قاض، شرطيّ، مدير، نادل...). فيكون المقام نفسه منتظما وفق أطر اجتماعيّة[226].

[222] Private.
[223] Public.
[224] Institutional/formal.
[225] Informal.
[226] Social frame(s).

وفي ما يلي خطاطة عامّة في التّحليل المقاميّ[227] باعتماد مثال يطلب فيه مراقب التّذاكر على متن القطار من واحد من المسافرين أن يريه تذكرته : "التّذكرة، من فضلك" (فان ديك 2004b، 221-222) :

(3) التّحليل المقاميّ (فان ديك)

بنية الإطار[228]	الموضع[229]	إطار المشهد وهو أساسا المكان في هيأة مخصوصة: القطار وهو يسير.
	الوظائف[230]	وظيفة كلّ واحد من المشاركين في المشهد: - شخص (س): مراقب تذاكر. - شخص (ص): راكب (مسافر).
	الخصائص[231]	- شخص (س) يحمل زيّا رسميّا، في حال شغل يؤدّي مهمّة رسميّة، وقد يقدّم نفسه على أنّه كذلك. - شخص (ص) حامل التّذكرة.
	العلاقات[232]	شخص(س) ذو سلطة على شخص (ص).
	المراتب[233]	- شخص(س) مراقب، يتفحّص وضع (ص). - شخص (ص) مراقَب.
مواضعات الإطار[234]	جملة المواضعات الّتي تحكم سلوك المشاركين في الوضع أو المشهد (القواعد، الآداب، القوانين،الواجبات، القيم) : - كلّ مسافر يحمل تذكرة وجوبا. -كلّ مسافر مطالب بالاستظهار بها وجوبا عند الطّلب لدى المراقب. - يعاقب المسافر بخطيّة ماليّة إن خالف ذلك بوجه ما. - المراقب يراقب التّذاكر.	
سير الأحداث في المقام	الحدث الجامع[235] : ص يمتطي القطار ذاهبا إلى مكان ما.	
	الأعمال السّابقة: خروج إلى المحطّة، شراء التّذكرة، امتطاء القطار...	

[227] Contextual analysis.
[228] Frame structure.
[229] Setting.
[230] Functions.
[231] Properties.
[232] Relations.
[233] Positions.
[234] Frame conventions.
[235] Macro-actions.

يمكن اعتماد النّصّ التّالي لبيان ما مضى عرضه من المفاهيم :

(4) حبر الأصمعيّ والرّشيد

حدّثنا دريد عن عبد الرّحمان بن أخي الأصمعيّ عن عمّه قال : بعث إليّ الرّشيد فدخلت فإذا صبيّة فقال : من هذه الصّبيّة؟ فقلت : لأدري. قال : هذه مواسة بنت أمير المؤمنين. فدعوت لها وله قال : نعم، فقبّل رأسها! فقلت إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني، وإن أنا عصيته قتلني بمعصية. فوضعت كمّي على رأسها وقبّلت كمّي، فقال : واللّه! يا أصمعيّ! لو أخطأتها لقتلتك. أعطوه عشرة آلاف درهم!

ابن الجوزي : كتاب الأذكياء

دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 120.

لنا عناية بمظاهر أخرى من هذا النّصّ في مواطن أخرى نعود إليها في إبّانها[236]، والمهمّ في هذا السّياق أن نتبيّن ما به يكون تأويل بعض الأقوال فيه في ضوء المقام خطاطة عامّة منطبقة على وضع مخصوص يحدّده إطار اجتماعيّ، ولنهمل كلّ ما يهمّ مقام الرّواية وتناقلها وما تترابط به الجمل و/أو المقاطع وما إلى ذلك، للتّركيز في إنتاج بعض المقاطع من الخطاب وتأويلها وفق مقتضيات الخطاطة المقاميّة الاجتماعيّة، وعناصرها كما يلي في (5) :

236– انظر : الأفضية الذّهنيّة (الفصل الأوّل من الباب الرّابع).

(5)

نوع المقام الاجتماعيّ		مؤسّسيّ رسميّ
المؤسّسة		الخلافة
الإطار		قصر الخلافة
بنية الإطار	الموضع	الوضع : مجلس الخليفة بما فيه، حضور البنت...
	الوظائف	-الرّشيد : الخليفة حاكم البلاد، وأمير المؤمنين. - الأصمعيّ : واحد من الرّعيّة
	الخصائص	-الرّشيد : ملامح الشّخص، زيّ مخصوص، خليفة. -الأصمعيّ : ملامح الشّخص، زيّ عاديّ، من الرّعيّة.
	العلاقات	- للخليفة سلطة على الأصمعيّ. -الأصمعيّ من الرّعيّة وإن كان ذا مكانة رمزيّة لعلمه وحكمته وآدابه.
	المراتب	- الخليفة آمر. - الأصمعيّ مأمور.
مواضعات الإطار		القواعد (آداب السّلوك بما في ذلك آداب الملوك) : - كلّ واحد من الحاضرين يطيع الخليفة. - كلّ من يعصي الخليفة يعاقَب (سجن، قتل...). - البدء بالخليفة في كلّ شيء. - الخليفة يَسأل والحضور يجيبون. - لا ينادى/يُسمّى/يخاطب الخليفة باسمه بين يديه، وإنّما يُستعمل لقب الحكم (أمير المؤمنين...). - لا يُطلب منه بعمل لغويّ مباشر ولكن يستعاض عن ذلك بالالتماس بحرف الشّرط (إن) وما إليه. ...
سير الأحداث في المقام		الحدث الجامع : حضور مجلس الخليفة
		الأعمال السّابقة : إرسال الرّشيد في طلب الأصمعيّ، خروج الأصمعيّ من منزله، الوصول، الاستئذان، الدّخول عليه (في مجلس الرّشيد)، سؤال الخليفة عن البنت وجواب الأصمعيّ، الدّعاء للخليفة وللبنت، أمر الخليفة بتقبيل البنت، عمل الأصمعيّ بتقبيل كمّه...

وتمثّل خطاطة المقام بما تقوم عليه من خصائص إطارا يكون فيه تأويل عدد من الأقوال التّأويل المناسب، من ذلك :

(أ)- الاهتداء إلى مضمون الدّعاء -عند القارئ اليوم- وإن اكتفى الرّاوي بإجماله عملا لغويّا منجزا لقيمة الدّعاء في صيغة تقريريّة إخباريّة، فالمضمون المفترض هو دعاء يليق بالخلفاء "أطال اللّه عمرها وعمر أمير المؤمنين" وما شابه ذلك من الدّعاء بالتّأييد أو بالنّصر أو بغير ذلك، والمهمّ أن لا يسمّى الأمير باسمه العلم (الرّشيد) في حضرته وإنّما يسمّى بوظيفته أو لقبه (أمير المؤمنين) كما سمّى هو نفسُه نفسَه مخبرا الأصمعيّ عن البنت في قوله "هذه مواسة بنت أمير المؤمنين".

(ب)- الاهتداء إلى عمل الأمر في "قبّل رأسَها" من حيث كان طلبا لا يملك سامعه المعنيُّ به ردّا له، ولا يؤخذ على المزاح أو الإباحة بل يؤخذ على أنّه تكليف ناجز، وجبت طاعته اتّقاء للموت. هذا في ظاهر الأمر لغويّا ومقاميّا، وينضاف بعد اجتماعيّ أخلاقيّ يتمثّل في مفهوم الحرمة الّذي يمتنع بمقتضاه مسّ ما كان منه (بنت، زوجة، إلخ) أو يكون الغضب وعمل الثّأر من صاحبها، ولكن الإطار المقاميّ بما فيه يجعل الغضب وغيرة الخليفة مرتبطين بالموت النّاجز. فالأصمعيّ في ورطة يعاقَب إن أطاع وإن امتنع، والتّأويلان كلاهما منبعه الإطار المقاميّ.

وهذا الإطار ليس إطارا حينيّا فوريّا وإنّما هو إطار خطاطة جامع لأطر مخصوصة بالخلفاء والعظماء والسّلاطين تتشكّل في أذهان من يعتادها ويرتادها من الخاصّة -آداب معاشرة الملوك- لا ينتفي فيها كون الخليفة آمرا وناهيا من حيث كان صاحب سلطان، وعربيّا له غيرة على حريمه- غيرة الأب- في آن. فيكون حينئذ المخرج "بروتوكوليّا" بمعنى يحفظ هذا وذاك أو لا يعصي أمرَ الأمير ولا يطيعه في آن. وكان أن قبّل الأصمعيّ كمّه على رأسها، فقد قبّلها فأطاع ولم يمسسها فيقعَ في محظور، وهذا المخرج باب للنّجاة وسبيل إلى المكافأة.

(ج)- تأويل عمل الأمر بإعطاء المبلغ الماليّ "أعطوه عشرة آلاف درهم"، عند الآمر نفسه فموقعه خليفة لا يسمح له بانعدام القصد إلى إنجاز العمل اللّغويّ

وتحقيق مضمونه، وعند المعنِيّ به من الوزراء أو الأعوان لنفس الأسباب وكذلك عند الأصمعيّ مستفيدا لمكافأته. ينضاف إلى ذلك اليقين من توفّر المبلغ في الخزائن، وهو من مستلزمات الإطار العينيّ من حيث جريان المشهد كاملا في القصر، وليس في رحلة أو صيد أو نزهة. فمضمون الأمر في هذا الإطار، مقدارا وإنجازا وسرعةً، عمل متحقّق نافذ لا محالة.

الخطاطة وتحقّقاتها : التّرسيخ والانهيار

تنتظم الخطاطات في أطر معرفيّة حركيّة متغيّرة، فيكون لها فيها أحوال من المعالجة عديدة، يهمّنا منها اشتغالها في الخطاب ويجملها ستوكوال (2002، 79) في ثلاث هي : الحفاظ على الخطاطة[237] وترسيخ الخطاطة[238] وتشويش الخطاطة[239] أو انهيارها.

الحفاظ على الخطاطة

يكون الحفاظ على الخطاطة في الخطاب العاديّ الجاري للتّواصل أو لغيره من الغايات حيث لا يثير إشكالا في الفهم أو في تنضيد المعرفة والأشياء في العالم بما يقوم فيه من أطر موافقة للمعهود المشترك بين النّاس. يجري ذلك بطريقة عفويّة عاديّة بها يكون الحفاظ على الخطاطات القائمة واستمرارها.

ترسيخ الخطاطة

يكون ترسيخ الخطاطة في أنواع من الخطاب غايتها إقامة مناويل في المعرفة بتأسيسها إمّا إنشاء وبعثا أو تحويلا لشيء موجود سابقا، من ذلك الخطاب الدّعائيّ أو الإشهاريّ من قبيل ما تعلّق بالبيئة والعناية بها قيمة اجتماعيّة ثقافيّة واقتصاديّة، ومن قبيل ترسيخ صورة نوع من المنتوجات تصبح جزءا من النّظام المعرفيّ كأن يقترن نوع مخصوص من المصنوعات الغذائيّة برفاه وصحّة واعتدال. وكذا الأمر في الخطاب الإيديولوجيّ بشتّى أنواعه حيث تغلب المعاودة والتّكرار بوجه يؤدّي إلى غرس خطاطة غرسا آليّا.

---

[237] Schema preserving.
[238] Schema reinforcing.
[239] Schema disruption.

انهيار الخطاطة

أمّا تشويش الخطاطة أو انهيارها، فيكون في الخطاب الّذي يتضمّن عناصر أو تشكّلات للمعرفة غريبة عن الخطاطات المعهودة، وفي هذه الحال يكون التّوتّر ما بين الخطاطات المعهودة الحاصلة في الذّهن وتلك التّشكّلات. ويكون الحلّ عند انهيار الخطاطات المعهودة وتشويشها بالبحث عن الملاءمة والتّوازن بوجه يقود إلى إنشاء منظومة معرفيّة يكون فيها للخطاطات النّاشئة موقع ووظيفة.

ونماذج هذا كثيرة في الخطاب منها ما يكون ذا أثر طويل المدى وذلك من قبيل تبدّل القيم في غرض شعريّ أو في منظومة قيميّة اجتماعيّة يكون بها ما يسمّى في القديم بالتّجديد، قارن مثلا ما بين الأطوار الكبرى في الشّعر العربيّ منذ ما قبل الإسلام إلى اليوم ففيه الكثير من هذا صداه ماثل في الكتابة الشّعريّة فالكتابة النّقديّة، فتنشأ لذلك خطاطات جديدة قد تنتهي إلى محو خطاطات قديمة وذلك من قبيل الاستعاضة عن الوقفة الطّلليّة- مثلا- بمشهد طرديّ أو خمريّ، وهذا المشهد بدوره يكون تعويضه في عصر لاحق بخطاطة للمطلع أخرى قد يمّحي فيها تماما أو يعوّض بمضمون آخر لا صلة له بالرّحلة ولا بالتّرحّل قد يتركّز على الشّعور وعلى التّأمّل الحكميّ النّابع من ذات الشّاعر. وكذا الأمر في خطاطة الخطبة - جنسا- ما بين مكتملة تامّة وأخرى بتراء يهجم فيها الخطيب على موضوعه هجوما وما إلى ذلك.

ولئن كانت الأحوال الثّلاث متداخلة مشتغلة في الخطاب الواحد فإنّ بعض الخطابات موسوم بالواحدة منها دون الأخرى، من ذلك أنّ الخطاب الإخباريّ العاديّ قوامه الحفاظ على الخطاطة من حيث يمتثل لها ويستقيم بقيامها، وقوام الخطاب التّعليميّ تلقين معارف فتغلب عليه ترسيخ لخطاطات هي قوالب فكريّة أو منطقيّة أو سلوكيّة غايتها تمكين ذهن المتعلّم من أدوات خطاطيّة لم تكن فيه يعتمدها أدوات في التّفكير والعمل والبحث وما إلى ذلك.

ولنا في الخطاب الهزليّ نموذج ممّا يغلب فيه تشويش الخطاطة المعهودة لإنشاء الضّحك عند المتقبّل، وإن تعدّدت غاياته النّقديّة الإصلاحيّة. وهو محطّ عنايتنا في ما يلي باعتماد نماذج قد يكون لها في الإطار العرفنيّ تحليل من زاوية أخرى قد تقود إلى فهم آخر لاشتغاله على مرّ العصور.

انهيار الخطاطات في النّصّ الهزليّ

انهيار الخطاطة رهين لمنظومة الخطاطات القائمة لذلك لا يُضحك الخطاب الهزليّ (النّكتة، المسرحيّة الهزليّة الجماعيّة أو الفرديّة...) جميع النّاس في الثّقافة الواحدة أو جميع النّاس في مختلف الثّقافات أو العصور.

وانهيار الخطاطة ليس مجرّد خيبة للتّطلّع أو للانتظار وإنّما هو فقدان للتّوازن العرفنيّ وغياب لأدوات التّنضيد المعهودة، بل إنّ خيبة الانتظار قوامها الخطاطة الّتي تقود إلى الاستكمال النّاقص آليّا ودون وعي أو تفكير.

في الخطاب يبني السّامع عددا من الخطاطات في ضوئها يكون تنضيد العوالم المكوّنة للخطاب في ذهنه ويعيد النّظر فيها وفق تقدّمه في الخطاب فيكون منه التّعهّد المفهوميّ بما فيه من إقامة شبكة جديدة من المفاهيم إليها يضيف ومنها يطرح وفيها يوزّع أو يرتّب. وهو، إذ يبني خطاطات ثمّ يعيد النّظر فيها كلّما حصل على معلومات جديدة إنّما يكون له ثلاثة مواقف من كلّ معلومة جديدة بناء على علاقتها بالخطاطة الّتي يملكها فيمكن أن يصهرها في خطاطاته دون أن يغيّر من الخطاطة الكبرى شيئا، أو يبدّل الخطاطة القديمة في ضوء الجديد، أو يعيد البناء فيقيم خطاطة جديدة ترتق بها الفجوة ما بين الخطاطة القديمة الحاصلة والمعلومة الجديدة المكتسبة. ولكن قد يجد الخرق قد اتّسع وأنّ ما بناه لا يطابق أيّ خطاطة، وهذا محدث للهزل وانعدام المنطق للخروج عن الخطاطة. وانهيار الخطاطة قائم على انهيار في ركنين تقوم عليهما الخطاطة عامّة هما "العناصر البنيويّة" بما فيها من أركان أساسيّة لقيامها و"المنطق الأساسيّ" بما تقوم عليه الخطاطة من تنضيد داخليّ يمثّل منطقها.

فالخطاب الهزليّ (النّكتة، الطّرفة) وكذلك كلّ نمط من الخطاب "العجيب" (خطاب المعتوه، الهذيان، الخرافات، الحكايات العجيبة، الأساطير وما إليها) يتضمّن تحقّقا "غريبا" لخطاطة مشتركة، يكون ذلك في الانقطاع ما بين الخطاطة العامّة وتحقّقاتها المعهودة من جهة، مقاسا أو معلما[240]، وتحقّقها العينيّ في سياق محدود هدف[241] من جهة أخرى. فتقوم في ذهن السّامع عمليّة مسح[242] ما بين

---

[240] Standard.
[241] Target.
[242] Scanning.

الخطاطة المعلم والخطاطة الهدف يرتق بها ذلك الفراغ باحثا عن مظاهر التّناسب بينهما. ولكنّ التّناسب يستوي في مقاطع وينقطع في أخرى متنوّعا من حيث تواتر الانقطاع، فيكون انقطاعا أحاديّا مجملا مكتملا تنهار له خطاطة واحدة (خبر جحا في ما يأتي) أو متعدّدا متراكما متلاحقا تنهار له خطاطات عديدة انهيار أوراق اللّعب المعتمِد بعضها على بعض (المقامة الحلوانيّة : مشهد الحمّام) أو متعدّدا ولكن متباعدا في ثنايا الخطاب تتخلّلها استقامة لخطاطات فتكون المراوحة بين خطاطات مستقيمة وأخرى منهارة على وجه يتفاقم له الاختلال في نهاية المطاف (الطّائيّ وزوجته وقصّة الصّوف بعد هذا).

وممّا يُلاحظ في مواضع انهيار الخطاطة سعي واحد من المتخاطبين إلى إصلاح ذلك الانهيار بتبريره باعتماد خطاطة أخرى أو تحقّق آخر للخطاطة المنهارة وفق ما يقتضيه منطقها العامّ الّذي تقوم عليه.

ويجد مفهوم انهيار الخطاطة سندا له في واحدة من أقوى الفرضيّات في تفسير الخطاب الهزليّ كما تبلورت في علم النّفس العرفنيّ. هي النّظريّة القائمة على عمليّة حلّ مشكل اللاّتطابق[243] (سولس 1972، كوسلار 1989، أطّاردو 1997)[244] :

تقوم هذه العمليّة على مرحلتين أو طورين:

يكون في الأوّل منهما إقامة تمثيل لعالم ممكن في ذهن المتقبّل باعتماد العناصر المتوفّرة في الخطاب بتقدّمه في القراءة أو السّماع إلى أن يبلغ نقطة لا يتطابق فيها مضمون التّمثيل وما ينتظره أو يتطلّع إليه.

ويقوم الطّور الثّاني على بلورة حلّ لذلك المشكل تشتغل أثناءه مهارة عرفنيّة عامّة أساسها حلّ المشاكل[245]. وفي هذا الطّور يكون البحث عن حلّ لعدم التّطابق ذاك بإعادة التّأويل، تأويل الخطاب أو النّصّ على أساس أطار مرجعيّ آخر لم يُعتمد في الطّور الأوّل.

---

[243] Incongruity-Resolution Process.
[244] Suls (1972); Koestler (1989); Attardo (1997).
[245] Problem-solving.

وقد رصدنا في ذلك الانهيار وجوها منها الانهيار الأحاديّ المفرد المجمل ومنها الأحاديّ المتكرّر ومنها المتعدّد المتّصل ومنها الانهيار المتعدّد المنفصل، كما يلي بيانه.

الانهيار الأحاديّ المجمل المفرد

نعتمد خبر جحا والقميص نموذجا في ذلك :

(6)

قال رجل لجحا : سمعت من داركم صراخا؟ قال : سقط قميصي من فوق. قال : وإذا سقط من فوق؟ قال : يا أحمق! لو كنت فيه أليس كنت قد وقعت معه؟ ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفّلين دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 45.

يقوم الخبر في منوال ثقافيّ عامّ أساسه ارتباط الصّراخ بسبب مكروه وهو ما يكوّن خطاطة الصّراخ : الصّراخ صادر من بيت الجار يرتبط بفاجعة قد تكون إصابة شخص أو موتا أو انهيارا لشيء في المنزل أو حريقا وما إلى ذلك من الأسباب الممكنة. وخطاطة الصّراخ جزءٌ من خطاطة أوسع هي الصّراخ للفاجعة، وتتمثّل الفاجعة في السّقوط كائنا من القميص. تنهار خطاطة الفاجعة في هذا المستوى لتعطّل الرّبط ما بين القميص السّاقط والصّراخ، فهو تحقّق يخالف منطق الخطاطة الأساسيّ. فليتحقّق الصّراخ ويستقيم وجب أن يكون السّاقط إنسانا أو شيئا ذا قيمة وشأن، أمّا القميص فلا ضرر فيه عليه. ولكن جحا يرتق الخطاطة المنهارة ويصلحها باعتماد خطاطة الحاوية فإذا كان القميص قميصَه كان من الممكن أن يكون لابسا إيّاه وقت سقوطه فيسقط معه وفق ما يقتضيه الاحتواء (القميص يحتوي جسم جحا) من تصرّف المحتوَى تبعا لتصرّفات حاويته (بسقوط القميص يسقط جحا)، فالصّراخ متحقّق في خطاطته المنطقيّة.

ولكنّ الخطاطة- وإن استقامت من زاوية الاحتواء- تنهار من زاوية أخرى متعلّقة بخطاطة تمنع الوجود في مكانين على أساس التّزامن (مبدأ الثّالث المنتفي) : فجحا على هذا الأساس موجود خارج القميص وفيه، ولذلك يكون الصّراخ لسقوط القميص الّذي يحتوي جحا ولا يحتويه في آن، صراخا مبرّرا في خطاطته.

الخطاطة القائمة: فاجعة ← صراخ.

العناصر البنيويّة:

الفاجعة: شخص-إصابة- صراخ

قميص -سقوط- صراخ

السّقوط: فوق-تحت (بفعل الجاذبيّة)

الإصابة: ألم، كسر، موت، إلخ

المنطق الأساسيّ: كلّ سقوط يحدث إصابة أو ألما أو ضررا يشرّع صراخا.

انهيار الخطاطة: سقوط القميص لا يسبّب ألما فليس سببا للصّراخ، وهذا الأمر يعارض المنطق الأساسيّ لخطاطة الصّراخ (سقوط القميص ليس سببا معقولا للصّراخ).

إصلاح الخطاطة المنهارة باعتماد خطاطة الاحتواء جزءا من خطاطة الفاجعة :

خطاطة الحاوية: حاوية-حلول- محتوَى

العناصر البنيويّة: الحاوية(قميص)-حلول(لباس)-محتوى (جحا)

المنطق الأساسيّ: اللباس احتواء والقميص حاوية للابسه والجسد كائن في لباسه، وهما واحد، في مكان واحد فيكون بسقوط اللّباس سقوط للابسه، والسّقوط موافق لخطاطة (فوق- تحت)

انهيار الخطاطة: يكون بانطباق خطاطة الاحتواء على خطاطة السّقوط إذ لا يتوفّر الحلول في الحاوية (جحا في القميص) فكان السّقوط من الحاوية فقط، وبالافتراض (لو كنت فيه) تنهار الخطاطة. وينهار مبدأ الثّالث المنتفي "استحالة الوجود في مكانين على أساس التّزامن".

الانهيار الأحاديّ المتكرّر: تذكرة الأضاحي نموذجا

من نماذج انهيار الخطاطة الأحاديّ المتكرّر ما يرد في (7) :

(7)

> وعن أبي أحمد الحارثيّ، قال : وكتب (بعض كتّاب الدّيلم) مرّة بحضرتي تذكرة بأضاح يريد تفريقها في دار صاحبه وقد قرب عيد الأضحى، فكتب : القائد ثور، امرأته بقرة، ابنه كبش، ابنته نعجة، الكاتب تيس، فقلت : ياسيّدي الرّوح الأمين ألقى إليك هذا؟ فلم يدر ما خاطبته به وسلمت منه.
>
> ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفّلين
>
> دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 106.

تتمثّل الخطاطة العامّة الّتي يقوم عليها نصّ التّذكرة الموزّعة للأضاحي في الاحتواء من حيث كان العنصر منتميا إلى مقولة، وشرط الانتماء معلوم لا نطيل فيه : فالحيوان ناطق يضمّ الإنسان وغير ناطق يضمّ الماشية وما إليها. والإنسان بالوظيفة أو العلاقة يكون قائدا أو ابنا أو ابنة أو كاتبا، والماشية المقترنة بالأضحية- في العرف- ثور أو بقرة أو كبش أو نعجة أو تيس.

ولكنّ إسناد الأضحية من الماشية إلى صاحبها من الأناسيّ قام على إخبار بالماهية يكون بمقتضاه الحرفيّ، الفرد من العائلة رأسا من الماشية على سلميّة متوافقة. فأحسن أفراد العائلة مرتبة يكون أحسن الأنواع من الماشية في سلّميّة تصنيفيّة يمدّنا بها المنوال الثّقافيّ العامّ في مجتمع إسلاميّ يمثّل فيه نوع القربان في الأضحية دليلا على منزلة اجتماعيّة في سلّمية متكاملة التّنضيد.

انهيار الخطاطة: يكون بانطباق خطاطة الاحتواء على خطاطة السّقوط إذ لا يتوفّر الحلول في الحاوية (جحا في القميص) فكان السّقوط من الحاوية فقط، وبالافتراض (لو كنت فيه) تنهار الخطاطة. وينهار مبدأ الثّالث المنتفي "استحالة الوجود في مكانين على أساس التّزامن".

الانهيار الأحاديّ المتكرّر : تذكرة الأضاحي نموذجا

من نماذج انهيار الخطاطة الأحاديّ المتكرّر ما يرد في (7) :

(7)

وعن أبي أحمد الحارثيّ، قال : وكتب (بعض كتّاب الدّيلم) مرّة بحضرتي تذكرة بأضاح يريد تفريقها في دار صاحبه وقد قرب عيد الأضحى، فكتب : القائد ثور، امرأته بقرة، ابنه كبش، ابنته نعجة، الكاتب تيس، فقلت : ياسيّدي الرّوح الأمين ألقى إليك هذا؟ فلم يدر ما خاطبته به وسلمت منه. ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفّلين دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 106.

تتمثّل الخطاطة العامّة الّتي يقوم عليها نصّ التّذكرة الموزّعة للأضاحي في الاحتواء من حيث كان العنصر منتميا إلى مقولة، وشرط الانتماء معلوم لا نطيل فيه : فالحيوان ناطق يضمّ الإنسان وغير ناطق يضمّ الماشية وما إليها. والإنسان بالوظيفة أو العلاقة يكون قائدا أو ابنا أو ابنة أو كاتبا، والماشية المقترنة بالأضحية- في العرف- ثور أو بقرة أو كبش أو نعجة أو تيس.

ولكنّ إسناد الأضحية من الماشية إلى صاحبها من الأناسيّ قام على إخبار بالماهية يكون بمقتضاه الحرفيّ، الفرد من العائلة رأسا من الماشية على سلميّة متوافقة. فأحسن أفراد العائلة مرتبة يكون أحسن الأنواع من الماشية في سلّميّة تصنيفيّة يمدّنا بها المنوال الثّقافيّ العامّ في مجتمع إسلاميّ يمثّل فيه نوع القربان في الأضحية دليلا على منزلة اجتماعيّة في سلّمية متكاملة التّنضيد.

وبذلك الإخبار المتكرّر تنهار خطاطة الانتماء المقوليّ. فيكون به تكسير المنطق الأساسيّ وبه تتداخل المقولتان (الإنسان والماشية) تداخلا تكون به عائلة القائد قطيعا من الماشية موزّعة حسب الجنس من ذكر وأنثاه (ثور/بقرة، كبش/نعجة) وحسب المرتبة الموافقة للحجم (فالأبوان ثور وبقرة، الولدان كبش ونعجة) وحسب المزاج والجنس والتّدنّي في المرتبة الاجتماعيّة يكون الكاتب تيسا.

ولئن انهارت الخطاطة فإنّها لم تُصلح رغم توفّر مفتاح ذلك في إشارة من الرّاوي فيها استفسار عن مصدر ذلك الإلهام الّذي أعاد تفصيل الأجناس والخلط بينها في مقولة واحدة.

ويوازي انهيار الخطاطة تصوّرا انهيار لخطاطة بنيويّة تصوّريّة لغويّة هي بنية الإسناد المنقسم إلى نوعين إخبار عن الماهية وإخبار بنسبة، وهذا الانهيار مواز لذلك الأوّل. قارن ما بين "للقائد ثور" و"القائد ثور"، أو" لامرأته بقرة" و"امرأته بقرة". ولكنّ إصلاح الخطاطتين بقي موكولا إلى السّامع يرتق ما بان بين الخطاطة وتحقّقاتها.

الانهيار المتعدّد المتّصل

من نماذج الانهيار المتعدّد المتّصل ما جرى تحليله في نصّ المقامة الحلوانيّة[246] من حيث قيامها على انهيار خطاطة الكلّ-الجزء (رأس-جسد الرّاوي يصبح الرّأس ليس منه)، خطاطة النّسبة أو الرّبط، خطاطة الاحتواء وما إلى ذلك.

الانهيار المتعدّد المنفصل

من نماذج انهيار الخطاطات المتعدّد المنفصل المتباعد يتخلّل تحققا لخطاطات سليما موافقا للمعهود المنتظر، قصّة الطّائيّ والطّائيّة:

---

246 – انظر الفصل الأوّل من الباب الثّاني.

(8) قصّة الطّائي والطّائيّة

وعن العلاء بن سعيد قال : قعد طائيّ وطائيّة في الشّمس، فقالت امرأته : واللّه، لئن ترحّل الحيّ غدا لأتبعنّ قماشهم وأصوافهم ثمّ لأنفشنّه ولأغسلنّه ولأغزلنّه، ثمّ لأبعثنّه إلى بعض الأمصار فيباعَ وأشتريَ بثمنه بكرا، فأرتحل عليه مع الحيّ إذا ترحّلوا.

قال الزّوج : أفتراك الآن تاركتني وابني بالعراء؟

قالت : أي واللّه!

قال : كلاّ واللّه!

ومازال الكلام بينهما حتّى قام يضربها، فأقبلت أمّها،

فقالت : ما شأنكم؟

وصرخت : يا آل فلانة، أفتُضرَب ابنتي على كدّ يديها ورزق رزَقها اللّه؟

فاجتمع الحيّ فقالوا : ما شأنكم؟ فأخبروهم بالخبر.

فقالوا : ويلكم! القوم لم يرحلوا وقد تعجّلتم الخصومة؟

ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفّلين

دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 114-115.

يمثّل الخبر محاورة، يقيم فيها كلّ واحد من المتحاورين نسخة من خطاطة عامّة، تستقيم في ذاتها ولكنّها تنهار من جهتين: في علاقتها بخطاطة الطّرف المشارك مفردا ومتعدّدا في مستوى أوّل، وفي علاقتها بحال الأشياء في الكون، في مستوى ثان:

فخطاطة الزّوجة، قوامها أن عاينت واقعا ينقصه دابّة فخطّطت لتغييره وفق مسلك متسلسل مستقيم هو خطاطة **المصدر-المسلك-الغاية**[247]:

المصدر: معاينة الواقع (الآن، حال الفقر والحاجة وفقدان الرّاحلة).

المسلك: زمن الغد، ترحّل الحيّ+جمع الصّوف+ نفش+ غسل+ غزل+ بعث إلى الأمصار+ بيع + شراء البكر.

الغاية: التّرحّل على البكر، إذا ترحّل الحيّ.

247 Source-Path-Goal.

فإذا ما كان انهيار الخطاطة **مصدر-مسلك-غاية** عند الزّوجة من درجة أولى، وعند الزّوج من درجة ثانية، يكون انهيارها عند الحماة من درجة ثالثة لقيام تحقّق الخطاطة عندها على التّحقّقين الأوّلين: فهي موافقة على المصدر والمسلك والغاية لخطاطة ابنتها تمام الموافقة سيرا على نصرة الأمّ لابنتها ظالمة أو مظلومة!؟، وفي ذلك ترسيخ لخطاطتها.

ولكنّها تمثّلت ما اختلف في شأنه الزّوجان شيئا حاصلا قائما. فهما لم يختلفا في كون **المسلك** كائنا في زمن افتراضيّ مستقبليّ وإنّما اختلفا في التّخطيط **للغاية** بناء على اختلاف في **المصدر** (تشخيص الواقع)، أمّا الأمّ فقد أقامت خطاطة منهارة، أساسها وهم به يكون المشروع المخطّط له في الزّمن المستقبل (الغاية عند الزّوجة ومسلكها) أمرا حاصلا منجزا في الحاضر، هو كدّ اليدين (جمع الصّوف+ نفش+ غسل+ غزل) ورزق من الله (شراء البكر). وهو أمر لا يشرّع ضربها.

وإجمال ذلك في ما يلي حيث يبين الانهيار المتعدّد باختلاف الأزمنة المتصوّرة عند الثّالوث (الزّوجة، الزّوج، الحماة):

(10)

	المصدر	المسلك	الغاية
الزّوجة	غياب الرّاحلة	ترحّل الحيّ+ جمع الصّوف+ نفش+ غسل+ غزل+ بعث إلى الأمصار+بيع + شراء البكر	التّرحّل على البكر
الزّمن	الحاضر	المستقبـــل	
الزّوج	غياب الغطاء	ترحّل الحيّ+ جمع الصّوف+ نفش+ غسل+ غزل	صنع الغطاء
الزّمن	الحاضر	المستقبـــل	
الحماة	الرّاحلة موجودة	ترحّلَ الحيّ+ جُـمِع الصّوف+ نُـفش+ غُـسل+ غُـزل+ بُـعث إلى الأمصار+ بِيع +	شُـري البكر
الزّمن	الحـــاضر		

وخلاصة المشهد أنّ خطاطة واحدة تحقّقت في ثلاثة مظاهر متضاربة تضاربا ثنائيّا ما بين الزّوج والزّوجة فثلاثيّا (الزّوج والزّوجة والحماة)، فيكون الاحتكام إلى معيار الخطاطة الجماعيّة عند القوم متمثّلة في الاهتداء إلى خلل الخطاطات جميعها في قيامها على زمن افتراضيّ أُخِذ على أنّه واقع حاصل : "القوم لم يرحلوا وقد تعجّلتم الخصومة؟"

وقد يبدر إلى الأذهان سؤال مداره الخطاطة أداة نظريّة في تحليل النّماذج من الخطاب الهزليّ فآليّة في قيام الخطاب الهزليّ جنسا أو نوعا من الخطاب. فإذا ما تبيّنت نجاعة الأداة في التّحليل القائم على نماذج محدودة وجب توسيعها للإحاطة بالظّاهرة المتحكّمة في نماذجها المنضوية فيها.

وهو مشروع نظريّ ممكن ولكنّه يخرج بنا عمّا نحن فيه، فليكن هذا دافعا إلى ذاك، إذ من المفروض أنّ كلّ انهيار لخطاطة يربك الاشتغال العرفنيّ فيحدث مرّة الغرابة أو التّجديد أو الإعجاب أو الهزل، وهذا يدخل في رياضة عرفنيّة بها يقيم الذّهن عوالم افتراضيّة غايتها في قيامها في ذاتها. وقد تؤوّل انهيارات الخطاطة على أنّها مختصرة في عدم المطابقة بين الحال والمقال، أو في خيبة الانتظار أو في الخروج عن المعهود أو الإحالة في المعنى وغير ذلك، ولكن الفضل يظلّ دائما لأدوات جديدة تنير الظّواهر القديمة في إطار مبادئ عامّة قد تكون قديمة هي الأخرى، إذ يكمن ذلك الفضل في أنّها تجمع ما تفرّق على الأقلّ، وهو ما به يجتمع في انهيار الخطاطة مثلا الكثير من الظّواهر المتفرّقة في التّناول القديم من المجاز والاستعارة والطّرفة، اجتماعها في آليّات عرفنيّة بشريّة واحدة منها انتظام تصوّراتنا في خطاطات ومنها اشتغال تلك الخطاطات على أنماط متشابهة واحدة في مختلف المجالات، فهذا وحده كاف لبيان الفضل إذ يعود به الذّهن إلى تصوّر شموليّ يشتغل بآليّات كبرى قد تتجلّى في مظاهر إن تناولها الدّارس في مستوى السّطح كانت عنده متباعدة ولكنّها تمثّل تجلّيا مخصوصا لتلك الآليّات العامّة.

فمن الأسئلة الّتي تطرح : لِمَ نضحك لأخبار جحا؟ ولِمَ نستعدّ للضّحك كلّما سمعنا اسمه أو اسم من عُرف بالنّكتة أو غيرها دون أن تكون هناك خطاطة بها نستبق الضّحك من مأتاه وإن كان ما يأتي به مختلف الدّرجات من الإضحاك بين الحين والآخر؟ ولِم لا نضحك للخطاب نفسه يأتيه شخص نعلم أنّه معتوه أو مختلّ أو معوق ذهنيًا لولا اشتغال خطاطة أخرى تمنعنا من ذلك هي الرّأفة أو مراعاة الشّعور؟

فالظّواهر واحدة والآليّات واحدة في كليهما ويبقى الأثر، جماليًا –كان– أو عقليًا أو هزليًا غير مضمون. ثمّ إنّ تحليل النّكتة قاتل لشحنتها الهزليّة كما هو معلوم إذ الأمر حادث حدوثا آن–قوليًا، وما التّحليل إلاّ تفكيك وتركيب وتقنين تماما مثل الفكر أو الحياة أو اللّذّة تدرك عيشا وتتقلّص درجتها تحليلا بل قد تمّحي وتغيب. ولكنّ ذلك غير مانع من أن نضع إطارا كبيرا بمقتضاه يكون بها الجنس الخطابيّ خطاطة تتحقّق في نماذج لها بالخطاطة الجامعة وشائج تقوى وتضعف.

خاتمة

تمثّل الخطاطات قوالب ثابتة تتركّب بها المدركات والمتصوّرات لتكوين تمثيلات ذات معنى، فهي تمثيلات عرفنيّة قوامها تعميم مظاهر التّماثل المشتركة ما بين المدركات من النّماذج، ومنطلقها إدراك الأشياء أو الأحداث في التّجربة فتمثيلها وحفظها في شكل شبكات من المفاهيم والصّور ينشأ بها هيكل عامّ منضّد كلّ ما فيه جملة من العناصر والعلاقات، وينطبق على ما لا نهاية له من النّماذج أو التّحقّقات. فالأشياء والموجودات والمقامات والأحداث والأقوال خطاطات تتحقّق في ملابسات متنوّعة.

وقد ثبت لدينا في ما مضى من هذا الفصل أنّ للمقام خطاطة تتجرّد من الأوضاع الماديّة الفيزيائيّة بمختلف أنواعها ودقائقها وهي فاعلة في بناء الخطاب وفي تأويله، من حيث مثّلت إطارا يضمّ المشاركين كلاّ بخصائصه وبأدواره وبموقعه في السّلم التّراتبيّ الّذي يحكم ائتلاف العناصر فيه في ضوء جميع ذلك. وهو ما قامت عليه نظريّة التّحليل عند فان ديك.

وإذ كانت المقامات خطاطات وكانت الأبنية اللّغويّة خطاطات، كان قيام الخطاب مطلقا على خطاطات مقاميّة وأخرى لغويّة تتفاعلان فيستوجب الواحد منهما قرينه من حيث يستدعيه ويفرضه ومن حيث يمثّل مفتاحا له وعلى أساس ذلك جميعا يكون تأويل الكلام نحوا ودلالة.

ولكن أهمّ ما أثبتنا من النّتائج متمثّل في أنّ الخطاطة مطلقا يكون لها حظّها في الخطاب متعدّدا بأن تتحقّق وفق النّموذج فيها فتترسّخ وتستمرّ فاعلة متجدّدة أو تتوسّع فينضاف إليها ما لم يكن منها أو تنهار على درجات مختلفة، يكون ذلك في أنواع مختلفة من الخطاب، فيربك ذلك الانهيار اشتغال العرفنة وفق خطاطاتها المعهودة فتحدث له الغرابة أو عدم الانسجام أو اللاّمنطق، وجميع ذلك يدخل في رياضة عرفنيّة بها يقيم الذّهن عوالم افتراضيّة غايتها في ذاتها، لعلّ أبرزها أثرا ما قام على الهزل منها.

الفصل الرّابع

المناويل العرفنيّة في النّصّ

مقدّمة

تجري في الأنتروبولوجيا العرفنيّة مصطلحات بديلة للخطاطة من قبيل خطيطة[248] أو سيناريو الأحداث[249] أو المنوال الثّقافيّ[250] وهو أكثرها رواجا، وقريب من هذا المنوال العرفنيّ المؤمثل عند لايكوف. ويجري تعريف المناويل الثّقافيّة على أنّها مناويل في تصوّر العالم والتّجربة، ضمنيّة مسلّم بها مشتركة بين أفراد مجموعة بشريّة ما توجّه تمثّل أفرادها لذلك العالم وسلوكهم فيه (هولاند وكون[251]، 1987، 4). وإزاء هذا التّعدّد في المصطلح ما بين منوال يوصف مرّة بكونه ذهنيّا وأخرى بكونه ثقافيّا وأخرى بكونه عرفنيّا خيّرنا عدم التّقيّد بواحد ولذلك نجريها على أساس التّرادف، وإن كان الأولى أن يعتمد العرفنيّ منها لحياده وإحالته رأسا على مجال العرفنيّات.

ولا يتمثّل إنتاج الخطاب أو فهمه في مجرّد الرّبط ما بين المعاني والكلمات أو الجمل أو المقاطع في الخطاب وإنّما هو إقامة لمناويل ذهنيّة[252] في الذّاكرة الحدثيّة بما يكون فيها للمتقبّل من تمثيلات أو مناويل متعلّقة بما هو موضوع للخطاب الجاري (فان ديك 2006، 367).

المنوال العرفنيّ: معالم نظريّة

يمثّل المنوال الذّهنيّ أو المنوال العرفنيّ الأسّ الّذي تقوم عليه مضامين الذّاكرة الّتي يستحضرها المتقبّل في ما يلحق من الأزمنة عن زمن التّقبّل (سماعا

[248] Script(s).
[249] Event scenario(s).
[250] Cultural model(s).
[251] Holland and Quinn.
[252] Mental model(s).

أو قراءة). كما تمثّل أسّا تقوم عليه عمليّات التّعلّم بما فيها من اكتساب لتجارب جديدة ومهارات حادثة ومواقف لم تكن لصاحبها أو تحويرا لما كان من المواقف والأفكار، وعليها كذلك تقوم الإيديولوجيا عامّة.

والمنوال الذّهنيّ فرديّ عينيّ مفرد شخصيّ لا يتشارك أو يتماثل فيه اثنان إذ يمثّل تأويلا مخصوصا للخطاب وتمثّلا مخصوصا من فرد بعينه لذلك الخطاب في ملابسات عينيّة. وهذا لا يعني أنّه لا يوجد أسّ مشترك بين الأفراد في المناويل الذّهنيّة بل الأمر كذلك وهو ما يضمن التّفاهم بينهم على أرضيّة مشتركة ولكنّ ذلك لا يعني أنّ لهم المنوال الذّهنيّ نفسه في شكل نسخ تتطابق ما بين الأفراد.

والمنوال الذّهنيّ أساس لفهم الحدث التّواصليّ كاملا، وجملة ما به يكون فهم الأحداث التّواصليّة مجتمع في مناويل المقام[253]. وهي مناويل متبدّلة حركيّة خلال عمليّة القول وعمليّة الفهم (فان ديك 2006، 367).

وما يستقرّ في الذّاكرة طويلة المدى من المناويل يمثّل المظهر العامّ المشترك الثّابت من المناويل الذّهنيّة هي المعتقدات المشتركة بين أفراد المجموعة على مرّ الزّمن وهـي ما يسمّى التّمثيـلات الاجتماعيّة[254] (أوغوستينوس و وُلكر 1995، موسكوفيتشي 2001).

يتضمّن المنوال الذّهنيّ التّاريخ الشّخصيّ للفرد بما في ذلك تجاربه ومواقفه وآراؤه، وهي فاعلة في التّعامل ما بين الأفراد خلال الخطاب فعلَ المكوّن المشترك ما بين المناويل الذّهنيّة، وبذلك يكون الخطاب فرديّا إنتاجا وتأويلا كما يكون جماعيّا مشتركا وهذا ما يفسّر -عند فان ديك (2006، 369)- توفّر أنماط من الإنتاج أو الفهم الفرديّتين وتوفّر نمط من الفهم مشترك ومتشابه ما بين الأفراد للخطاب أو النّصّ الواحد.

فالمناويل الذّهنيّة المتحكّمة في الأحداث التّواصليّة تمثّل تصافحا ما بين الاجتماعيّ العامّ المشترك والفرديّ الشّخصيّ الخصوصيّ في كلّ خطاب إنتاجا

---

[253] Context models.
[254] Social representation(s).

وتأويلا. ولذلك تكون المناويل الثّقافيّة أبنية ثانويّة حادثة فيها خلاصة التّجارب المشتركة في الأذهان المشتركة في مقامات مشتركة (كرونتفالد 2008، 68)[255].

المناويل العرفنيّة في النّصّ

نعتمد في بيان المناويل العرفنيّة ومظاهر اشتغالها في الخطاب خبر المنصور بن أبي عامر الأندلسيّ، نموذجا :

(1) خبر المنصور بن أبي عامر الأندلسيّ

قيل إنّ المنصور بن أبي عامر الأندلسيّ كان إذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة، ولم يسر إلى الغزاة إلاّ من الجامع. فاتّفق أنّه في بعض حركاته للغزاة توجّه إلى الجامع لعقد اللّواء. فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدّولة. فرفع حامل اللّواءِ اللّواءَ، فصادف ثريّا من قناديل الجامع فانكسرت على اللّواء وتبدّد عليه الزّيت، فتطيّر الحاضرون من ذلك وتغيّر وجه المنصور. فقال رجل : أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هيّنة وغنيمة سارّة. فقد بلغت أعلامك الثّريّا وسقاها الله من شجرة مباركة.

عبد النّبيّ : المختار ص 19

مأخوذ من : عبد الأمير علي مهنّا : طرائف من التّراث العربيّ، دار الفكر اللّبنانيّ، ط1، 1990، ص395.

يمكن أن يُتّخذ النّصّ الوارد قبل هذا مدخلا في تبيّن فكرة المناويل الثّقافيّة من حيث ماهيتها ومن حيث كونها تمثّلات للتّجربة والكون ومن حيث كونها كامنة وراء مظاهر السّلوك بما فيها اللّغويّ.

فالخطاب ثمرة لاشتغال مناويل ثقافيّة به تتبلور وتتأصّل أداة في تمثّل الكون وبه تتحقّق في نماذج متعدّدة تنطبق بها على الوقائع المختلفة، وبه كذلك تُتناقل تشكّلاتها وتتناظر في أذهان المنتمين إلى ثقافة واحدة فتزيد من نسيج ترابطهم الاجتماعيّ.

[255] Kronenfeld 2008.

فالعيش في مكان واحد لا يكفي للتّرابط وكذلك التّباعد في المكان والعصر واحد أو التّباعد في الزّمان والمكان واحد، لا يعني اختلافا في الانتماء وإنّما يكون بالضّرورة شعورا بالانتماء ما كانت المناويل الذّهنيّة الثّقافيّة واحدة. فإذا أخذنا مجموعة من المهاجرين تعيش في بلد ليست أصيلة فيه سُمّيت جالية على أساس انتمائها الثّقافيّ وهي منتمية إلى مجموعتها الأصليّة الكائنة في البلد الأصليّ على أساس انتمائها الثّقافيّ بمعنى ما يتوفّر من مناويل ثقافيّة مشتركة بين مختلف الأفراد من الجالية ومن المجموعة الأصل في البلاد الأصليّة، وقد تنقطع الصّلة المادّيّة بالمجموعة الأصل وتندثر علاقات القرابة الدّمويّة المباشرة ما بينهما. فالصّينيّ صينيّ وإن عاش في أمريكا أو في أستراليا ما كان له بمن يعتبرهم أبناء ثقافته أو جنسه منوال ثقافيّ جامع، وإن كان لا أهل له في الصّين أي لا أخت ولا أخ ولا مصلحة اقتصاديّة مادّيّة فيها. فهو صينيّ بذهنه وليس من المفروض أن يكون كذلك بجواز سفره أو بموطن عمله أو بمسكنه وإقامته.

والعربيّ عربيّ في انتمائه وفي شعوره بذلك الانتماء إلى مجموعته الثّقافيّة انتماء آنيّا – معاصرا- بصرف النّظر عن مكان عيشه، وانتماء زمانيّا تاريخيّا بصرف النّظر عن زمان عيشه ما كانت له أنماط ثقافيّة مشتركة بينهما، بها يرتبط ذهنيّا بأسلافه وقد اندثر وجودهم المادّيّ اندثارا تامّا فبقي 'التّراث' بما فيه من الحكايات والأشعار والمؤلّفات والنّوادر والطّقوس والمهارات الصّناعيّة وما إلى ذلك، حاملا لتلك المناويل على مرّ العصور تتناقلها الأجيال.

فالحدث الرّئيسيّ في النّصّ (1) يقوم على وقائع واحدة في مظهرها الفيزيائيّ المادّيّ : لواء (راية،علم) يرفَع فيصطدم طرفه بثريّا من القناديل تتدلّى من سقف الجامع، تتكسر الثّريّا ويسيل منها الزّيت.

وكان هذا الحدث مصادفة في مقام طقوسيّ قوامه فضاء للعبادة والصّلاة (جامع قرطبة) يجتمع فيه عدد من الأشخاص (المنصور بن أبي عامر(تـ 393هـ/ 1002م)، قضاة وعلماء ورجال الدّولة وقوّاد الجند) لأداء طقس قوامه عقد اللّواء.

فالمقام الطّقوسيّ يمثّل منوالا أكبر أساسه الخروج إلى الحرب في إطار الجهاد، فيكون الانطلاق في النيّة والإعداد المادّيّ من الجامع وعقد اللّواء فيه وما إلى ذلك ممّا يؤثر عن القوّاد من المسلمين أو من المسيحيّين أو من سائر الشّعوب، من طقوس حربيّة تستمدّ فيها المباركة والتّأييد من الأطر المقدّسة كلاّ حسب عقيدته. وهذا المنوال بارز في السّطح مشتغل في المستوى الأوّل ولذلك كان ظهوره من الجملة الأولى من النّصّ : **قيل إنّ المنصور بن أبي عامر الأندلسيّ كان إذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة، ولم يسر إلى الغزاة إلاّ من الجامع.**

وإزاء هذا المنوال يشتغل منوال آخر يتجاوز إطار المنوال الأوّل شمولا وامتدادا على التّاريخ وعلى جميع الأعمال يضرب في تاريخ العرب إلى ما قبل الإسلام، وأساسه أنّ الفرد عند ما يهمّ بإنجاز مشروع أو عمل كبير محفوف بالمخاطر من قبيل الخروج إلى الحرب، يتطلّع إلى معرفة المستقبل قبل حلوله فتكون قراءة الغائب الممكن من الأحداث في الزّمن المستقبل، بناء على تأويل أمارات وعلامات من الحاضر فيكون القرن بينهما على أساس الإنباء أو التنبّؤ. وهو منوال يشتغل في ما وراء الوعي في نوع من الكمون.

وبسقوط الثّريّا وقد لامسها اللّواء ينقدح منوالان سليلان لهذا المنوال انقداحا واحدا وإن كانا متباينين في الاشتغال خلال الزّمن متضادّين في تصوير الأشياء عامّة وتصوير الحادثة العينيّة (سقوط الثّريّا) خاصّة. وهما منوال الشّؤم (أو التّطيّر) ومنوال الفأل الحسن.

أمّا الأوّل فهو منوال ذو مصادر شرقيّة 'خرافيّة' قديمة تقوم على ممارسة عربيّة قديمة أساسها التّطيّر. وقد انقدح بسقوط الثّريّا وانتشار الزّيت على اللّواء، رابطا ذلك الحدث الفوريّ بما قد يكون من انكسار الرّاية في الحرب المقبلة، في نوع من الإسقاط يتناسب فيه الحاضر المدرك المرئيّ بالمستقبل المتخيّل الغيبيّ واحدا بواحد: تتكسر الثّريّا معناه انكسار الشّوكة والعزّ، وسيلان الزّيت معناه سيلان الدّماء وتلطّخ اللّواء معناه تعفّره في التّراب وجمّاع ذلك يعني الهزيمة.

ومن مظاهر تغلغل هذا المنوال في الثّقافة أنّ المكروه من الأشياء ومن الشّرور لا يُسمّى، بمعنى لا يُذكر اسمه، خشية حضوره إذ في ذكره استدعاء له واستحضار، فالمسمّيات تصحب أسماءها في العقيدة الشّامانيّة القديمة. ولذلك غاب من الخطاب المتبادل بين الحاضرين في مقام الحادثة ولذلك غاب كذلك من الخطاب النّاقل فلم يُذكر إلاّ بعلامات الموقف المتطيّر المتشائم في عبارتين مفردتين مجملتين هما التّطيّر والتّغيّر: **فتطيّر الحاضرون من ذلك وتغيّر وجه المنصور.**

وأمّا المنوال الثّاني فمصادره رمزيّة ثقافيّة شعريّة وقرآنيّة دينيّة وفلكيّة، فكان منوالا مزدوج المصادر: تقترن في المصادر الأولى صورة العزّ والرّفعة بالثّريّا من حيث كانت كوكبا عاليا رفيعا لعلّ من أمارات ذلك سريان عبارات عديدة من قبيل (شتّان ما بين الثّرى والثّريّا)، ثمّ إنّ موقع الثّريّا رفيع في منظومة الكواكب.

ويعود المصدر الثّاني إلى شجرة الزّيتون بتوسّط الزّيت مادّة الاشتعال في الثّريّا القنديل وقد تبدّد على اللّواء، وهي شجرة مباركة في الإسلام ذات بعد رمزيّ معلوم. وقد انقدح هذا المنوال- منوال الفأل- بمصدره المزدوج انقداح المنوال الآخر-منوال الشّؤم- على أساس التّزامن ولكن عند فريقين مختلفين:

فريق الحاضرين بمن فيهم الأمير، وفريق آخر لا نظفر في النّصّ إلاّ بممثّل له وحيد نكرة كلّ ما نعرف عنه هو كونه رجلا شاهد الحدث ولعلّه تطيّر تطيُّر الحاضرين فانقدح في ذهنه منوال به 'يُنقذ الموقف' ويمحو التّطيّر بأن يجعله فأل خير، وإذ كان الفأل ممّا يستحبّ فيستدعى بتسميته إن لم يكن بالإطناب فيه: **فقال رجل: أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هيّنة وغنيمة سارّة. فقد بلغت أعلامك الثّريّا وسقاها اللّه من شجرة مباركة.**

ومن البيّن أنّ عدسة منوال الفأل منتقية هي الأخرى، فقد أغفل الرّجل من الحادثة واقعة مهمّة هي انكسار الثّريّا وعبّر عن ذلك مجملا ببلوغ الثّريّا، وذلك يناسب القراءة من العدسة المتفائلة، وهي في جميع الأحوال أحسن من عدسة التّشاؤم في صمتها المطبق.

فيكون لهذا المنوال علاقة مزدوجة بمنوال التّشاؤم من جهة وبالحادثة وتبريرها من جهة ثانية :

تتمثّل الأولى في كونه نقيضا لمنوال الشّؤم فهو يمحوه بأن يعقبه في الزّمن فيكون له الأثر الباقي في الأذهان والوعي ويتلخّص جميع ذلك في تبشير الأمير والحاضرين بيسر الغزاة ووفرة الغنائم.

وتتمثّل الثّانية في تبرير الانقداح بتحديد مظاهر التّناسب في الإسقاط ما بين خطاطة المنوال وما يناسبها من عناصر الحادثة : فاللّواء بملامسة الثّريّا القنديل في الجامع معناه أعلامك بلغت الثّريّا الكوكبَ عزّة ورفعة وعلوّا، وتبدّد الزّيت على اللّواء معناه سقيا من اللّه بزيت شجرة مباركة، وفي ذلك ما لا يخفى من لطافة في ارتباط قادح الثّريّا القنديل بالثّريّا الكوكب، وبقادح الزّيت بالشّجرة مصدر الزّيت، والزّيت مبارك إذ كان مصدره مباركا.

وبهذا يغلب منوالُ الفأل منوالَ الشّؤم وقد رفدت الأول منهما أبعاد قدسيّة توافق المقام الطّقوسيّ، أوَ لم يعقد الأمير اللّواء في الجامع إلاّ لينال مباركة من اللّه؟ فهذه مباركة منه وإن في شكل رمزيّ وفيه بورك اللّواء من شجرة مباركة وارتفع إلى الثّريّا فكسرها، وإذا قراءة المستقبل على شاكلة أخرى لوجود مفاتيح أخرى في القراءة متمثّلة في منوال الفأل.

فالحادثة واحدة وتأويلها مختلف إذ نقلت من منوالين ثقافيّين هما بمثابة العدستين من خلال الواحدة منهما يصوّر الشّيء الواحد صورة تخالف صورته عند قرينتها. تمثيل ذلك في (2) حيث تشير الأرقام إلى الوقائع المكوّنة للحادثة ترتّبا في الحدوث ثم حضورا أو غيابا من القول.

والمنوالان كلاهما حاضر في ثقافة السّامع/القارئ وبهما يفهم ويقيم جملة من التّصوّرات بها يستحسن أو يستقبح واحدا من الموقفين. فيعود المنوال من جديد إلى الاشتغال في ذهن المتقبّل اشتغاله في أذهان الحاضرين زمن الحادثة:

(2)

<table>
<tr><td colspan="4">الحـــــــــــــــــــــــادثة</td></tr>
<tr><td colspan="4">رفع اللّواء(1) + مصادفة ثريّا من قناديل الجامع (2) + انكسار الثّريّا على اللّواء (3) + تبدّد الزّيت على اللّواء (4)</td></tr>
<tr><td colspan="4">المنـــــــــوال الثقافـــــــــيّ</td></tr>
<tr><td colspan="2">منوال التّطيـــر</td><td colspan="2">منوال التّفــاؤل</td></tr>
<tr><td colspan="2">غيـــــاب من القول</td><td colspan="2">حضور في القــــــــول</td></tr>
<tr><td colspan="2">المعاينة والمشاهدة</td><td>الثّريّا</td><td>القرآن</td></tr>
<tr><td>(3+2+1)</td><td>(4)</td><td>"فقد بلغت أعلامك الثّريّا" (2+1)</td><td>"وسقاها الله من شجرة مباركة"(4)</td></tr>
<tr><td colspan="2">فتطيّر الحاضرون وتغيّر وجه المنصور</td><td colspan="2">أبشر يا أمير المؤمنين</td></tr>
<tr><td>غزاة صعبة، انكسار</td><td>تعفّر اللّواء</td><td>غزاة هيّنة</td><td>وغنيمة سارّة</td></tr>
<tr><td colspan="2">الهـــــــــزيمة</td><td colspan="2">النّـــــــــــصر</td></tr>
<tr><td colspan="2">عدم الخروج إلى الغزاة</td><td colspan="2">الخروج إلى الغزاة</td></tr>
</table>

خاتمة

المناويل الثّقافيّة تمثيلات ذهنيّة جماعيّة محفوظة في الذّاكرة طويلة المدى مضمونها المعتقدات المشتركة بين أفراد المجموعة على مرّ الزّمن بها تكوّن وحدة ثقافيّة. كما يكون المنوال الذّهنيّ فرديّا من حيث يتضمّن تجربة الفرد، واحدا من المجموعة، ومواقفه وآراءه.

والمناويل فاعلة في التّعامل ما بين الأفراد من خلال الخطاب فعلَ المكوّن المشترك ما بين المناويل الذّهنيّة، وبها تتوفّر أنماط الفهم المشتركة المتشابهة ما بين الأفراد لما يعيشون من أحداث وأحوال للكون وللخطاب متعدّدا أو مفردا

بالاستتباع. ولهذا تحكم المناويل الذّهنيّة الأحداث التّواصليّة من حيث هي تصافح ما بين الاجتماعيّ العامّ المشترك والفرديّ الشّخصيّ الخصوصيّ.

ولئن كانت المناويل الثّقافيّة خلاصة للتّجارب المشتركة، كائنة في الأذهان المشتركة، موزّعة في أذهان الأفراد، جارية في مقامات مشتركة، فحضورها في الواحد منها قد يختلف نشاطا وخفوتا، فينشط البعض منها عند البعض منهم وتنشط أخرى منها عند البعض الآخر، وهي في المجموع شيء جماعيّ مشترك.

فالخطاب نتاج لاشتغال مناويل ثقافيّة تبلوره وتتأصّل به أداة في تمثيل الكون، وبه تتحقّق في نماذج متعدّدة تنطبق بها على الوقائع المختلفة، وبه كذلك تتناقل تشكّلاتها وتتناظر في أذهان المنتمين إلى ثقافة واحدة فتزيد من نسيج ترابطهم الاجتماعيّ، وهذا ما به يكون الفهم أو التّفاهم رغم التّباعد في المكان والعصرُ واحد أو التّباعدِ في الزّمان والمكانُ واحد، ما كانت المناويل الذّهنيّة الثّقافيّة واحدة.

وقد يكون لتعدّد المناويل واختلافها، اختلاف في تأويل الأحداث وتصوّرها لا من حيث هي، وإنّما من حيث تفسيرها في منوال مخصوص يعطيها معنى مخصوصا. فقد تكون الحادثة واحدة ويكون تأويلها مختلفا، إذا ما نقِلت من منوالين ثقافيّين هما بمثابة العدستين من خلال الواحدة منهما يصوّر الشّيء الواحد صورة تخالف صورته عند قرينتها.

فالخطاب، في ظاهره، حدث فرديّ ولكنّه في جوهره جماعيّ مشترك إذ يحتكم إلى أنماط جماعيّة موزّعة ما بين الأفراد. وفي ضوء ذلك لا يستقيم تصوّر الخطاب (إنتاجا وفهما) على أنّه مجرّد ربط ما بين الأقوال ومعانيها، فهو إقامة لمناويل ذهنيّة جماعيّة.

خاتمة الباب

كان مدار البحث في هذا الباب على الأبنية العرفنيّة أساسا يكون عليه بناء الخطاب في إنتاجه وفي تأويله، وهي رباعيّ من المعرفة الموسوعيّة والأطر العرفنيّة والخطاطات العرفنيّة فالمناويل الثّقافيّة.

المعرفة الموسوعيّة جملة المعتقدات تكون للفرد أو للمجموعة في جميع مظاهر الكون في المحيط بأنواعه، بها يكون توجيه السّلوك وبها يكون تفسير الظّواهر في شكل منظوميّ. تنشأ في الذّهن الجماعيّ نشوءها في أذهان أفراده نشوءا أساسه التّعامل الاجتماعيّ في ما بين الأفراد وما بين الأفراد ومحيطهم. وهي منظومة من المفاهيم المنضّدة، مرنة حركيّة متبدّلة وبهذا ترتبط حركيّة الدّلالة في الخطاب بجميع أصنافه. ويقوم إنتاج الخطاب وتأويله على إنشاط المعارف الموسوعيّة ما تعلّق بالمفاهيم مفردة أو متعالقة منتظمة، فتشحن بذلك، المفاهيم بالقيم المقاميّة السّياقيّة، فينشأ ما لم يكن، ينضاف إلى المعرفة الجماعيّة.

وتتضمّن الأطر العرفنيّة جملة الخصائص الّتي تنتظم وفقها المعاني والمعارف في الذّهن مقترنة بالمداخل المعجميّة وبما تجري فيه من مقامات التّخاطب المتنوّعة، وفيها تتوفّر جملة من المفاتيح والأدوات الذّهنيّة تقود التّأويل والفهم.

وأمّا الخطاطات فقوالب ثابتة تتركّب بها المدركات والمتصوّرات لتكوين تمثيلات ذات معنى، ينشأ بها هيكل عامّ منضّد كلّ ما فيه جملة من العناصر والعلاقات. فالمقام خطاطة تتجرّد من الأوضاع المادّيّة الفيزيائيّة. فالمقامات خطاطات والأبنية اللّغويّة خطاطات، والعمليّات الذّهنيّة خطاطات وجميعها متفاعل في اشتغال الخطاب بما يكتنف ذلك من توسيع للخطاطة أو ترسيخ لها أو انهيارها.

والمناويل الثّقافيّة تمثيلات ذهنيّة جماعيّة محفوظة في الذّاكرة طويلة المدى مضمونها المعتقدات المشتركة بين أفراد المجموعة على مرّ الزّمن بها تكوّن وحدة ثقافيّة. والمناويل فاعلة في التّعامل ما بين الأفراد من خلال الخطاب فعلَ المكوّن المشترك ما بين المناويل الذّهنيّة، وبها تتوفّر أنماط الفهم المشتركة المتشابهة ما

بين الأفراد لما يعيشون من أحداث وأحوال للكون وللخطاب متعدّدا أو مفردا بالاستتباع. ولهذا تحكم المناويل الذّهنيّة الأحداث التّواصليّة من حيث هي تصافح ما بين الاجتماعيّ العامّ المشترك والفرديّ الشّخصيّ الخصوصيّ.

فالخطاب نتاج لاشتغال المعارف الموسوعيّة منتظمة في أطر تحكمها خطاطات ومناويل ثقافيّة وجميعها أدوات عرفنيّة فاعلة في تمثيل الكون والتّجربة بمظاهرهما المتعدّدة عند الفرد وعند المجموعة.

وهي أبنية عرفنيّة عليها يتأسّس الخطاب مظهرا من مظاهر العرفنة البشريّة، متداخلة فيه متظافرة تداخلها وتظافرها فيها.

الباب الثّالث

المضامين العرفنيّة في النّصّ

مقدّمة الباب

بسطنا القول في الباب الماضي في ما به تتجلّى الأبنية العرفنيّة في الخطاب من حيث تحكم بناءه وتوجّه فهمه وتأويله، ويبقى النّظر في ما به تتشكّل المضامين العرفنيّة من حيث هي مفاهيم وصور ذهنيّة، تنشأ بإدراك الأشياء والتّجارب في العالم فتتكوّن لها تمثيلات في الذّهن تمثّل أفضية منتظمة في عوالم الخطاب ومتجذّرة إبستيميّا في المحيط ببعديه الواقعيّ الاجتماعيّ والرّمزيّ الثّقافيّ.

والباب فصول ثلاثة، أوّلها في العرفنة المتموضعة يتضمّن جملة من المعالم النّظريّة في مفهوم التّموضع عامّة (العمل المتموضع، التّعلّم المتموضع، العرفنة الموزّعة) وفي ما يكون من الأوضاع العرفنيّة في قيام المعرفة بالعالم (المعرفة العلاقة، المعرفة المعتملة، المعرفة النّاتجة)، وفي تجلّيات العرفنة المتموضعة في الخطاب.

وثانيها في الخارطة الذّهنيّة وما به يكون تمثيل الفضاء والزّمان في الذّهن وفيه عناية بنشأة تلك التّمثيلات بتوسّط الجسد متفاعلا مع عناصر المحيط والفضاء الّذي يعيش فيه.

وثالثها في العرفنة متجذّرةً في إطار العيش، عيش الجسد الفرد في محيط وبيئة ذات أبعاد تاريخيّة اجتماعيّة ثقافيّة وفي ما به يكون التّجذّر الإبستيميّ من حيث ارتباط المضامين العرفنيّة في الخطاب بالبيئة وبالمحيط وأدوات ذلك فيه.

الفصل الأوّل

العرفنة المتموضعة

"المعرفة تمثيل لموضوع معرفة في ذهن الذّات العارفة،
فما بين الموضوع وتمثيله في الذّهن تناسب ولا تطابق
بينهما."

(شلانقار1990، 93).

مقدّمة

يمكن الانطلاق في هذا الفصل من ثنائيّة العضو، مكوّنا من مكوّنات الجسد، ووظيفته البيولوجيّة. وهي قسمة واضحة المعالم في جميع الأعضاء الكائنة في الجسد ما عدا واحدا هو الدّماغ. فالقلب -مثلا- عضو وظيفته توزيع الدّم إرسالا واجتذابا ولذلك يشبّه بالمضخّة عند أهل الاختصاص، وعلى هذا تنقاس سائر الأعضاء. أمّا الدّماغ فعضو معقّد مركّب ذو وظيفة مزدوجة بيولوجيّة من حيث ينتظم أساسيّات الحياة في الجسم من حيث تنظيم التّنفّس ونبضات القلب وتفاعل الجسد مع محيطه ضمانا لبقائه بتوسّط المجسّات الحسيّة وما إلى ذلك، وله وظيفة أخرى ينهض بها ما يطلق عليه "الذّهن"، هي الوظيفة الرّمزيّة الّتي يكون بها التفكير والتّمثيل والتّذكّر والتّخطيط وما إلى ذلك ممّا اجتمع في العرفنة. وإذا كان ذلك كان لهذا العضو نمطان في الوصف والتّمثيل: معزول في ذاته وكائن في محيط.

أمّا النّمط الأوّل فقوامه دراسة عصبيّة تهتمّ بمكوّناته وأبعاضها وترابطها الكيمياويّ الكهربيّ يكون فيها رصد الأنشطة العضويّة البيولوجيّة من زاوية، وإذ تلك الأنشطة الرّمزيّة من ذلك الوصف تنهض بها جملة من العلوم أساسها نفسيّ عرفنيّ؛ وفي هذا المستوى كان تصوّر الاشتغال فيه اشتغالا حوسبيّا بمعنى معالجة المعطيات بمختلف أنواعها معالجة أساسها خوارزمات تشتغل، في استقلال تامّ عن المحيط، على معطيات تستلم فيها دخلا يؤول إلى خرج في سلسلة من العمليّات، وهو ما اصطلح عليه باستعارة "الذّهن حاسوبا[256]".

---

[256] Mind-as-computer metaphor.

وفي هذا الإطار كان المتصوّر في اللّسانيّات – وفي التّوليديّة أساسا- أن النّحو قوامه عدد من القواعد تشتغل على غرار آلة تيورينغ في توليد الكلام، ولا علاقة لها بالمحيط إلاّ في الرّبط بين العلامة ومعناها أو بينها وبين مرجعها فيه. وإزاء ذلك كان المتصوّر أنّ بين التّمثيلات الذّهنيّة والعالم تناسبا أحاديّا ثابتا، فما ينشأ في الذّهن من صور مناسب لما هو إزاءه في العالم من الأشياء والتّجربة عموما.

وأمّا النّمط الثّاني فقائم على اشتغال الدّماغ في محيط، وقد فتح أبوابا في البحث وفي التّفسير انقلبت لها الأوضاع والفرضيّات القائمة على النّمط الأوّل. والمحيط يؤخذ في معناه الواسع من حيث مثّل سياقا أو مقاما أو ظروفا يجتمع فيها البيولوجيّ والاجتماعيّ والثّقافيّ والتّاريخيّ والمادّيّ الفيزيائيّ، وفيه تبلور ما يعرف بالعرفنة المتموضعة – وإن كانت قديمة البدايات- جامعة للظّواهر العرفنيّة في سياقها الاجتماعيّ الثّقافيّ. فكان البحث في المعنى وفي المعرفة على أساس أنّ الذّهن نظام مؤوّل[257] وليس مجرّد نظام عاكس للأشياء.

هو نظام مؤوّل من حيث كان أداة تعطي للأشياء معناها بما فيها من التّداخل والتّفاعل في ما بينها ومن التّفاعل أو التّعامل بين الذّات المعرفنة ومحيطها الواسع. وبذلك تكون العرفنة متموضعة من حيث كانت نظاما حادثا في التّاريخ متجذّرة في بيئة الكائن المعرفن لا نظاما منغلقا في الصّندوق الجمجميّ.

وقد يستقيم جميع ما مضى في نفسه استقامة نظريّة، ويبقى الأمر ذا منافذ عديدة على دراسة العرفنة في مختلف مظاهرها، لنا في ما يلي منفذ على ما به يمكن أن تتجلّى العرفنة متموضعة في البيئة ببعديها الأساسيّين المكان و/أو الزّمان باعتماد نصّ من أروع ما كتب في الأدب العربيّ هو فاتحة كتاب الأيّام لطه حسين.

---

[257] Système interprétant.

العرفنة المتموضعة : معالم نظريّة

يعود بعض الدّارسين بفكرة التّموضع في العرفنة (العرفنة المتموضعة[258]) إلى اللّقاء ما بين علم النّفس العرفنيّ وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا في السّنوات 1960 (قريزون 2004)[259]. وفي العرفنيّات المتموضعة ثلاثة تيّارات كبرى نعرضها في ما يلي :

1- العمل المتموضع

العمل المتموضع[260] تيّار يقوم على اعتبار المعرفة بناء محلّيا متموضعا أي مرتبطا بالموضع الّذي يعيش فيه الفرد. وفيه مراجعة لمفهوم التّخطيط[261] بجعله قائما على مفهوم المحيط (الموضع) الّذي يجري فيه النّشاط (محيط النّشاط).

وفي ذلك سعي إلى العود بالعرفنة من تصوّرها التّجريديّ الصّرف إلى تصوّرها عمليّة جارية في محيط أساسه تفاعل ما بين الذّات الذّكيّة ومحيطها. وفيه كذلك خروج عن تصوّر العرفنة عمليّات ذهنيّة تجريديّة محكومة بتراتيبيّة محدّدة قائمة على إستراتيجيّات هي عبارة عن مخطّطات مسبقة من قبيل تحليل الغاية والوسيلة، وهو تصوّر قامت عليه المناويل الأولى في الذّكاء الاصطناعيّ وريثة لتصوّر الفكر على أساس أنّه جملة من الخوارزمات تمثّل مخطّطات للسّلوك والتّفاعل، ولهذا أصول نظريّة عائدة إلى العوامل الحتميّة في النّظريّة السّلوكيّة.

ولعلّ أبرز المظاهر الّتي تتميّز بها نظريّة العمل المتموضع كما تتجلّى في أعمال ساتشمان (1987، 1988) بلورة نظريّة في العمل بدلا من البحث في الذّات العارفة. أساس ذلك ما يكون في تبدّل الأوضاع وتغيّرها بشكل معقّد مركّب سريع وما به يكون تعديل الأعمال أو تبدّلها استجابة لتلك التّغيّرات أو تفاعلا معها لضمان النّجاعة والاستقامة في العمل، وجماع ذلك في طواعية عرفنيّة بها تحقّق الذّات العارفة نوعا من التّوازن مع ما يجدّ في محيطها دون تخطيط مسبق. وهو

[258] Situated cognition (cognition située).
[259] Grison, 2004.
[260] Situated action (action située).
[261] Planning (planification).

ما تنشده النّظريّة النّفسيّة منوالا للذّات الآدميّة العارفة ونظريّة الذّكاء الاصطناعيّ منوالا للرّوابيت والكائنات المتآدمة[262] سبيلا إلى صناعة كائنات آليّة ذات استقلال سلوكيّ عرفنيّ أساسه تفاعل ذكيّ ناجع مع محيطها المتغيّر المتبدّل. ولعلّ العقبة الأساسيّة في جميع ذلك كامنة في بلورة منوال في الطّاقة التّكهّنيّة الّتي تكون للذّات العارفة تستبق بها الأشياء.

2- التّعلّم المتموضع

مثّلت الأبحاث في الرّياضيّات الإثنيّة[263] وخاصّة ما تعلّق منها بتأثير التّمدرس في أشكال التّفكير الإطار العامّ لتبلور نظريّة التّعلّم المتموضع[264] منذ السّنوات 1960. فقد نهضت الكثير من الأبحاث في علم النّفس الثّقافيّ على دحض الفكرة السّائدة وقتها والّتي تتلخّص في اعتبار الدّماغ نظاما مكتفيا بذاته وظيفته تحليل المعلومات، فتكون العرفنة بمقتضى ذلك منقطعة عن المحيط، وأثبتت أنّ الكثير من الحلول (حلول المسائل) المتعلّقة بمسائل في وضع ما، لا يمكن تحويلها بيسر إلى حلول لمسائل أخرى في أوضاع أخرى لارتباطها- نشأة وتبلورا وانطباقا- بذلك الوضع دون غيره.

من ذلك ما يجده الأشخاص- صغارا أو كبارا- في بعض المجتمعات ذات التّمدرس المحدود، من يسر في حلّ مسائل جارية في إطار الحياة اليوميّة أو الحياة المهنيّة (بيع وشراء، تصميم وإنجاز...) بوجه يكاد يكون آليّا طبيعيّا وما يجدونه من صعوبة في حلّ مسائل شبيهة بتلك من حيث المكوّنات والمستوى ودرجة التّعقيد ولكن بوجه تجريديّ رياضيّ في إطار مدرسيّ. من ذلك ما لاحظه مايكل كول[265] وجماعته (1971، 1996) من مهارات حسابيّة عالية عند الأطفال - من بعض القبائل في ليبيريا- في حلّ مسائل من الحياة العمليّة اليوميّة ومن صعوبات في حلّ مسائل حسابيّة مدرسيّة شبيهة بها من حيث المستوى.

---

[262] Humaoid(s).
[263] Ethnomathematics (ethnomatémathiques).
[264] Situated learning (apprentissage situé).
[265] Cole, Michael (& alee), (1971,1996).

وكذلك ما لا حظه جان لاف[266](1988) عند بعض الخيّاطين من قبيلة الفاي بليبيريا جُعلوا أربع مجموعات (أمّيين/متمدرسين، عارفين بالخياطة/غير عارفين بها) من اختلاف في حلّ مسائل رياضيّة تتعلّق باحتساب التّناسبات بعضها متّصل بالمهارة العمليّة المهنيّة وبعضها تجريديّ. فكان التّفوّق للمتمدرسين في المظهر التّجريديّ منها وللعارفين بالخياطة في المظهر العمليّ من تلك المسائل.

3- العرفنة الموزّعة

تمثّل العرفنة الموزّعة[267] تيّارا جامعا لأسس يعود بعضها إلى علم النّفس الكلاسيكيّ وخاصّة ما تبلور منها في أعمال فيقوتسكي (1934)[268] وعلم الاجتماع الظّواهريّ وخاصّة ما تبلور منها في أعمال ألفرد شوتز (1964)[269].

فالوظائف الذّهنيّة -عند فيقوتسكي (1934،xxiv-xxv)- نوعان :

وظائف ذهنيّة أساسيّة "دنيا" هي وظائف طبيعيّة من قبيل الإدراك الأساسيّ، والتّذكّر والانتباه والقصد.

ووظائف "عليا" هي وظائف "ثقافيّة" بشريّة مخصوصة تنشأ على درجات تطوّر بمقتضاها من تلك الوظائف الدّنيا، بشكل تكون به الوظائف الدّنيا منتظمة في مرحلة النّضج النّفسيّ وفق مقتضيات السّلوك الاجتماعيّ البشريّ المخصوص من حيث الأهداف والوسائل.

فالوظائف الثّقافيّة العليا متحوّلة من الوظائف الدّنيا، وهي نتاج لذلك التّحوّل عن طريق النّشاط (العمل) بالواسطة. وتتمثّل الوسائط في أدوات، قسم منها نفسيّ[270]، وقسم منها مادّيّ أو تقنيّ[271] بما في ذلك وسائل التّواصل والتّفاعل ما بين الأفراد. فالوسيط المادّي ما توسّطت به اليد البشريّة للفعل في المادّة وفي المحيط وفي الطّبيعة من الأدوات والآلات، أمّا النّفسيّة فهي ما به يكون الفعل في الأشكال الطّبيعيّة من السّلوك والعرفنة البشريّة من حيث توجيهها والتّحكّم فيها.

---

[266] Lave, Jean (1988).
[267] Distributed cognition(s), (cognition distribuée).
[268] Vygotsky, Lev (1934).
[269] Schütz, Alfred (1964).
[270] Psychological tool(s), (instrument(s) psychologique(s)).
[271] Material tool(s), (instrument(s) technique(s)).

ولا اختلاف بين النّوعين من الأدوات فكلاهما اجتماعيّ ثقافيّ ولكنّ الأدوات الماديّة (أو الصّناعيّة التّقنيّة) جارية للسّيطرة على العمليّات أو الظّواهر الطّبيعيّة الماديّة الفيزيائيّة، أمّا الأدوات النّفسيّة فجارية للسّيطرة على الفرديّ من السّلوك والعرفنة وتشمل الحركات والإشارات واللّغة وما إلى ذلك من تقنيات التّذكّر[272] ونظم اتّخاذ القرار[273] وغيرها. فهي أدوات موجّهة إلى داخل الفرد محوّلة ما عنده من القدرات والمهارات الطّبيعيّة إلى وظائف ذهنيّة عليا.

وفي ما يلي عرض لأبرز المبادئ الّتي يقوم عليها ما يجتمع في العرفنة المتموضعة من التّيارات النّظريّة، نفسيّة كانت أو اجتماعيّة أو عرفنيّة في المطلق، جارية في ميادين من البحث ذات صلة متينة بالحياة العمليّة أهمّها الإرغونوميا[274](علم الشّغل[275]) والتّربية وعلم نفس الشّغل :

– العمليّات العرفنيّة العليا ذات منابت ثقافيّة (ووندت 1916).

– تتحقّق العرفنة في العمل[276] وما الدّوافع والغايات وجميع المظاهر الّتي تُنسب إلى الذّات المعرفنة إلاّ من قبيل إعادة بناء لاحق على العمليّة نفسها.

– المعرفة موزّعة ما بين الأفراد والأشياء الثّقافيّة، وهذه المعرفة إنّما تشتقّ اشتقاقا اجتماعيّا بالتّفاعل ما بين الأفراد واستعمالها إجراء وتبلورا يكون في ضوء ما يتوفّر في المقامات والأوضاع العينيّة (شوتز 1964)[277].

– العرفنة متجذّرة في إطار العيش وتتبلور فيه من خلال العمل بما في ذلك نشاط الفرد في محيطه وبيئته، فتكون العرفنة نتاجا تاريخيّا اجتماعيّا ثقافيّا وليست مجرّد خوارزمات يشتغل بها الدّماغ على غرار آلة تيورينغ[278].

الوضع العرفنيّ

يذهب شلانقار[279](1990، 87-101) إلى أنّ ما يميّز الوضع العرفنيّ[280] من حيث كان علاقة للذّات بالعالم، يتمثّل في المعرفة[281]. ويميّز بين ثلاثة مظاهر

---

[272] Mnemonics.
[273] Decision-making system(s).
[274] Ergonomy (ergonomie).
[275] الإرغونوميا (علم الشّغل): دراسة الظّروف النّفسيّة والفيزيولوجيّة والاجتماعيّة الاقتصاديّة في مجال الشّغل إطارا وتفاعلا ما بين البشر، وما بين البشر والآلات، وما إلى ذلك.
[276] Action.
[277] Schütz, Alfred (1964).
[278] Turing machine (machine de Turing).

للواحد منها مقاربة مخصوصة، وتتكامل المقاربات الثّلاث جميعها في تحديد الوضع العرفنيّ : المعرفة العلاقة والمعرفة المعتملة والمعرفة النّاتجة.

المعرفة العلاقة[282] رابط ما بين الذّات العارفة والعالم الّذي يحيط بها، من حيث كان وجودها في العالم انفتاحا عليه، وهي هيأة وجود فيه، وهيأة تموضع فيه وكيفيّة إدراك له ومعرفة به. فالمعرفة العلاقة تتأسّس على علاقة الذّات العارفة بعالمها وبهيأة وجودها فيه وبهيأة إدراكها إيّاه وعيشه وتجربة عيشها فيه ومعرفته. هي مظهر من مظاهر النّشاط العرفنيّ من حيث كان هيأة وجود وتموضع في العالم وإدراك له. فهي معرفة تتجلّى في النّشاط العرفنيّ من حيث كان تجربة أو واقعا تعيشه الذّات العارفة ومن حيث مثّل وضعا لها في عالمها. وهذا مجال المقاربة الفينومينولوجيّة (الظّواهريّة).

وتمثّل المعرفة المعتملة[283] حال اتّصال، اتّصال الذّات العارفة بموضوع المعرفة وما يكتنف ذلك من عمليّات وآليّات تشتغل عند ذلك الاتّصال. وهي حال اعتمال للمعرفة من خلال العمل وبالنّشاط العرفنيّ وهو ما به تتبلور المعرفة شيئا فشيئا فيتشكّل مضمونها أو مادّتها وبنيتها. هي حال أساسها كون الذّات العارفة في علاقة معرفة، حال يكون فيها تمثيل الموضوع بتحويله من موضوع قابل للمعرفة إلى موضوع معرفة معروف. فهي حال تنظيم المعرفة تنظيما ذهنيّا باشتغال الملكات العرفنيّة في معالجة معطيات المحيط وبناء المعرفة بها شكلا ومادّة. وهذا مجال المقاربة النّفسيّة العرفنيّة.

وتمثّل المعرفة النّاتجة[284] ثمرة التّفاعل ما بين الذّات العارفة والعالم، وهي ما يبقى من العلاقة العرفنيّة، وما يستقلّ بنفسه إزاء الوضع العرفنيّ الّذي أنتجه فيكون قابلا للفحص في ذاته. وهي ما يكون مادّة تقبل التّناقل ما بين الأفراد العارفين وما بين الأجيال بالاستتباع، كتابةً وتدوينا أو مشافهة وتلقينا. فيكون لذلك قابلا للتّخزين أو الحفظ والاستعمال والتّذكّر والتّعلّم والإخفاء أو النّشر أو للبيع والشّراء، كما يقبل التّقييم صوابا أو خطأ، نفعا أو ضرًا، كمالا أو نقصا، ولذلك

---

[279] Schlanger, Jacques (1990).
[280] Situation cognitive.
[281] Savoir.
[282] Savoir-relation.
[283] Savoir-produit: un savoir qui est en train de se faire (Schlanger 1990,105).
[284] Savoir-résultat.

كانت المعرفة النّاتجة مجالا للمقاربة الإبستيميّة المنطقيّة. فالعلوم بأصنافها إنّما هي معارف ناتجة بعد أن اعتملت في ذهن ذات عارفة وُجِدت في علاقة معرفة بالعالم. وكذا التّاريخ مطلقا ومنه قصص الحياة بما فيها التّراجم الذّاتيّة.

العرفنة المتموضعة : الخطاب التّرجذاتي نموذجا

نتّخذ في هذه الفقرة من العمل فاتحة كتاب الأيّام الواردة في (1) بعد هذا، نموذجا في تحليل الخطاب التّرجذاتيّ في إطار ما سلف عرضه :

تتوفّر في كلّ ترجمة ذاتيّة (الأيّام (طه حسين)، سبعون (نعيمة)، الاعترافات[285] (روسّو)...) الأحوال الثّلاث في العرفنة، تكون بها المعرفة العلاقة والمعرفة المعتملة، والمعرفة النّاتجة بما في الواحدة منها من تفاعلات وآليّات تهمّ الإدراك والتّذكّر وما إلى ذلك.

ولكنّ التّرتيب في تلك الأحوال الثلاث يكون مقلوبا:

(1)

لا يذكر لهذا اليوم اسما، ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه اللّه من الشّهر والسّنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه، وإنّما يقرّب ذلك تقريبا. وأكبر ظنّه أنّ هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو في عشائه.

يرجّح ذلك لأنّه يذكر أنّ وجهه تلقّى في ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الّذي لم تذهب به حرارة الشّمس. ويرجّح ذلك لأنّه على جهله حقيقة النّور والظّلمة، يكاد يذكر أنّه تلقّى حين خرج من البيت نورا هادئا خفيفا لطيفا كأنّ الظّلمة تغشى بعض حواشيه. ثمّ يرجّح ذلك لأنّه يكاد يذكر أنّه حين تلقّى هذا الهواء وهذا الضّياء لم يأنس من حوله حركة يقظة قويّة، وإنّما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه.

وإذا كان قد بقي له من هذا الوقت ذكرى واضحة بيّنة لا سبيل إلى الشّكّ فيها، فإنّما هي ذكرى هذا السّياج الذي كان يقوم أمامه من القصب، والّذي لم يكن بينه وبين باب الدّار إلا خطوات قصار.

---

[285] Rousseau : Les Confessions.

هو يذكر هذا السّياج كأنّه رآه أمس. يذكر أنّ قصب هذا السّياج كان أطول من قامته فكان من العسير عليه أن يتخطّاه إلى ما وراءه. ويذكر أنّ قصب هذا السّياج كان مقتربا كأنّما كان متلاصقا، فلم يكن يستطيع أن ينسلّ في ثناياه. ويذكر أنّ قصب هذا السّياج كان يمتدّ عن شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية، وكان يمتدّ من يمينه إلى آخر الدّنيا من هذه النّاحية. وكان آخر الدّنيا من هذه النّاحية قريبا، فقد كانت تنتهي إلى قناة عرفها حين تقدّمت به السّنّ، وكان لها في حياته – أو قل في خياله – تأثير عظيم.

طه حسين : الأيّام، ص 15-16.

فالذّات الكاتبة (طه حسين) وُجدت في عالم ما في زمن ما (المعرفة العلاقة) ونشأ في ذهنها تمثيل لتجربة ما (المعرفة المعتملة) ثمّ كتبت إملاء أو تدوينا تلك التّجربة (المعرفة النّاتجة) فاستوت موضوعا يقبل التّناقل.

ومفتاح هذا التّرتيب إنّما هو بنية الجمل الإعرابيّة:

تتضمّن الواحدة ثلاثة مستويات في مكوّناتها يّملأ محلّ المكوّن الرّئيسيّ بفعل من الأفعال الدّالّة على عمل ذهنيّ (عرفنيّ) – هي ممّا يطلق عليه الأفعال العرفنيّة[286]– من قبيل 'ظنّ' و'رجّح' و'شكّ' وما إليها من المشتقّات أو من المرادفات، أو يكون بأفعال مثبتة أو منفيّة تتضمّن اليقين في الاتّجاهين. وهي عمليّات ذهنيّة جارية في حال المعرفة النّاتجة، حيث تكون التّجربة قد حصلت فتمثّلت في الذّهن واستوت في النّهاية مادّة للتّعقّل.

ويملأ محلّ المكوّن الثّانويّ بفعل واحد يتكرّر في الجمل جميعا دالاّ على عمل ذهنيّ (عرفنيّ) هو التّذكّر، وهو عمليّة ذهنيّة جارية في حال المعرفة المعتملة. فالتّذكّر غير منصبّ على التّجربة في ذاتها وإنّما على تمثيلها الذّهنيّ، فما كان ذا أثر واضح في الذّاكرة كان مذكورا ذا تمثيل ذهنيّ واضح وما كان ذا أثر باهت أو خافت كان تمثيله كذلك.

ويملأ محلّ المكوّن النّوويّ بأفعال وأسماء متعدّدة متنوّعة تنوّع التّجربة البشريّة، هي تجربة طه حسين وقد عاشها صبيّا وهي ما يمثّل مضمون التّذكّر أو مادّته. وجميع تلك الوحدات من الأفعال ومن الأسماء، دالّ على عمل حسّيّ

[286] Verbe(s) cognitif(s).

تفاعليّ بما في ذلك من الإحساس بالبرد أو بالحرارة والسّماع واللّمس وما إلى ذلك. وهي عمليّات ذهنيّة حسّيّة حركيّة تنشأ وتتبلور في حال التّجربة مضمونا حسّيّا يكون عند اتّصال الذّات بمحيطها مكانا وأشخاصا وتضاريس وما إلى ذلك، وجميعها يمثّل المعرفة العلاقة. إجمال ذلك في (2) :

(2)

المعرفة النّاتجة	المعرفة المعتملة	المعرفة العلاقة
المكوّن الرّئيسيّ	المكوّن الثانويّ	المكوّن النوويّ
النّفي : لا	يذكر	لهذا اليوم اسما
لا يستطيع	أن يضعه حيث وضعه اللّه	من الشّهر والسّنة
لا يستطيع	أن يذكر من هذا اليوم	وقتا بعينه
أكبر ظنّه	الوقت كان يقع من ذلك اليوم	بين الفجر أو العشاء
يقرّب تقريبا	–	ذلك
يرجّح	يذكر	وجهه تلقّى هواء
يرجّح	يكاد يذكر	تلقّى نورا هادئا
يرجّح	يكاد يذكر	لم يأنس من حوله حركة...
لاسبيل إلى الشّكّ	ذكرى واضحة	السّياج (بخصائصه)
لا يستطيع	يذكر	هذا اليوم (اسمه، وقت منه)

خاتمة

طرحنا في ما مضى من هذا الفصل إطارا نراه ضروريّا في دراسة العرفنة البشريّة عامّة، والعربيّة على وجه التّحديد، مداره اتّصال الذّات المعرفنة أو العارفة - بعبارة أخرى- بمحيطها وما يكون لها فيه من تفاعل من حيث كانت عنصرا منه تعيش فيه وتعايش سائر العناصر فيه. وهذا ما يمثّل التّجربة الحسيّة العصبيّة الأساسيّة ومن عناصرها تتجرّد تمثيلات تصاغ في أشكال متعدّدة فتحفظ تذكّرا لتقود الذّات في عيشها في ما لحق على تلك التّجربة، وتستوي مضمونا عرفنيّا مستقلاً بذاته في التّصوّر يقبل الانفصال عن الذّات المعرفنة، هو ثمرة التّفاعل ما بين الذّات العارفة والعالم، وتتناقلها الأجيال بأشكال رمزيّة متنوّعة كتابةً وتدوينا أو مشافهة وتلقينا، فيكون منها الخطاب في كتب التّاريخ وفي الأشعار وفي الرّوايات وفي السّير بأنواعها ومنها التّرجمة الذّاتيّة وما إلى ذلك، بل تتناقلها في رسوم تغمر المدافن في مقابر الفراعنة أو جدران المغاور في الجنوب الفرنسيّ أو في الصّحراء اللّيبيّة وما إلى ذلك.

وجميع ما بسطنا فيه القول إنّما هو إشارة إلى ما يمكن أن نغوص عليه من مظاهر عرفنيّة بالخطاب وفي الخطاب سبيلا إلى اكتناه الذّهن البشريّ مشتغلا في علبته الجمجميّة باعتماد ما تجود به من آثار رمزيّة لغويّة أو إيقونوغرافيّة أو من قبيل آخر. وقد اعتمدنا فيه نموذجا مفردا تناولناه من زاوية المعرفة بأحوالها المعلومة، على أمل أن يكون ذلك منوالا يفتح أبوابا في الدّرس لمن شاء التّوسّع. ولنا عود إلى هذا النّموذج في الفصل الثّاني نستكمل به وفيه عددا آخر من المظاهر العرفنيّة يهمّ بعضها تمثيل المكان وتمثيل الزّمان تجربتين متعاظلتين، مختلفتين متباينتين في آن.

الفصل الثّاني

الخارطة الذّهنيّة : تمثيل الفضاء والزّمان

مقدّمة

لعلّ إدراج هذا المبحث في مثل هذا العمل مثير لعدد من التّساؤلات، وتبريره كائن في كون اللّغة موردا من موارد تمثيل الفضاء مجالا للعيش فمضمونا عرفنيّا يُتناقل ويتذكّر ويوصف في خطاب قوامه نوع من الاستبطان الحاضر عودا إلى الماضي المحفور في الذّاكرة، ولعلّ من أحسن النّماذج في ذلك الخطاب التّرجذاتيّ.

وإذا ما انضاف إلى هذا مبحث في ما به يكون تمثيل الفضاء عند الكفيف يستعيض فيه بوسائل جسديّة متظافرة، عن المورد البصريّ، يكون المبرّر أقوى وأمتن ينضاف به تناول آخر مؤسّس على حقائق عرفنيّة قد يتجدّد بها النّظر في الأدب عامّة وفي الأدب التّرجذاتيّ على وجه الخصوص.

الخارطة الذّهنيّة : معالم نظريّة

يندرج مفهوم الخارطة الذّهنيّة أو الخارطة العرفنيّة[287] في ملكة عرفنيّة أوسع هي التّصوير الذّهنيّ[288] الّذي ينشِئ الصّوَر الذّهنيّة من حيث مواردها وتبلورها وتمثّلها وحفظها واشتغالها في الذّهن والعرفنة. والتّصوير الذّهنيّ مبحث مشترك ما بين علم النّفس العرفنيّ واللّسانيّات العرفنيّة يدخله كلّ منهما من بابه.

وتمثّل الخارطة الذّهنيّة آليّة ذهنيّة وظيفتها تمثيل المكان وتنضيده في الذّهن بشكل يمكّن الذّات من تلبية حاجات العيش والتّجوّل فيه (كيتشن 1994)[289]. وهذه الآليّة جزء من الذّاكرة الفضائيّة[290].

---

[287] Cognitive map(s). (carte mentale, carte cognitive).
[288] Mental imagery. (imagerie mentale)
[289] Kitchin, 1994.
[290] Spatial memory. (mémoire spatiale).

ويذهب جمهور الدّارسين (ماك نامارا وجماعته 1989)[291] إلى أنّ الخرائط الذّهنيّة ممثّلة في الأذهان بوجهين تماثليّ وقضويّ :

فالتّماثليّ[292] ما به يكون حفظ مكوّنات الخارطة بشكل توزّعها فيها وفق مخطّطها العامّ. والقضويّ[293] جملة الأحكام المتعلّقة بتلك المكوّنات واحدا واحدا.

وذلك من قبيل تمثّل موقع لمحلّ الغلال في حيّك الّذي تقيم فيه حيث تجد لك إمكانيّتين في استحضاره:

أولاهما مخطّط عامّ للشّوارع والمحلاّت وما إلى ذلك من الاتّجاهات والمحلاّت المتجاورة أو المتباعدة وهذا هو التّمثيل التّماثليّ، وهو ما به تتمكّن من الذّهاب رأسا إلى ذلك المحلّ متتبّعا ما تحفظه الذّاكرة العمليّاتيّة[294].

وثانيتهما جملة من الأحكام من قبيل وجود المتجر في موقع إزاء محلّ آخر مثلا أو نصب تذكاريّ أو مفترق طرق وما إلى ذلك، فيمكنك تحديد موقعه لمن لا يعرفه أو يودّ تمييزه على وجه الدّقّة فتقول له : "المحلّ الّذي يقع إلى يمين المكتبة وهو قبالة بائع الزّهور" مثلا. والمهمّ أنّ الخارطة الذّهنيّة تتضمّن تمثيلا للفضاء بما يقوم عليه من مسافات وأشكال واتّجاهات ومن علاقات بين المعالم فيه.

ويندرج في مفهوم الفضاء جميع ما يمثّل إطارا للعيش اليوميّ العاديّ وللعمل والدّرس والتّنقّل والسّفر وكلّ ما يتّصل بالجغرافيا والمحيط والبيئة والتّضاريس والمسافات والأبعاد ارتفاعا وانخفاضا وتباعدا وتقاربا وتوزّعا على الأطوال والحيثيّات[295] على خطوط الطّول والعرض. كما يضمّ كلّ ما كان مكانا أو فضاء تتوزّع فيه العناصر من قبيل اللّوحة المرسومة أو الصّفحة المكتوبة أو الجملة المخطوطة بتوزّع الكلمات فيها أو توزّع الحروف في الكلمة توزّعا فضائيّا.

---

[291] McNamara & alee, 1989.
[292] Analog (analogique).
[293] Propositional.
[294] Procedural memory.(mémoire procédurale).
[295] Coordinate(s).

وهذه السّلميّة متوفّرة في تمثّل المكان عند طه حسين، فقد ورد وصفه للسّياج، في النّصّ، على هذا التّدرّج وإن كان حضور الأبعاد الثّلاثة في العبارة غير مباشر :

(1)

تمثيل الاتّجاه في الفضاء	
الاتّجاه	المثال من النّصّ
أعلى/أسفل	يذكر أنّ قصب هذا السّياج كان أطول من قامته،
أمام/خلف	هذا السّياج الذي كان يقوم أمامه من القصب.
يمين/يسار	ويذكر أنّ قصب هذا السّياج كان يمتدّ عن شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية، وكان يمتدّ من يمينه إلى آخر الدّنيا من هذه النّاحية.

فالقصب أطول من قامة الصّبيّ والقامة مقترنة بهيأة الانتصاب عند الإنسان وهي مقتضية لبعد أعلى/أسفل. وتلاصق القصب مانع له من التّسلّل بين ثناياه وهذا مقتض للبعد أمام/خلف.

أمّا بُعد يمين/يسار فحاضر لفظا صريحا (عن شماله ... من يمينه) وإن كان بعدا غير متناه. فقد كانت حدوده حدود ما تبلغه الذّراعان تنفتحان تتحسّسان وتتجسّسان بالأصابع امتداد القصب يمينا وشمالا. فالحدود في المكان تبلغ آخر الدّنيا أي المجهول عند الصّبيّ وهو ما لم يحصل في حال المعرفة العلاقة (الحلول في المواضع البعيدة من المكان) ولا في المعرفة المعتملة (تمثيل الفضاء في الذّهن) فلا يحصل إذن في المعرفة النّاتجة (الفضاء العينيّ موضوع للتّخزين والتذكّر).

ويمكن أن نتصوّر الصّبيّ وقد ألصق صفحة خدّه على القصب فيكون السّياج أمامه، يمدّ يديه علوّا ونزولا ثمّ أماما وخلفا وأخيرا يمينا وشمالا. وكأنّ السّياج محيط للفضاء الّذي تحلّ فيه ذات الصّبيّ تستكشفه شيئا فشيئا لتتكوّن عنده

خارطة ذهنيّة ينتزعها باعتماد موارد حسيّة مختلفة[298] تمدّه الواحدة منها بقطعة من الواقع في حدود ما، يجري تمثيلها بمفردها، ثمّ إذ تتعدّد القطع يكون التّأليف بينها جميعا في تمثيل واحد جامع : السّياج مصنوع من قصب متماسك متقارب في اتّجاه عموديّ وارتفاعه يتجاوز قامة الصّبيّ وهذا السّياج ذاهب في خطّ مستقيم إلى اليمين وإلى اليسار، طوله مجهول لذلك كان ذاهبا إلى آخر الدّنيا.

وأمّا المسافة في المكان فيمكن أن تتحدّد باعتماد موردين حسّيّين أساسيّين هما الإبصار بما يفي به من أبعاد المكان الثّلاثيّة (عمقا وطولا وعرضا)، والسّمع من درجة ثانية يتحدّد به مصدر الصّوت فموقعه في الفضاء، باعتماد متغيّرات عديدة أهمّها شدّة الصّوت وقوّته فمداه وتنقّله أو ثبوته في مصدره. كما تتحدّد المسافة انطلاقا من الجسد باعتماد بعض الأعضاء (الذّراع، اليد...) تكون منها الحركة ممتدّة لتبلغ المدى.

وجميع هذا الموارد متظافر عند الإنسان عامّة يكون له تمثيل للمسافة وإن بنسب مختلفة فالبصر أوّلا يتلوه السّمع فاللّمس في أغلب الأحوال. وقد تنقلب هذه النّسب فتتبدّل بتبدّل الظّروف كأن يكون المعوّل في تحديد المسافة ليلا على السّمع عند تقلّص الوضوح في الإبصار أو اللّمس عند انقطاع النّور الكهربائيّ. هذا في المطلق ولكن كيف يستعيض الكفيف عن البصر بسائر الموارد الحسيّة لينشأ في ذهنه تمثيل للمكان عامّة وللمسافة فيه بوجه خاصّ؟

تتحدّد المسافة عند الصّبيّ في الفضاء المطلق أو في ما بين الأشياء يتوزّعها ذلك الفضاء، كما تتحدّد عنده أطوال الأشياء، بتوسّط جسده بما يتضمّن من أعضاء أساسها الذّراعان والسّاقان. ولذلك تتواتر في النّصّ أسماء هذه الأعضاء أو أسماء أبعاضها أو ما يقتضي تلك الأعضاءَ من الحركات الكائنة منها واردة في صيغ فعليّة أو اسميّة متنوّعة.

---

[298] انظر التّمثيل (4) بعد هذا.

كما تتحدّد المسافة تبعا لذلك في الفضاء المطلق أو في ما بين الأشياء نمطين من التّحديد عند الصّبيّ : تحديدا مطلقا غير معدود ولا محدود وتحديدا دقيقا كما يجمله الجدول (2).

فبالحركة والجولان في المكان تتحدّد المسافة بناء على ما تستغرقه حركة التّنقّل من الذّات في المكان :

الأطوال تنقاس بعدد الخطى وبمداها وهي خطوات قصار تكون من الصّبيّ الكفيف يخطو في المكان حذرا من العراقيل الّتي لا يبصرها فتكون خطواته قصارا يتحسّس بقدميه استواء الأرضيّة في غياب دليل من الأناسيّ أو أداة تمثّل امتدادا ليده هي العصا. ولعلّ تلك الخطى القصار يصاحبها امتداد من الذّراعين الصّغيرتين تجولان يمينا ويسارا فلا تبلغان شيئا إلاّ في حدود النّهاية من المكان المحيط بالبيت عند السّياج.

(2) – تحديد المسافة والأطوال

تحديد المسافة/الأطوال				
المجال	النّمط	المعالم	العضو .	المثال من النّصّ
الفضاء	مطلق	السّياج شمالا	جسد/ذراع	قصب هذا السّياج كان يمتدّ عن شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية.
		السّياج يمينا	جسد/ذراع	وكان يمتدّ من يمينه إلى آخر الدّنيا من هذه النّاحية.
		السّياج ارتفاعا	جسد/قامة ذراع	قصب هذا السّياج كان أطول من قامته
ما بين الأشياء	دقيق	السّياج- الدّار	ساقان	لم يكن بينه وبين باب الدّار إلاّ خطوات قصار
		ما بين القصب	أصابع/يد ذراع/جسد	قصب هذا السّياج كان مقتربا كأنّما كان متلاصقا، فلم يكن يستطيع أن ينسلّ في ثناياه.
		قصب- قناة	ساقان	فقد كانت تنتهي إلى قناة عرفها حين تقدّمت به السّنّ.

فالمكان بأبعاده منصبّ على الجسم متحرّكا والعضو الأساسيّ في التّنقّل هو السّاق، والسّاق يكون منها الخطو طويلا في حال الإبصار يعطي صاحبه إمكانيّة استباق الحواجز عن بعد، أو قصيرا في حال الصّبيّ يتنقّل متحسّسا تضاريس الأرضيّة خشية الوقوع للاصطدام. وليس من الصّدفة أن تنقاس المسافة عند بعض الأمم بالقدم أو بمسيرة اليوم قبل أن تتجرّد لها وحدة رمزيّة اعتباطيّة هي المتر ومضاعفاته. وليس من الصّدفة كذلك أن تجد أنصارا لما يسمّى بسياسة "الخطوة خطوة" في جميع العصور تنشأ فيها الأزمات وفي أغلب الأزمات تطلب الحلّ.

الخارطة الذّهنيّة في تمثيل الزّمن

الزّمن : التّجربة وتمثيلها

تشبه دراسة الزّمن من زاوية عرفنيّة دراسة جميع الظّواهر والمفاهيم باعتماد هذا المدخل. فهي قائمة على ركيزتين أولاهما تجربة الزّمن أو كيف نعيش الزّمن وندركه؟ وثانيتهما كيف يكون تمثيل الزّمن في الذّهن عامّة وفي اللّغة بالخصوص في حدود ما يهمّنا في هذا السّياق؟

وهذا سبيل نمهّد به لدراسة الزّمن تمثيلا وإدراكا من خلال نوع من الخطاب مخصوص هو التّرجمة الذّاتيّة عند طه حسين. يكون ذلك بالتّركيز في ما به يكون تحديد أبعاد الزّمن ومروره وتصوّره عند شخص كفيف وهذا يستدعي أن نعتمد البنية الخطابيّة سبيلا إلى تبيّن تجربة الزّمن (المعرفة العلاقة) وتمثيل الزّمن (المعرفة المعتملة) فاستواء تلك التّجربة موضوعا مستقلاّ بنفسه يكون شأنا في الحديث يُتناقل (المعرفة النّاتجة).

وفي هذا السّياق يثبت الكثير من الدّارسين أنّ تمثيل الزّمن في الذّهن إنّما هو مشتقّ من طريقة عيشنا للزّمن (إيفانس[299] 2004، 2007). ويذهب إيفانس (2007، 733) إلى أنّ الزّمن ليس ظاهرة واحدة كلّيّة وإنّما هو مركّب من مجموعة متراكبة متداخلة من المفاهيم الزّمانيّة، تتوالف لتكوين تمثيلات عرفنيّة كبرى للزّمن.

299 Evans (2004, 2007).

ويثير الزّمن مسألة إدراكيّة مدارها غياب جهاز حسّيّ عصبيّ مختصّ في إدراك الزّمن وتمثيله قياسا على الإبصار المختصّ في إدراك الفضاء وتمثيله، ولكنّ غياب هذا الجهاز لا يمنع من كون الزّمن تجربة حقيقيّة نعيشها ونحسّ بها ونتمثّلها في الأذهان.

ويكون المعوّل في تحديد ملامح هذه التّجربة على حقائق من علم الأعصاب. فقد ثبت أنّ تجربة الزّمن متجذّرة في الآليّات العصبيّة العامّة الّتي يكون بها تنظيم الإدراك وتعديله ومن ثمّة تيسيره. ومن الأمور الثّابتة في ذلك أنّ تجربة الزّمن مرتبطة بآليّات الإدراك الّتي تعالج كلّ تجربة حسّيّة.

تقوم المعالجة الإدراكيّة على فواصل زمانيّة يطلق عليها 'اللّحظات الإدراكيّة' تيسّر إدماج التّجربة الحسّيّة في خانات إدراكيّة زمانيّة. ذلك أنّ المعالجة الإدراكيّة تتأسّس على فواصل زمانيّة[300]، يطلق على الواحدة منها اللّحظة الإدراكيّة[301]، وتيسّر هذه الفواصل الزّمانيّة صهر التّجربة الحسّيّة في محلّات زمانيّة إدراكيّة (تورنر وبوبّال 1983، بوبّال 1994، ميشون 2004)[302].

تمثّل الحواسّ مجسّات تمكّن الذّهن من تحيين تمثيل الواقع والمحيط الخارجيّ. يتحقّق هذا التّحيين باعتماد آليّات توقيت تتشكّل في لحظات إدراكيّة تشمل جميع المستويات في المعالجة العصبيّة ويتراوح مداها من بعض الملّيثواني إلى ثلاث ثوان تقريبا.

ويورد إيفانس (2007، 734-735) زوجا من الموارد تثبت به الجذور العصبيّة في تمثيل الزّمن في شكل لحظات إدراكيّة أساسها إيقاع الأنشطة العصبيّة في اشتغال الدّماغ : تجربة الفوانيس الوامضة[303] وظاهرة الإيقاع في اللّغات.

أمّا تجربة الفوانيس الوامضة فمتّصلة بما يسمّى التّزامن الظّاهري[304] والحركة الظّاهريّة[305]. والأساس فيها أن يشاهد الشّخص فانوسين يومض الواحد منهما بفاصل زمنيّ يتغيّر مداه قصرا وطولا:

---

[300] Temporal intervals.
[301] Perceptual moments.
[302] Turner & Poppel (1983). Poppel (1994); Michon (2004).
[303] Flashing light(s).
[304] Apparent simultaneity.
[305] Apparent motion.

- إذا كان الفاصل بينهما في الوميض ما بين عُشُر وعشُرين من الثّانية كان إدراكهما وامضين متزامنين على أساس التّزامن الظّاهريّ.

- إذا زاد ذلك الفاصل بينهما زيادة طفيفة كان إدراكهما على أنّهما متتابعان في الوميض تتابعا سريعا يوحي بالحركة الظّاهريّة.

- إذا كان المدى بينهما في الوميض أوسع بقليل ممّا مضى، كان إدراك الوميض فيهما على أساس أنّه متتابع أو متقطّع.

ويثبت بذلك الأساس الحركيّ في تمثيل الزّمان، بمعنى قيامه على إدراك الحركة والفواصل ما بين أبعاضها.

وأمّا ظاهرة الإيقاع، في اللّغة عامّة وفي الشّعر بصورة خاصّة، فتتمثّل في ما سطّره تورنر وبوبّل (1983) في دراسة الإيقاع في بعض اللّغات، إذ تبيّنا أنّ معدّل الوحدة الإيقاعيّة (البيت الشّعريّ أو السّطر...) يتضمّن ما بين أربعة مقاطع وعشرين مقطعا حسب اللّغات، وأنّ معدّل الإنشاد فيها يتراوح ما بين ثانيتين ونصف وثلاث ثوان ونصف، في السّطر أو البيت الواحد، ليستنتجا من ذلك أنّ للبشر آليّة توقيت إيقاعيّ موحّدة يتوحّد لها النّشاط الإيقاعيّ في مختلف اللّغات.

والمهمّ أنّ تنضيد الزّمن في مختلف اللّغات أساسه الحركة بما تتضمّن من تنقّل أو تغيّر في الهيئات وفي المواضع. وإذ يكون ذلك كان تنضيد الزّمن مرتبطا بالفضاء وبعيشنا فيه كائنات تتفاعل وتنظّم حياتها فيه بما يكتنفها من أنشطة وتنظيم لها على أساس الحلول في المكان أو التّباعد أو الأسبقيّة واللّحاق وما إلى ذلك.

وإذ لا يعنينا، هنا، تمثيل الزّمن في الذّهن- من حيث كان جوهرا أو ظاهرة في ذاتها- لما في ذلك من الاتّساع في المشارب تخرج بنا عن مشغلنا في هذا العمل، نكتفي بما به يكون تمثيل وقت بعينه أو وحدة من الزّمن تقع في موقع ما من وحدة أكبر منها على درجات.

فقد ارتبط استحضار الزّمن في أبعاضه، عند طه حسين، بالتّردّد عقلا ما بين طرفين من النّهار هما الصّباح والمساء. وهذه تجربة حسّيّة عاشها في طور المعرفة العلاقة ثمّ اشتغلت في طور المعرفة المعتملة لتنشأ تضاريسها ومعالمها باعتماد عدد من المعالم غير ذات صلة بالنّور. والسّؤال في هذا المستوى: كيف اعتملت المعرفة بالوقت؟

ويمكن إدراج تجربة الزّمن في المطلق وتحديد أبعاضه مقترنة بوقت بعينه في المراتب الّتي بسطنا في أحوال العرفنة المتموضعة والوضع العرفنيّ :

(1) المعرفة العلاقة: الحلول في الزّمن أو في الوقت.

(2) المعرفة المعتملة: إنشاء تمثيل للزّمان أو للوقت في الذّهن.

(3) المعرفة النّاتجة: الزّمان العينيّ موضوع للتّخزين والتذكّر.

ولكنّ الوضع العرفنيّ عند الذّات العارفة، طه حسين، وضع عرفنيّ خاصّ مرتبط بهيأة وجود خاصّة أساسها غياب مورد أساسيّ هو البصر، ولذلك تتظافر بعض الموارد الجسديّة الحسيّة الأخرى لتحقيق التّموضع العرفنيّ كما يلي بيانه في الجدول (3) بمداخله من حيث المجال أو المادّة الفيزيائيّة موضوع التّجربة وسلّم تتوزّع عليه الظّاهرة قوّة وضعفا أو شدّة وخفّة فالمورد الحسّيّ لمسا أو سماعا فالعضو العينيّ مدخل الإحساس إلى الدّماغ فالمثال من النّصّ :

(3) – تمثيل الزّمن / الوقت

تحديد الزّمن/الوقت : فجرا أو عشاء وأكبر ظنّه أنّ هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو في عشائه.				
المجال	السلّم	الحاسّة	العضو	المثال من النّصّ
الهواء	جفاف/رطوبة الحرّ– البرد	اللّمس	الوجه	وجهه تلقّى هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذي لم تذهب به حرارة الشّمس
الشّمس	النّور ضياء – ظلام	ϕ	ϕ	تلقّى حين خرج من البيت نورا هادئا خفيفا لطيفا كأنّ الظّلمة تغشى بعض حواشيه.
الصّوت	حركةاجتماعيّة قوّة – ضعف	السّماع	الأذن	لم يأنس من حوله حركة يقظة قويّة، وإنّما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه.

ونلاحظ حضور ثلاثة من الموارد الحسّيّة وإن لم يسمِّ طه حسين إلاّ اثنين منها هما اللّمس والسّماع، وقد تحدّد موقع باهت من الوقت في النّهار، هو الفجر أو العشاء. فاللّمس ممتدّ على كامل البشرة (الجلد) ولكنّ صفحة الوجه العارية متّصلة بالهواء المحمّل بالرّطوبة على درجات الحرارة المختلفة، والسّمع تخيّر الحركة الاجتماعيّة (نشاط أهل القرية) بأصوات النّاس وجلبتهم بدرجاتها المختلفة شدّة وضعفا.

وأمّا النّور فقد صوّر تصويرا خاصّا عجيبا : صوّر على أساس موارد أخرى فكانت له صفاتها من هدوء وخفّة ولطافة، وهي مشتركة ما بين الأصوات والحركة سمعا والحرّ/البرد لمسا. ولم يُذكر العضو الّذي تلقّاه إذ تلقّته الذّات كاملة هالة تغمرها رغم جهلها بحقيقة النّور والظّلمة. وهذه الهالة قلبها نيّر في ضعف وحواشيها داكنة مظلمة، هي الهالة الّتي نراها في شعاع الفانوس يرسّل في الظّلام فيتدرّج النّور من الشّدّة إلى الضّعف بالتّدرّج من المركز إلى الأطراف، وهي الهالة الّتي يصوّرها الكثير من النّاس ممّن عاشوا تجربة الغيبوبة العميقة في شكل نفق طويل نيّر. ولعلّ طه حسين صوّر ذلك باعتماد ما بقي باهتا عنده من تمثّل النّور زمن مرضه قبل أن يفقد البصر تماما، وفي جميع ذلك تتداخل معالم التّذكّر فتتراكب الصّور.

ويظلّ الأمر مطروحا في قضيّة تمثيل الأشياء باللّغة يجريها جميع النّاس في تصوير المجرّدات من قبيل النّور وغيره فجميع النّاس يصفون النّور بالهدوء وبالخفّة وبالقوّة، وهو أمر يخرج بنا عن مسارنا.

والمهمّ أن نثبت أنّ تجربة الزّمن تجربة ثانويّة تركب التّجربة الحسّيّة في الفضاء والتّجربة الجسديّة عامّة، ولذلك تستصفى ملامحه استصفاء عن طريق عمليّات حوسبيّة بما يعني أنّها متبلورة في المرحلة الأخيرة من الأحوال المعرفيّة الثّلاث. أو بعبارة أخرى هو طه حسين الكهل ينشئ صورة للوقت (في مرحلة المعرفة النّاتجة) يعتقد أنّ طه حسين الصّبيّ قد عاشها (مرحلة المعرفة العلاقة) ولم تتمثّل له تلك التّجربة في البدايات (مرحلة المعرفة المعتملة). وفوق المراحل

الثّلاث عمل العقل ولذلك كان "يرجّح ذلك لأنّه على جهله حقيقة النّور والظّلمة، يكاد يذكر أنّه تلقّى حين خرج من البيت نورا هادئا خفيفا لطيفا كأنّ الظّلمة تغشى بعض حواشيه."

وإذ استقام لنا إلى هذا المستوى عدد من الأسس الإدراكيّة والعرفنيّة بها تبيّنّا المنابت البيئيّة في إدراك الأشياء وتمثيلها في العموم وفي نموذج من الخطاب التّرجذاتيّ كائن من شخص كفيف، يمكن أن نجمل الموارد الحسيّة في إدراك الفضاء الزّمان وفي تمثيلهما دون المورد البصريّ. يكون ذلك في التّمثيل (4) حيث يمثّل المركز النّظام العرفنيّ بما يضمّ من المفاهيم ومن الملكات المختلفة من نحو وتذكّر وتمثيل وما إلى ذلك يعنينا منها التّمثيلات الفضائيّة والزّمانيّة ثمّ الأنظمة المتوسّطة ما بين النّظام العرفنيّ والموارد الحسيّة كلاّ باختصاصه بصور حسيّة من نوع مخصوص كاختصاص البصر بالصّور البصريّة وما إلى ذلك ثمّ أخيرا الحواسّ مداخل إلى الدّماغ ومخارج من الدّماغ إلى مختلف الأعضاء تسييرا وتحكّما. ونشير إلى الموارد المشتغلة أساسا عند الكفيف بالسّهم الغليظ وما تعطّل منها- وهو البصريّ أساسا- بالسّهم المتقطّع وأمّا تظافرها جميعا وتعاملها في إنشاء تمثيلات فضائيّة زمانيّة فقد فصّلنا القول فيها، ولعلّه من المفيد أن نشير إلى أنّ للشّمّ دورا أساسيّا أو مكمّلا في تحديد المكان وأبعاده في العموم وعند حسين بالخصوص وإن لم يتجلّ ذلك في النّصّ المعتمد من الأيّام، ولكنّ من يقرأ الأيّام يجد نماذج كثيرة من قبيل ما يلي :

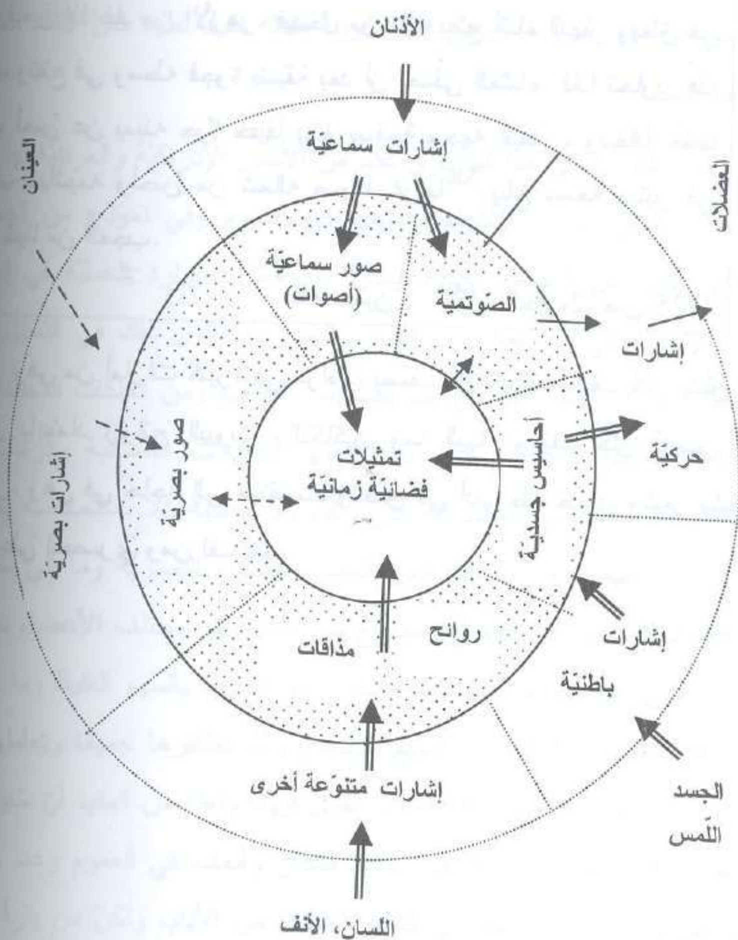
فهو يسكن بيتا غريبا يسلك إليه طريقا غريبة أيضا ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر، فيدخل من باب يفتح أثناء النّهار ويغلق في اللّيل، وتفتح في وسطه فجوة ضيّقة بعد أن تصلّى العشاء. فإذا تجاوز هذا الباب أحسّ عن يمينه حرّا خفيفا يبلغ صفحة وجهه اليمنى، ودخانا خفيفا يداعب خياشيمه وأحسّ من شماله صوتا غريبا[306] يبلغ سمعه ويثير في نفسه شيئا من العجب.

طه حسين : الأيّام، الجزء2، ص 125.

وهي من أمارات كثيرة في مواطن يصف فيها الكاتب كيف كان يتبيّن معالم المكان باعتماد روائح البيوت والدّكاكين وما إليها، وكيف كان يُبصر بعيني سوزان. وهي في حاجة إلى استقصاء وتعمّق في أدب طه حسين وشعر بشّار بن برد وعليّ الحصريّ ومن لفّ لفّهم.

[306] قرقرة النّارجيلة (الشّيشة).

(4) الموارد الحسيّة في بناء الخارطة الذّهنيّة عند حسين.



خاتمة :

الجسد-الفضاء والفضاء-الجسد

لم يكن التّركيز في ما مضى من هذا الباب في عمل الذّاكرة وإن كان أساسيّا في اشتغال الخطاب التّرجذاتيّ لأنّ وجهتنا أخرى فيه بها نسعى إلى إثبات تموضع العرفنة في محيطها لتموضع الكائن المعرفن في محيطه بتوسّط الجسد.

بل إنّ ملكة التّذكّر نفسها قائمة على التّموضع العرفنيّ، فالذّاكرة الحدثيّة[307] (الذّاكرة التّرجذاتيّة) تحفظ ما عاشه الفرد من تجارب وبها يكون استحضار تلك التّجارب والتّعرّف عليها بما فيها التّجربة الفضائيّة-الزّمانيّة. وتخضع ملكة التّذكّر إلى الأحوال المعرفيّة الثّلاث يكون في أولاها الذّاكرة المنبع[308] الّتي تتولّى تسجيل المكان والتّاريخ عند حصول المعرفة، وذلك بأن تحفظ المعالم المكانيّة والزّمانيّة المحدّدة للحدث مكانا وزمانا. وقد يطرأ عليها النّسيان فيكون الحذف أو التّداخل فيكون الخلط بين المعالم وكلاهما ناتج عن اضطراب في معالم المنبع. ويكون ذلك في معالم الزّمان خاصّة. وهذا ما وقفنا عليه في نصّ طه حسين.

فقد انقسم موضوع التّذكّر فيه إلى زمان ومكان، والموقف المعرفيّ كذلك إلى شكّ وترجيح في الزّمان وإلى وثوق ويقين في المكان، وانقسمت التّفاصيل إلى واهية غائمة في الزّمان وأخرى دقيقة مفصّلة في المكان وحدوده فـ"هو يذكر هذا السّياج كأنّه رآه أمس."

والمهمّ أن نسجّل أنّ دقّة المكان مقترنة بأبعاد الجسد، فطول الصبيّ مقياس لطول القصب، وحجم الصبيّ مقياس لنسيج القصب في تقاربه وتضامّه، وامتداد السّياج غير معلوم منقاس على ذراعي الصّبيّ لا تبلغانه، وهما المجسّة الطرفيّة عنده يستعيض بهما عن امتداد البصر. أمّا الزّمان فمعالم تمثّله تكاد لا تتّصل بالجسد إلاّ في بعده الاجتماعيّ دليل ذلك أنّ حركة القرية كانت من أبرز المحدّدات لموقع الوقت بين الفجر أو العشاء وإن لم تكن سبيلا إلى القطع والبتّ.

---

[307] Episodic memory. (mémoire épisodique).

[308] Source memory.

فالجسد حاضر عند الكفيف دائما، لا يغيب فيعودَ، وهو لا يعود إذ لا يغيب أبدا. وهو بين الحضور والغياب عند عامّة النّاس. وهو في الحالين دائم الحضور. إلاّ أنّ الوعي به، وسيطا بين الذّات ومحيطها، عند الكفيف لا ينقطع. ولكنّه عند عامّة النّاس قد ينقطع ويعود، ينقطع في أحوال التّجوال الرّوتينيّ في المنزل المُضاء –مثلا– ولكنّه يعود عند انقطاع النّور الكهربائيّ. وتفاصيل هذا معلومة.

فالعرفنة متموضعة في إطار عضويّ هو الدّماغ يتموضع بدوره في إطار بيولوجيّ هو الجسد، هذا الّذي يتموضع بدوره في محيط مادّيّ ثقافيّ هو البيئة ببعديها المادّي والاجتماعيّ الثّقافيّ :

الدّماغ–واسطة–الجسد–واسطة– المحيط

فيكون على هذا، الدّماغ في ذاته فضاء ذا أبعاد ومواقع وخريطة[309]، والجسد في ذاته فضاء ذا أبعاد ومواقع وخريطة، ويكون الفضاء ذاته كذلك محلاً للجسد تتوزّع أُبعاده انطلاقا من الجسد ومعالمه هي مواقع الأجساد فيه. ويمكن بناء على ذلك أن نستنتج أن لا وعي بالفضاء إلاّ بتوسّط الجسد ولا وعي بالفضاء إلاّ بالوعي بالجسد بل لا وجود للفضاء إلاّ بوجود الجسد.

وإذا استقام كون الجسد فضاء وكون الفضاء في الجسد أمكن لنا أن ننحت مفهوم " الفضاء الجسد' أو " الجسد الفضاء" وأن نستعيض عن مقولة ديكارت (أنا أفكّر، (إذن) أنا موجود) بمقولة أمضى منها (أنا حالّ في المكان (إذن) أنا موجود). وأن نحصل في النّهاية على (أنا حالّ في المكان(إذن) أنا أفكّر (إذن) أنا موجود) وتستقيم لذلك الأحوال المعرفيّة الثّلاث كما عرضنا سابقا.

وقد تحقّقت هذه الاستعاضة في الفلسفة التّجريبيّة الحديثة بأن قلبت العلاقة ما بين العقل والمادّة أو بين الدّماغ ومحيطه بأن جعلت ممّا كان يُتصوّر متعاليا منهما نابعا من المتعالَى عليه، فالعقل نتاج الواقع وليس متعاليا عليه، والدّماغ عضو مادّيّ يشتغل في محيط مادّيّ ينتج الرّمز موصولا بمحيطه. فالعقل أو العرفنة بعبارة أخرى ثمرة تعلو الشّجرة الّتي تحملها ولكنّها تستمدّ الغذاء من التّربة، فهي متجذّرة فيها، ولكنّ تجذّرها نباتيّ وتجذّر الذّهن إبستيميّ. ولنا في الفصل الموالي عناية بتجذّر الخطاب إبستيميّا.

---

[309] وهو كذلك في علوم الأعصاب تتوزّعه جهات تكوّن في مجملها خريطة الدّماغ (brain map).

الفصل الثّالث

التّجذّر الإبستيميّ في النّصّ

مقدّمة

لعلّه من المفيد أن نشير إلى ما غلب على الدّراسات العرفنيّة في البدايات من تصوّر مفاده أنّ التّمثيلات الذّهنيّة تناسب العالم الخارجيّ مناسبة أحاديّة ثابتة، وهو ما يخلّ بوظيفة أساسيّة للذّهن من حيث يُتصوّر مرآة تعكس الواقع ولكنّه في الحقيقة منشئ للمعنى في ما يتمثّل أو يدرك أو ينشئ من الأشياء والوقائع في العالم.

وقد تبيّنت معالم ذلك بتبلور العرفنة المتموضعة وما صاحبها من نقلة، من العرفنة الذّهنيّة الصّرف ينغلق فيها الدّماغ على نفسه ويشتغل مستقلاّ عن كلّ منبّه خارجيّ اشتغال الحاسوب، إلى تصوّر الدّماغ متفاعلا مع محيطه المادّي والثّقافيّ الرّمزيّ. وصاحبتها كذلك نقلة في دراسة المعنى من تصوّره معزولا في بنية لغويّة غير ذات صلة بما حايثها إلى دراسة نشأته في أرضيّة عرفنيّة عامّة. ولنا في هذا الفصل عناية بآليات التّجذّر الإبستيميّ في مظهريها العرفنيّ النّفسيّ العامّ واللّغويّ الخطابيّ من حيث أدواته اللّغويّة في الضّمائر والأزمنة والإشارة وما إليها.

التّجذّر الإبستيميّ : معالم نظريّة

تمثّل الجمل تعبيرا عن مضامين عرفنيّة من أنماط مختلفة، ولكنّها لا تختلف في كونها تجربة بشريّة للكائن في العالم ببعديه المادّيّ الفيزيائيّ والاجتماعيّ الثّقافيّ. ولكنّ التّعبير عن تلك التّجارب بما تضمّ من عناصر مشاركة وحيثيّات متعلّقة بالفضاء وبالزّمان وبالهيئات الكائنة للمشاركين فيها وبالغايات وما إليها ومن مواقف تكون للمتكلّم من جميع ذلك، لا يكون في الأغلب منقطعا عن زاوية في التّناول يكون منها صوغ تلك التّجربة صوغا رمزيّا لغويّا.

ولزاوية التّناول بعدان فرديّ ذاتيّ وآخر جماعيّ ثقافيّ. ولا يخلو التّعبير عن الأحداث والأوضاع والهيئات المكوّنة للمضامين العرفنيّة من آليّات تتحدّد بها مواقع المشاركين والعمليّات من حركة أو نشاط في الفضاء محدودا كان أو غير محدود وفي الزّمان، تجتمع هذه الآليّات في ما يطلق عليه التّجذير أو التّجذّر[310].

يكون تجذير العبارة في أرضيّة[311] تضمّ حدث القول[312] والمشاركين[313] فيه وما يحيط به من الأطر والهيئات (لانقاكر 1987، 126-127). فكلّ عنصر أو وحدة يتعيّن موقعها باعتماد كلّ من المتكلّم والسّامع من حيث معرفة كلّ منهما بالعالم، تُعتبر مجذّرة إبستيميّا (معرفيًا)، وهو ما يسمّى بالتّجذّر الإبستيمي[314] (لانقاكر 1987). فهذا تجذّر يتعلّق بالأشياء وبالأحداث وبالعلاقات ما بين الأشياء في العالم.

فأساس التّجذّر الإبستيميّ موضعة الوحدات المكوّنة للمضامين العرفنيّة في إطار شبكة باعتماد معلمين أساسيّين هما طرفا التّخاطب، وذلك في مظهرين : فضائيّ مكانيّ يتعلّق بموضعهما في العالم والتّجربة، وذهنيّ يتعلّق بالمواقف الّتي للواحد منهما من موضوع القول والتّخاطب.

فلنا مستويان في التّجذّر يضمّ الواحد منها عددا من الطّبقات الّتي يندرج بعضها في بعض :

تجذير العناصر المشاركة في حدث القول : المتخاطبان، زمن القول، مكان القول، عناصر المشهد وتوزّعها في العالم والتّجربة.

تجذير العناصر المكوّنة للمضمون العرفنيّ في العبارة اللّغويّة بصرف النّظر عن موقع عمليّة التّعبير في الزّمان أو في الفضاء إزاء الواقع المنقول، وهو تجذير يعتمد توزّع العناصر المشاركة في حدث القول أساسا، مكانا أو زمانا، سبقا أو لحاقا وما إلى ذلك.

---

[310] Grounding.
[311] Ground (s).
[312] Speech event(s).
[313] Participnt(s).
[314] Epistemic grounding.

ولزاوية التّناول بعدان فرديّ ذاتيّ وآخر جماعيّ ثقافيّ. ولا يخلو التّعبير عن الأحداث والأوضاع والهيئات المكوّنة للمضامين العرفنيّة من آليّات تتحدّد بها مواقع المشاركين والعمليّات من حركة أو نشاط في الفضاء محدودا كان أو غير محدود وفي الزّمان، تجتمع هذه الآليّات في ما يطلق عليه التّجذير أو التّجذّر[310].

يكون تجذير العبارة في أرضيّة[311] تضمّ حدث القول[312] والمشاركين[313] فيه وما يحيط به من الأطر والهيئات (لانقاكر 1987، 126-127). فكلّ عنصر أو وحدة يتعيّن موقعها باعتماد كلّ من المتكلّم والسّامع من حيث معرفة كلّ منهما بالعالم، تُعتبر مجذّرة إبستيميّا (معرفيّا)، وهو ما يسمّى بالتّجذّر الإبستيمي[314] (لانقاكر 1987). فهذا تجذّر يتعلّق بالأشياء وبالأحداث وبالعلاقات ما بين الأشياء في العالم.

فأساس التّجذّر الإبستيميّ موضعة الوحدات المكوّنة للمضامين العرفنيّة في إطار شبكة باعتماد معلمين أساسيّين هما طرفا التّخاطب، وذلك في مظهرين : فضائيّ مكانيّ يتعلّق بموضعهما في العالم والتّجربة، وذهنيّ يتعلّق بالمواقف الّتي للواحد منهما من موضوع القول والتّخاطب.

فلنا مستويان في التّجذّر يضمّ الواحد منها عددا من الطّبقات الّتي يندرج بعضها في بعض :

تجذير العناصر المشاركة في حدث القول : المتخاطبان، زمن القول، مكان القول، عناصر المشهد وتوزّعها في العالم والتّجربة.

تجذير العناصر المكوّنة للمضمون العرفنيّ في العبارة اللّغويّة بصرف النّظر عن موقع عمليّة التّعبير في الزّمان أو في الفضاء إزاء الواقع المنقول، وهو تجذير يعتمد توزّع العناصر المشاركة في حدث القول أساسا، مكانا أو زمانا، سبقا أو لحاقا وما إلى ذلك.

---

[310] Grounding.
[311] Ground (s).
[312] Speech event(s).
[313] Participnt(s).
[314] Epistemic grounding.

تجذير يتعلّق بما يكون لطرفي التّخاطب-أحدهما أو كليهما- من مواقف ذهنيّة تصوّريّة إزاء المضمون العرفنيّ في العبارة اللّغويّة، بما في ذلك أحوال الاعتقاد يقينا أو شكّا، إخبارا أو استخبارا، تحقّقا أو إمكانا وما إلى ذلك ممّا يندرج في الوجهة، وكذلك ما يندرج في الأعمال اللّغويّة[315].

أدوات التّجذّر الإبستيميّ

يجعل لانقاكر(1987،127) من العبارات الإشاريّة الجارية في التّجذّر الإبستيميّ جملة من الوحدات اللّغويّة فيها عناصر إشاريّة[316] صريحة وعناصر تتضمّن الإشارة من الأسماء والأفعال:

منها عناصر تعيّن شيئا مخصوصا بعينه يكون عنصرا من الأرضيّة[317]. ومن أبرز النّماذج فيها ضمائر المتكلّم وضمائر المخاطب جارية في الخطاب (أنا، أنت...) إذ تحدّد المشاركَين الأساسيّين في عمليّة التّخاطب (حدث القول)، ولكنّ ضمير الغائب يُعتبر من العناصر المجذّرة لحدث القول من حيث عيّن شخصا لا يشارك فيه بغيابه أي من حيث كان ما يعيّنه غير مشارك في حدث القول.

ومنها عناصر تحدّد زمان القول ومكانه، وذلك من قبيل "الآن" و"هنا"، كما تُعتبر سائر الإشارات إلى ما توسّط أو بعُد من المكان أو من الزّمان أو في كليهما مجذّرة للقول إبستيميّا من حيث عيّنت مكانا أو زمانا ليسا من مكان القول أو زمانه.

ومنها عناصر تتّخذ، في تعيين ما تحيل عليه، عنصرا أو عناصر من الأرضيّة، فتكون لذلك أدوات تجذير إبستيميّ ولكن من درجة ثانية. فاستعمال اسم الإشارة إلى القريب – مثلا- "هذا" أو إلى البعيد "ذاك" وما إليهما يعتمد في تعيين موضوعه موقع المتخاطبَين أحدهما أو كليهما، وفي هذا تدخل الإشارة العهديّة. وكذا الإشارة إلى الزّمان ما اتّخذت من زمان التّخاطب معلما في تحديد نقطة زمانيّة جارية في القبليّة أو البعديّة.

---

315 Speech act(s).
316 Deictic(s).
317 Ground.

ومنها عناصر أخرى تجري إشاريّةً فتكون أداة تجذير وتجري غير إشاريّة فلا تجذّر شيئا. وعماد ذلك ما يكون في تصوّر دلالتها على ما تحيل عليه من اعتماد على موقع لواحد من طرفي التّخاطب يُتّخذ معلما في تحديد ما تشير إليه.

ويوسّع لانقاكر قائمة هذه العناصر لتشمل الكثير من الوحدات المعجميّة يقوم التّجذير فيها على أساس إشاريّ ضمنيّ (أو من درجة ثانية مقتضاة)، وذلك من قبيل أفعال التّنقّل الّتي تُستعمل وفق موقع مفترض يكون للمتكلّم أو للسّامع أو لموقع شيء آخر مبنيّ على موقع أحدهما أو كليهما، من قبيل فعل التّنقّل (جاء) أو (ذهب) حيث يجري 'المجيء' لتعيين حركة تنشد موقع المتكلّم و'الذّهاب' على خلاف ذلك. وعلى هذا الأساس يكون الفرق بين (1-أ) و(1-ب) في ما يلي:

(1) أ- أذهب إلى الكلّيّة كلّ يوم.

ب- أجيء إلى الكلّيّة كلّ يوم.

فتستقيم الجملة (1-أ) حيث يعيّن الذّهاب موقعا للمتكلّم هو خارج الكلّيّة وبعيد عنها ولا نعرف شيئا عن مكانه زمن القول بل لا فائدة منه، ويعيّن المجيء في (1-ب) ضمنيّا موقعا للمتكلّم في الكلّيّة أو في ما قرب منها.

وكذا الكثير من الأدوات الظّروف المعبّرة عن المواقع من قبيل "وراء" أو "أمام" و"خلف" لاعتمادها في ذلك على موقع المتخاطبَين - أحدهما أو كليهما- من درجة ثانية في تحديد ما تحيل عليه.

ومن الأدوات الجارية في التّجذّر الإبستيميّ عامّة وفي تجذير الأشياء خاصّة الإشاريّات[318] والضّمائر وأدوات التّعيين (تعريفا وتنكيرا) وصيغ الأفعال المصرّفة: تضمّ الإشاريّات أسماء الإشارة إلى الأشياء والأمكنة والمفاهيم، وخاصّة ما جرى منها لتحديد مواقع الأشياء إزاء المتكلّم والسّامع قربا وبعدا باعتماد المسافة، حضورا وغيابا باعتماد مجال الإدراك والتّفاعل. وتضمّ أدوات التّعيين ما دلّ على التّخصيص بالتّعريف أو على الشّيوع بالتّنكير بما في ذلك العهديّة. ولصيغ الأفعال المصرّفة زمانيّا دور أساسيّ في تجذير الأحداث إبستيميّا من حيث بيّنت موقع الحدث على محور الزّمان قياسا إلى زمن القول، وإذ كان ذلك تكون الجملة المتضمّنة لها مجذّرة للحدث كاملا.

[318] Deictics.

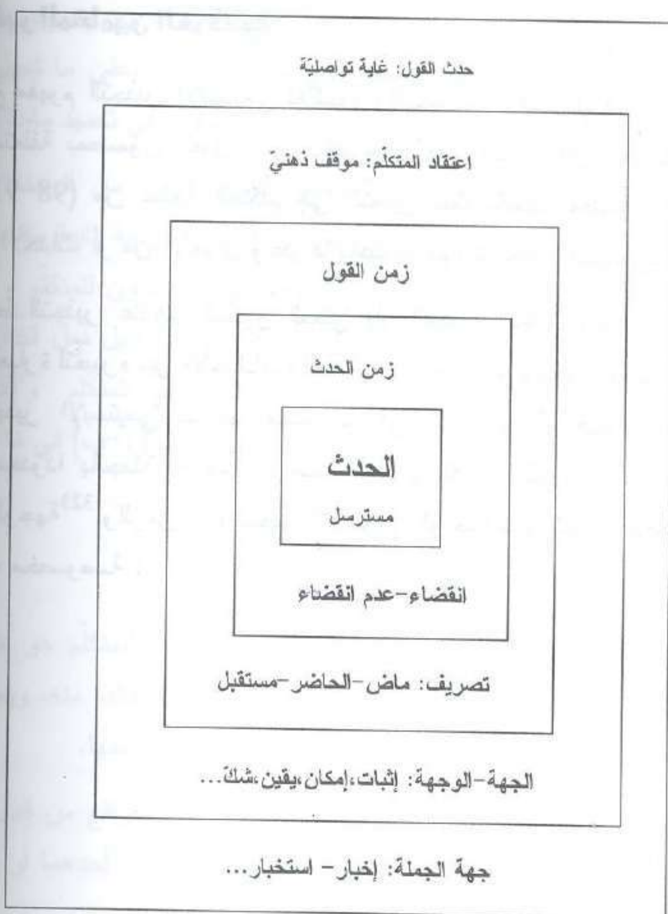
تجذير المضامين العرفنيّة

يتّسع مفهوم التّجذير الإبستيميّ للأشياء وللأحداث -وقد رأيناها- ولأحوال الاعتقاد المتعلّقة بمضمون القول. من ذلك ما يذهب إليه دِرفان وفرسبور[319] (2004، 91-98) من حاجة المتكلّم إلى التّعبير عمّا يكتنف مضمون العبارة اللّغويّة من الأحداث أو من الأحوال وغيرها باعتماد أدوات تجذير إبستيميّ.

ومحطّ التّجذير عندهما المكوّن الفعليّ (أو المكوّن الفعليّ المساعد[320]، إن وُجد) من العبارة لتعبيره عن الأحداث. ولذلك يُتّخَذ الحدث نواة تلفّها طبقات[321] من مظاهر التّجذير الإبستيميّ تناسبها مستويات في بناء الجملة، فيكون التّجذير الإبستيميّ محدودا بالجملة - كما عرضنا عند لانقاكر- على مراتب أربع : الجهة[322] والوجهة[323] والزّمن[324] والمظهر[325]. وفي الواحدة منها تجذير مخصوص كائن بأدوات مخصوصة :

[319] Dirven & Verspoor, 2004.
[320] Auxiliary.
[321] Layers of epistemic grounding.
[322] Mood.
[323] Modality.
[324] Tense.
[325] Aspect.

(2)- مراتب التّجذّر الإبستيميّ في الجملة



يقوم التّمثيل (2) على عدد من الأحياز يندرج بعضها في بعض على مراتب التّجذير الإبستيميّ ومحطّه المركزيّ هو الحدث، وما يحيط به يمثّل مراتب تجذّره إبستيميّا :

فانطلاقا من المركز، أي النّواة الحدثيّة الّتي تقوم عليها الجملة بنية دلاليّة إعرابيّة، يكون الحدث بما يقوم عليه تصوّره الذّهنيّ من عمليّات في جريانه وحدوثه من النّقطيّة أو الاستمرار وما إليهما (هو ما يعبّرعنه بالمظهر الدّاخليّ أو المظهر الدّلاليّ أو المظهر المعجميّ[326]).

[326] Lexical aspect. (aspect lexical),(Aktionsart).

يلي ذلك مرتبة يتجذّر فيها ذلك الحدث في الزّمن "زمن الحدث" بالقياس إلى زمن القول أو إلى أحداث أخرى بأدوات متنوّعة (تصريفيّة أو معجميّة) معبّرة عن الانقضاء أو عن عدمه.

تليها مرتبة تهمّ زمن القول بالقياس إلى زمن الحدث ويكون تجذير ذلك باعتماد تصاريف الفعل المعبّرة عن الزّمن أو غير ذلك من الأدوات، فيكون المضيّ أو الحاليّة أو الاستقبال بفروع الواحد منها كالتّزامن أو التّعاقب وما إلى ذلك.

ثمّ مرتبة متّصلة بموقف المتكلّم الذّهنيّ أو اعتقاده في مضمون قوله -وهو الحدث هنا- من حيث التزامه بمطابقته للواقع أو لمعتقده، فيكون متجذّرا بأدوات تجري في الجهة معبّرة عن الإثبات أو الإمكان أو عن اليقين أو الشكّ وما إلى ذلك.

وآخر مرتبة تهمّ حدث القول أو التّلفّظ بما في ذلك من غايات تواصليّة في مقام مخصوص من متكلّم ومخاطب مخصوصين، يكون تجذّره بأدوات تتعلّق بوجهة الجملة إخبارا واستخبارا وما إليهما. يُجذّر الحدث من زاوية وجهيّة فيكون توجيه القول إخبارا أو استخبارا أو أمرا. وجميعها مظاهر للوظائف التّواصليّة من الإثبات والتّقرير أو الاستفهام أو الطّلب أو الأمر.

وإجمال ذلك مخطّط تواصليّ عامّ يندرج فيه سعي المتكلّم إلى أن يؤخذ كلامه على أنّه إثبات أو سؤال أو طلب وأمر بما للواحد منها من تفاصيل ودرجات، كما يعبّر عمّا يعتقده في شأن علاقة قوله بالكون من حيث يكون معتقدا مطابقته للواقع أو غير معتقد لذلك، فيعبّر عمّا يراه من العلاقات ما بين الأحداث أو الأشياء الواردة مضمونا لقوله، وعن الأحداث من حيث انقضاؤها أو عدم انقضائها ومن حيث استمرارها أو انقطاعها.

التّجذّر الإبستيميّ في الخطاب

تجذّر الخطاب في الثّقافة

يمكن الانطلاق من النّصّ (3) في بيان مظاهر التّجذّر الإبستيميّ عامّة وفي تجذّر الخطاب في إطار ثقافيّ مخصوص وفيه يكون فهم الإحالة في الخطاب الحاضر على الخطاب الغائب وما بينهما يكمّله الإطار :

(3)

قال ابن المبارك بن أحمد :

خرجت راجلا على سبيل الفرجة فقعدت على الجسر،
فأقبلت امرأة من جانب الرّصافة متوجّهة إلى الجانب الغربيّ
فاستقبلها شابّ.
فقال لها : رحم اللّه عليّ بن الجهم.
فقالت المرأة في الحال : رحم اللّه أبا العلاء المعرّي.
وما وقفا ومرّا مغرّبة ومشرّقا فتبعتُ المرأة
وقلت لها : إن لم تقولي ما قلتما وإلاّ فضحتك وتعلّقت بك.
فقالت : قال لي الشّابّ رحم اللّه عليّ بن الجهم أراد به قوله :
"عيون المها ما بين الرّصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري."
وأردت أنا بترحّمي على المعرّي قوله :
"فيادارها بالحَزن مزارها قريب ولكن دون ذاك أهوال."
ابن الجوزي : كتاب الأذكياء
دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 223.

قوام التّجذّر الإبستيميّ كما عرضنا أن يرتبط كلّ مفهوم يتضمّنه النّصّ بأرضيّة معرفيّة بتوسّط أدوات يكون بها ذلك التّجذير. وفي الخطاب تبنى الأرضيّة على تدرّج تتراكم فيها المعطيات لإقامة عالم كامل منسجم العناصر يشملها تمثيل موحّد : الأرضيّة تتضمّن الإطار مكانا وزمانا، والمشاركين بما للواحد منها من صفات ومعارف وتتضمّن الأحداث بما فيها من العلاقات المتبدّلة. فالأرضيّة بهذا التّصوّر متبدّلة متغيّرة وهي متنامية بأن تكتمل عناصرها على تدرّج في الخطاب.

فالمنطلق كان من جملة عناصر مشاركة في أحداث في إطار مكانيّ تتجلّى معالمه شيئا فشيئا وهي بدورها متجذّرة في معرفة السّامع بالعالم. ولذلك تتضمّن الجملة أو الجمل الأولى عناصر يكون عليها تأسيس عالم الخطاب. ووضوح هذا الأمر مغن لنا عن التّفاصيل، لذلك نجمل القول فيه في الجدول (4)، فقد كانت الجمل الثّلاث الأولى بمثابة الأسس في تأسيس عالم الخبر تكتمل باكتمالها الأرضيّة:

فيكون الحاصل قيام المكان إطارا منحصرا في الجسر، معرفة تزداد تدقيقا بمعالم المدينة المحيطة به وهي أعلام من قبيل الرّصافة (ببغداد) والجانب الغربيّ من النّهر من بغداد. وإذ يكتمل ذلك يكون المكان قد تجذّر في معرفة السّامع/القارئ بالعالم. وأمّا الزّمان فهو ماض بالقياس إلى زمن الرّواية. والمشاركون واحد معرفة لأنّه مجذّر في المقام المباشر علما على شخص يعرفه السّامع من المفروض (ابن المبارك)، واثنان نكرتان إذ لا أثر لهما في الأرضيّة المعرفيّة، فهما يمثّلان معلما أوّليّا تتأسّس عليه الشّخصيّات المشاركة.

(4)

مكان	زمان	أشخاص	أحداث	الجملة /الأدوات (من النّصّ)
٥	ماض	الرّاوي	خروج	خرجت راجلا على سبيل الفرجة
الجسر	ماض	الرّاوي	قعود	فقعدت على الجسر
من: الرّصافة إلى: الجانب الغربيّ	ماض تزامن	امرأة	إقبال توجّه	فأقبلت امرأة من جانب الرّصافة متوجّهة إلى الجانب الغربيّ
الجسر من: الجانب الغربيّ إلى: الرّصافة	ماض ماض تزامن	شابّ	استقبال إقبال توجّه	فاستقبلها شابّ (اتّجاه الشّابّ عكس اتّجاه الفتاة)
الجسر بين الرّصافة والجانب الغربيّ من بغداد	الماضي المرتّب حسب ترتّب الأحداث	1-الرّاوي 2- امرأة 3- شابّ	خروج فقعود فإقبال فاستقبال	حروف الجرّ ترتّب المكان حروف الاستئناف ترتّب الأحداث مركّبات حاليّة تعبّر عن التّزامن المشاركون : معرفة ونكرتان. دلالة معجميّة اشتقاقيّة

ويتضمّن المقطع الثّاني محاورة يتبادل فيها الشّابّ والفتاة قولين وجيزين مضمونهما التّرحّم عملا لغويّا متعلّقا بعلمين (ابن الجهم، المعرّي) لا إشكال في تجذّرهما بحكم المعرفة بهما عند ذوي الثّقافة الأدبيّة العربيّة. ولكنّه تجذّر ظاهريّ إذ لا يفي بمضمون مخفيّ غير مصرّح به، ولا صلة بين العلَمين المذكورين من جهة والمقام أشخاصا ومكانا وزمانا : كان العلمان متجذّرين في معرفة الفتاة والشّابّ ولذلك تفاهما، وما كانا كذلك في معرفة المشارك المشاهد أو الرّاوي، فلم يفهم شيئا :

(5)

مكان	زمان	أشخاص	أحداث	الجملة /الأدوات (من النّصّ)
الجسر	ماض	شابّ	دعاء ترحّم	فقال لها : رحم اللّه عليّ بن الجهم.
الجسر	الماضي	الفتاة	دعاء ترحّم	فقالت المرأة في الحال : رحم اللّه أبا العلاء المعرّي.
الجسر	الماضي	حوار سريع (في الحال)	لا علاقة بين العلمين (ابن الجهم، المعرّي) والإطار المكانيّ، فلا تجذّر لهما في معرفة السّامع فلا فهم. وإن كان ذلك غير وارد عند طرفي المحاورة. ولذلك مثّلت المحاورة شفرة أو لغزا عند السّامع المشاهد.	

وعدم التّجذّر إبستيميّا في العلمين قوامه عدم الاهتداء في ذهن السّامع إلى القول المسكوت عنه، فالاسم العلم مفتاح الاهتداء[327] إلى مجال معرفيّ كامل يشترك فيه أهل الثّقافة العربيّة من معلومات أو خصائص تهمّ الشّخصين الشّاعرين، ولكنّ هذا الاهتداء في هذه الحال غير كاف إذ لم يتحدّد فيه المضمون الدّقيق المقترن به.

ويكتمل الاهتداء باكتمال التّجذير الإبستيميّ في نهاية الخبر حيث يجري نوع من التّفسير أو الشّرح، يكون فيه فكّ ما كان ملغزا في المقطع السّابق، فيقترن الاسم العلم الواحد ببيت واحد من شعره دون سائره.

[327] Access.

وإذ يكون ذلك يجد القارئ صلة كانت منقطعة بين العلم الأوّل (ابن الجهم) والإطار المكانيّ الفوريّ المباشر(الجسر) بحكم ما تضمّنه البيت من تسمية للرّصافة وللجسر. وهو كشف عن تجذير آخر في ذهن الشّابّ يرى الفتاة حسناء، مارّة على الجسر، قادمة من الرّصافة فينقدح في ذهنه بيت ابن الجهم، فيسكت عن البيت ويكتفي بذكر صاحبه معوّلا على تضاريس المكان وحال الأشياء زمن القول وهي وجود الفتاة فوق الجسر، وإذا الفتاة ممثّلة بالمها.

وفي هذا المستوى يكون التّجذير العامّ أي فهم الخبر كاملا عند السّامع فيستوي فيه بالشّابّ وبالفتاة ويستوي فيه بالرّاوي وقد فهم. وجميع ذلك مسكوت عنه في نصّ الخبر إذ هو من العمليّات العرفنيّة الاستدلاليّة الّتي بها يكتمل الفهم، وما الفهم إلاّ اهتداء إلى العناصر المكوّنة لمضمون معرفيّ ينشط عند السّماع، سماع العلامة اللّغويّة بصرف النّظر عن طولها أو قصرها، شمولها للمضمون أو اجتزائها له (انظر الجدول (6)):

يتّفق المشاركون جميعا في العمليّات الأساسيّة في إدراك المحيط مكانا وزمانا وأشخاصا بما فيها الجسر، وفي سماع الأقوال، ولكنّهم يختلفون في العمليّات الذّهنيّة من حيث الإنشاط للمفاهيم المقترن بالمنبّهات البصريّة وفي تجذير الأقوال بالاستتباع : الشّاب يدرك إبصارا جسر الرّصافة، والفتاة الحسناء تستقبله فينشط في ذهنه إطار معرفيّ كامل منتظم-منضّد هو أشعار، منسوبة إلى عليّ بن الجهم، منها بيت شعر مفرد يتضمّن الإحالة على ذلك المحيط جسرا وامرأة موصوفة بعيون المها. فيتلفّظ باسم صاحب البيت، أمّا الفتاة فتسمع اسم صاحب البيت فينشط الإطار المعرفيّ نفسه كائنا عند الشّابّ فيتجذّر القول ويكون الفهم بأن يأخذ الجسر شكل الجسر المادّيّ الواقعيّ وعيون المها صورتها هي، وتفهم أنّها معنيّة بذلك البيت، وتفهم استدلالا أنّه يريدها، وهذا من عمل الذّهن، ثمّ ينشأ القصد منها إلى الجواب المناسب لما سمعت منغرسا في مقامه نافية إيّاه عن عزمه، فينشط عندها إطار معرفيّ كامل منتظم منضّد هو أشعار، منسوبة إلى أبي العلاء المعرّي، منها بيت شعر مفرد يتضمّن الإحالة على ما يريده الشّابّ منه جاعلا إيّاه

(6)

الشّاب		الفتاة		الرّاوي	
عمليّات	أقوال	عمليّات	أقوال	عمليّات	أقوال
إبصار : جسر الرّصافة، الفتاة	–	إبصار : جسر الرّصافة، الشّاب	–	إبصار : جسر الرّصافة، الفتاة، الشاب	–
إنشاط : ابن الجـــهم، الشّعر ، البيت	–	–	–	–	–
تلفظ	رحم الله علي بن الجهم	سماع	–	سماع	–
–	–	تجذّر واهتداء: بيت الشّعر	–	لا تجذير ولا اهتداء	–
–	–	إنشاط : المعرّي،الشّعر ، بيت الشّعر	–	–	–
سماع	–	تلفّظ	رحم الله أبا العلاء المعرّي	سماع	–
تجذّر واهتداء : بيت الشّعر	–	–	–	لا تجذير ولا اهتداء	–
–	–	سماع	–	التّهديد والسّؤال	–
–	–	عيون المها ما بين الرّصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري.			
–	فيادارها بالحزن مزارها قريب ولكن دون ذاك أهوال.				

بعيد المنال، فيكون منها عمل التّلفّظ باسم المعرّي دون البيت، وفي سماعه يستوي الشّابّ والرّاوي، لكن يفهمه الأوّل ولا يكنهه الثّاني، بأن ينشط الإطار المعرفيّ نفسه كائنا عند الفتاة فيتجذّر القول ويكون الفهم منه، ولا يحدث شيء من ذلك عند الرّاوي. ويكتمل الأمر والتّجذّر الكامل في النّهاية على لسان الفتاة وقد نجت مرّتين أولاهما من مغازلة الشّابّ وثانيتهما من تشهير الرّاوي بها وقد هدّدها.

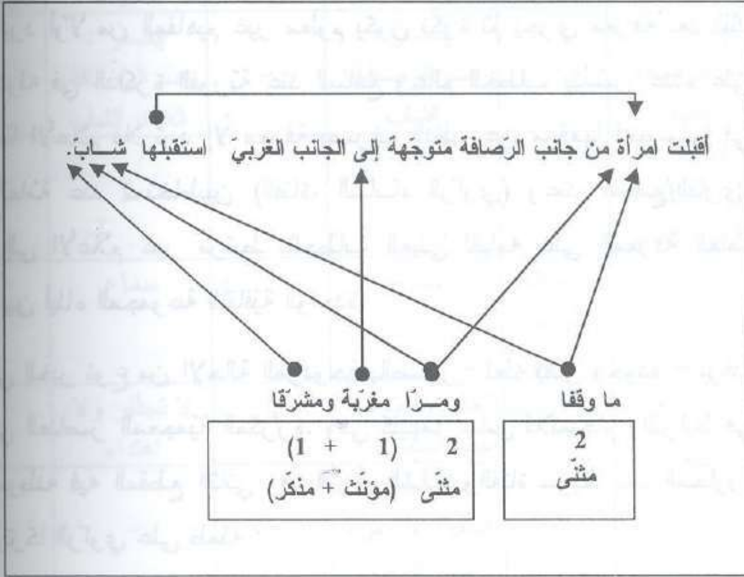
ومن مظاهر التّجذّر الإبستيميّ في الخبر وأدواته اشتغال الضّمائر وأسماء الإشارة وما إليها نوجز الأمر فيها لوضوحها :

ما يرد أوّلا من المفاهيم غير معلوم يكون نكرة ثمّ يجري معرفة بعد ذلك بحكم حصوله في الذّاكرة الفوريّة عند السّامع وعالم الخطاب يتأسّس عنده على تدرّج. وأمّا الأعلام فلا ترد إلاّ معرفة بصرف النّظر عن موقعها لحصولها في المعرفة العامّة عند المتخاطبين (الفتاة، الشّابّ، الرّاوي) وعند السّامع/القارئ. فالاهتداء إلى الأعلام غير مرتبط بالخطاب العينيّ لقيامه على المعرفة العامّة المشتركة بين أبناء المجموعة الثّقافيّة الواحدة.

وفي الخبر نوع من الإحالة المزدوجة بالضّمير - لعلّه يندر وجوده - يرفده ازدواج في العناصر المعجميّة المكرّرة. وفي كليهما أساس للانسجام والتّرابط في الخبر، وموطنه فيه المقطع الثّاني وقد افترق الشّاب والفتاة سريعا بعد المحاورة الخاطفة وتركا الرّاوي على ظمئه :

فإذا ما قسّمنا الخبر إلى جملة من الأفضية الذّهنيّة بنت الجملة الواحدة واحدا منها، فيكون فضاء الإقبال متضمّنا لفتاة تتنقّل في المكان من جانب الرّصافة (من الشّرق) إلى الجانب الغربيّ من النّهر(إلى الغرب)، ويكون فضاء الاستقبال متضمّنا لشابّ يسير في الاتّجاه المقابل ويتضمّن ذلك سيرا من الغرب إلى الشّرق، وبعد المحاورة، وهي أفضية بدورها، يجتمع ما ورد متفرّقا في الفضاءين السّابقين (الإقبال والاستقبال)، في فضاء عدم التّوقّف والمرور كائنا من الفتاة والشّابّ على الجسر، وهو اجتماع في الإحالة بالضّمير (هما) في الفعلين (ما وقفا، مرّا)، سرعان ما ينفكّ في الجملة نفسها في ما يعبّر عن الاتّجاه الّذي يأخذه كلّ من الفتاة مغرّبة والشّابّ مشرّقا:

(7)



خاتمة

يمثّل التّجذّر الإبستيميّ أساسا يقوم عليه الفهم والإفهام، وقوامه أن يرتبط المضمون العرفنيّ في الخطاب بأرضيّة معرفيّة فرديّة كانت أو جماعيّة، مشتركة بين المتخاطبين أو مخصوصة بالواحد منهما، وذلك بتوسّط أدوات يكون بها ذلك التّجذير. ويشمل التّجذير الإبستيميّ الأشياء والأحداث وأحوال الاعتقاد المتعلّقة بمضمون القول، وما إليها من المضامين.

ومن أبرز أدوات التّجذّر الإبستيميّ في الخطاب، الضّمائر وأسماء الإشارة والظّروف بأنواعها وأدوات التّعيين تعريفا وتنكيرا وتصاريف الفعل المظهريّة والزّمانيّة، وما إليها.

وإذ تبنى الأرضيّة في الخطاب على تدرّج تتراكم فيه المعطيات شيئا فشيئا لإقامة عالم متكامل منسجم العناصر ينشأ لها تمثيل موحّد، كان التّجذّر الإبستيميّ متدرّجا.

خاتمة الباب

قرّرنا في ما مضى من هذا الباب عددا من النّتائج أهمّها:

-اشتغال الدّماغ في محيطه البيولوجيّ عضوا من الجسد والجسد في محيطه المادّي عنصرا من العالم والمجتمع والبيئة.

-المحيط يؤخذ في معناه الواسع من حيث مثّل سياقا أو مقاما أو ظروفا يجتمع فيها البيولوجيّ والاجتماعيّ والثّقافيّ والتّاريخيّ والمادّيّ الفيزيائيّ، وفيه تتموضع العرفنة.

- أساس التّموضع أنّ الذّهن ليس مجرّد نظام ينعكس فيه الواقع والأشياء وإنّما هو نظام مؤوّل يبني المعنى بناء ويعطي للأشياء معنى من حيث ينضّدها ويبوّبها ويتمثّلها ويقيم تمثيلات لها يستحضرها في غيابها.

- العرفنة متموضعة من حيث كانت نظاما حادثا في التّاريخ متجذّرة في بيئة الكائن المعرفن لا نظاما منغلقا في الصّندوق الجمجميّ.

- تمثّل الحواسّ مجسّات تمكّن الذّهن من تحيين كلّ تمثيل يكون للواقع وللمحيط. يتحقّق هذا التّحيين باعتماد آليّات توقيت تتشكّل في لحظات إدراكيّة تشمل جميع المستويات في المعالجة العصبيّة.

- تمثّل الخارطة الذّهنيّة الفضائيّة المكانيّة والزّمانيّة آليّة ذهنيّة وظيفتها تمثيل المكان وتنضيده في الذّهن بشكل يمكّن الذّات من تلبية حاجات العيش والتّجول فيه.

- تتظافر جملة من الموارد الحسّيّة في تكوين الخارطة ومنها الموارد اللّغويّة: نموذج ذلك، الخطاب التّرجذاتيّ (طه حسين) حيث تتظافر الموارد الحسّيّة لتستكمل تمثيل الفضاء والزّمان في غياب واحد من أهمّها (البصر). فالمهمّ ليس في اكتمال الحواسّ وإنّما في اكتمال التّمثيل الذّهنيّ واستقامته أداة للعيش والسّلوك والتّفاعل.

- التّجذّر الإبستيميّ في الخطاب ذو أبعاد مختلفة تتضمّن ما كان محيطا بأطراف التّخاطب وما كان أطرا ثقافيّة عامّة مشتركة غير ذات حضور ضروريّ في المحيط الفوريّ المباشر.

- تتجذّر الأشياء والأحداث والعلاقات ما بين الأشياء في العالم تجذّرا إبستيميّا أساسه موضعة الوحدات المكوّنة للمضامين العرفنيّة في إطار شبكة باعتماد معلمين أساسيّين هما طرفا التّخاطب.

الباب الرّابع

آليّات بناء النّصّ

مقدّمة الباب

يمثّل إنتاج الخطاب وفهمه مظهرين لعمليّة واحدة وإن اختلفا في الحدوث من حيث تبادل الأدوار التّخاطبيّة ما بين المتكلّم (الكاتب) والسّامع (القارئ). ومن المتصوّر نظريّا جريانهما على أساس التّناظر ما بين الطّرفين وذاك مفتاح التّفاهم والتّواصل، أو بعبارة أخرى تتناظر المضامين في ذهنيهما أو تتقارب ضمانا للحدّ الأدنى والضّروريّ من التّفاهم.

وقوام هذا التّفاهم مسلّمات عند الطّرفين أساسها أنّ المتكلّم يتصوّر أنّه يبني خطابا منسجما متناسقا وأنّ سامعه يفهمه لذلك ويتمثّله منسجما متناسقا، وكذا السّامع يفترض ماقبليّا أنّ المتكلّم (كاتبا كان أو محاورا أو قارئ نشرات الأخبار وما إلى ذلك) يبني خطابا منسجما متناسقا، هذا في المطلق وإن حدثت عوارض يكون حلّها بإستراتيجيّات هي في الأغلب كائنة في ذهن السّامع المحلّل الفاهم باعتماد ما يتوفّر في الخطاب من أدوات ومفاتيح عليها يقوم الحلّ إمّا بالاستنتاج أو بالقياس أو باستكمال النّاقص من مصادر سياقيّة مقاميّة متنوّعة (فوس وسْبير 1991)[328].

وممّا ثبت في الأبحاث النّفسيّة المهتمّة بفهم الخطاب أنّ الفهم أساسه المعالجة المرحليّة[329] (كينتش 1993، 1994)[330]، وقوامها أنّ القارئ/السّامع يفهم الجملة الجديدة في النّصّ على أساس العناصر الّتي يوفّرها السّياق الّذي ترد فيه وخاصّة في ما سبقها من الجمل، وأنّ الذّاكرة تهمل التّفاصيل الواردة فيها ولا تحفظ منها إلاّ الأساسيّ الوظيفيّ أي ما يعين على فهم الجمل اللاّحقة في مستوى أوّل وعلى ضمان الانسجام والتّوافق في النّصّ في مستوى ثان.

وفي العموم تمثّل عمليّة الفهم بناء لمناويل ذهنيّة[331] (عوالم الخطاب) في إطارها يكون تمثيل المضامين الواردة فيه تمثيلا ذهنيّا منسجما متّسقا. من أمثلة

---

[328] Foss and Speer (1991).
[329] Processing cycle(s), cycle(s) de traitement.
[330] Kintsch, Walter.
[331] Mental model(s).

ذلك أن يقيم السّامع منوالا ذهنيّا فيه تمثيل لمكان أو لشيء أو لمشهد من المشاهد باعتماد خطاب يسمعه من شخص آخر وهو لا يرى ما يراه المتكلّم، كأن يكون الشّخص- مثلا في قصّة أو شريط سينمائيّ- محبوسا في غرفة ولا يعرف موقعها من البناية ولا من الحيّ ولا من المدينة وعنده من النّافذة بعض المعطيات تصله إبصارا و/أو سماعا يبني عليها باعتماد العبارة اللّغويّة جملة من المقاطع الخطابيّة ويهاتف شخصا آخر- من المفترض أنّه منقذه. وهو ما باعتماده يقيم هذا الشّخص السّامع منوالا ذهنيّا يتضمّن تمثيلا للمكان الّذي يُحبَس فيه مخاطبه باعتماد عدد من العناصر يوفّرها الخطاب وتكمّلها معرفته بالمدينة أو بالحيّ. وفي الأغلب يكون الانطلاق من دليل جزئيّ (لافتة إشهار على بناية مرتفعة أو لون القطارات المارّة من المكان وما إلى ذلك من الدّلائل أو القرائن الجزئيّة) يتضمّنه خطاب المحبوس وتكمّله معرفة المخاطَب بالتّخطيط العامّ في المدينة في مظاهره المفيدة. وهذا ما يؤدّي إلى إقامة منوال ذهنيّ في موقع المحبوس مصدره الخطاب بصرف النّظر عن مطابقته للواقع ونجاح عمليّة الإنقاذ أو فكّ الأسر أو عن عدم مطابقته للواقع وفشل عمليّة الإنقاذ.

وتتمثّل أهمّ الإستراتيجيّات العاملة، في فهم الخطاب، في الاستدلال[332] القائم على اشتغال الخطاطات الذّهنيّة. وعماد ذلك المعارف العامّة وعناصر السّياق أو المقام. وتشتغل آليّة الاستدلال، بما تتضمّن من عمليّات "منطقيّة"، عندما تنشط في الذّهن المعلومات الّتي لم يرد ذكرها صريحة في الخطاب، فتُستدعى أو تُستحضر من المعارف العامّة منتظمةً في خطاطات أو مناويل مشابهة لما يقوم منها في الخطاب موضوع الفهم أو التّحليل (فان دان بروك 1994)[333].

والعمليّات الاستدلاليّة بنائيّة[334] في طبيعتها من حيث كانت ناشئة متدرّجا بعضها من بعض وذلك بالرّبط ما بين مقاطع الخطاب ومفاصله وإن تباعدت في الزّمان أو في فضاء النّصّ شفويّا كان أو مكتوبا. وقد يحدث أن يبني المتقبّل (قارئا كان أو سامعا مشاهدا) عددا من المناويل الذّهنيّة متوازية متبارية ينجح بعضها ويثبت فيرسخ وينتفي سائرها باعتماد ما به تترسّخ المعطيات في ضوء ما يتوفّر منها في الخطاب نوعا وكمّا وتواترا.

---

[332] Inference(s).
[333] van Den Broek (1994).
[334] Constructive.

الفصل الأوّل

الأفضية الذّهنيّة في النّصّ

مقدّمة

مدار هذا الفصل على الأفضية الذّهنيّة في الخطاب من حيث تكوّنها وانتظامها وتنضيدها وترابطها بوجه يستوي له النّصّ مضمونا عرفنيّا متناسقا وما يتأسّس عليه جميع ذلك من عمليّات ذهنيّة منطقيّة. وعماد ذلك جميعا مصدران نفسيّ عرفنيّ ولسانيّ دلاليّ عرفنيّ (نظريّة الأفضية الذّهنيّة)، نمهّد بالأوّل على أن نعتمد الثّاني إطارا نقيم فيه تحليل بعض النّماذج من الخطاب في العربيّة بعضها من جنس الخبر الأدبيّ (خبر الأصمعيّ والرّشيد) وبعضها من النّصوص العلميّة النّظريّة (الإنسان مدنيّ بالطّبع لابن خلدون)، سعيا منّا إلى بيان ما به يكون بناء الأفضية الذّهنيّة في الخطاب مطلقا وإن اختلفت المضامين المعرفيّة، وسبيلا إلى تأسيس نهج في درس الخطاب والنّصّ لا يفرّق في التّناول ما بين أنواع الخطاب على أساس الحقل المعرفيّ أو العلميّ. فالخطاب جنس جامع وإن اختلفت تصنيفاته من زوايا متعدّدة وتحقّقاته متشابهة لأنّها محتكمة إلى مبادئ وآليّات عرفنيّة أساسيّة واحدة تحكم العرفنة البشريّة.

الأفضية الذّهنيّة : معالم نظريّة

من القضايا المطروحة في المباحث اللّسانيّة العرفنيّة ما به يكون الانتظام المفهوميّ الكامن في بناء المعنى باللّغة جارية في الخطاب بوجه يتمكّن به المتخاطبون من تمثّل المحاورات والنّصوص في حركيّتها، وذاك هو المظهر الأساسيّ الّذي به تتحقّق الغايات التّواصليّة بما تتضمّنه من تفاعل ذي أطراف متعدّدة يكون به الفعل والانفعال. وهو ما يمثّل برنامج البحث في انتظام العرفنة والخطاب في نظريّة الأفضية الذّهنيّة (فوكونياي 1994، 1996؛ فوكونياي وسويتسر 1996)[8].

---

[8] Fauconnier (1994,1996); Fauconnier and Sweetser (1996).

وإذ كانت اللّغة واحدا من تجلّيات الانتظام العرفنيّ كان من الطّبيعيّ أن تعكس بنيتها بنية الفضاء الذّهنيّ، وكان من الطّبيعيّ كذلك، أن توفّر في النّحو جملة من الأدوات يهتدي بها المتخاطبون إلى تبيّن مظاهر ذلك الانتظام. وهذه الأدوات في العموم قسمان: أدوات بها يكون بناء الأفضية وأخرى تترابط بها الأفضية في الخطاب ترابطها في الذّهن. وقوام ذلك جميعا مبدأ الاهتداء[9] كما يبين بعد هذا.

الفضاء الذّهنيّ

الفضاء الذّهنيّ هو جملة العناصر والمعلومات المنظّمة المتعلّقة بها. تشمل العناصر جميع المفاهيم ما تعلّق منها بالمعتقدات والأفكار والأحاسيس والمشاعر وما تعلّق منها بالأشياء في الكون. فهو بنية عرفنيّة تُبنى فيها المجالات وتنتظم وتترابط بأنواع من التّرابطات ما بين المجالات.

وقد يطابق الفضاء الذّهنيّ مطابقة كلّيّة أو جزئيّة حالَ الأشياء في الكون. فيكون التّطابق بين واحد من عناصره وواحد من الأشياء في الواقع، كما يكون بين خصائص ذلك العنصر في الفضاء الذّهنيّ وخصائص ذلك الشّيء في الواقع. وذلك من قبيل نقل إذاعيّ مباشر لمقابلة في كرة القدم تنشأ فيه أفضية ذهنيّة هي أحوال للأشياء (اللاّعبون، الكرة، الحكم، الوضع على الميدان، إلخ.) مطابقة للواقع المنقول وهي ما يتمثّله المستمع دون أن يكون مشاهدا لما يبنيه في ذهنه من مشاهد هي أفضية ذهنيّة مطابقة لما في ذهن المذيع النّاقل من الأفضية وهي مطابقة للواقع الّذي تصوّره، نوعا من المطابقة.

كما يمثّل الفضاء الذّهنيّ عالما متخيّلا قائما على منطق ما، ليس من الضروريّ أن يخضع فيه للتّقييم العقليّ المنطقيّ المعهود. وذلك من قبيل القصص والخرافات والخيال العلميّ والأشعار تنشأ فيها أفضية ذهنيّة من قبيل آخر قد لا تكون ذات صلة بالواقع أو حال الأشياء في الكون والتّجربة، فالحكاية من ألف ليلة وليلة تقيم جملة من العوالم هي أفضية ذهنيّة قائمة بذاتها في الذّهن تتأسّس بها الحكاية مضمونا عرفنيّا متماسكا متناسقا منتظما.

[9] Access, Access Principle.

وبناء على ذلك تنشأ الأفضية الذّهنيّة في جميع الأنشطة الرّمزيّة بما في ذلك الأنشطة اللّغويّة الخطابيّة. فالمتكلّم ينشئ ما لا نهاية له من الأفضية الذّهنيّة في جميع الأقوال بجميع أصنافها موضوعا وبجميع أطوالها كمّيّا، وبجميع قيمها عملا لغويّا إخبارا أو استخبارا وإنشاءً، وذلك من قبيل المحادثات والقصص والخرافات والشّعر والرّواية والمسرح ونشرات الأخبار ونشرات الأحوال الجوّيّة ودروس الرّياضيّات ونبوءات الحظّ وما إلى ذلك. وكذا الكاتب والرّسّام في اللّوحات أو الصّور المتحرّكة أو الأشرطة المصوّرة وما إليها. جميع ذلك تنشأ به الأفضية الذّهنيّة وتتعدّد وتتناسل بشكل آن-قوليّ أي زمن القول والكلام والكتابة أو السّماع والقراءة.

بناء الأفضية الذّهنيّة: الآليّة والأدوات

إذا تصوّرنا الأفضية الذّهنيّة بناية معماريّة عالية يكون لها أساس فطوابق يقوم اللاّحق منها على سابقه عمادا وينضاف إليه، يكون في الخطاب أفضية أساس وأخرى منضافة إليه قائمة عليه، ويكون فيها جميعا آليّة بناء مخصوصة وأدوات بناء.

يطلق على الأدوات بناة الأفضية[10]، وهي آليّات يستعملها المتكلّم ليجرّ سامعه إلى تأسيس فضاء ذهنيّ جديد. هي العبارات المتحقّقة في الخطاب (مركّبات أو وحدات نحويّة) تؤسّس فضاء ابنا لفضاء أساس يترابطان بوجه من الوجوه، كما يأتي بيانه. ولا تحمل هذه الأدواتُ بناةُ الأفضية في ذاتها معلومات عن الفضاء الجديد. وهي، في اللّغات، شتات من الأسماء والصّفات والظّروف والحروف وكلّ ما يعبّر عن الزّمان والمكان وغيرهما من الأطر الافتراضيّة.

وتشتغل بناة الأفضية في جميع مفاصل الخطاب فإذا ما كانت في بدايته أسّست فضاء ذهنيّا أساسا وإذا ما وردت في غضون الخطاب أسّست فضاء جديدا

---

[10] Space builder(s).

ينضاف إلى سابقيه. ودورها في جميع تلك المواطن واحد هو الإشارة إلى نشأة فضاء جديد. ولا يعني هذا أنّ وجود الأدوات بناة الأفضية ضروريّ لقيام الفضاء الواحد وإنّما قد ينشأ الفضاء ويتأسّس بأدوات غير لغويّة من قبيل الهيأة أو النّصبة أو عناصر المقام وما إليها.

ومن بناة الأفضية الذّهنيّة ما يُعتبر أطرا لحدث القول أو الكتابة، وهي عبارات تبني عند السّامع، بفعل التّعوّد، تطلّعا إلى نوع مخصوص من الإطار تجري فيه الأحداث وتتموضع فيه الأشياء. وذلك من قبيل الخرافات والمحاضرات والخطب الدّينيّة والمحاورات والمرافعات والمقال الصّحفيّ والرّيبورتاج (النّقل المباشر) والتّقرير والنّشرات الجويّة والأخبار والنّوادر والمقامات وما إلى ذلك.

ومن الأدوات بناة الأفضية البسملة وما إليها من فواتح الخطب وأسماء الإشارة إلى المكان من قبيل "هنا لندن، ومنها يحدّثكم فلان" في المراسلات الإعلاميّة و"كان يا ما كان في قديم الزّمان" أو "يحكى أنّ" أو "زعموا أنّ" أو "يحكيوا على... في قديم الزّمان" وما إليها في الخرافات أو الأمثال. ومنها سلسلة الإسناد في الأخبار، وغير ذلك كثير.

ومن الأدوات الّتي تبنى بها الأفضية الممكنة ما يعبّر عن الإمكان كالتّمنّي والتّوقّع والالتماس وما إليها وعن الشّرط وما يلابسه من الظّرف، وذلك من قبيل حروف الشّرط ((إن) و(لو)) تبني فضاء ذهنيّا يكون فيه مضمون العبارة بعدها قائما وإن افتراضيّا.

ترابط الأفضية الذّهنيّة

وظيفة الرّوابط الوصل ما بين المجالات والأفضية. وتضمن الرّوابط استمرار الإحالة على نمط واحد مستقيم خلال الخطاب وتضمن خاصّة توزّع المعلومات بشكل يحقّق الفهم وذلك بأن يقترن كلّ عنصر بكلّ ما له من نظائر في المجالات المختلفة بما له من الخصائص والأطر. وتتجلّى حركيّة بناء الفضاء الذّهنيّ وديناميّة الرّبط بين الأفضية في درج الكلام أي أنّ الواحد منّا يتكلّم ويفكّر

في آن، وباسترساله في الخطاب تنبني الأفضية الذّهنيّة وتنتظم وتترابط في ضوء القيود النّحويّة والسّياقيّة المقاميّة والثّقافيّة. فيكون الحاصل أن تنشأ شبكة من الأفضية نجول في ما بينها بتقدّمنا في الخطاب. وتتعدّد وجوه الانتقال من فضاء إلى آخر. يكون ذلك بأن يحفظ أطراف الخطاب أثرا لكلّ فضاء من الأفضية المتعدّدة بترابطاته المتشعّبة، ويتوفّر في النّحو ما به يكون ذلك من قبيل الزّمان والجهات وبناة الأفضية والمضمرات وأسماء الإشارة، وغير ذلك من العوامل العرفنيّة.

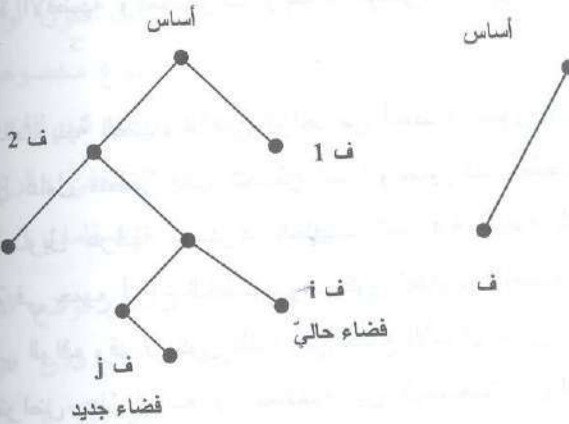
ولئن كانت بنية الفضاء الذّهنيّ الواحد من أبسط ما يكون لأنّها بنية جزئيّة لا تتضمّن أيّ عامل منطقيّ فإنّها تتضمّن أطرا وتصوّرات خطاطيّة. فعناصرها مندرجة في مناويل عرفنيّة مصدرها الخلفيّات المعرفيّة العامّة الّتي تشتغل في مظهرها العامّ في جميع أنواع الخطاب. وقد يكون لعناصر الفضاء الذّهنيّ مراجع مخصوصة في الواقع وقد لا يكون ذلك، وفي جميع الأحوال تقترن الأفضية بالكون بناء على افتراض عامّ أساسه أنّ المطابقة بين الوضعيّات 'الواقعيّة' والأفضية الذّهنيّة القائمة في الخطاب يمكن أن تجريَ بوجوه آليّة عند بني البشر.

تكاثر الأفضية

تتكاثر الأفضية بأن يتولّد كلّ فضاءٍ من فضاء آخر يفرّخه، ولذلك يطلق فوكونياي على الوالد – مجازا– "الفضاء الأب " وعلى الفضاء المولود "الفضاء الابن" مجازا. فالفضاء الأب يمثّل الفضاء الأوّل أو الفضاء الأساس، يفرّخ تفريخا أحاديّا أو متعدّدا كما هو الشّأن في الطّبيعة فيكون الحاصل شبكة من الأفضية ذات شكل متعرّش. فإذا ما انطلقنا من فضاء أساس وتولّد منه فضاء أو أكثر في مستوى أوّل أمكن للواحد منهما أن يولّد بدوره فضاء أو أفضية من مستوى ثان (جيل ثان) وهكذا دواليك وأمكننا الجولان نزولا من الأفضية العليا إلى السّفلى وصعودا من هذه إلى تلك، بيان ذلك في التّمثيل (1) حيث حرف ف مختصر لفضاء. ولا يُفهمنَ من تحديد الاتّجاه نزولا أو صعودا أنّ الأمور تسير كذلك في الذّهن وإنّما الأمر

مرتبط بالتّمثيل البصريّ المكتوب على حامل ورقيّ، أمّا الانتظام الذّهنيّ فهو شبكيّ في التّصوّر النّظريّ تترابط فيه المكوّنات وتشتغل على أساس التّوزّع والتّزامن:

(1)



وبترابط الأفضية الذّهنيّة تنشأ عمليّات منطقيّة فكريّة من مستويات عليا وتتحدّد نوعا وتشعّبا في ضوء تلك التّرابطات حيث يتوفّر في كلّ فضاء نظير للعناصر المشتركة بينه وبين سائر الأفضية الّتي يترابط معها في الخطاب وما يصاحب ذلك من ترابط بين الأبنية في مختلف الأفضية. فالعمليّات المنطقيّة من قبيل الاقتضاء والانفصال لا تقوم في الفضاء الواحد وإنّما تناسب التّرابطات بين الأفضية وشروطَ التّطابق بينها.

انتظام الأفضية

تمثّل ديناميّة بناء المعنى والبعد الذّاتيّ في ذلك البناء الأساس في نظريّة الأفضية الذّهنيّة، وهي ديناميّة لا يفي بها التّناول المنطقيّ الشّكليّ إذ يضيق عن استيعاب المظاهر المقترنة بانتظام الأفضية الذّهنيّة بناءً وتناسلا وترابطا. ويختصر فوكونياي الانتظام المفهوميّ الكامن في انبناء المعنى في الخطاب في عدد من

الآليات قوامها أفضية في الخطاب مترابطة يتّخذ الواحد منها منظورا أو بؤرة يُهتدى منه إلى سائر الأفضية خلال الشّبكة وعليه تُبنى سائر الأفضية.

فإذا أخذنا خطابا ما وأخذنا منه نقطة ما وجدنا فضاء واحدا – على الأقلّ- أو أفضية عديدة قد قامت وترابطت عندها. وعند تلك النّقطة بالتّحديد، يمكن أن يجري إفرادُ فضاء ذهنيّ من جملة تلك الأفضية فيُجعلَ منظورا أي يُجعَل ذلك الفضاء منطلقا، منه يمكن الاهتداء[11] إلى سائر الأفضية أو منه تُبنى أفضية جديدة. كما يمكن في أيّ نقطة من الخطاب أن يتّخذ واحد مخصوص من الأفضية (وليس من الضّروريّ أن يكون الفضاء المنظور وإن كان ذلك ممكنا) موطنا للبؤرة[12] أو محلّ التّبئير والعناية[13]. وهذا الفضاء البؤرة هو ما ينضاف إلى بنيته شيء أو عنصر أو خصيصة أو ما يُهتدى إليه انطلاقا من الفضاء المنظور.

ويقوم التّنقّل في شبكة الأفضية الذّهنيّة على الانطلاق من فضاء أساس يوفّر المنظورَ المنطلقَ، ثمّ تحدث الحركة بنقل[14] المنظور والبؤرة من فضاء إلى آخر بالتّوسّل بما يناسب من الرّوابط بين الأفضية. وتترابط الأفضية بأن يُهتدى إلى الواحد منها انطلاقا من الآخر بتوفّر العنصرْ الواحد في الواحد منها وبتوفّر نظير له في الآخر. وبحدوث نقلة الانتباه من الفضاء الواحد إلى الآخر تتعدّد الأفضية الأساس فتتناءى الأفضية في الخطاب فتنقطع سبيل الاهتداء بينها.

مبدأ الاهتداء

يذهب فوكونياي إلى أنّ البنية اللّغويّة تعكس بكلّ دقّة مظاهر العرفنة البشريّة. ومن تجلّيات ذلك قدرة المتكلّم على تسمية الأشياء باعتماد ترابطات عرفنيّة متّصلة بالتّجربة البشريّة تمكّن السّامع من الاهتداء إلى المرجع المقصود، وذلك عوضا عن تسمية الأشياء في ذاتها. وهي ظاهرة محكومة بمبدإ الاهتداء. وتعريفه عند فوكونياي كما يلي:

---

[11] Access.
[12] Focus.
[13] Attention.
[14] Shift.

يمكن للعبارة الواحدة تسمّي وحدة معلومة من مجال ما، أن تجريَ للإحالة على وحدة أخرى من مجال آخر. تسمّى الوحدة الأولى قادحا[15] وتسمّى الثّانية هدفا[16] وعمليّة الإحالة اهتداء[17].

والشّرط في قيام عمليّة الاهتداء أن يكون المجال الثّاني ممّا يمكن الاهتداء إليه عرفنيّا من المجال الأوّل، وأن يكون التّرابط بين القادح والهدف. يتحقّق التّرابط في أداة أو قرينة ظاهرة.

انتظام الأفضية في النّصّ

نعود في هذه الفقرة إلى نصّ كنّا قد عرضنا له في ما مضى من العمل، في توجّه آخر تناولنا فيه مظهرا واحدا منه ونستكمل سائر المظاهر فيه في ما يلي وأساسها انتظام الأفضية فيه:

(2)

حدّثنا دريد عن عبد الرّحمان بن أخي الأصمعيّ عن عمّه قال :

بعث إليّ الرّشيد فدخلت فإذا صبيّة فقال : من هذه الصّبيّة؟ فقلت : لاأدري. قال : هذه مواسة بنت أمير المؤمنين. فدعوت لها وله قال : نعم، فقبّل رأسَها ! فقلت إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني، وإن أنا عصيته قتلني بمعصية. فوضعت كمّي على رأسها وقبّلت كمّي، فقال : واللّه! يا أصمعيّ! لو أخطأتها لقتلتك. أعطوه عشرة آلاف درهم!

ابن الجوزي : كتاب الأذكياء

دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 120.

---

[15] Trigger.
[16] Target.
[17] Access.

الأفضية في النّصّ وتعريشتها

يقوم الخبر على الإسناد بما يتضمّن من سلسلة الرّواة ومقامات الرّواية في الواحد منها، وجميعها مطروح من عنايتنا، لغاية الوضوح في العرض، وإن كانت جميعها أفضية ذهنيّة ولكنّها ليست وظيفيّة في بناء النّص الرّئيسيّ. وفيه جملة من الأفضية كما يلي :

- الفضاء الأساس : (بعث إليّ الرّشيد.)

- فضاء الدّخول : (دخلت.)

- فضاء الصّبيّة : (فإذا صبيّة.)

- فضاء السّؤال : (من هذه الصّبيّة؟)

- فضاء عدم الدّراية : (لا أدري.)

- فضاء مواسة : (هذه مواسة بنت أمير المؤمنين.)

- فضاء الدّعاء : (دعوت لها وله.)

- فضاء الأمر بالتّقبيل : (قبّل رأسها!)

- فضاء الافتراض بــ(إن) يتضمّن فضاءين يتفرّع الواحد منهما بالتّوازي بينهما إلى ثلاثة أفضية مرتّبة :

(أ)- فضاء الطّاعة ففضاء الغيرة ففضاء القتل: ((أطعته) (أدركته الغيرة) (قتلني)).

(ب)- فضاء العصيان فالمعصية فالقتل: ((عصيته) (معصية) (قتلني بمعصية)).

- فضاء وضع الكمّ: (وضعت كمّي على رأسها.)

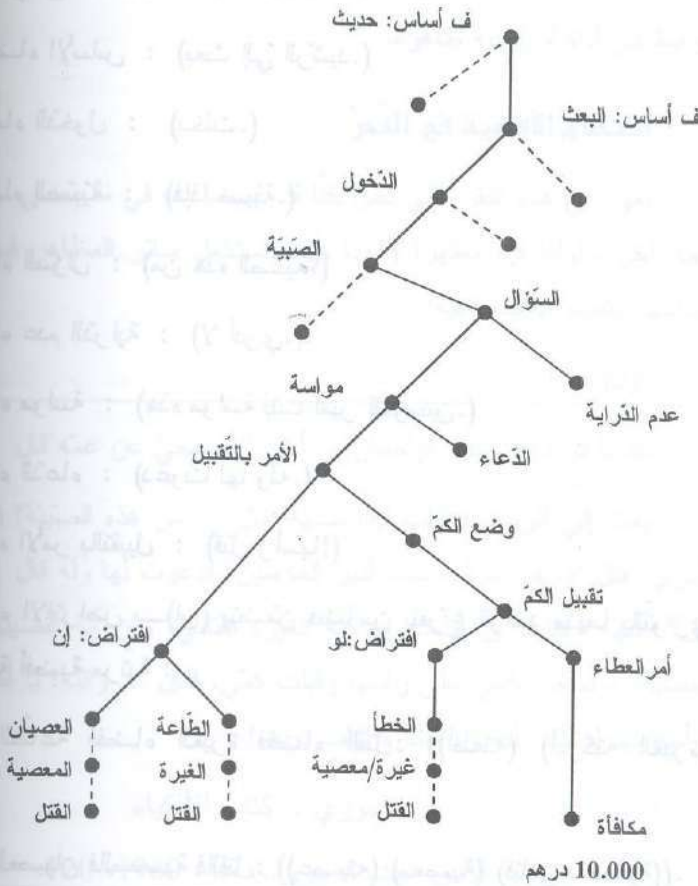
- فضاء تقبيل الكمّ: (قبلت كمّي.)

- فضاء الافتراض بــ (لو) وفيه ثلاثة أفضية: فضاء الخطإ وفضاء الغيرة/المعصية وفضاء القتل : (لو (أخطأتها) (غيرة/معصية) (قتلتك)).

- فضاء المكافأة: (أعطوه عشرة آلاف درهم!).

ونمثّل لتعريشتها في (3) :

(3) تعريشة الأفضية في خبر الأصمعي والرّشيد



الأفضية الذّهنيّة أطر في النّصّ

يمثّل الفضاء الواحد إطارا عرفنيّا واحدا ويمثّل بناء الفضاء الواحد بناء للإطار الواحد. والإطار يمثّل نوعا من الخطاطة المجرّدة تقود عمليّة الإسقاط ما بين الأفضية، يضمّ الإطار الأدوار والقائمين بها:

فالأطر تمثّلات أو تصوّرات منظّمة لوجوه اشتغال الكون، بها نتمكّن من استعمال كلّ ما يتوفّر من معطيات وإجرائها في وجوه عديدة ممكنة تضمن التّفاهم على أساس واضح غير مكلف. فتحيل الوحدة الجارية على معناها – في الخطاب– ونفهم دون عناء ما كان الإطار الّذي تدخل في تكوينه ماثلا في الذّهن.

ولذلك تكون العناصر الفاعلة في تصوّر المجال الجديد –في الخطاب– وتمثّله موروثة من مجال أو مجالات سابقة فيه أو مستمدّة من عالم التّجربة والخلفيّة المعرفيّة. وتبعا لذلك تنشأ في المجال الجديد نظائر لجميع العناصر الّتي كانت في المجالات السّابقة :

ويتضمّن الإطار إضافة إلى الوحدات الّتي تكوّنه، ما يكون لها من أدوار، مفردة كانت أو متعدّدة. وتتحدّد الأدوار في ضوء تأطير[18] التّجربة الفيزيائيّة المادّيّة أو الثّقافيّة الاجتماعيّة : ذلك أنّ الدّور مهما كان نوعه إنّما يوجد في ضوء تصوّرنا لبنية الإطار الّذي تكون فيه الوحدة مشاركة، من ذلك أنّ دور الأبوّة أو البنوّة لا يُتصوّر إلاّ في إطار الأسرة، وكذا الرّئاسة والوزارة وما إليها في إطار مؤسّسة الدّولة.

فالرّشيد يزدوج دوره ويتعدّد في مختلف الأفضية فهو خليفة سلطان وأب وسائل ومجيب وآمر بالجائزة، والأصمعيّ واحد من الرّعيّة مجيب مطيع. وأمّا مواسة فأحاديّة الدّور بنتا للأمير وكذا الحاضرون في دور المأمور فقط أو لا دور لهم. ونكتفي بهذا فقد سبق أن حلّلنا ذلك في بابه[19].

العلاقات بين الأفضية

تتكاثر الأفضية الذّهنيّة في الخطاب على أساس قيام اللاّحق منها على سابق يمثّل أساسا له وأبا. فجميع الأفضية ما عدا الأوّل يمثّل في آن ابنا متولّدا من سابقه وأبا يتولّد منه لاحقه. ويحدث أن يتولّد فضاءان ابنان أو أكثر من الفضاء الأب الواحد، ولذلك كان في تمثيل التّعريشة ما يشير إلى ذلك من الخطوط المتفرّعة

---

[18] Framing.

[19] انظر فصل الخطاطات العرفنيّة في النّصّ (الفصل الثّالث من الباب الثّاني).

دلالة على تعدّد الأفضية متحقّقة بالخطّ الكامل وممكنة بالخطّ المتقطّع. فمن الأفضية ما يولّد فضاء واحدا مفردا ومنها ما يولّد فضاءين أو أكثر ومنها ما لا يولّد شيئا فتنقطع عنده السّلسلة :

فإذا انطلقنا فرضا من فضاء الصّبيّة أساسا لأفضية لاحقة عليه وجدنا أنّه منطلَق لفضاءين ممكن ومتحقّق. أمّا الممكن فهو ما قد تأخذ به الأحداث في الخبر مجرى آخر يكون منه أفضية ذهنيّة أخرى، وأمّا المتحقّق فكان إنشاء لفضاء السّؤال بما يتضمّن من حال ذهنيّة مضمونها طلب المعرفة.

والسّؤال بدوره يتولّد منه فضاءان أخوان هما فضاء عدم الدّراية وهو جواب الأصمعيّ، وفضاء الجواب يتضمّن هويّة الصّبيّة (مواسة) على لسان الرّشيد. ثمّ تنقطع سلسلة الأفضية في مستوى (عدم الدّراية) ولكنّها متواصلة في شقّها الآخر إذ ينبني على فضاء (مواسة) فضاء الأمر بالتّقبيل هذا الّذي يمثّل قلب الأفضية في النّصّ (أو العقدة في عبارات متداولة) لما فيه من التّراكز[20] بحكم التقاء جميع الأفضية السّابقة عليه، فيه، ولما فيه من التّفرّع إذ فرّخ جميع الأفضية اللاّحقة عليه كما يبين في التّعريشة (3). وهذا نوع أوّل من العلاقات بين الأفضية في الخبر تعمّ جميع تحقّقات الخطاب، وبين الأفضية من العلاقات ما يتنوّع في ضوء بنية النّصّ ومجاله، وهي في العموم نوعان كبيران : ترتيب وترابط.

علاقات التّرتيب

يكون بها ترتّب الأفضية في التّعريشة حيث ينشأ الفضاء الواحد من فضاء آخر (الفضاء الأب) والشّرط في أن يفرّخ الفضاء فضاء جديدا أن يكون في موطن التّبئير. والتّبئير متحوّل متدرّج على مراتب التّعريشة:

فكلّ عقدة في التّعريشة تمثّل لحظة هي حال ذهنيّة مضمونها الفضاء الذّهنيّ المعنيّ وهو الفضاء النّاشط في تلك اللّحظة: فالفضاء الذّهنيّ المتضمّن لوجود صبيّة في مجلس الرّشيد، مثلا، ينشُط فيكون موطن التّبئير، ثمّ يتولّد منه فضاء السّؤال فيخفت وجود الصّبيّة (جسما بشريّا مجهول الهويّة عند الأصمعيّ) ليتحوّل التّبئير إلى مضمون الأمر بالتّقبيل وما ينشأ منه من أفضية ذهنيّة افتراضيّة، وهذه بدورها ينتقل منها التّبئير إلى سلسلة الأفضية الموالية على التّدريج.

[20] Convergence.

علاقات التّرابط

تكون هذه العلاقات بواسطة الرّوابط الّتي بها تترابط العناصر عبر الأفضية وفق مبدإ الاهتداء. ومن أدواتها الضّمائر والإشارات والأسماء نكرةً ومعرّفةً (تعريفا عهديّا) أو أثرا تحفظه الذّاكرة:

قارن ما بين فضاء وجود الصّبيّة : "فإذا صبيّة" وفضاء السّؤال عن هويّتها يقيمه كلام الرّشيد : "من هذه الصّبيّة؟" وفضاء الجواب على لسان الرّشيد يخبر الأصمعيّ بمضمون الفضاء الموالي وهو هويّة الصّبيّة "هذه مواسة بنت أمير المؤمنين". وفضاء الدّعاء "دعوت لها وله" ثمّ فضاء الأمر بالتّقبيل "قبّل رأسها!".

فالمنطلق حضور صبيّة حضورا جسديّا حسّيّا مدركا بما لها من السّمات والملامح والهيئة ولكنّها غير مسجّلة في ذهن الأصمعيّ، فلا أثر لها في معرفته. ولذلك كان تعيينها بالنّكرة (صبيّة) ثمّ يتأكّد حضورها الجسميّ في المقام باسم الإشارة التّعيينيّة في فضاء السّؤال في عبارة (هذه الصّبيّة)، ليكتمل ذلك الحضور الجسديّ بالهويّة الاجتماعيّة تنضاف إليه وتعيّنه درجةً أمضى في التّخصيص، وذلك في عبارة (مواسة بنت أمير المؤمنين) فيقترن الجسم الحاضر في الإدراك بشارة الاسم العلم (مواسة) وبنسبتها بالبنوّة إلى الرّشيد معلما معروفا معلوما عند الجميع في جميع تلك الأفضية المكوّنة للمقام الأصليّ أوّلا وللخبر في صياغاته المرويّة المتناقلة بعد ذلك، لينتهي الأمرِ باستعمال الضّمير المؤنّث المفرد الغائب في تصاريفه المختلفة كما في عبارة (دعوت لها) المؤسّسة لفضاء الدّعاء.

وقوام ذلك جميعا على التّرابط ما بين الأفضية بعلاقات التّطابق تتّفق بمقتضاها في عدد من الخصائص والعناصر والأبنية. فمن خصائص العرفنة البشريّة- عند فوكونياي- قيامها على التّطابق[21] وهو أن تجري روابط بين وحدتين في سياقات متباعدة في الزّمان أو في المكان فتعتبر الوحدتان متطابقتين أو تمثّلان الشّيء نفسه.

فقد يذكر الواحد منّا شخصا أو مكانا عرفه منذ زمن بعيد ورغم الفوارق الزّمنيّة وما يقترن بها من تغيّر في الهيأة وفي السّمات أو في الشّكل بفعل الزّمن وما سايره من عوامل التّبدّل والتّغيير وما إلى ذلك ثمّ يلقاه أو يعود إليه أو يراه

[21] Identity.

على صورة فوتوغرافيّة فيعرفه بعد مدّة طويلة، في سياق زمانيّ أو مكانيّ آخر. وهو ربط قائم على أساس التّطابق بين صورتين للشّخص أو للمكان في السّياقين، بناء على ما يوجد فيهما من معالم كبرى يكون بها التّطابق وإن تغيّرت الجزئيّات وتبدّلت.

وجميع هذا ضامن للانسجام والتّناسق في عوالم النّصّ بما يقيمه من تطابق بين الأفضية المختلفة في الخصائص والسّمات يكون بها الاتّحاد بين الأشخاص والهيآت المكوّنة لمختلف الأفضية عبر النّصّ، وهو ما به تنتقل تلك الخصائص والعناصر والأبنية، جميعها أو بعضها عبر الأفضية. ومن أبرز تلك الطّرق النّشر بفرعيه طفاوة ونقل:

النّشر

يمثّل النّشر[22] آليّة تتحوّل بها خصيصة أو مقتضى (افتراض ما قبلي) أو أكثر من فضاء ذهنيّ إلى آخر، وهو نوعان حسب الاتّجاه الّذي يحدّده موقع الفضاء في التّعريشة : نشر صاعد أو تصاعديّ يسمّيه فوكونياي الطّفاوة[23] ونشر نازل أو تنازليّ يسمّيه نقلا[24]. ويرى فوكونياي أنّ النّشر بوجهيه المذكورين يمثّل واحدة من أقوى الآليّات اللّغويّة الّتي تنتقل بها أجزاء كبيرة من البنية عبر الأفضية بطريقة ضمنيّة دون تصريح في العبارة.

الطّفاوة

يحدث هذا النّوع من النّشر عبر تعريشة الأفضية **صعودا** حيث ترقى الخصيصة أو المقتضى من فضاء ذي موقع داخليّ في التّعريشة إلى موقع أعلى فيها إلى أن يصادف ما يوافقه أو ما يعارضه.

ففي قول الأصمعيّ منشئا لفصيل من الأفضية الافتراضيّة – راجع التّعريشة (3)– وهي فضاء (الطّاعة) ففضاء (الغيرة) ففضاء (القتل) مجتمعة في عبارة (إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني)، يصعد من كلّ واحد منها خصيصة تصادف ما

---

[22] Spreading.
[23] Upward floating.
[24] Transfer.

يدعمها في واحد من الأفضية العليا أو في جميعها وتلك الخصيصة نوع من المقتضى الماقبليّ يقوم عليه الفضاء المعنيّ، من ذلك أنّ فضاء (الغيرة) يقتضي اقتضاء ماقبليّا وجود صلة عاطفيّة (اجتماعيّة كانت أو أسريّة أساسها الزّواج أو البنوّة) ما بين مصدر الغيرة وموضوع الغيرة، وهي خصيصة تجد لها صدى وأساسا في الأفضية السّابقة بأن تتوفّر علاقة الأبوّة/البنوّة في فضاء تعريف البنيّة (مواسة بنت أمير المؤمنين)، وكذلك في كلّ من الفضاءين الآخرين، فضاء (الطّاعة) وفضاء (القتل) ومنهما تنتشر خصيصة السّلطان والحكم صعودا فتصادف ما يقتضيه كلّ منهما اقتضاء ما قبليّا في جميع الأفضية العليا المتضمّنة لما به يكون الرّشيد حاكما يستدعي طاعة، وحاكما يملك أن يقتل أو يأمر بالقتل.

ونلاحظ أنّ الخصائص تتوازى وتتداخل في الصّعود في الأفضية الثّلاثة لتداخل المقتضيات الماقبليّة فيها في شخص الرّشيد فهو خليفة حاكم وأب والد، يستوجب الطّاعة آمرا حاكما وتكون منه الغيرة والدا فالقتل بسبب الغيرة، حاكما والدا، في آن.

وممّا يتوضّح به هذا الأمر- وهو نوع من ترجمة الأفضية في الخبر إلى قياسات منطقيّة تبين بها المقتضيات الماقبليّة- أن نعيد صياغة ما طرحنا قبل هذا في نوع من الاستنتاج تترابط فيه الأحداث بأسبابها كما هي مترابطة في ذهن الأصمعيّ :

فإذا افترضنا أن الأصمعيّ "يعتقد أنّ الرّشيد يغار إذا ما قبّل مواسة" يقتضي ذلك صلة ما، بين الرّشيد ومواسة تبعثه على الغيرة، وتلك الصّلة هي الأبوّة/البنوّة، وهي متوفّرة صراحة في فضاء البنوّة (هذه مواسة بنت أمير المؤمنين)، وعلى هذا تقاس سائر الأفضية الافتراضيّة في الخبر، ومنها تطفو سمة أو خصيصة مقتضاة، صعودا في تعريشة الأفضية إلى أن تصادف ما يدعمها. وهو وجه من وجوه ترابط الأفضية وتشابكها قويّ متين.

النّقل

يحدث التّحويل حدوثا **تنازليّا** من الفضاء الأب إلى الفضاء الابن تبعا لموقع هذا الأخير في تعريشة الأفضية وهو ما بموجبه يرث الفضاء الابن البعض من خصائص الفضاء الأب، فيكون نقلا انتقائيّا حسب درجة الإفادة[25] المقترنة بالخصيصة المنتقلة في بناء الفضاء الابن. فإذا ما كان الانطلاق في التّعريشة من فضاء الصّبيّة -مثلا- والنّزول إلى سائر الأفضية وليكن فضاء الغيرة على درجات التّناسل المختلفة في التّعريشة، نجد أنّ جملة من الخصائص تتلاشى فلا تنتقل وأخرى تترسّخ بعد خفوتها في الفضاء المنطلق، من ذلك أنّ خصائص فضاء الصّبيّة – ملامح الشّخص، الجنس، العمر،إلخ تندثر تماما ثمّ ينضاف إليها خصيصة واحدة هي البنوّة في فضاء (مواسة) مستفادة من العبارة "مواسة بنت أمير المؤمنين"، وتظلّ هذا الخصيصة متناقلة ما بين الأفضية عابرة إيّاها مترسّخة تزداد إفادتها في قيام جميع الأفضية الافتراضيّة حادثة عند الأصمعيّ والرّشيد وعند القارئ/ السّامع بالاستتباع. ولذلك كانت سمة البنوّة أساسا يقوم عليه فضاء الغيرة وفضاء الكمّ وتقبيل الكمّ ففضاء الخطإ وما إلى ذلك، وهو أساس موروث من الفضاء الوارد في موقع عال من التّعريشة بالقياس إلى هذه الأفضية الواردة في موقع مستقل منها.

الاهتداء

قوامه إنشاء نظير لكلّ عنصر من عناصر الفضاء الأب في الفضاء الابن باعتماد مبدإ التّطابق[26] المحكوم بالإسقاط[27].

الإسقاط

يجري إسقاط الإطار برمّته أو الأطر بما فيها إثر إنشاء الفضاء الابن في حال الافتراض وهو أمر يجري في الاستعارة خاصّة.

---

[25] Relevance (fr: pertinence).
[26] Identity Principle.
[27] Mapping.

شروط التّوافق

تشتغل شروط التّوافق[28] خاصّة في الأفضية الافتراضيّة حتّى يتسنّى تحويل بنية إضافيّة على أساس توافق جزئيّ بين الفضاء الأب والفضاء الابن. ففي قول الرّشيد "لو أخطأتها لقتلتك" ينشأ فضاء ذهنيّ افتراضيّ على أساس شرط التّوافق مع الفضاء الأساس في وجود الامتحان أو الفخّ بين الرّشيد والأصمعيّ، وهو فضاء الأمر بالتّقبيل "قبّل رأسها"، هي علاقة غير مصرّح بها أساسها الامتحان، تجمع بين الرّشيد ممتحِنا والأصمعيّ ممتحَنا في موضوع هو التّقبيل، كما يلي:

<**امتحان**(الرّشيد،الأصمعيّ)> في موضوع هو <**تقبيل** (الأصمعيّ، مواسة)>. ويكون الحاصل من الفضاء الافتراضيّ (لو أخطأتها) ذكاء الأصمعيّ وحصافته <**حصيف**(الأصمعيّ)> ودهاء الرّشيد <**داهية** (الرّشيد)>. وهما فضاءان ذهنيّان ناشئان بتحويل ما تبقّى من بنية الاستلزام ولم يكن له تحقّق في مستوى السّطح من العبارة.

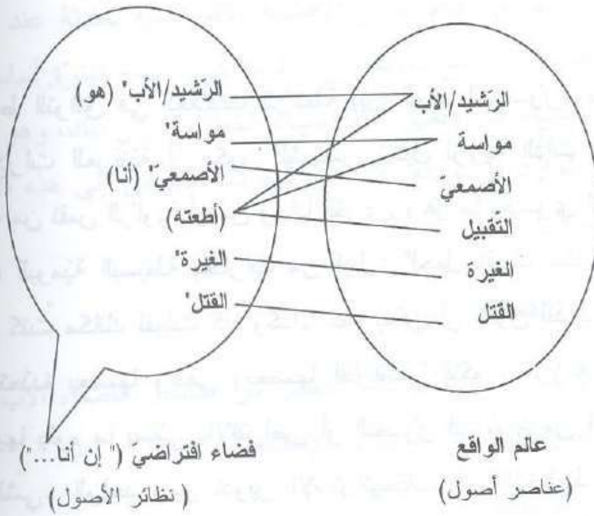
وتشتغل شروط التّوافق في العلاقات الرّابطة بين العالم المتصوّر ونظيره في الواقع. فمن القدرات العرفنيّة أن يكون للشّخص تمثيل لرؤية الذّات للكون ورؤية الآخر(ين) له من نفس الزّاوية أو من زوايا أخرى. وهو ما يجـــري التّعبير عنه في المحاورات اليوميّة البسيطة بعبارات من قبيل: "اجعل نفسك مكاني فما عساك تفعل؟" أو"لو كنتُ مكانك لفعلت كذا وكذا." كما يمكن أن تكون للفرد رؤى للكون من زوايا متعدّدة بعضها واقعيّ وبعضها افتراضيّ فتكون الرّؤية عقليّة تصويريّة ذهنيّة عليها يقوم ما يسمّى بالافتراض أو التّصوّر في نوع من التّدوير الذّهنيّ في تأمّل الشّيء الواحد ومن تدوير الإستراتيجيّات في التّخطيط للعمل الواحد قبل الجزم بتحقيقه على شاكلة دون أخرى. والافتراض في خبر الأصمعيّ والرّشيد من هذا القبيل.

ففي الأفضية الافتراضيّة الواردة في النّصّ مقترنة بالأصمعيّ نشأ عالَم متصوّر يتضمّن جملة من العناصر شخوصا كانت أو أحداثا للواحد منها نظير في

[28] Matching.

العالم الواقعيّ، وذاك أساس النّجاح والاستقامة في الافتراض فجذوره واقعيّة وبناؤه افتراضيّ : يتجذّر في الواقع بشخوصه (مواسة، الرّشيد) وبأحداثه جارية في الواقع في ملابسات شبيهة بالواقع المفترَض (تقبيل البنت باعث على الغيرة، الغيرة باعثة على القتل، القتل كائن من الأب أو الأخ أو الزّوج، والقتل كائن من الخليفة...). فيكون (إن) بانيا لفضاء افتراضيّ ومفتاحا في التّمييز بين فضاءين : الفضاء الواقعيّ والفضاء المفترض، وهو فضاء التّفكير هو عبارة عن مشروع أو إمكانيّات مبنيّة على خطاطة حجاجيّة افتراضيّة لكونها في عالم افتراضيّ ولكنّ أرضيّتها واقعيّة، تمثيل ذلك في (4) :

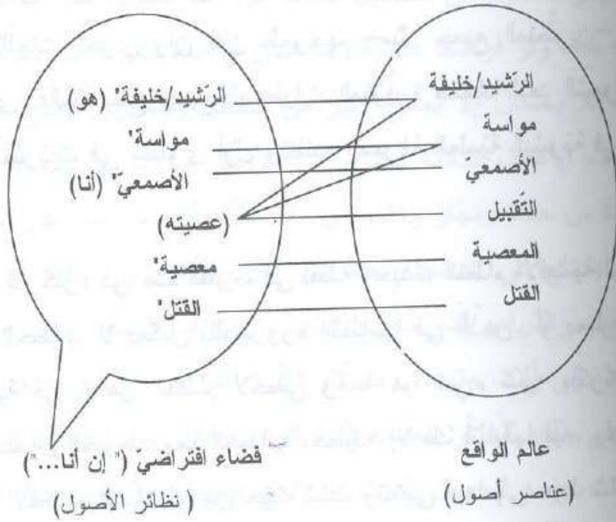
(4) التّوافق بين الافتراض والواقع: ((طاعة)،(غيرة)،(قتل))



وينبني الفضاء الافتراضيّ الثّاني (إن عصيته قتلني بمعصية) على نظائر من الأشخاص الكائنة في الواقع توافق ما توفّر منها في الفضاء الافتراضيّ السّابق، ولكنّ الطّريف أنّ النّظير يمثّل مظهرا فقط من الشّخص الأصليّ في الواقع: فإذا ما تصوّرنا الرّشيد شخصا كانت علاقته بمواسة أبا وبالأصمعيّ خليفة آمرا ناهيا يملك السّلطان فتجب طاعته، فالرّشيد أب، من جهة، خليفة، من أخرى.

فهو في عالم الواقع أب خليفة في آن، ولكنّه منشطر إليهما في الفضاءين الافتراضيّين إذ يقوم في الواحد منهما نظير له من جهة الأبوّة أو من جهة السّلطان. فالفضاء الافتراضيّ المتضمّن للغيرة قام على نظير للرّشيد أبا (ولذلك كان في التّمثيل (4) مشارا إليه كذلك بالرّشيد/الأب) وهو في فضاء المعصية (إن عصيته قتلني بمعصية) متضمّن لنظير الرّشيد خليفةً كما يبين في التّمثيل (5). ولولا خشية الخلط والتّداخل- عند القارئ- بين النّظيرين لمثّلنا للفضاءين الافتراضيّين ((4) و (5)) تمثيلا واحدا:

(5) التّوافق بين الافتراض والواقع: ((عصيان)،(معصية)،(قتل))



والمهمّ أنّ الفضاء الافتراضيّ يقوم على نظائر من العناصر الموجودة في الواقع كما تنصّ على ذلك نظريّة الأفضية الذّهنيّة في المطلق، ولكنّ ما وقفنا عليه - باعتماد المعطيات- يتمثّل في طبيعة النّظير: فقد يكون نظيرا مجملا لعنصر مجمل في الواقع مشارا إليه إشارة مجملة تتضمّنه كاملا، وقد يكون نظيرا للعنصر في الواقع من سمة أو خصيصة من خصائصه دون أخرى، كما كان نظير الرّشيد أبا في فضاء وخليفة في فضاء آخر، فغاب نظيره شخصا معلوما (أي الرّشيد الشّخص بملامحه).

تناسل الأفضية

كانت العناية في ما مضى من هذا الفصل، بأسس الأفضية الذّهنيّة نظريّة قائمة برأسها من حيث قواعدها ومبادئها، اتّخذناها عمادا نعرض فيه نموذجا في تحليل الخطاب من خلاله تتأسّس الأفضية الذّهنيّة عند المتكلّم/الكاتب وعند السّامع/القارئ بناء نظريًا وأداة تحليل وعمل ولذلك تقلّص مظهر المناقشة بل غاب. ونخصّص هذا الموضع من الفصل لمناقشة الأساس الّذي قامت عليه النّظريّة باعتماد نموذج من الخطاب العلميّ العربيّ نستمدّ منه المعطيات رافدا للنّقاش النّظريّ، وفي ذلك سبر للنّظريّة به تزيد طاقتها التّفسيريّة وتتوسّع فتتّسع لما يكون قد غاب عن أهلها المؤسّسين – وعن فوكونياي أساسا- بحكم اعتمادهم على معطيات من اللّغات أخرى وإن كان طِموحهم –مثل جميع المنظّرين- أن تبلغ النظريّة مستوى عالميًا يسع جميع المعطيات المتوفّرة ضمانا لبعد الشّموليّة الّذي تطلبه جميع النّظريّات في مستوى أوّل وتطلبه المعرفة العلميّة البشريّة في مستوى أعمّ وأرقى.

ويكون التّركيز، في هذه الفقرة، في نقطة وحيدة: انتظام الأفضية الذّهنيّة في النّص أو في الخطاب لا يعكس بالضّرورة انتظامها في الذّهن. أو بعبارة أخرى: انتظام الأفضية في الذّهن انتظام لاخطّيّ وإنّما هو شيء شبيه ببكرة الصّوف المتداخلة الأنسجة والخيوط. وما الخطاب بخطّيّته إلاّ فكّ لتلفيفها فيه. ولذلك يمكن أن تدخل تلك الأفضية المتشابكة من حيث شئت وتنتهي فيها إلى حيث شئت. وذاك هو الانتظام الشّبكيّ تترابط جميع العناصر فيه ترابطا أساسه التّزامن والتّوازي والتّوزّع. وليكن نصّ ابن خلدون الوارد في (6) منطلقنا في هذا:

(6)

الباب الأوّل من الكتاب الأوّل : في العمران البشريّ على الجملة وفيه مقدّمات

الأولى : في أنّ الاجتماع الإنسانيّ ضروريّ. ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم : "الإنسان مدنيّ بالطّبع"، أي لابدّ له من الاجتماع الّذي هو المدنيّة في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه أنّ اللّه سبحانه خلق الإنسان وركّبه على صورة لايصحّ حياتها وبقاؤها إلاّ بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله. إلاّ أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادّة حياته منه. ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل إلاّ بعلاج كثير من الطّحن والعجن والطّبخ. وكلّ واحد من هذه الأعمال الثّلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتمّ إلاّ بصناعات متعدّدة من حدّاد ونجّار وفاخوريّ. هب أنّه يأكله حبّا من غير علاج، فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبّا إلى أخرى أكثر من هذه، من الزّراعة والحصاد والدّراس الّذي يخرج الحبّ من غلاف السّنبل. ويحتاج كلّ واحد من هذه إلى آلات متعدّدة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن توفي بذلك كلّه أو ببعضه قدرة الواحد. فلابدّ من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتّعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف.

ابن خلدون : المقدّمة

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبنانيّ

بيروت، 1979 ص 69-70.

وبنوع من الرّياضة يمكن أن ننشئ صيغا متعدّدة- إن لم نجازف بالقول بتناهيها عدّا ولا محدوديّتها :

منها أن نجعل ما كان فرضيّة مقدّمة في الأصل، نتيجة أو استنتاجا لاحقا كما يلي دون أن نبدّل شيئا من النّصّ الأصليّ ما عدا إحداث توزيع آخر وحذف بعض الكلمات الرّابطة من قبيل (بيانه أنّ ...) وغيرها، كما يبين في (7):

(7)

خلق اللّه سبحانه الإنسان وركّبه على صورة لا يصحّ حياتها وبقاؤها إلاّ بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله. إلاّ أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادّة حياته منه. ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل إلاّ بعلاج كثير من الطّحن والعجن والطّبخ. وكلّ واحد من هذه الأعمال الثّلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتمّ إلاّ بصناعات متعدّدة من حدّاد ونجّار وفاخوريّ. هب أنّه يأكله حبّا من غير علاج، فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبّا إلى أخرى أكثر من هذه، من الزّراعة والحصاد والدّراس الّذي يخرج الحبّ من غلاف السّنبل. ويحتاج كلّ واحد من هذه إلى آلات متعدّدة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن توفي بذلك كلّه أو ببعضه قدرة الواحد.

فلابدّ من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتّعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف (ولذلك كان) الاجتماع الإنسانيّ ضروريّا. وهذا ما يعبّر الحكماء عنه بقولهم : "الإنسان مدنيّ بالطّبع"، أي لابدّ له من الاجتماع الّذي هو المدنيّة في اصطلاحهم وهو معنى العمران. (ابن خلدون، بتصرّف)

ومنها صياغة أخرى منطلقها "قدرة الفرد" و"عجزه" ثمّ "الحاجة إلى الغذاء" وما يستتبعه ذلك من تعدّد الصّنائع والقُدر فضرورة الاجتماع أو المدنيّة، كما يبين في (8):

(8)

قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء، غير موفية له بمادّة حياته منه. ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة

مثلا، فلا يحصل إلاّ بعلاج كثير من الطّحن والعجن والطّبخ. وكلّ واحد من هذه الأعمال الثّلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتمّ إلاّ بصناعات متعدّدة من حدّاد ونجّار وفاخوريّ. هب أنّه يأكله حبّا من غير علاج، فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبّا إلى أخرى أكثر من هذه، من الزّراعة والحصاد والدّراس الّذي يخرج الحبّ من غلاف السّنبل. ويحتاج كلّ واحد من هذه إلى آلات متعدّدة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير.

وقد خلق اللّه سبحانه الإنسان وركّبه على صورة لايصحّ حياتها وبقاؤها إلاّ بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله. ويستحيل أن توفي بذلك كلّه أو ببعضه قدرة الواحد، فلابدّ من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتّعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف (ولذلك كان) الاجتماع الإنسانيّ ضروريّا. وهذا ما يعبّر الحكماء عنه بقولهم : "الإنسان مدنيّ بالطّبع"، أي لابدّ له من الاجتماع الّذي هو المدنيّة في اصطلاحهم وهو معنى العمران. (ابن خلدون، بتصرّف)

ومنها صياغة أخرى ننطلق فيها من الحرفة الواحدة من الحرف المذكورة في النّصّ، لنصل إلى نفس النّتيجة الّتي قرّرها ابن خلدون، فيمكن أن نتصوّر المنطلق "فلاّحا" أو "حدّادا" أو "فاخوريّا" وما إلى ذلك. والنّتيجة تظلّ قائمة متمثّلة في حاجة الفرد إلى الكثير من أبناء جنسه، كما يلي في (9) حيث ننطلق من الحدّاد اعتباطا:

(9)

الأولى: في أنّ الاجتماع الإنسانيّ ضروريّ. ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: "الإنسان مدنيّ بالطّبع"، أي لابدّ له من الاجتماع الّذي هو المدنيّة في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه أنّ اللّه سبحانه خلق الإنسان وركّبه على صورة لايصحّ حياتها وبقاؤها إلاّ بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله.

إلاّ أنّ قدرة الواحد من البشر، وليكن حدّادا، قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادّة حياته منه. ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل إلاّ بعلاج كثير من الطّحن والعجن والطّبخ. وكلّ واحد من هذه الأعمال الثّلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتمّ إلاّ بصناعات متعدّدة من فلاّح وحجّار يصنع الرّحى ونجّاريصنع الآلات والأواني الخشبيّة وفاخوريّ يصنع الأواني الفخاريّة. هب أنّه يأكله حبّا من غير علاج، فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبّا إلى أخرى أكثر من هذه، من الفلاحة بما فيها من الزّراعة والحصاد والدّراس الّذي يخرج الحبّ من غلاف السّنبل. ويحتاج كلّ واحد من هذه إلى آلات متعدّدة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن توفي بذلك كلّه أو ببعضه قدرة الحدّاد الواحد. فلابدّ من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهمّ فيحصل بالتّعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف. (ابن خلدون، بتصرّف)

فإذا ما اعتبرنا نصّ ابن خلدون، من حيث هو نصّ علميّ نظريّ تجريديّ، جملة من الأطر المعرفيّة تجتمع في إطار عامّ يعمّ التّجربة البشريّة، أمكن لنا أن نترجمه إلى جميع اللّغات وإلى جميع النّظم التّمثيليّة لتتعدّد صياغاته في اللّغة الواحدة، كما أوردنا، وفي التّمثيل لمضامينه. وذلك لقيامه على ركيزتين: الفرضيّة أو الحقيقة العامّة متمثّلة في (مدنيّة الإنسان) وإثبات الفرضيّة استدلالا وحجاجا متمثّلا في (حاجة الفرد إلى الجماعة في تحصيل القوت).

ويسمح تعدّد الأطر الّتي تعمّ التّجربة البشريّة بالاكتفاء بالتّعميم والإجمال دون التّفصيل ولذلك تواترت العبارات فيه من قبيل (آلات أخرى، أكثر بكثير، آلات متعدّدة...إلخ).

ولذلك يكون الإطار المعرفيّ في النّصّ موسوعيّا، لا اتّجاهيّا بحكم التّرابطات الكائنة بين عناصره من المفاهيم والأطر والشّبكات المعرفيّة وذاك ما يسمح بالبدء من نهاية النّصّ للوصول إلى بدايته أو بالانطلاق من أيّ موضع فيه صعودا أو نزولا فالنّتيجة المحصّلة دائما واحدة.

فضرورة الاجتماع (الإنسان مدنيّ بالطّبع) حقيقة عامّة كونيّة تقبل التّشكّل بوجهين متكافئين : صوغ الحقيقة في شكل الفرضيّة المنطلق وإيراد ما يحقّقها، أو إيراد النّماذج أساسا يؤدّي إلى قيام الحقيقة العامّة مفهوما مستقلاّ بذاته ونتيجة استدلاليّة لتلك النّماذج.

وليس هذا سبيلا إلى اعتبار النّصّ دائريّا أو لولبيّا كما قد يتبادر إلى الذّهن وإنّما هو أساس الموسوعيّة في المعرفة، هو أساس نتّخذه سبيلا إلى تمثيل المضامين المعرفيّة في الذّهن منتظمة انتظاما شبكيّا :

يجد المتأمّل في النّصّ مستويين من المضامين : مستوى قاعديّا ومستوى المبدإ العامّ، مترابطين بالحجاج :

أمّا المستوى القاعديّ فيتضمّن جملة المفاهيم البسيطة وهي مستقلّة في التصوّر، وذلك من قبيل "الحنطة" و"الحبّ" و"الدّراس" و"الغذاء" و"الحدّاد" و"الفاخوريّ" وما إليها (انظر تفصيل ذلك في التّمثيل (10)). وهي مفاهيم يقبل كلّ واحد منها الاستقلال بنفسه وله طواعية الجريان في تشكيل ما يمكن أن نتصوّره من المعارف المتعدّدة بالتّوليف والتّركيب من قبيل المعارف الفلاحيّة مطلقا أو معارف الطّبخ أو التّغذية أو معارف العلوم الصّناعيّة وما إليها.

وأمّا المبدأ العامّ فقوامه بسيط إذ يُختصر في مدنيّة الإنسان، وهو مبدأ يثبت بأكثر من سبيل، وإذ كان ذلك تعدّدت صياغات المضمون المعرفيّ في النّصّ كما بيّنا وكان الأساس في جميع تلك الصّياغات متمثّلا في الافتراض فضاء ذهنيّا مبنيّا بكلمتين مفتاحين هما "ولو فرضنا " ثمّ "هب أنه ...".

ويتوفّر في مستوى المفاهيم البسيطة درجات أو طبقات من العناصر المنتظمة في نوع من التّرابط القشريّ[29] الّذي ينتظم الكثير من النّبات والدّماغ بمعنى أنّ القشرة الواحدة متكوّنة من عناصر مترابطة في ما بينها ولها ترابطات بسائر العناصر من سائر القِشر : بيان ذلك أنّك إذا ما انطلقت في التّمثيل (10) من مفهوم "حَبّ" مثلا وجدت دورة طبيعيّة في حياة النّبات والحياة عامّة منطلقها حبّ

[29] Cortical.

ينبت تلقائيًا إن كان ممّا لم يدجّنه الإنسان أو بالفلح -إن كان منه- وما يتضمّنه من حرث فزرع فنموّ يستوي به السّنبل فحصاد فدراس فحبّ "يخرج من غلاف السّنبل" فقوت فغذاء، وهنا تنغلق دائرة أو قشرة، ومركزها الحبّ في حال افتراضيّة أولى هي أكله دون علاج، وهي دورة طبيعيّة بمعنى لا يتدخّل فيها الإنسان بالتّحويل أو بالعلاج على حدّ عبارة ابن خلدون.

وإذا ما انطلقنا دائما من مفهوم "حَبّ" في حال افتراضيّة أخرى تبنيها عبارة " لو فرضنا... قوت يوم من الحنطة" نأخذ مسلكا آخر هو دورة "صناعيّة" تتحوّل بها المادّة بمهارات وآلات، محطّاتها طحن فعجن فطبخ فقوت فغذاء.

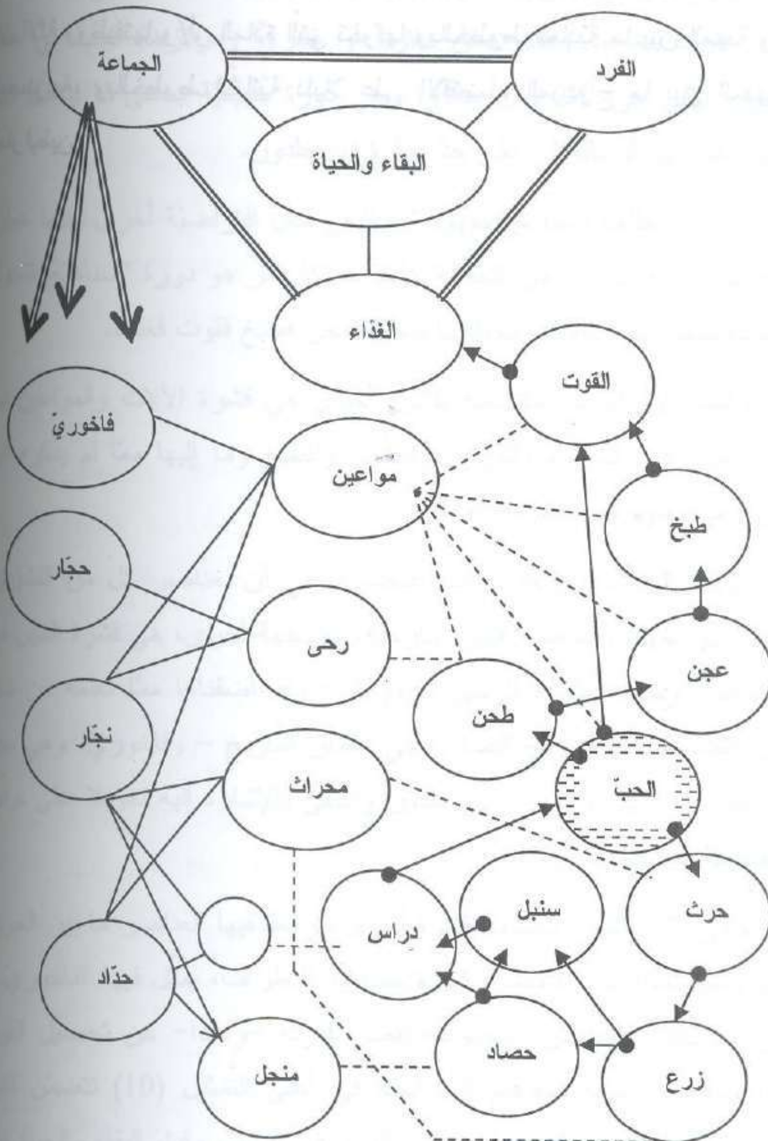
والقشرتان كلتاهما مترابطة بقشرة أخرى هي قشرة الآلات والمواعين بما تتضمّنه من آلات للحرث وللدّراس وللطّحن وللطّبخ وما إليها ممّا لم يذكره ابن خلدون وهو معلوم من المعرفة العامّة.

وهذه القشرة بدورها تترابط عناصرها في آن بعناصر كلّ من القشرتين الأوليين، من جهة، وبعناصر قشرة خارجيّة، من جهة أخرى، هي قشرة المهن من نجّار وحدّاد وحجّار ينحت الرّحى الحجريّة – وقد أضفناها ممّا نعلمه من شأن الرّحى التّقليديّة ذات النّماذج الضّاربة في أعماق التّاريخ – وفاخوريّ. وهي مهن تمثّل قليلا من كثير لم يذكره ابن خلدون واكتفى بالإشارة إليه تعويلا على توفّره في المعرفة الموسوعيّة أو العامّة.

وإلى تلك القشور تنضاف قشرة أخرى تترابط فيها العناصر ما بين الحرف وأهلها لتنشأ شبكة من الاجتماع كبيرة مترامية الأطراف، يمثّل فيها الفاخوريّ أو النّجّار أو الحدّاد فردا من المجموعة تقصر قدرته –واحدا– عن تحصيل القوت لنفسه. وذاك ما تمثّله المفاهيم المترابطة في أعلى التّمثيل (10) تتضمّن الفرد والمجموعة مطلقا وما ذُكر من أصحاب المهن في النّصّ، وقيامَ البقاء والحياة على القوت والغذاء.

وجميع هذه التّرابطات مشار إليها في التّمثيل بالأسهم الاتّجاهيّة دليلا على التّرتّب حتميًا كان أو اختياريًا، في الواقع أو في التّصوّر، وبالخطوط المقطّعة ما بين الآلة ووظيفتها و/أو المادّة الّتي تحوّلها وبالخطوط العاديّة ما بين المهنة والآلة المصنوعة، وبالخطوط الثّنائيّة دليلا على الاقتضاء المزدوج ما بين المفهومين المترابطين.

(10)


الجماعة
الفرد
البقاء والحياة
الغذاء
القوت
فاخوري
مواعين
طبخ
حجّار
رحى
عجن
نجّار
طحن
الحبّ
محراث
حرث
سنبل
دراس
حدّاد
حصاد
زرع
منجل

خاتمة

خصّصنا هذا الفصل للنّظر في انتظام الأفضية الذّهنيّة في بعض النّماذج من النّصوص العربيّة وذلك من زاويتين : زاوية تكون فيها نظريّة الأفضية أداة في تحليل الخطاب وزاوية تكون فيها بعض مبادئها موطنا للنّقاش والسّبر.

فبالتّحليل ثبت ما به يكون انبناء الأفضية وتناسلها وترابطها، ما كان منها ثابتا واقعيّا أو ما يمكن أن يكون كذلك وما كان منها افتراضيّا، كما ثبتت آليّات ترتّبها في النّصّ الواحد وما تتوارثه من سمات وخصائص تطفو فتطوف عابرة للأفضية في النّصّ أو لمختلف المقاطع فيه بعبارة أخرى.

وممّا وقفنا عليه من خصوصيّات في انبناء الأفضية وتأسّسها أن يتولّد من الفضاء الواحد فضاءان ابنان أو أكثر قد يستمرّ أحدهما أو كلاهما، وإذا ما استمرّ كلاهما كان نوع من التّوازي بينهما في تأسيس سلالة فرعيّة من الأفضية ترتبط بالفضاء الأساس (الأوّل) ارتباط سلالات في الكائنات بأصل واحد مفترض أو واقعيّ على سلّم التّاريخ.

وممّا ناقشنا به نظريّة الأفضية الذّهنيّة أنّ ترتيب الأفضية وترابطها عن طريق الأبوّة والتّفريخ، أو التّأسّس وما إليها إنّما هو فعل قوليّ خطابيّ وأنّ الإطار المعرفيّ في بعض النّصوص-العلميّة التّجريديّة خاصّة- قد يكون لا اتّجاهيّا بحكم التّرابطات المطلقة الكائنة بين عناصره من المفاهيم والأطر والشّبكات المعرفيّة، وذاك ما يسمح بالبدء من نهاية النّصّ للوصول إلى بدايته أو بالانطلاق من أيّ موضع فيه صعودا أو نزولا فالنّتيجة المحصّلة دائما واحدة. ولذلك يقبل أن تكون له صياغات متعدّدة.

د. الأزهر الزّناد

النّص والخطاب

مباحث لسانيّة عَرْفنيّة





مركز النشر الجامعي



دار محمد علي للنشر

الفصل الثّاني

النّــصّ الاستعــارة

مقدّمة

من الثّابت منذ لايكوف (1980) أنّ الاستعارة ظاهرة مركزيّة غالبة في كلّ نشاط خطابيّ، وليست مقصورة على الخطاب الإنشائيّ. كما ثبت أنّ الاستعارة تمثّل أداة في تصوّر العالم والأشياء وتمثّلها في جميع مظاهرها، فهي جزء من النّظام العرفنيّ. ولذلك كانت الاستعارة أداة مَفهمَة وتمثيل للمفاهيم وتصوّر للعالم، يعمّ كلّ مظاهر الفكر ما اتّصل منها بالمفاهيم المجرّدة وبالمجالات الأساسيّة من قبيل الزّمن والأوضاع والمكان والعلاقات والأحداث والتّغيّر والجعل وما إليها.

فالاستعارة عند لايكوف (1992) إسقاط عابر للمجالات[30] في النّظام المفهوميّ، وما العبارة الاستعاريّة إلاّ تحقّق سطحيّ لتلك العمليّات من جملة تحقّقات أخرى كائنة في الخطاب العاديّ والإنشائيّ قياما واحدا.

الاستعارة المفهوميّة : معالم نظريّة

نجمل في البداية الأسس والمبادئ الّتي قامت عليها نظريّة الاستعارة المفهوميّة[31] في عدد من المفاهيم العاملة ثمّ نتوسّع في شأنها في حدود الإفادة منها في تحليل الخطاب. وأهمّها : الاستعارة تمثُّل لمجال على أساس مجال آخر، والإسقاط قوالب من التّناسبات الأنطولوجيّة، الإسقاط كائن ما بين المستويات العليا في المقولات، الإسقاط محكوم بمبدإ الثّبات من حيث يحافظ على الأبعاد الطّوبولوجيّة ويجعل الغلبة فيه للمجال الهدف. والإسقاط مفرد ومتعدّد تزامنيّ محكوم بسلّميّات الإرث.

---

[30] Cross-domain mapping(s).

[31] Conceptual Metaphor Theory (CMT).

الاستعارة تمثّل لمجال على أساس مجال آخر

تقوم الاستعارة على مبدإ أساسيّ عرفنيّ، يتمثّل في أنّنا نتمثّل مجالا ما على أساس مجال آخر بتوسّط علاقات الإسقاط المفهوميّ[32]. والإسقاط المفهوميّ جملة من التّناسبات[33] تقوم بين مجالين عنصرا بعنصر أو مكوّنا بمكوّن، فيكون الواحد من المجالين مجالا مصدرا[34] والآخر مجالا هدفا[35]. ويجري بذلك إسقاط المعارف المتعلّقة بالمجال المصدر على المعارف المتعلّقة بالمجال الهدف، وإذ كان الأمر كذلك كانت هذه التّناسبات إبستيميّة. وتتمثّل عمليّة الاستعارة في قيام تلك التّناسبات.

الإسقاط قوالب من التّناسبات الأنطولوجيّة

يتّخذ لايكوف (1987) من تواتر الاستعارة في الخطاب بأنواعه ومن يسر تأويلها سواء أكانت قديمة مألوفة أو جديدة حادثة، ومن سهولة انتشارها على المجالات المتقاربة أو المتباعدة، أساسا يدعم به قوله بتأصّل الإسقاط المفهوميّ ما بين المجالات في الفكر. وتأصّله ذاك قائم على قوالب قارّة من التّناسب الأنطولوجي[36] ما بين المجالات، فإذا ما انطبقت تلك القوالب على مجال ما (سواء أكان بنية معرفيّة أو وحدة معجميّة) حدثت الاستعارة، وإذا ما لم تنطبق تلك القوالب لم تحدث الاستعارة.

الإسقاط كائن ما بين المستويات العليا في المقولات

يجري الإسقاط المفهوميّ ما بين المجالات في المستويات العليا من المقولات إذ تتضمّن المعلومات العامّة الشّاملة، ويحقّق هذا التّضمّن درجة عليا من الثّراء في الإسقاط ما بين المجال المصدر والمجال الهدف بما يندرج فيه من معلومات عن المستويات الأساسيّة أو الدّنيا من المقولة.

---

[32] Conceptual mapping(s).
[33] Correspondence(s).
[34] Source domain.
[35] Target domain.
[36] Ontological correspondences (fixed patterns of).

فالإسقاط ما بين الثّورة والمطر – في أنشودة المطر للسيّاب الواردة في (5) بعد هذا– يتعلّق بالمستويات العليا من المقولتين، وهذا الأمر ضامن لثراء الإسقاط من حيث يكون ما بين مجال "المطر خصبا للجميع" ومجال "الثّورة عدلا للجميع"، وهذا المستوى العامّ يتضمّن تناسبات أخرى من درجات دنيا في المقولتين وليس من المفروض أن يكون التّنصيص عليها في قيام الاستعارة : فالمطر مطلق والثّورة كذلك مطلقة في قصيد السيّاب، فلا يهمّ إن كان المطر ثلجا أو برَدا وكذلك الثّورة لا يهمّ إن كانت من الفلاّحين أو من العمّال أو من العسكر، وكذلك قطرة المطر قد تناسب رصاصة تطلق في الثّورة، أو يناسب البرقُ طلقات البنادق أو إشعال النّار وما إلى ذلك. فجميع هذه التّناسبات الفرعيّة كامن في التّناسب ما بين المستويات العليا من المقولتين، يستدعيه من حيث يتضمّنه وهذا ما يضمن ثراء الإسقاط الاستعاريّ في الخطاب الواحد، ويضمن تجدّد الاستعارة وتوسّعها في الاستعمال قياسا على نفس الإسقاط والتّمثّل، فيمكن لشاعر آخر أن ينطلق ممّا أقامه السيّاب من التّناسب العامّ ما بين المطر والثّورة ليجري تناسبات في مستويات فرعيّة دنيا من المقولتين، فيُنشِئ استعارات من قبيل ما ذكرناه قبل هذا بأسطر فتكون قطرة المطر رصاصة، أو وميض البرق وميضا للرّصاص وما إلى ذلك من أشكال استعاريّة يسمح بقيامها تمثّل الثّورة على أساس المطر.

الإسقاط محكوم بمبدإ الثّبات

يتلخّص مبدأ الثّبات في أنّ الإسقاط ما بين المجالات يحافظ على الأبعاد الطّوبولوجيّة وفيه تكون الغلبة للمجال الهدف.

فمن شروط التّناسب ما بين المجالات في الإسقاط، الحفاظ على الأبعاد الطّوبولوجيّة في المجال المصدر، وهي الأبعاد الكبرى الأساسيّة الّتي ينبني عليها ذلك المجال وتكوّن بنيته الخطاطيّه، فأساس الإسقاط في الاستعارة إسقاط البنية الخطاطيّة في المجال المصدر على البنية الخطاطيّة في المجال الهدف بوجه يضمن التّناسب بين مكوّنات الخطاطتين واحدا بواحد ويحافظ على التّناسبات الثّابتة بينهما. وهذا الإسقاط موجّه بشرط الحفاظ على البنية الخطاطيّة في المجال الهدف من حيث

عناصرها وعلاقاتها وذلك دون تغييرها أو تحويرها أو تبديلها. ويرى لايكوف (1992) أنّ مبدأ الثّبات بقيامه على شرط الحفاظ على خطاطة المجال الهدف، قيد على عمليّات الإسقاط فلا يكون الإسقاط آليّا عشوائيّا.

ففي الاستعارات القائمة على تمثّل الحياة رحلةً، يكون الإسقاط ما بين المجال المصدر (الرّحلة) والمجال الهدف (الحياة) مقيّدا بمبدإ الثّبات من حيث تتحدّد التّناسبات ما بين البنية الخطاطيّة في كلّ من 'الرّحلة' و'الحياة' وذلك دون تغيير البنية الخطاطيّة في 'الحياة'، من ذلك ما يكون فيها من سعادة أو شقاء فلا يقوم التّناسب ما بين الرّحلة والحياة في السّعادة مثلا فيمتنع قولنا 'رحلة سعيدة' قياسا على 'حياة سعيدة'. وكذلك في استعارة الثّورة مطرا إذ تتحدّد التّناسبات بين المجالين في مستوى البنية الخطاطيّة من كليهما دون أن تتغيّر بنية الثّورة، فلا يمكن أن تكون الثّورة غزيرة قياسا على المطر الغزير، أو قطرة قطرة قياسا على نزول المطر كذلك، ويحافظ مجال المطر على خصوصيّاته الخطاطيّة فلا تطمسها خصوصيّات الثّورة :

المطر خصب	الثّورة خصب.
المطر غزير	*الثّورة غزيرة.
المطر قطرةً قطرةً	*الثّورة قطرةً قطرةً.

الإسقاط محكوم بسلّميّات الإرث

تتعدّد العبارات الاستعاريّة في الاستعمال على مرّ الزّمن وتتجدّد في حركة توسّعيّة يتولّد بها بعضها من بعض، وهذا التّعدّد محكوم بسلّميّة الإرث[37] وهي ما ترث بمقتضاه الإسقاطات الدّنيا في المستويات المقوليّة أبنيةَ الإسقاطات العليا فيها (لايكوف 1992).

ويجعل لايكوف سلّميّة الإرث ثلاثيّة المستويات تكون الاستعارات ذات الانتشار الواسع من حيث العصور والميادين والثّقافات في أعلاها ويرد في أدناها الاستعارات ذات الانتشار المحدود وفي ما بينهما الاستعارات ما بين المحدودة والمنتشرة المتواترة.

[37] Inheritance hierarchy.

فعند الحديث مثلا عن العراقيل الّتي يجدها الواحد في دراسته، إنّما يتمثّل الدّراسة على أنّها رحلة، وإذ كانت الدّراسة مظهرا أساسيّا من مظاهر الحياة فإنّها ترث كونها رحلة من تناسبات استعاريّة أعلى منها تُتمثّل فيها الحياة الّتي تنشُد غاية على أنّها رحلة، وإذ كانت الحياة رحلةً بأحداثها وتغيّراتها وأمكنتها وأطوارها وغاياتها فإنّها ترث- بدورها- جميع ذلك من تناسبات استعاريّة كائنة في مستوى أعلى منها هو استعارة البنية الحدثيّة[38] مطلقا.

تنتظم هذه الاستعارات سلّميّة ثلاثيّة المستويات: ترث الاستعارة من المستوى الثّالث بنية الاستعارة من المستوى الثّاني، وهذه ترث بدورها بنية الاستعارة من المستوى الأوّل:

المستوى1: استعارة البنية الحدثيّة

المستوى2: الحياة رحلة

المستوى3: الحبّ رحلة، الدّراسة رحلة، المهنة رحلة....

وقياسا على هذا يكون انتظام الاستعارات القائمة على مجال المطر مأخوذا من زاوية تطهير الأشياء والأوساخ المادّيّة يجرفها عند السّيلان، ولتكن "المطر طهارة" وهي استعارة منغرسة في المنوال الاستعاريّ جزءا من المنوال الثّقافيّ الشّرقيّ - إذ قد تكون غير ذات معنى عند الإسكيمو- كما يبين بعد هذا. وهذا ما ترثه جميع الاستعارات الجارية في ذلك من قبيل النّماذج التّالية:

المستوى1: استعارة البنية الحدثيّة

المستوى2: المطر طهارة

المستوى3: الثّورة طهارة، العلم طهارة، الإيمان طهارة....

وهذا لا يعني كون "المطر طهارة" النّموذج الوحيد في ذلك، فالنّار طهارة والطّوفان طهارة، وما إلى ذلك.

---

[38] Event structure metaphor.

الإسقاط مفرد ومتعدّد تزامنيّ

لعلّ أهمّ مظهر كان التّنبيه إليه في نظريّة الاستعارة المفهوميّة، اعتبار فهم الاستعارة أو تأويلها عمليّة آن-قوليّة تنشط فيها التّناسبات الثّابتة في النّظام العرفنيّ. وذلك خلافا للمعهود القائم على تصوّر الفهم درجتين مرتّبتين تكون في الأولى البادرة للمعنى الحرفيّ يتعطّل فينشأ عندها الفهم المجازيّ أو الاستعاريّ في المرتبة الثّانية. فالإسقاط الاستعاريّ مفرد في الاستعارة البسيطة المفردة، ومتعدّد كذلك في الاستعارات المتعدّدة، وهو في الحالين أساسه التّزامن[39]، ولهذا صلة بسرعة الفهم والتّأويل مهما كانت درجة التّشابك أو التّركّب في البنية الاستعاريّة. ولهذا الأمر تفاصيل كثيرة ونماذج عديدة يخرج بنا استقصاؤها عن مشغلنا (انظر مثلا : لايكوف 1987، 1992، إيفانس وقرين 2006، الزّنّاد2010).

النّصّ الرّمزيّ شبكة من الإسقاط المفهوميّ

يجري التّمييز في الدّراسات العرفنيّة بين مستويين تجري فيهما الاستعارة أوّلهما العبارة الاستعاريّة المفردة وثانيهما المنوال الاستعاريّ : العبارة الاستعاريّة المفردة جارية على أساس الإسقاط ما بين عناصر المجال المصدر والمجال الهدف واحدا بواحد وهي تاركة إمكانيّة التّأويل للمتقبّل من حيث يقيم وجوه ذلك الإسقاط فيكون له التّأويل، تأويل ما لم يكن من منطوق اللّفظ بأن يقيم ترابطات ما بين العناصر المختلفة في كلّ من المجالين المصدر والهدف.

أمّا المنوال الاستعاريّ فجار في مستوى أوسع من الإسقاط يكون به توجيه الفهم والتّأويل بوجه يتحكّم في عمليّة الفهم ويوجّهها رأسا إلى تمثّل ما يراد من وجوه الانتظام في الموضوع الّذي تحمله العبارة. وإذ يكون ذلك مثّل المنوال الاستعاريّ منوالا ذهنيّا يتوفّر فيه إطار يتحدّد فيه تعالق العناصر وبناؤها وانتظامها بشكل يسمح بالتّأويل أو بإكمال النّاقص فيكون لذلك أداة من أدوات تنضيد الواقع والتّجربة تعكس رؤية وتمثّلا جماعيّا.

[39] Simultaneous mapping.

ففي قصيد "أنشودة المطر" لبدر شاكر السيّاب – كما نبيّن بعد هذا – يشحن المنوال الاستعاريّ المطرَ ظاهرةً طبيعيّة مقترنة بالخصب في بلد فلاحيّ، ذات بعد طقوسيّ رمزيّ في المنوال الثّقافيّ الشّرقيّ، بسمات الثّورة ظاهرة اجتماعيّة إيديولوجيّة باعتماد عدد من المناويل الاستعاريّة الصّغرى. وهذه المناويل متجذّرة إبستيميًا في أرض العراق بتوسّط أعلام الأمكنة (الخليج، الفرات)، بعضا من جملة مفاتيح استعاريّة يكون بها بناء القصيد وتأويله.

وتنشأ المناويل الاستعاريّة بتعدّد الاستعارات المفردة الّتي تنتظم في مجموعة متناسقة، يكون ذلك فرديًا من شخص معلوم ينشئ استعارة جارية في عبارة مفردة أو منوالا استعاريًا قوامه استعارات جزئيّة متعدّدة منتظمة، كما يكون من الجماعة اللّغويّة تنشئ العبارة المفردة أو العبارة الاستعاريّة المنوال على مرّ الزّمان لتستقرّ نظاما تمثيليًا تتمثّل به المجموعة واقعها ومؤسّساتها والعالم من حولها تمثّلا استعاريًا متكاملا منتظما قد يكون أساسا لقيام الأساطير أو النّظم العقديّة أو الاجتماعيّة القيميّة وغيرها بوجه يستقرّ فيه ذلك المنوال خطاطة ذهنيّة تنضّد العالم تنضيدا ثقافيًا جماعيًا ينغرس في العرفنة الجماعيّة ليكون آليّة تشتغل اشتغالا عفويًا آليًا طبيعيًا.

وفي الخطاب –الأدبيّ– بما فيه من الشّعر والأمثال والحكم والأخبار المثليّة والقصص والخرافات من ذلك الشّيء الكثير. وإن دأب التّمييز بين استعارة عاديّة مفردة تكون في العبارة المفردة ورمز يكون في قطعة خطابيّة مطوّلة هي قصيد أو حكاية أو قصّة وما إلى ذلك.

ولعلّ المعهود في الدّراسات الاستعاريّة ما كان منها كلاسيكيّ التّوجّه أو حديثه بما في ذلك العرفنيّ، قيام التّحليل على نماذج مفردة بسيطة مقتطعة من كلّ سياق ولا يعني ذلك أنّها أهملت السّياق فهو حاضر فيها مقاما وانتماء ثقافيًا وجسديًا، ينتشر ذلك إلى حدّ يحمل على الاعتقاد في كون الاستعارة جارية في العبارات المفردة، ولكنّ الواقع خلاف ذلك فيمكن أن تتعدّد الاستعارات في الخطاب الواحد- قصيدا كان، أو ديوانا كاملا، نصّا قصيرا أو رواية طويلة، مسرحيّة أو حكاية مثليّة. وفي هذا النّوع من الخطاب تتظافر الاستعارات المفردة لتكوين

استعارة كبرى شاملة لها بوجه يكون له الخطاب كاملا استعارة كبيرة. والفكرة ليست جديدة، فالأمثال وحكايات الحيوان وما يندرج في الأدب الرّمزيّ أو الذّهنيّ (شعرا أو رواية أو مسرحا) وما إليها إنّما كانت تتّخذ على أساس استعاريّ من حيث قامت دراستها وتحليلها على أساس كونها قائمة على ثنائيّة الرّمز والمرموز إليه. وذلك دون اعتبارها خطابا استعاريّا أوّلا، ودون اعتماد أسس البناء والتّأويل الاستعاريّين ثانيا.

ولعلّه من المفيد نظريّا أن نميّز في مستوى الخطاب المطوّل متأسّسا على الاستعارة ما بين استعارة صغرى (نوويّة، مفردة، مكوّنيّة، بسطى) مبثوثة نماذجها متعدّدة متمايزة في المستوى الجمليّ من الخطاب، واستعارة كبرى (موسّعة، مركّبة، شاملة) تتشكّل في الخطاب كاملا على درجات قد تصادف المقاطع فيه أو الأقسام إلى أن يستوي الخطاب بأكمله استعارة قوامها الإسقاط وتمثّل الأكوان على أساس أكوان أخرى. ولعلّ هذا مشرّع لاعتبار النّص استعارة.

نبيّن في ما يلي باعتماد نموذجين نثريّ وشعريّ، قديم وحديث أوّلهما خبر يُصنّف ضمن النّصوص المثليّة (العصفورة والفخّ) وثانيهما شعريّ يُصنّف ضمن الشّعر الرّمزيّ أو الواقعيّة الرّمزيّة، هو قصيد "أنشودة المطر" للسّيّاب، نبدأ بالنّثريّ لبساطة في بنيته نستجلي بها المعالم الأساسيّة، ونثنّي بالقصيد للطّافة وتداخل في بنيته يقتضي استجلاؤهما درجة أمضى في التّجريد.

النّصّ المثليّ استعارة كبيرة

قوام الخبر "العصفورة والفخّ" الوارد في (1) بعد هذا، مبدأ استعاريّ أساسيّ هو تمثّل مفهوم الفخّ على أساس مفهوم النّاسك. ولكنّ المجال المصدر (النّاسك الزّاهد) والمجال الهدف (الفخّ) يبنيان شيئا فشيئا، وتتزايد الإسقاطات لتستوي شبكة منضّدة تبعا لذلك. فالإسقاط لا يكون كلّيّا وإنّما هو متدرّج على استرسال يبلغ الاكتمال في النّهاية، وعندها يكتمل كلّ من الفضاء المصدر والفضاء الهدف وشبكة الإسقاط اكتمالا واحدا على أساس التّناسب، ويستوي كلّ من الفضاءين عند الاكتمال إطارا متكامل العناصر قائما في المعرفة العامّة. وكان التّدرّج في بناء

الإطارين المتساقطين بالاستعارة قائما على التّوازي والمراوحة، ينكشف في الدّرجة الواحدة مكوّن من الإطار واحد ينكشف له المكوّن المناسب له من الإطار الآخر على أساس التّناوب في تحقّق العبارة اللّغويّة حوارا ثنائيّا أو محاورة. ولكنّ تأويل العبارات الاستعاريّة سواء كانت قائمة على الاستعارة المفردة أو تضمّنت جملة من الاستعارات المتعدّدة كما هو الأمر في خبر العصفورة والفخّ، إنّما هو تأويل آن–قوليّ[40] تنشط فيه التّناسبات الثّابتة في النّظام العرفنيّ منطبقة على التّناسبات المتحقّقة في الاستعارة موضوع ذلك التّأويل الآن–قوليّ. فالإسقاط في الاستعارة الواردة في خبر العصفورة والفخّ والّتي بها يكون تمثّل الفخّ على أساس النّاسك أساسه التّزامن[41]، وهذا ما يفسّر سرعة الفهم والتّأويل رغم ما في بنيتها من التّشابك أو التّركّب.

وينكشف كلّ من الفضاءين كما بيّنا ولكن بفارق بسيط : فالفضاء المصدر (النّاسك الزّاهد) هو الفضاء الظّاهر المعاين والمنطلق البصريّ لقيام الاستعارة، إطار يبنى شيئا فشيئا ويبنى بذلك إطار الفضاء الهدف وهو هدف مخفيّ يتوارى عن البصر، لكنّ مفتاح التّناسب حاضر معطى سلفا منذ بداية الخبر : إذ ورد فضاء الفخّ إطارا مشارا إليه مجملا في بداية النّصّ سلكا يقود المتقبّل ويوجّه عمليّات التّأويل في إطار منوال ثقافيّ من عناصره النّسك والتّزهّد بما لهما من أحوال الخلوص والنّفاق، والصّيد والقنّص بالحيلة والخداع والمراءاة وما إلى ذلك ممّا يكون في العلاقات ما بين الأفراد أو بين المجموعات من الأحوال.

وإذ يكون ذلك يكون الفضاء الهدف (الفخّ) حاضرا معاينا موضوعا بصريّا والفضاء المصدر (النّاسك الزّاهد) تمثيلا ذهنيّا وما بين التّمثيلين عدم تطابق في اقتران المدركات بتمثيلاتها الذّهنيّة:

---

[40] On line.
[41] Simultaneous mapping.

(1) خبر العصفورة والفخّ

قال يحيى بن عبد العزيز بإسناده عن وهب بن منبه:

نصب رجل من بني إسرائيل فخّا فجاءت عصفورة فوقعت عليه.

فقالت: ما لي أرك منحنيا؟

قال: لكثرة صلاتي انحنيت.

قالت: فما لي أراك باديةً عظامك؟

قال: لكثرة صيامي بدت عظامي.

قالت: فما لي أرى هذا الصّوف عليك؟

قال: لزّهادتي في الدّنيا لبست الصّوف.

قالت : فما هذه العصا عندك؟

قال : أتوكّأ عليها وأقضي بها حَوائجي.

قالت : فما هذه الحبّة في يديك؟

قال : قربان، إن مرّ بي مسكين ناولته إيّاه.

قالت : فإنّي مسكينة.

قال : فخذيها.

فقبضت على الحبّة فإذا الفخّ في عنقها، فجعلت تقول : قعي، قعي.

قال الخشنيّ : تفسيره لا غرّني ناسك مراء بعدك أبدا.

(العقد الفريد ج3، ص28)

عبد الأمير علي مهنّا : طرائف من التّراث العربيّ

دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، ط1، 1990، ص324.

ذلك أنّ المبصر فخّ ولكنّ صورته الذّهنيّة ناسك، وهذا ما هو قائم في حال العصفورة تبصر فخّا وتتمثّله ناسكا ومن ورائها دون شكّ الإنسان يبصر أو يدرك شيئا فيتمثّله على خلاف ما هو عليه في الواقع، وذاك هو الخداع والانخداع بكلّ بساطة من حيث كان عبرة تُستخلص من الخبر، وهو ما ينكشف في مستوى أعلى من العمليّات التّأويليّة بتوفّر المفتاح عند الرّاوي/السّامع-القارئ من خارج العالم المبنيّ في الخبر.

ولذلك يمكن – نظريّا- أن يتبادل الفضاءان موقعيهما، فيكون ما كان مصدرا، هدفا وما كان هدفا، مصدرا، بشكل قوامه التّكافؤ والتّطابق ما بين الفضاءين. وهي مرتبة من الاندماج يكون لها الفضاءان مزيجا يتولّد فيه معنى (المظهر الخادع) كما نبيّن في بابه[42]. وبعد هذا يمكن أن نعرض بنية الخبر الاستعاريّة في شكل جذاذة تقنيّة في إطار نظريّة الاستعارة المفهوميّة بأركانها الواردة قبل هذا عسى أن يستأنس بها القارئ نموذجا في تناول أنواع أخرى من الخطاب : الخبر استعارة كبيرة قائمة على فضاءين مصدر وهدف ما بينهما شبكة من الإسقاط على أساس التّناسب بين المكوّنات في كلّ منهما واحدا بواحد، فهذه أركان الإسقاط :

- المجال المصدر: النّاسك الزّاهد.

- المجال الهدف: الفخّ.

- شبكة الإسقاط: مظاهر التّناسب ما بين العناصر من المجالين واحدا بواحد.

(2) مظاهر التّناسب ما بين فضاء الفخّ وفضاء النّاسك

---

[42] انظر تمثيل "الفخّ ناسكا" في الفصل الثّالث من هذا الباب.

الانحناء (شكل معدنيّ، تقويس الظّهر)

(القنص، الصّلاة)

نتوء العظام (دقّة الأسلاك، دقّة العظام)

(التّخفّي، الصّيام)

الصّوف (التّمويه، لباس)

(التّخفّي، التّزّهد)

العصا (الإبزيم، العصا الأداة)

(إمساك الحبّة، التّوكّأ)

الحبّة (طُعم، إغراء)

(طعم، قربان)

المسكين (إنسيّ، حيوان)

(الحيوان = المسكين)

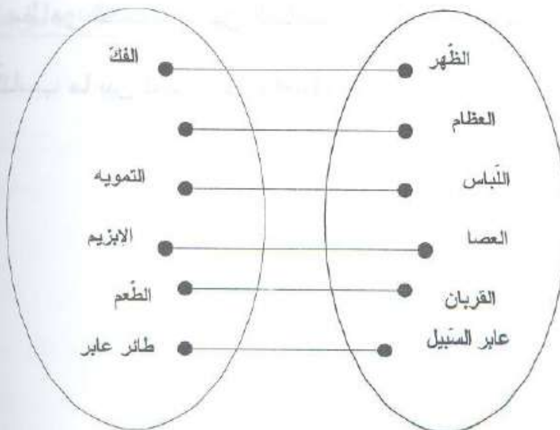
الأخذ (القنص، الإطعام)

(أخذ يوقع في القنص)

العبرة (قعي قعي، التّغريربالسّاذج)

(عدم الانخداع بالظّاهر)

(3) شبكة الإسقاط المفهوميّ: الفخّ ناسكا.



وهذا جدول في مظاهر التّناسب التّفصيليّة :

(4)

عناصر المجال المصدر	السّمات/الوظائف		عناصر المجال الهدف
النّاسك	آدميّ، ورع، تقيّ التّعبّد	جماد، مصنوع، أداة القنص	الفخّ
الظّهر	العمود الفقريّ منحن الصّلاة	سلك معدنيّ مقوّس القنص	فكّ الفخّ
العظام	ناتئة دقيقة الصّيام	ظاهرة دقيقة التّخفّي	الأسلاك
اللّباس	من الصّوف التّزهّد	من الصّوف التّمويه	الغطاء
العصا	طويلة، خشبيّة التّوكّؤ	طويل، خشبي/معدنيّ إمساك الطّعم	الإبزيم
الطّعام	غذاء مطبوخ ملفوف قربان	نبت ملفوف مربوط طعم/إغراء	الحبّة
المسكين (إنسيّ)	موضع الإحسان وهدف قنص		المسكين (حيوان)
أخذ الحبّة (القربان)	الإطعام	القنص	أخذ الحبّة (الطّعم)
النّـــــــــــــــــــاسك الفـــــــــــــــــــخّ			

مستويات الإسقاط

يجري الإسقاط في المستويات العليا من المجال الخطاطيّ، فيكون الاكتفاء بخطاطة النّاسك وخطاطة الفخّ مطلقا. فهو إسقاط كائن ما بين مجالين خطاطيّين ولا يكون بين تحقّقين أو نموذجين عينيّين من ذينك المجالين لذلك كان التّناسب في الخصائص العامّة دون التّفاصيل : فيكون التّناسب ما بين الفخّ والنّاسك في عدد من الصّفات العامّة أي ما به يكون النّاسك ناسكا في المطلق من قبيل الشّيخوخة

والانحناء والهزال والصّوف والانعزال والقربان والعصا وما إليها وتغيب التّفاصيل من قبيل اللّحية وبياضها أو التّجاعيد وانحناء البدن العامّ أو انحناء الظّهر، وطول العصا أو قصرها وكونها معدنيّة أو خشبيّة وما إلى ذلك. ولئن غابت هذه التّفاصيل من شبكة التّناسب في النّصّ، فجميعها يكمّله الإطار من المنوال المعرفيّ العامّ بمكوّنيه النّشيطين زمن معالجة الخبر إنتاجا و/أو تأويلا أي إطار الفخّ والقنص وإطار النّسك والتّزهّد.

والتّناسب ما بين المجالين المصدر (النّاسك) والهدف (الفخّ) محكوم بمبدإ الثّبات. فمن شروط هذا التّناسب أن يحافظ الإسقاط على الأبعاد الطّوبولوجيّة في المجال المصدر، وهي الأبعاد الأساسيّة الّتي يتأسّس عليها ذلك المجال وهي ما يمثّل بنيته الخطاطيّه.

فأساس الإسقاط في الاستعارة الّتي يقوم عليها خبر العصفورة والفخّ إسقاط البنية الخطاطيّة في المجال المصدر (النّاسك الزّاهد) على البنية الخطاطيّة في المجال الهدف (الفخّ) بوجه يضمن التّناسب بين مكوّنات الخطاطتين واحدا بواحد ويحافظ على التّناسبات الثّابتة بينهما. وهو ما يتجلّى في التّمثيلات السّابقة (2، 4،3).

ويستجيب هذا الإسقاط لشرط الحفاظ على البنية الخطاطيّة في المجال الهدف، وهو قيد يوجّه عمليّة الإسقاط ما بين المجالين كلاً بعناصره واحدا واحدا - على حدّ عبارة لايكوف. فقد حافظ الإسقاط على عناصر مجال الفخّ وعلى علاقاتها الّتي تترابط بها فيه دون تغيير أو تحوير أو تبديل فيكون لكلّ عنصر منها موقعه من الكلّ ووظيفته فيه بوجه ييسّر الاهتداء إلى مظاهر التّناسب عند التّأويل سماعا أو قراءة. ويمكن أن نلاحظ أنّ هيكل الفخّ أي ما به الفخّ فخّ متوفّر مكتمل بعناصره كلاً في موقعه منه وإن غابت التّفاصيل كما بيّنّا قبل هذا وفق مبدإ جريان الإسقاط في المستويات المقوليّة العليا.

كما يخضع الإسقاط الاستعاريّ في خبر "العصفورة والفخّ" لسلّميّة الإرث. وهي سلّميّة تنتظمها مستويات ثلاثة ترث بموجبها الاستعارة الواردة في أدناها بنية

الاستعارة الواردة في المستوى الّذي يعلوها مباشرة، فترث الاستعارة الواردة في المستوى الثّالث بنية الاستعارة الواردة في المستوى الثّاني وهذه بدورها ترث بنية الاستعارة من المستوى الأوّل :

فإذا ما اعتمدنا الاستعارة الّتي تختصرها صياغة العبرة في الخبر وهي واردة على لسان العصفورة مترجمة أو مفسّرة بلغة البشر : "لا غرّتني ناسك مراء بعدك أبدا" والّتي يمكن اختزالها في "التّزهّد قنص" وسيلته الخدعة والمراءاة، وجدناها واردة في أدنى المستويات من الثّالوث أي تحقّقا لجملة من النّماذج تنطبق فيها تلك الاستعارة من قبيل "التّحبّب قنص" و"التّعفّف قنص" و"التّغزّل قنص" و"النّصح قنص[43]" و" لاقطّ يصطاد للّه" وما إلى ذلك، وجميعها مندرج في استعارة من مستوى أعلى قوامها "الحياة قنص" بما فيها من تحيّل وتخفّ وتمويه يكون من القانص حيوانا كان أو إنسانا أو مؤسّسة أو غير ذلك للإيقاع بالفريسة أو الضّحيّة من الحيوان أو الأناسي أو المؤسّسات بأيسر سبيل يحقّق المصلحة من قوت أو مال أو جاه أو غير ذلك من الغايات.

وتندرج هذه الاستعارة بدورها في مستوى أعلى يعمّ جميع التّجارب البشريّة هي استعارة البنية الحدثيّة بقيامها على حدث يخطّط له ويُنجز وفق إستراتيجيّة بوسائل وأدوات مناسبة سبيلا إلى الغاية. وهي بنية متضمّنة للحياة قنص هذه الّتي تتضمّن مظاهر الحياة الّتي يكون بها القنص :

المستوى1 استعارة البنية الحدثيّة

المستوى2 الحياة قنص

المستوى3 "التّزهّد قنص"، "التّحبّب قنص"،

"التّعفّف قنص"، "التّغزّل قنص"،

"النّصح قنص"، "لا يصطاد القطّ لوجه اللّه"[44]....

---

[43] قارن هذا بقولهم : " إذا نصحك فلان فنصفها له". ومعناه لا نصح دون مصلحة.

[44]- عبارة من اللّهجة التّونسيّة ' ما فمّاش قطّوس يصطاد لربّي".

وفي هذا القبيل من الخطاب يندرج الكثير من القصص المثليّ أو الرّمزيّ بما هو معروف من قصص الأساطير والحكايات والخرافات والرّوايات الرّمزيّة، فجميعها قائم على الاستعارة الّتي يكون بها تمثيل شيء على أساس شيء آخر وتمثّله بالاستتباع. وهذا ما سيتّضح في مشغلنا الموالي في نصّ شعريّ رمزيّ أساسه اشتغال المناويل الاستعاريّة في بناء الخطاب وتأويله.

المناويل الاستعاريّة : 'أنشودة المطر' نموذجا

نعتمد في ما يلي "أنشودة المطر" نموذجا يبين به اشتغال المناويل الاستعاريّة في نوع مخصوص من الخطاب هو رمزيّ واقعيّ. وكنّا قد أشرنا إلى أنّ المنوال الاستعاريّ منوال ذهنيّ أو خطاطة ثقافيّة جماعيّة يتوفّر فيه إطار متكامل تتحدّد فيه العناصر بعلاقاتها وانتظامها، وهو لذلك "أداة من أدوات تنضيد الواقع والتّجربة تعكس رؤية وتمثّلا جماعيّا لهما. كما يسمح المنوال الاستعاريّ بتأويل الأشياء والظّواهر والوقائع وما إليها وبإكمال النّاقص في موضوع التّأويل. فالمنوال الاستعاريّ حاكم لعمليّة الفهم موجّه إيّاها رأسا إلى تمثّل المفهوم أو المعنى، سواء كان مقصودا أو غير مقصود، في وجوه الانتظام في العبارة اللّغويّة وفي انبنائها.

ويكون تبعا لذلك المنوال الاستعاريّ مشتغلا في مستوى أوسع من الإسقاط الثّنائيّ ما بين فضاءين مصدر وهدف، مشتغلا في مستوى أعلى من الإسقاط المفرد وإنّما هو قائم على الإسقاط المتزامن الّذي يتخلّل شبكة كاملة من أنسجة استعاريّة عديدة.

فأنشودة المطر نموذج لاشتغال المناويل الاستعاريّة المتعدّدة تنصهر في منوال واحد، يكون به المطر ثورة، وهي مناويل متفرّقة بمعنى أنّ كلّ منوال مفرد يستقيم بذاته قائما على إسقاطات جزئيّة ويمكن أن تتّخذ المناويل المفردة أو المركّبة مقدّمات أو أسسا يقوم عليها المنوال الكبير وهو ما يطلق عليه تسمية رمز:

(5)

عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر،
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء... كالأقمار في نهَر.
يرجّه المجذاف وهنا ساعة السّحر
كأنّما ينبض في غوريهما، النّجوم...
وتغرقان في ضباب من أسى شفيف
كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء،
دفء الشّتاء فيه وارتعاشة الخريف،
والموت، والميلاد، والظّلام، والضّياء؛
فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء
ونشوة وحشيّة تعانق السّماء
كنشوة الطّفل إذا خاف من القمر!
كأنّ أقواس السّحاب تشرب الغيوم
وقطرة فقطرة تذوب في المطر...
وكركر الأطفال في عرائش الكروم،
ودغدغت صمت العصافير على الشّجر
أنشودة المطر...
مطر...
مطر...
مطر...
تثاءب المساء، والغيوم ما تزال
تسحّ ما تسحّ من دموعها الثّقال.
كأنّ طفلا بات يهذي قبل أن ينام :
بأنّ أمّه – الّتي أفاق منذ عام

فلم يجدها، ثمّ حين لجّ في السّؤال
قالوا له : " بعد غد تعود..."
لابدّ أن تعودْ
وإن تهامس الرّفاق أنّها هناكْ
في جانب التّلّ تنام نومة اللّحودْ
تسفّ من ترابها وتشرب المطر؛
كأنّ صيّادا حزينا يجمع الشّباك
ويلعن المياه والقدرْ
وينثر الغناء حيث يأفل القمر.
مطر...
مطر...
أتعلمين أيَّ حزن يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد بالضّياع؟
بلا انتهاء، كالدّم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى– هو المطر!
ومقلتاك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ
سواحل العراق بالنّجوم والمحار،
كأنّها تهمّ بالشّروق
فيسحب اللّيل عليها من دم دثارْ.
أصيح بالخليج : " ياخليج
يا واهب اللّؤلؤ، والمحار، والرّدى!"
فيرجع الصّدى
كأنّه النّشيجْ :
"ياخليج

ياواهب المحار، والرّدى..."
أكاد أسمع العراق يذخر الرّعودْ
ويخزن البروق في السّهول والجبالْ،
حتّى إذا ما فضّ عنها ختمَها الرّجالْ
لم تترك الرّياح من ثمودْ
في الواد من أثرْ.
أكاد أسمع النّخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئنّ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،
عواصف الخليج، والرّعود، منشدين :
"مطر...
مطر...
مطر...
وفي العراق جوعْ
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوّان والحجر
رحى تدور في الحقول...حولها بشرْ
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرّحيل من دموعْ
ثمّ اعتللنا – خوف أن نلام – بالمطر...
مطر...
مطر...
ومنذ أن كنّا صغارا، كانت السّماء

تغيم في الشّتاء
ويهطل المطر،
وكلّ عام – حين يعشب الثّرى– نجوعْ
ما مرّ عام والعراق ليس فيه جوعْ.
مطر...
مطر...
مطر...
في كلّ قطرة من المطر
حمراءُ أو صفراء من أجنّة الزّهرْ.
وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة
وكلّ قطرةٍ تراق من دم العبيدْ
فهي ابتسام في انتظارمبسم جديدْ
أو حلمة تورّدت على فم الوليدْ
في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!
مطر...
مطر...
مطر...
أصيح : "يا خليج...
يا واهب اللّؤلؤ، والمحار، والرّدى!"
فيرجع الصّدى
كأنّه النّشيجْ :
"ياخليج
ياواهب المحار والرّدى..."
وينثر الخليج من هباته الكثارْ،
على الرّمال : رغوَه الأجاج والمحار
وما تبقّى من عظام بائس غريق

من المهاجرين ظلّ يشرب الرّدى
من لجّة الخليج والقرار،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرّحيقْ
من زهرة يربّها الفرات بالنّدى.
سيعشب العراق بالمطرْ...
وأسمع الصّدى
يرنّ في الخليج :
"مطر...
مطر...
مطر...
في كلّ قطرة من المطر
حمراءُ أو صفراء من أجنّة الزّهرْ.
وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة
وكلّ قطرةٍ تراق من دم العبيدْ
فهي ابتسام في انتظارمبسم جديدْ
أو حُلمة تورّدت على فم الوليدْ
في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!"
ويهطل المطر.

المناويل في القصيد

نورد في ما يلي أبرز المناويل الاستعاريّة المكوّنة للقصيد استعارة كبرى جامعة، وهذه المناويل هي ما به يتحوّل هذا القصيد نفسه منوالا استعاريّا تحدث به مناويل أخرى في قصائد أخرى للسّيّاب أو في أشعار أخرى لسائر الشّعراء من الثّقافة العربيّة أو من سائر الثّقافات، وهي ما به مثّل هذا القصيد منوالا استعاريّا

يختزل جملة من المناويل بعضها ضارب في تاريخ الشّرق، ثقافةً ورؤيةً للكون وتمثّلا لواقعه ولمحيطه، متفاعلا معه في أشكال عفويّة طبيعيّة أو طقوسيّة قدسيّة، وهي ما به كان هذا القصيد واحدة من عيون الشّعر العربيّ.

ولئن أوردنا في ما يلي جملة المناويل على شاكلة ما فلا يعني ذلك ترتيبها ولا تفاضلها في الاشتغال وإنّما نعرضها والمتصوّر أنّها متفاعلة متشابكة متعالقة متزامنة متوازية في تصوّرها واشتغالها وتوالفها.

ولا يذهبنّ الظّنّ بالقارئ إلى أنّ المناويل الاستعاريّة مجرّد أداة يستعاض بها عن المداخل المعهودة الّتي تعتمد مفاهيم عاملة من قبيل الحقول المعجميّة أو الدّلاليّة أو تعتمد الأسطورة وتوظيفها وما إلى ذلك. فالضّعف في جميعها كائن في عدم اهتدائها إلى أنّ القصيد هذا – وسائر القصائد في العموم- فضاء استعاريّ كبير تنصهر فيه جميع المكوّنات ما كان منها لغويّا ومعجميّا وثقافيّا بما يندرج في الثّقافة من المعارف العامّة وجميعها منضّد في مناويل ذهنيّة بعضها أسطوريّ هو التّاريخ العفويّ البسيط وبعضها تاريخيّ واقعيّ هو تمثّل الإنسان لعالمه وإدراكه إيّاه من موقعه حاجيّا كان أو كماليّا وبعضها اجتماعيّ وجوديّ فيه تعامل الحيّ ليعيش وفيه مقاومة الموت وإن لا مهرب منها وفيه باختصار كلّ ما به الإنسان إنسان متجذّرا في زمانه ومكانه وجميعها تمثّل في خطاب مخصوص كتبه شخص مخصوص من زاوية مخصوصة قد توافق زاوية المجموعة وقد تختلف عنها.

ولكنّ نجاحه كائن في تضمّنه للجماعيّ بقيامه على المناويل الذّهنيّة المشتركة وهي ما به يكون القصيد تمثيلا لمضامين قائمة في الأذهان نموذجا عليها وسبيلا إليها. فأنشودة المطر ليست أنشودة السّيّاب وإنّما هي أنشودة أهل العراق في مستوى أوّل، وهي أنشودة جميع النّاس من مختلف الثّقافات ما صادف فيه أهلها المشترك في الواقع وفي ما هو منشود منه.

فلا استحضار الأسطورة مثلا ولا استدعاء الواقع التّاريخيّ – لنستعمل عبارة رائجة سمعناها على الأقلّ في تحليل هذا القصيد وما شاكله من النّصوص ونحن على مقاعد الدّرس في الجامعة وقد كنّا طلبة لا يقنعنا ذلك تمام الإقناع وإن

لم تتوفّر عندنا أدوات تحليل لها نسبة من القوّة نقع بها على ما نحاول إقامته الآن في هذا العمل- ولا ثنائيّة القناع وما وراء القناع ولا غيرها من لعب الإلغاز والتجلّي أو الثّبات والتّحول، مفيد في تأويل نصّ من هذا القبيل.

فالقصيد كاملا حديث عن المطر وانتظار له في أشكال متعدّدة، فالمطر حاضر ظاهرة طبيعيّة ولكنّه من حيث كان رمزا يظلّ أمرا منشودا موضوعا لأنشودة تتردّد في أنحاء العراق يردّدها الأطفال ويردّدها المكان وتردّدها الأمواج، وينتهي في نهاية الأمر إلى هطول، وذلك بعد أن انتقل الصّوت من مجرّد ترديد للصّياح- صياح الشّاعر- إلى صياح صادر من الخليج كلّه، هو إنشاد للمطر يكون به استدعاؤه فهطوله.

فالقصيد كاملا نوع من الطّقس، طقس تعبّديّ يطلب به المطر، الطّالب فيه مكان بأهله وتضاريسه والمطلوب مطر ينزل في شكل عاصف طوفانيّ ينظّف ويطهّر وينقّي كلّ الأدران، وإذا القصيد كاملا قصّة طوفانيّة مغروسة في الذّاكرة الشّرقيّة الجماعيّة عائدة إلى عهد نوح، دون الحاجة إلى سفينة يرحل بها مجموعة من الأحياء أزواجا لأنّ السّفينة راسية راسبة هي العراق والمطر مطهّر لما علق بها من الأدران، فالنّصّ استعارة كبرى تنتظمها مناويل استعاريّة متنوّعة متزامنة متفاعلة لا فكاك بين أبعاضها.

ولئن تعدّدت المناويل فإنّ انتظامها في القصيد فضاء استعاريّا يقوم على مفتاح أساسيّ به يكون الاهتداء إلى ذلك الانتظام، نطلق عليه المنوال المفتاح. وهذا المنوال مختزل لكلّ المناويل المتناسبة في الفضاءين المطر فضاء مصدرا والثّورة فضاء هدفا :

المنوال المفتاح

أكاد أسمع العراق يذخر الرّعودْ
ويخزن البروق في السّهول والجبالْ،
حتّى إذا ما فضّ عنها ختمَها الرّجالْ
لم تترك الرّياح من ثمودْ
في الواد من أثرْ.

فالعراق حاوية تنوب عن أهلها الّذين تحتويهم بمعنى أنّ الشّعب العراقيّ جرى تمثّله أو تصوّره على أساس البلاد، وذخر الرّعود ذخر للغضب والغيظ من حيث كان ذخرا كذلك لأدوات الثّورة وخزن البروق خزن لشرار الغضب من حيث كان البرق رصاصا يضيء ويلمع وفضّ الختم في الطّبيعة انفجار العاصفة وهو في العراق انطلاق الثّورة في شكل رياح عاتية، وثمود قوم يحكمون العراق ظلما واستبدادا والوادي هو وادي الرّافدين. تمثيل ذلك في (6) :

(6) المنوال المفتاح في "أنشودة المطر"



ولكنّ هذا المنوال المفتاح لا يبني فضاء استعاريًا في ذاته وإنّما يبنيه من حيث كان خلاصة لجملة من المناويل فرعيّة تتنامى شيئا فشيئا في ثنايا القصيد مكوّنة الفضاء المصدر (المطر) ثمّ إذ تكتمل ينعكس الواحد منها من خلال عدسة المنوال المفتاح على الفضاء الهدف (الثّورة)، وإذا ما لم يحدث ذلك ظلّت جميع تلك المناويل على دلالتها الأولى أو الحرفيّة.

وثمّة منوال آخر ينشّط التّأويل الاستعاريّ وإن لم يكن من الفضاءين المصدر والهدف، هو منوال الأنثى أو منوال العين، عين التّاريخ : فكلّ ما نظفر به من أمارات على الأنثى في القصيد هي كونها مخاطبا باعتماد تصاريف الأفعال دون إشارة أو تعيين لها بضمير أو بغير ذلك من الأدوات اللّغويّة التّخاطبيّة. وكلّ

ما يتوفّر من هذه الأنثى هو : عينان ومقلتان من حيث هي كائن ذو جسد، وسؤال عن علمها من حيث هي كائن ذو عقل وبكاؤها – لبكاء الشّاعر– ليلة الفراق من حيث هي كائن ذو عاطفة وحبّ يربطانها بالأرض مكانا للعيش وبالوطن مكانا للهويّة.

ولكنّ الشّبكة الاستعاريّة الّتي تجري فيها هذه الأنثى تجعل منها أنثى استعاريّة، فعيناها منوال مؤمثل – على حدّ عبارة لايكوف– يختزل عددا من المناويل فهما "غابتا نخيل ساحة السّحر" وهما "شرفتان راح ينأى عنهما القمر" وهما سماء تبتسم بنجوم تنبض في غوريهما وهما الرّبيع تورق به الكروم، وهما أبناء العراق يبكون لفراقه، وهما أهله يحسّون بما عليه واقعهم، فهما العراق بأكمله تنعكس فيهما صورته انعكاس الأشياء على المرآة فهي باختصار مرآة العراق بل هي العراق كاملا.

يتكوّن منوال الأنثى من مناويل بعضها منوال العين ومنوال البيت والسّكن ومنوال الإنسان عامّة بما يقترن به من مناويل أخرى تمثّل أحوالا لحياته. فمنوال الأنثى هنا إطار متكامل ورد استعاريّا في الإجراء إذ على أساسه تُتمثّل مفاهيم أخرى، وعلى أساسها جميعا يُتمثّل مفهوم الثّورة.

انتظام المناويل الاستعاريّة في أنشودة المطر

أمّا المناويل الاستعاريّة النّاشطة في المستوى الأوّل في القصيد فعديدة محورها منوال الإنسان :

منوال الاستمطار (طلب المطر) : يكون في شكل نشيد متكرّر متردّد ثلاثيّ المكوّنات (مطر، مطر، مطر) ينشده المكان وأهل المكان وتنشده المزاريب العراق، يلاحظ القارئ أنّ مقاطع النّشيد كاملة عمل طقوسيّ يطلب المطر وينتهي القصيد بهطول المطر. ولكنّ المفتاح في تأويل هذا الطّقس تأويلا استعاريّا به يكون منوالا استعاريّا كائن في طلب المطر وهو موجود بل كلّ عام ينزل المطر ويعشب الثّرى وحين يعشب الثّرى يجوع أهل العراق، فيكون على هذا طقس المطر أو الاستمطار طقسا للثّورة وطلبا لها، وهو ما يذخره العراق من رعود وعواصف

يفضّ الرّجال ختمها. وإذ كان هذا المنوال قائما على طلب المطر تضمّن منوال المطر بمكوّناته بل بتفاصيله مبثوثة في كامل القصيد نسيجا تترابط به أبعاضه وتتجاوب أصداءه :

منوال المطر: وتغرقان في ضباب، أقواس السّحاب تشرب الغيوم، وقطرة فقطرة تذوب في المطر...، والغيوم ما تزال تسحّ ما تسحّ من دموعها الثّقال، وتشرب المطر(الأمّ)، كالدّم المراق، كالجياع، كالحبّ، كالأطفال، كالموتى- هو المطر!، ومنذ أن كنّا صغارا، كانت السّماء تغيم في الشّتاء ويهطل المطر، في كلّ قطرة من المطر حمراءُ أو صفراء من أجنّة الزّهر.

منوال الإنسان: يتضمّن كلّ ما تعلّق بالإنسان مطلقا بأحواله المختلفة كائنا في أعماره المتعاقبة هو الوليد وهو الطّفل اليتيم الباكي وهو الطّفل يكركر أنشودة المطر، وهو البحّار وهو الفلاّح وهو المتشرّد وما إلى ذلك من لأحوال والنّماذج الواردة في القصيد. هو منوال مركّب من عدد من المناويل الفرعيّة باستكمالها تكتمل الحياة ببعديها المادّيّ والمعنويّ، وقد اختصرت العينان (منوال الأنثى) جملة من سماته تختزلها في الابتسامة وفي شرفة البيت وفي دفء الشّتاء يشتاق إليه المتشرّد ولا مأوى له :

منوال المأوى : البيت أو السّكن : **أو شرفتان، وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟ المشرّدون، ومنوال أطوار الحياة** : جملة مناويل بما فيها منوال الوليد والطّفل والكهل : **منوال الميلاد : ! فهي ابتسام في انتظار مبسم جديدْ أو حلمة تورّدت على فم الوليدْ في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة! ومنوال الطفولة : كنشوة الطّفل إذا خاف من القمر، وكركر الأطفال في عرائش الكروم، أنشودة المطر...ومنذ أن كنّا صغارا،/ كالدّم المراق، كالجياع، كالحبّ، كالأطفال، كالموتى- هو المطر! فهي ابتسام في انتظار مبسم جديدْ أو حلمة تورّدت على فم الوليدْ في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة! ومنوال الكهولة** : الرّجال، النّساء، الصيّاد، المهاجرون **فمنوال الموت** : يتضمّن الموت الطّبيعيّ والقتل (الدّم المراق)، وما اتّصل بذلك من نوم اللّحود والعظام والغريق والرّدى، **ويتم طفل بات يهذي قبل أن ينام : بأنّ أمّه – الّتي أفاق منذ عام فلم يجدها، وإن تهامس الرّفاق أنّها هناكْ في جانب التّلّ تنام نومة اللّحودْ، وكذلك الدّم المراق، والمكان يسحب اللّيل عليه من دم دثارْ. وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ، وما تبقّى من عظام بائس غريق من المهاجرين ظلّ يشرب الرّدى،** وكذلك موت الأمّ واتّحادها بالأرض. **ومنوال الانبعاث بعد الموت**(أو الميلاد الجديد): **ثمّ حين لجّ في السّؤال**

قالوا له : " بعد غد تعود،... فهي ابتسام في انتظار مبسم جديدٌ أو حلمة تورّدت على فم الوليدْ في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!

منوال أحوال الحياة مجتمعة بما تتضمّن من مناويل : منوال مصارعة القدر : كأنّ صيّادا حزينا يجمع الشّباك ويلعن المياه والقدرْ ومنوال الرّحيل : وكم ذرفنا ليلة الرّحيل من دموعٍ ثمّ اعتللنا – خوف أن نلام – بالمطر... كلّ قطرة من المطر ومنوال الحزن : وتغرقان في ضباب من أسى شفيف، فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء، والغيوم ما تزال تسحّ ما تسحّ من دموعها الثّقال، كأنّ صيّادا حزينا، أتعلمين أيّ حزن يبعث المطر؟ وكم ذرفنا ليلة الرّحيل من دموعٍ ثمّ اعتللنا – خوف أن نلام – بالمطر...، ومنوال الغضب: كأنّ صيّادا حزينا يجمع الشّباك ويلعن المياه والقدرْ، ومنوال الفرح: ونشوة وحشيّة، وينثر الغناء (الصّيّاد) عيناك حين تبسمان، وترقص الأضواء ومنوال الوَحدة: وكيف يشعر الوحيد بالضّياع بلا انتهاء. ومنوال الحرّيّة والعبوديّة ومنوال الأمل والمستقبل كائنا في ابتسامة الوليد.

منوال الصّيّاد: كأنّ صيّادا حزينا يجمع الشّباك ويلعن المياه والقدرْ وينثر الغناء حيث يأفل القمر. والمهاجرين يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع، عواصف الخليج، والرّعود، منشدين : "مطر... مطر... مطر... ومنوال الفلاّح: العشب، الثّرى، الحصاد، الحقول،

ومنوال القوت جملة مناويل منها منوال الجوع(الشبع والجوع) : تسفّ من ترابها وتشرب المطر، بلا انتهاء، كالدّم المراق، كالجياع، كالحبّ، كالأطفال، كالموتى– هو المطر، وفي العراق جوعْ، وينثر الغلال فيه موسم الحصاد لتشبع الغربان والجراد، وكلّ عام – حين يعشب الثّرى– نجوعْ، ما مرّ عام والعراق ليس فيه جوعْ. وكلّ دمعة من الجياع والعراة ومنوال الطّحن : وتطحن الشّوّان والحجر، رحى تدور في الحقول...حولها بشرْ ومنوال الفاقة : العراة ومنوال التّشرّد ومنوال الآفات (الأفعى، الجراد، الغربان) : وفي العراق ألف أفعى تشرب الرّحيقْ من زهرة يربّها الفرات بالنّدى. لتشبع الغربان والجراد.

منوال الضّوء والظّلام والزّمن بمواقيته يضمّ عددا من المفاهيم الضّوء/الظّلام، الشّمس/ القمر، النّجوم (ساعة السّحر، ينأى عنهما القمر. وترقص الأضواء... كالأقمار في نهَر. يرجّه المجذاف وهنا ساعة السّحر، كأنّما ينبض في غوريهما، النّجوم...سرّح اليدين فوقه المساء، والظّلام، والضّياء، تثاءب المساء، كأنّها تهمّ بالشّروق فيسحب اللّيل عليها من دم دثارْ. ومنوال الفصول : دفء الشّتاء فيه وارتعاشة الخريف، ومنذ أن كنّا صغارا، كانت السّماء، تغيم في الشّتاء ويهطل المطر، موسم الحصاد، الشّتاء زمن الجوع والصّيف زمن الشّبع عند الحصاد، وتفتّح أجنّة الزّهر في الرّبيع واعد بالخصب صيفا.

منوال الماء : النّهر والبحر والخليج : يرجّه المجذاف، أكاد أسمع النّخيل يشرب المطر، الفرات، من زهرة يربّها الفرات بالنّدى: مورد القوت والمال (المحار، السّمك، القوت) و منوال البحر(الأمواج، الخليج، السّفن، الصّيّاد والعاصفة) : وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ سواحل العراق بالنّجوم والمحار، والمهاجرين يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع، عواصف الخليج، والرّعود، منشدين : "مطر... مطر... مطر... وينثر الخليج من هباته الكثارْ،على الرّمال : رغوه الأجاج والمحار.

ومنوال الصّوت والصّدى : وكركر الأطفال أنشودة المطر، ودغدغت صمت العصافير على الشّجر، كأنّ طفلا بات يهذي ، وإن تهامس الرّفاق أنّها هناك، أصيح بالخليج : "ياخليج يا واهب اللّؤلؤ، والمحار، والرّدى! "فيرجع الصّدى كأنّه النّشيجْ :_"ياخليج_ياواهب المحار، والرّدى..." أكاد أسمع النّخيل يشرب المطروأسمع القرى تئنّ...

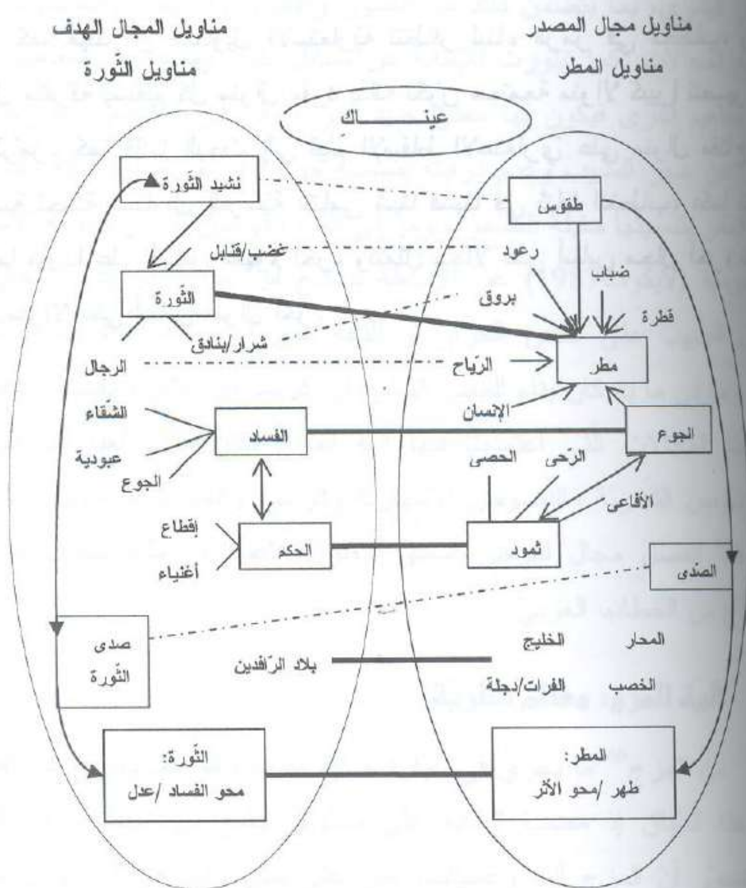
ومنوال الأرض : تسفّ من ترابها، حين يعشب الثّرى، ومنوال النّبات الأزهار : منوال النّخيل، منوال الأزهار غابتا نخيل ، تورق الكروم، صمت العصافير على الشّجر، أكاد أسمع النّخيل يشرب المطر، منوال الإعشاب : سيعشب العراق بالمطرْ... سيعشب العراق بالثّورة.

والمهمّ أنّ هذه المناويل جميعا، تنتظم عناصر الواحد منها انتظاما شبكيًا تترابط له ما بينها ويمكن تتبّع مسالكها لتبيّن ذلك التّشابك فيستقلّ الواحد منها في التّصوّر بنفسه، ولكنّ تلك المسالك تقاطعها مسالك أخرى تترابط بها عناصر مناويل أخرى على نفس الشّاكلة، فيكون القصيد شديد التّعقيد في ظاهره اللّفظيّ ولكنّ انتظامه الذّهنيّ المفهوميّ من أصفى ما يكون، ذلك أنّ خطّيّة الكلام فارضة للتّباعد ما بين المفاهيم من المنوال الواحد دون أن تنقطع الصّلة في ما بينها ذهنيًا، فالمنوال يبنى شيئا فشيئا على امتداد القصيد بأن يكون للمفهوم الواحد منه ومضة أو لمعة في موطن من المواطن تتلوها لمعة أو ومضة أخرى من مفهوم آخر من منوال آخر، وكلّ لمعة أو ومضة تمثّل لحظة تبئير في المفهوم المعنيّ يستحضر المنوال كاملا. فإذا ما تتبّعنا المنوال الواحد وجدناه منجّما متقطّعا في مواطن تبئير متباعدة في القصيد يمثّل الواحد منها نوعا من الكوّة أو النّافذة على المفهوم المعنيّ تنفتح ثمّ تنغلق. وهي ما يطلق عليه في الدّراسات اللّسانيّة العرفنيّة مصطلح الوندوة[45].

[45] Windowing.

ولنا في (7) تمثيل مقتضب لانتظام المناويل الاستعاريّة على مستويين عناصر جزئيّة تنتظم في منوال جامع لها أمّا الإسقاط فجار بين المناويل الكبرى في المستوى الأوّل (نشير إلى ذلك بالخطّ الغليظ) وبين العناصر في مستوى ثان (علامته الخطّ الدّقيق):

(7) المناويل الاستعاريّة في "أنشودة المطر" نماذج



خاتمة

لعلّ أبرز ما أثبتناه في هذا الفصل في شأن الاستعارة آليّةً من آليّات بناء الخطاب كون النّصّ استعارة كبيرة على غاية من التّعقيد والتّشابك، وفيها يجري الإسقاط ما بين مجالين خطابيّين على أساس التّناسب في الخصائص العامّة دون التّفاصيل، وتستكمل تلك التّفاصيل من الإطار المعرفيّ العامّ بمكوّنيه النّشيطين زمن معالجة الخطاب إنتاجا و/أو تأويلا.

كما أثبتنا أنّ المناويل الاستعاريّة تتظافر لبناء الرّمز في الخطاب، وهي مناويل متفرّقة يستقيم كلّ منوال مفرد بذاته تكوّن مجتمعة منوالا كبيرا تنصهر فيه هو الرّمز. كما قادنا البحث إلى قيام الإسقاط الاستعاريّ على منوال مفتاح هو خلاصة لجملة المناويل الفرعيّة تتنامى شيئا فشيئا في ثنايا الخطاب، فكما نتمثّل مفهوما مفردا على أساس مفهوم آخر، ونتمثّل مجالا على أساس مجال آخر، نتمثّل كذلك منوالا على أساس منوال آخر.

الفصل الثّالث

المزج المفهوميّ في النّصّ

مقدّمة

نشأت نظريّة المزج من تساؤل في ما به يكون نشوء المفاهيم الجديدة في الفكر البشريّ، بما يتضمّن ذلك من الصّور والأفكار والأعمال والمصنوعات في جميع المجالات. كما تبلورت للإجابة عن مسائل يكون بها حدوث المفاهيم مزيجا من مفاهيم أخرى فيكون لها معنى جديد غير متوفّر في المفاهيم المتمازجة كأن نعبّر عن عجز الطّبيب وعدم درايته بتسميته جزّارا أو عن صبر النّاقة ومداومتها في السّفر بتسميتها سفينة الصّحراء وما إلى ذلك، وقد تبيّن قصور نظريّة الاستعارة المفهوميّة (لايكوف1987) عن الإحاطة بنماذج من هذا القبيل إذ لا مجال فيها لتمثّل الطّبيب على أساس الجزّار أو للنّاقة على أساس السّفينة، ويظلّ السّؤال مطروحا في ما به كان بناء المعنى النّاشئ في كليهما أي الفشل والصّبر تباعا. وقد اتّسعت المجالات الّتي اعتمدت فيها آليّة المزج فكان منها العبارات المتداولة والنّصوص الشّعريّة والنّصوص الإشهاريّة والرّسوم والمصنوعات وما إليها. ولنا في هذا الفصل مجال لعرض أسسها النّظريّة فاعتمادها إطار تحليل لعدد من النّماذج من الخطاب العربيّ.

آليّة المزج: معالم نظريّة

من المزج[46] ما يجري في عبارة جمليّة مفردة وهو ممّا يخرج عن اهتمامنا في هذا السّياق إذ مصبّ العناية على مستوى جامع من الخطاب هو النّصّ. والمتصوّر أنّ المزج آليّة وعمليّات، جار على نسق واحد في المستويين محدث للنّاتج المزيج إحداثا واحدا.

[46] Blending (conceptual integration).

والمزج ملكة عرفنيّة بمعنى أنّها جملة عمليّات طبيعيّة يقوم عليها اشتغال الذّهن في جميع مظاهره بصورة طبيعيّة عفويّة آليّة. والمزج ملكة حركيّة مرنة عاملة زمن التّفكير (آن-قوليّة[47])، ويذهب فوكونياي (2001، 2) إلى أنّ المزج جزء من العرفنة الخلفيّة[48] (أو الباطنة) تشتغل من وراء السّتار مفلتة من الوعي، ويكون ناتجها في مستوى الوعي أعمالا عرفنيّة بسيطة مباشرة في ظاهرها ولكنّها في الواقع وليدة عدد من القوانين على غاية من التّعقيد تشتغل في العرفنة الخلفيّة تكوّن ما يطلق عليه شبكة المزج المفهوميّ[49].

وقوام هذه الشّبكة عدد من العناصر هي الأفضية الذّهنيّة وعمليّة الإسقاط ما بين الأفضية وعمليّات المزج والإسقاط الانتقائيّ[50] والتّركيب والإكمال والبلورة فعدد من العمليّات يأتي ذكرها بعد هذا تكتمل بها الشّبكة بقيام البنية النّاشئة.

أمّا الأفضية فأربعة، منها فضاءان دخْلان[51] وفضاء جامع[52] وفضاء مزيج. يمثّل الواحد من الفضاءين الدّخلين مصدرا للإسقاط يمتزجان بمقتضاه في الفضاء المزيج، ويترابط الفضاءان في الفضاء الجامع وهو إطار خطاطيّ يجمع العناصر المشتركة بينهما.

والمزج عمليّة يتطابق بمقتضاها الفضاءان الدّخلان تطابقا جزئيّا وينعكس قسم من عناصر كلّ منهما عن طريق الانتقاء في فضاء رابع هو الفضاء المزيج. والفضاء المزيج فضاء تتوالف فيه مكوّنات مختلفة من الفضاءين فينشأ فيه عن طريق الاستدلال معان جديدة ما من أثر لها في الفضاءين الدّخلين. ويقوم المزج على عدد من العمليّات هي التّركيب[53] والإكمال[54] والبلورة[55]:

---

[47] On line.
[48] Backstage cognition.
[49] Network (Model) of Conceptual Integration.
[50] Selective projection.
[51] Input space(s).
[52] Generic space.
[53] Composition.
[54] Completion.
[55] Elaboration.

أمّا عمليّة التّركيب فتحدث بإسقاط مضامين كلّ من الفضاءين الدّخلين رأسا في الفضاء المزيج وذلك بأن تنشأ علاقات جديدة لم تكن موجودة في ذينك الفضاءين منفصلين.

ويقوم الإكمال على إكساء المعاني أو التّصوّرات النّاشئة جملة من الأبعاد تستمدّ من المعارف العامّة المشتركة ومن التّجربة الجماعيّة المحفوظة في الذّاكرة طويلة المدى، فهي عمليّة لا واعية تبعا لمصادرها وطبيعتها (فوكونياي وتورنر1998، 144). والإكمال في العموم إنشاء لمعان جديدة لا يحملها منطوق الفضاء المزيج.

أمّا عمليّة البلورة فتمثّل تطويرا للمزيج من حيث تصوّره وتخيّله بتوسيع مداه وتفاصيله وأبعاده وتحميله بدلالات مخصوصة رمزيّة كانت أو غير رمزيّة.

ومن المبادئ المتحكّمة في المزج : الإدماج[56] وثبات التّعالق[57] وشدّة الاتّصال[58] وقابليّة التّفكيك[59] والتّبرير[60] :

وقوام مبدإ الإدماج ضمان الاندماج والتّماسك ما بين العناصر المكوّنة للمزيج تجعل منه وحدة متكاملة تعالَج معالجة كلّيّة، جميع ذلك ضمانا لاستقامة المزيج واستقلاله تصوّرا ومفهوما.

وينصّ ثبات التّعالق على أن يكون لكلّ عنصر في الفضاء المزيج نفس العلاقات الّتي لنظيره من العناصر المكوّنة للفضاء الدّخل.

أمّا مبدأ شدّة الاتّصال فغايته ضمان الاتّصال ما بين الفضاء المزيج وكلّ من الفضاءين الدّخلين، بشكل يسهل به الاهتداء إلى التّناسب بين المضامين في كليهما وذلك مباشرة ودون جهد إضافيّ ولا استدلال.

---

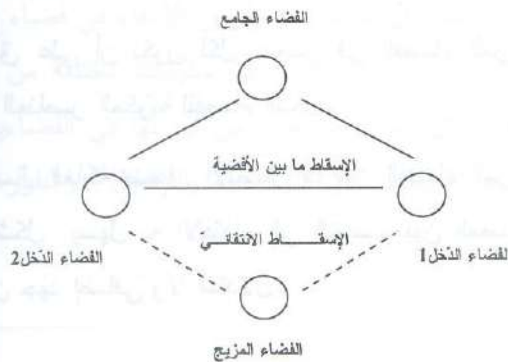
56 Integration.
57 Topology.
58 Web.
59 Unpacking.
60 Good Reason.

والشّرط في قيام المزيج قابليّة التّفكيك، وذلك بأن يتوفّر فيه ما به يتفكّك إلى مكوّناته بوجه تسهل له إعادة بناء الفضاءين الدّخلين أحدهما أو كليهما وما بينهما من عمليّات الإسقاط وما به يمكن الاهتداء إلى الفضاء الجامع كذلك وشبكة العلاقات الرّابطة بينها جميعا.

وينصّ مبدأ التّبرير على أن يكون كلّ عنصر في الفضاء المزيج مبرّرا من حيث وجوده ومعناه أو غايته، وقوام ذلك شرط الإفادة[61] من حيث تعلّقه بسائر العناصر الواردة في الفضاءين الدّخلين ومن حيث وظيفته في اشتغال الفضاء المزيج واستقامته.

ومن الظّواهر البارزة في عمليّة المزج تكثيف[62] العلاقات الأساسيّة[63] (تورنر2000) من قبيل الزّمان والمكان والقياس والقصديّة والتّماثل وتطابق الهويّة وما إلى ذلك من المقولات العابرة للأفضية[64] الذّهنيّة. وبالتّكثيف تتحول تلك العلاقات إلى علاقات داخل فضاء[65] واحد هو الفضاء المزيج فتندمج فيه فيعود ما كان منها متعدّدا متكرّرا إلى الإفراد والأحاديّة. إجمال ذلك في التّمثيل (1) نقلا عن فوكونياي وتورنر(1998، 137) وفوكونياي (2001، 3):

(1)



---

[61] Relevance.
[62] Compression.
[63] Vital relation(s).
[64] Extra-spatial.
[65] Intra-spatial.

بعد أن بسطنا الأسس النّظريّة الّتي تقوم عليها نظريّة المزج يمكن أن نخلص إلى إثبات أمر آخر قلّما وجدنا له أثرا في الدّراسات الّتي اطّلعنا عليها ما عدا إشارات وإرهاصات تفيد بأنّ المزج عمليّة تشمل العبارات المفردة من الجمل والأقوال المحدودة بالأساس، كما يمكن أن تتوسّع لتشمل الخطاب والنّصّ بشكل عامّ والنّصّ السّرديّ أو الشّعريّ أو المسرحيّ أو السّياسيّ بشكل خاصّ. ومن هذه الإشارات النّادرة ما ورد في كتاب مدخل في الإنشائيّة العرفنيّة[66] (ستوكوال 2002، 97-104) حيث يرى صاحبه أنّ المزج عمليّة ممكنة في النّصوص المطوّلة وهي حادثة بإنشاء عوالم ذهنيّة مزجيّة موسّعة[67].

آليّة المزج في الخطاب : نماذج المزج في النّصوص المثليّة

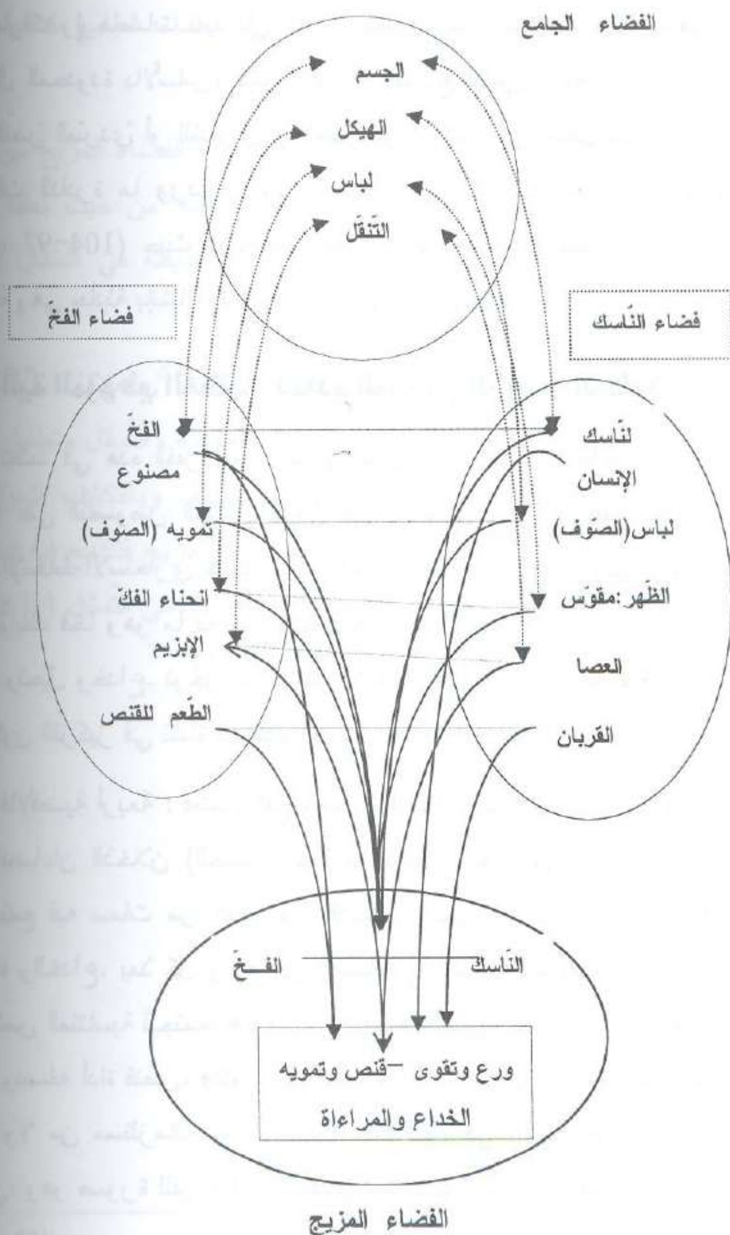
نعتمد في هذه الفقرة نصّا مضى تحليله في الفصل السّابق من هذا الباب نموذجا على النّصوص المثليّة القائمة على الاستعارة، ولئن استقام التّحليل على أساس الإسقاط الاستعاريّ هناك، يظلّ التّساؤل قائما في ما به تتبني الموعظة في كون النّاسك فخّا وهو ما به نشأ مفهوم جديد هو"النّاسك الفخّ"، بما يقوم عليه من مراءاة وتحيّل وخداع. نوجز في ما يلي التّحليل فالمعوّل على ما سبق عرضه في بابه ليكون التّركيز في نشأة المفهوم المزيج :

فالأفضية أربعة : فضاء الفخّ وفضاء النّاسك بسماته وفضاء جامع هو ما فيه يتّفق الفضاءان الدّخلان (الجسم، الهيكل، اللّباس، التّنقّل...)، ففضاء مزيج حادث بأن تجتمع فيه سمات من الفضاءين الدّخلين وتتمازج فينشأ بها معنى جديد هو المراءاة والخداع. يمدّ كلّ واحد من الفضاءين الدّخلين الفضاء المزيج بجملة من الخصائص المتناسبة ليجتمعا فيه في كائن نصفه إنسيّ ونصفه معدنيّ، نصفه متعبّد متزهّد ونصفه أداة قنص، فتكون الخلاصة ما بينهما معنى ليس من متضمّنات هذا الكائن ولا من مستلزماته، وإنّما يبنى، استدلالا، في الذّهن هو الكائن المخادع المرائي، وهو صورة للقرّاء أو للمتعبّدين كما ظهر ذلك في تعليق الرّاوي. تمثيل ذلك في (5) :

---

66 Peter Stockwell, 2002.
67 Extended blend.

(5) شبكة المزج المفهوميّ : 'الفخّ ناسكا'.



المزج المجسدن: النّاس بقرا

يتجاوز المزج من حيث هو آليّة عرفنيّة عامّة، المظهرَ اللّغويّ فيجري في كلّ ما يكون به اشتغال الذّهن في إطاره الجسديّ وفي محيطه.

ومن المجالات الّتي يتجلّى فيها المزج المفهوميّ في نشاط غير لغويّ قوامه وضعيّات مادّيّة متنوّعة، يكون فيها ناتج المزج حركة أو هيأة أو مصنوعا مزيجا. من ذلك ما يشير إليه فوكونياي (2001، 2005) متّصلا بوضعيّات في الحياة اليوميّة من قبيل المدرّب الّذي يعلّم شخصا التّزلّج على الجليد (فوكونياي 2001):

يسعى المدرّب إلى تلقين الشّخص المتعلّم جملة من الهيئات يقتضيها عمل التّزلّج تكون للجسم كاملا وللذّراعين وللعينين في أوضاع التّزلّج المختلفة تبعا للتّضاريس، وخاصّة عند الانحدار. إذ يقتضي الانحدار النّظرَ إلى المنحدر في امتداده وتعريجاته، بدل تركيز النّظر على المزلاجين، أو على ما هو أمام المتزلّج رأسا، وهذا يمثّل الفضاء الذّهنيّ الدّخل الأوّل. فقد يعمد المدرّب إلى أن يطلب منه أن يتمثّل هيأة النّادل في بعض المطاعم أو المقاهي ويستحضرها وهو يحمل الأطباق بما عليها من أكواب مليئة أو فارغة ومن مأكولات، ويجول بها بين الموائد دون أن يريق أو يسقط منها شيئا. وهذا الفضاء الدّخل الثّاني. فيكون من المتزلّج المتدرّب هيأة وحركات قريبة من المطلوب في الانحدار، وهي متولّدة من المزج بين الفضاءين. فيكون في هذا أربعة أفضية:

يتمثّل الفضاءان الدّخلان في وضعيّة التّزلّج من جهة ووضعيّة النّادل من أخرى، وبينهما تناسب عن طريق الإسقاط في هيأة الذّراعين والنّظر بالعينين، وهو إسقاط جار في ذهن المتدرّب وفي ذهن المدرّب، وفي الفضاء الجامع هيأة الجسم والحركة مطلقا، أمّا الفضاء المزيج ففيه تمتزج هيأة النّادل بهيأة المتزلّج المتدرّب، فيكون في آن متزلّجا يحمل طبقا ونادلا يتزلّج، ويكون النّاتج حركة أو تنقّلا مادّيّا في المكان على مزلاجين.

ومن نماذج هذا المزج ما نظفر به في الحياة اليوميّة، ما يكون من الأب يعلّم ابناءه السّباحة صيفا، فيكون منه نصائح من قبيل "احسب نفسك نائما أو مضطجعا على مضرّبة الفراش" أو قولنا في الأمثال "ارتخِ تسبحْ" في المعنى الأوّل

مقترنا بالسّباحة أو في مقامات أخرى بمعنى "خذ الأمور هيّنة تجد الحلّ". ومن نماذج هذا المزج ما نجد في الخبر التّالي:

(6)

حدّث عثمان الورّاق قال :

رأيت العتّابيّ الشّاعر العبّاسيّ يأكل خبزا على الطّريق بباب الشّام.

فقلت له : ويحك، أما تستحي؟

فقال لي : أرأيت لو كنّا في دار فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟

فقلت : لا.

قال : فاصبر حتّى أعلمك أنّهم بقر.

فقام فوعظ وقصّ ودعا، حتّى كثر الزّحام عليه،

ثمّ قال لهم : روى لنا غير واحد، أنّه من بلغ لسانُه أرنبةَ أنفه لم يدخل النّار.

فما بقي واحد إلاّ وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ويقدّره حتّى يبلغ أم لا.

فلمّا تفرّقوا، قال لي العتّابي : ألم أخبرك أنّهم بقر؟!

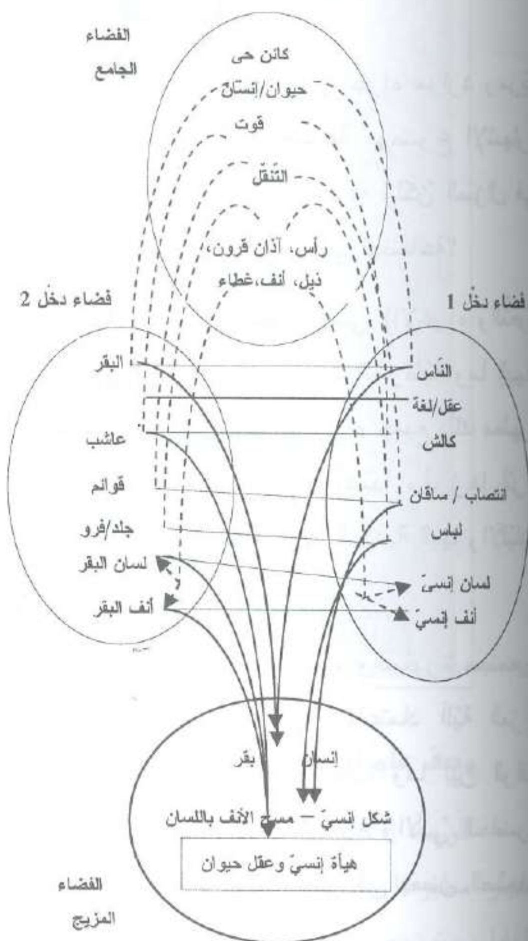
الأصبهانيّ : الأغاني، ج1، 380.
دار الكتب العلميّة، بيروت.

قوام الخبر تحوّل من المزيج الافتراضيّ كائنا بالقول في (لو كنت بحضرة البقر أنت تستحي؟ قال : "فاصبر حتّى أعلمك أنّهم بقر.") إلى مزيج متحقّق واقع معاين في (وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ويقدّره حتّى يبلغ أم لا/ ألم أخبرك أنّهم بقر).

والمزيج حادث في تطابق هيأة النّاس بهيأة البقر دون أن يعلموا بذلك. فقد أوحى الواعظ بهيأة البقر دون أن يسمّيها واتّخذها السّامعون ببساطة، فالمزج لم يكن في أذهانهم وإنّما هو في ذهن الواعظ (يقينا وحقيقة) والرّاوي (افتراضا فتحقيقا).

فيكون المعنى النّاتج بعد عمليّات الإكمال والبلورة وغيرهما: ناس مغفّلون بقر يفعلون ما يسمعون طمعا أو خوفا، وهو يخفي موقفا إيديولوجيّا أساسه موقف الخاصّة من العامّة، والعالم من الجاهل، والإنسان العاقل من الحيوان البهيمة، تمثيل ذلك في (7).

(7) شبكة المزج المفهوميّ: 'النّاس بقراً'.



المزج في الخطاب القائم على تعدّد السّنن

نعتمد في ما يلي نموذجين ممّا تتعدّد فيه السّنن وهما الإشهار بالكلمة المصاحبة للصّورة الفوتوغرافيّة أو السّينمائيّة واللّوحات الكاريكاتوريّة بالكلمة المصاحبة للرّسم ملوّنا أو غير ملوّن.

المزج في الخطاب الإشهاريّ : الكلمة والصّورة

من الثّابت أنّ الإشهار خطاب يعمد فيه صاحبه إلى إجراء موارد رمزيّة متنوّعة، الغاية منه حمل لمتقبّل على الإقبال على البضاعة موضوع الإشهار، يكون ذلك بتزيينها عنده لإغرائه. وهذا من المقرّرات المعروفة ولكنّ السّؤال في ما به يكون ذلك أو في ما به ينشأ الدّافع عند المتلقّي فيقبل على البضاعة؟

وتتشعّب الطّرق في هذا المستوى ما بين التّفسير النّفسيّ (الإغراء والتّعوّد والاستلاب وما إليهما)، والتّفسير النّفسيّ العصبيّ (المنعكسات الشّرطيّة وما إليها) والتّفسير الاجتماعيّ (الاستهلاك وما إليه)، ولكنّنا نعتقد أنّ وراء جميع ذلك مظهرا عرفنيّا متشابك المكوّنات والموارد، قد يكون المزج من أهمّها وأبرزها أثرا، والمهمّ ليس في تفسير الغاية وإنّما في بيان القنوات الرّمزيّة المؤدّية إليها والآليّات المشتغلة عندها فيها.

وقد اخترنا من أدوات الإشهار ما يكون فيه الخطاب والصّورة مجتمعين متظافرين متكاملين في النّشاط الإشهاريّ لإحداث الأثر باعتماد آليّة المزج المفهوميّ ما بين المضامين في الصّورة ومضامين الخطاب وما بين الواقع والتّمثيل وما بين المخزون في الذّاكرة الفرديّة و/أو الجماعيّة والآنيّ الحاضر. واتّخذنا لذلك نموذجا أسميناه"المرهم غشاءً/حجابا" وقد انتشر في بعض الصّحف التّونسيّة على أبواب العطلة الصّيفيّة :

(8) لوحة : المرهم غشاء/حجابا

وصف عامّ للّوحة

اللّوحة الإشهاريّة قائمة على التّواصل البصريّ أساسا من حيث كانت إشهارا مطبوعا على حامل بصريّ يقوم على توزيع المضامين البصريّة في فضاء الحامل، وتوزيع الألوان ما بين المضامين لتمييزها وتوزيعها توزيعا متناسقا. ولا شكّ أنّ وراء جميع ذلك تقنيات ومهارات في إخراجها ولكنّها لا تعنينا في هذا المقام فمحطّ عنايتنا دراسة عرفنيّة تنشد إقامة نمط في التّفاعل ما بين المتقبّل واللّوحة بما يكون في ذهنه من عمليّات تنشط برؤية اللّوحة وتأمّلها بما ينغرس في ذاكرته البصريّة من صور تهمّ البضاعة موضوع الإشهار بتظافر الأدوات اللّغويّة

المكتوبة والصّور. وتوفّر الخطاب المكتوب مدخل عنايتنا بهذا النّمط من النّشاط الإشهاريّ التّجاريّ. وممّا يزيد اللّوحة عناية، امتدادها على صفحة كاملة مخصوصة بها من مجلّة أسبوعيّة تصدر يوم الأحد – أي يوم العطلة الأسبوعيّة- ملحقا لجريدة يوميّة[68]، ينضاف إلى ذلك كونها بالألوان الطّبيعيّة.

(1)- جمهور اللّوحة :

اللّوحة الإشهاريّة منشورة في مجلّة تتوجّه إلى جميع النّاس ولكنّها تنتقي جمهورها، فهي رسالة مخصوصة بالنّساء دون الرّجال، وبالبالغات دون الأطفال أو العجائز دليل ذلك كلّه صورة الفتاة بصريّا ووظائف المرهم كتابةً.

(2)- مكوّنات اللّوحة:

ثلاث صور فوتوغرافيّة وجملة من الرّسائل اللّغويّة المكتوبة في شكل برقيّ مكتنز موجز، وهما مكوّنان متكاملان:

(أ)- الصّورة الأولى:

علبة المرهم بها يتيسّر الاهتداء البصريّ إليها في جميع المواضع عند من سجّلتها ذاكرته، وفيها ترسيخ للمعالم البصريّة ترسيخا خارجيّا، إذ الصّورة واضحة ذات حجم كاف ييسّر قراءة المعطيات الّتي تحملها العلبة من زوايا ثلاث بما في ذلك علامة المخبر المصنّع واسم المرهم ودرجة التّغطية (50)، ويحيط بها بياض بوجه تحتلّ به ربع المساحة من الصّفحة، ويقترن بها مباشرة شعار "التّجديد"[69] فكأنّ العلبة تحمله وكأنّه خارج منها لو انفتحت. ولئن غاب محتوى العلبة (أي أنبوب المرهم) فهو مدلول عليه في اللّوحة بأدوات من منظومتين متكاملتين: وصف لغويّ وصور تجسّد ما عبّرت عنه الأوصاف اللّغويّة المكتوبة، فمحتوى العلبة مرهما حاضر موصوفا لغويّا من جهة وأثرا أو مفعولا مبصرا ظاهرا باديا في صورة جسديّة من جهة أخرى، ولنا عود إلى ذلك في إبّانه.

---

[68] La Presse Magazine, N°1133/ 5 juillet 2009, Page 15.

[69] Innovation.

(ب)- صورتان تتقاسمان عموديّا نصف الصّفحة الأيسر، هما لفتاة واحدة في هيأتين مختلفتين تتّفقان في زرقة خلفيّة توحي بالصّيف والشّمس. وهما أساسيّتان في تجسدن المفاهيم الواردة في الخطاب المكتوب في اللّوحة وفي تجسدن القارئ (أو القارئة) فيهما بأن تتمثّل نفسها مكانها، في انتظار أن تشتري المرهم لتكون هي هي.

(3)- المكوّن اللّغويّ في اللّوحة :

(أ)-العنوان :

يلخّص مضمون الإشهار، ونصّه 'غشاء ملوّن من مخابر فيتيال[70]' مكتوب بالأحرف التّاجيّة.

(ب)- الفقرات بعناوينها مرقّمة : (1) مرهم مروٍ[71] (أو : دهن مرطّب)، (2) غشاء تامّ[72]، (3) ملوّن أساسيّ للبشرة[73]، (4) مسحوق ملمّع[74]، (5) مقاوم لتحويق العينين.[75]

وهي فقرات خمس تُختتم بنتيجة لعمليّة جمع حسابيّة تتراكم بمقتضاها الخمسة في واحد وتجتمع الوظائف الخمس في مرهم واحد تأتي صورته تحت ذلك مباشرة. فكأنّ الخطاب السّابق نوع من الإخبار يتلوه حضور المخبَر عنه، كما يكون الأمر في تقديم النّجوم من المغنّين في الحفلات العامّة. ولكنّ هذا التّقديم على خلاف ذلك ورد موجزا مكتنزا برقيّا. فتكوّن صورة العلبة الحاوية للمرهم، تجسيدا للمضامين الواردة قبلها، فقد وردت الوظائف موزّعة ثمّ جمعت في خمسة والخمسة تلك في حاوية واحدة هي علبة المرهم.

ويرتبط مفهوم الكثير المتعدّد في واحد، وقد تمثّل في لوحتنا في "خمسة في واحد"،[76] بموجة في التّكنولوجيا المتطوّرة أساسها السّعي إلى صناعة الآلات ذات

---

[70] PHYTÉAL ÉCRAN TEINTÉ
[71] Crème hydratante.
[72] Ecran Total .
[73] Fond de Teint.
[74] Poudre Compacte
[75] Anti-cernes.
[76] 5 en 1.

الوظائف المتعدّدة[77] ونفس الأمر ينتشر في المجال الصّيدليّ وموادّ التّجميل وموادّ التّنظيف وما إليها. فيكون تعدّد الوظائف شعارا متواترا في الإعلانات الإشهاريّة. والمفاد منه أنّ في تكثيف المفعول أو تعدّد الوظائف ضمانا للرّاحة وربحا للوقت.

فمن يقرأ الإشهار -موضوع درسنا- يدرك أنّه ليس في حاجة إلى شراء خمسة مراهم متفرّقة للحصول على النّتائج الخمس، وفي ذلك ربح ماديّ ثمّ ربح في الوقت إذ يقتضي تطبيق مراهم خمسة وقتا أطول. فإذا ما اجتمعت المراهم في واحد كان الوقت أقصر وكان كذلك حفظ علبة واحدة وحملها أيسر من حفظ خمس من العلب... وجميع ذلك يتضمّنه شعار 'الخمسة في واحد'.

ونلاحظ أنّ الوظائف الخمس وردت على ترتيب تحكمه سلّميّة قوامها العامّ ثمّ الخاصّ منطبقا على المجال الّذي تنطبق فيه الوظيفة من الجسم كاملا: فالمرهم مادّة تنطبق على الجلد أو البشرة، والبشرة مواضع مختلفة توزّعا، وظهورا أو خفاء، وتعرّضا للعوامل الخارجيّة أو حماية منها وتغطية أو كشفا، وفي ضوء ذلك كان ترتيب الوظائف:

- أوّلا: مرهم (دهن) مروّ (مرطّب) : التّروية عامّة تهمّ البشرة في جميع المواضع من الجسد، وهي حاجة مستمرّة ضروريّة لضمان ليونة البشرة ونضارتها، وعمومها هذا جعلها الأولى في التّرتيب.

- ثانيا: غشاء تامّ : الوقاية من العوامل الخارجيّة ومن الأشعّة خاصّة (مافوق البنفسجيّة أساسا وإن لم يحدّده الإعلان صراحة تعويلا على عناصر المقام العامّ والمعرفة بالكون بما في ذلك فصل الصّيف وما يقترن به من إطار الحرّ والشّمس وثقب الأوزون والسّباحة وما إلى ذلك) وإذ كانت البشرة المعرّضة للشّمس في حاجة إليه، وكانت جزءا من البشرة كلّها، كانت هذه الوظيفة ثانية.

- ثالثا: ملوّن أساسيّ للبشرة: ينطبق المرهم ملوّنا أساسيّا على الوجه والرّقبة وما بدا من الصّدر أو الكتفين، فمجاله من البشرة محدود بالقياس إلى السّابق ولذلك كان ثالثا.

---

[77] Multifonction(s).

– رابعا: مسحوق ملمّع: ينطبق التّلميع على الخدّين أو الوجنتين فوق الملوّن الأساسيّ، فموقعه لاحق على سابقه، ويعطي اللّمسة الأخيرة للخدّين لونا ولمعانا، فكانت وظيفة رابعة.

– خامسا: مقاوم أو مضادّ لتحويق العين بما فيه من علامات السّهاد أو التّعب والإرهاق، والحدقة فضاء محدود من حيث الامتداد فكانت هذه الوظيفة خامسة.

وخلاصة ذلك رسالة إلى القارئة مضمونها: هذا مرهم يجعلك جميلة ويحميك، يحميك ولا يغطّيك، هو غشاء يحميك دون أن يحجب جمالك، أو بعبارة أخرى: هذا مرهم يقاوم شعاع الشّمس دون أن يطمس شعاع الجمال. وهذا ما سنتبيّنه في تحليل الصّورة الأساسيّة في اللّوحة بما يتمازج فيها من هذه المفاهيم ويتجسدن.

وتتضمّن اللّوحة –في مكوّنها اللّغويّ – إشارة بارزة بخطّ تاجيّ غليظ إلى مواطن التّزوّد. فالمرهم لا يباع إلاّ في الصّيدليّة[78]، وما الحرص على اقتران المرهم بالأدوية إلاّ تحصين لقيمته وضمانٍ لثقة النّسوة من النّاس فيه، فهو مرهم دواء لما في الأدوية من نبل من حيث كانت صناعة وعلما واختبارا وثقة وأمانا. ومعناه أيضا 'احذري التّقليد فمنتوجنا لا يباع في الشّوارع أو في المحلاّت التّجاريّة العامّة كما يباع النّكرة من المراهم. بل إنّ صورة العلبة في اللّوحة تحمل جملة من المعطيات المتعلّقة بالاستعمال وما اتّصل به مثل الأدوية، نراها في الصّورة على شكل خطوط لا يمكن قراءتها فيها، ولكنّنا نتصوّرها كذلك بحكم المنوال الثّقافيّ (المعرفة العامّة) الّذي تقترن فيه الدّواء بدليل الاستعمال مكتوبا على العلبة أو مصاحبا للدّواء فيها. ويترسّخ جميع ذلك بتواتر شعار المخبر اسما وعلامة ثلاثا من المرّات : واحدة في العنوان مقترنة باسم المرهم والأخرى على علبة المرهم والثّالثة مساحة مخصوصة من اللّوحة تمثّل إمضاء المخبر، وجميع ذلك ترسيخ للأمان والثّقة وهو دون شكّ تسجيل للعلامة كما هو معلوم في الأعراف الإشهاريّة والصّناعيّة التّجاريّة.

وتتضمّن اللّوحة صورتين يبدو أنّهما لنفس الفتاة إحداهما نصفيّة والأخرى تعرض الوجه فقط.

---

[78] VENTE EXCLUSIVE EN PHARMACIE.

أمّا الصّورة النّصفيّة (وهي السّفلى في اللّوحة) ففيها الفتاة ناظرة إلى الشّمس وذلك بحكم اتّجاه الظّلّ المرتسم على صفحة الوجه والكتفين، هو ظلّ الرّاحة من اليد تغطّي الوجه من الشّمس في حركة يأتيها أيّ شخص ينظر في اتّجاه الشّمس أو أيّ مصدر آخر لشعاع قويّ. ولكنّ حركة التّغطية تلك، تعارض مفعول المرهم غشاء حاميا من الشّمس فيكون مضمون الصّورة مكمّلا لمضمون الرّسائل اللّغويّة مرسّخا إيّاه فكأنّه يقول للمرأة القارئة: "بهذا المرهم لست في حاجة إلى ما يحميك من الشّمس إلاّ إذا ما رنوت إليها وحدّقت فيها." وهو أمر لا يحدث كثيرا وهو لا يطول إن حدث. أو يقول لها: "هذا المرهم يحمي بشرتك (اليد والذّراع والوجه والرّقبة والكتفين والصّدر) ولكنّه لا يحمي عدسة العين، فعليك بوضع نظّارتين لحماية العدسة من شعاع الشّمس." وكان من الممكن أن تحمل الفتاة في الصّورة نظّارتين ولكن ذلك قد يحوّل الانتباه والعناية عند القارئة من بشرة الفتاة من النّصف العلويّ كاملا ليتركّز في العينين حيث سواد النّظّارتين فيكون إشهار غير مباشر للنظّارة مطلقا أو دعوة إلى وضع نظّارات وهو ما يفسد عمليّة الإشهار للمرهم. وتظلّ هذه الصّورة النّصفيّة رسالة فوتوغرافيّة أيقونيّة، عامّة سطحيّة في ترسيخ المضمون الإشهاريّ وهو ما تخصّصه وتعمّقه الصّورة الأخرى، ولعلّها من أجمل ما يكون في اللّوحة ثراء وإيحاء وصنعة تقنيّة.



يُعرض في هذه الصّورة وجه فتاة ترمق النّاظر بعينين واسعتين وقد غطّى النّصفَ الأيمنَ من وجهها غشاءٌ شفّاف داكن هو عبارة عن قماش شفّاف ناعم تغشاه مسحة باهتة خافتة من سُمرة أو أُدمة، ينغلق باعتماد مزلاج تمتدّ واحدة من سكّتيه على كامل الخدّ الأيمن والعين اليمنى دون الفم والأنف كما شمل الغشاء أعلى الجبهة كاملة، ثمّ يوازي النّصفُ الآخرُ من سكّة المزلاج الحاجبَ الأيسر ليذهب وقد تقوّس تقويسة الحاجب، في اتّجاه الشّعر دون أن ينزل إلى الأذن وينتهي بأن يذوب في الشّعر من جديد فكأنّه منه.

وقد يثير جميع ذلك جملة من الأسئلة يتعلّق بعضها بما تجلّى من الوجه وما خفي، فالخفيّ منه متجلّ والمتجلّي مخفيّ. ويتعلّق بعضها بالمزلاج هيأة واتّجاها، ويتعلّق بعضها بالأصبعين يمسكان بالمزلاج في حركة لا ندري أتطلب الفتح أم تغلق ولا ندري صاحبتهما من تكون؟

والمهمّ أنّ الجسد ممثّلا في الوجه قد لبس الغشاء المرهمّ فلبسه الغشاءُ في اتّحاد كامل فلا نجد في الصّورة ثنايا له كما هو الأمر في اللّباس المعهود، فكأنّه بشرة ثانية تركب الأصليّة بل قل ذاب فيها وحلّ بشكل يوحي بلونها ونضارتها وصفائها وقد غطّاها، في حين يظلّ النّصف المكشوف على لونه الأصليّ وهو يوحي باستعادة اللّون الأصليّ حالما يرتفع الغشاء، ويُبين عن قوّة التّغطية في الغشاء إن استعمل. ولئن كانت الصّورة الأخرى خادمة لمضمون اللّوحة خدمة عامّة باهتة، فإنّ هذه الصّورة تخدمه وتركّزه وترسّخه من حيث قامت على تبئير وتركيز في وظيفة المرهم الأساسيّة، وهي واحدة من خمس تمثّل مظهر الجدّة فيه، هي وظيفة الوقاية والتّغطية مشارا إليها بالغشاء إذ كان المرهم ملوّنا[79].

وباعتماد هيأة الفتاة ممسكةً بأصبعين بالمزلاج في وضع لا نتبيّن فيه اتّجاه التّزليج أهو سائر في اتّجاه الفتح أم في اتّجاه الغلق. وهي هيأة توحي بصورة الخمار (الحجاب، القناع) يغطّي الوجه ويكشف عنه جزئيّا مبديا قسما منه أصليّا دون غشاء هو الطّبيعيّ، وأمّا القسم الثّاني فمخفيّ جزئيّا في حال مرهم فيتيال ولو كان خمارا قماشيّا عاديّا لاختفى كلّه بمعالمه كلّها وتشتغل في ذلك خطاطة التّناظر

[79] Ecran teinté.

تبين بها العناصر المتناظرة منطلقا لعمليّات مسح ومقارنة بين الظّاهر والخفيّ، وبين ما كان وما يكون، وبين ما قبل وضع المرهم وما بعد وضعه. وأمّا الفارق بين حال الخمار الثّخن والخمار الشّفّاف (حال المرهم المعنيّ هنا) فكامن في درجة التّغطية : هو الجسد في هيأتين متزامنتين في الصّورة ولكنّهما قد تُتصوّران متعاقبتين أو متناوبتين:

فالنّصف المكشوف هو الأصل ولا قناع فوقه والنّصف المقنّع حال طارئة تعقب الأولى، ويمكن العود إلى الأصل حال انتهاء تطبيق المرهم. ولكنّهما كائنتان في زمن واحد لبشرة واحدة بفعل هذا المرهم الشّفّاف وقد فسّرنا بما يكفي كونه غشاء يحمي صاحبته دون أن يحجبها يقاوم شعاع الشّمس دون أن يطمس شعاع الجمال.

وفي هذه اللّعبة ما بين الخفاء بالحماية والتّجلّي بالتّجميل تكون حركة المزلاج في الصّورة وهيأة الأصبعين تمسكان بمقبضه حركتين ممكنتين متساويتين: إن شئت كانت فتحا وكشفا وإن شئت كانت غلقا وحماية. فهي في الحالين لا تغطّي شيئا من الجمال ولا تترك شعاعا ينفذ إلى البشرة الجميلة.

ثمّ إنّ وضع المزلاج بانفتاح ما أمامه- في اتّجاه الأنف والشّفتين في الصّورة- وانغلاق ما وراءه يوحي بكون منبته في مستوى الشّعر (أمّ الرّأس) منه ينبت ويصدر كالذّائب فيه، ومنه بداية الغلق وعنده منتهى الفتح، وينضاف إلى ذلك غياب الحدود الّتي تنتهي عندها سكّتا المزلاج في الاتّجاهين. فهما ذائبتان في الجسد عند كليهما وجميع ذلك يجعل من القناع لباسا، ولكنّ اللّباس المعهود يوضع ويغلق فيلفّ ويحجب ويحمي أو يُخلع ويُفتح ويُزال فيكشف ويجلّي، وهذا المرهم لباس مخصوص إذ يؤدّي الوظيفتين في آن من حيث كان حاميا كاشفا. وفي هذا يكون المزيج ما بين اللّباس المعهود والمرهم أو بين القناع الحجاب والمرهم لينشأ مفهوم مزيج هو المرهم القناع أو المرهم الحجاب.

ولهذه اللّوحة الإشهاريّة فعل في القارئة وأثر فيها على غاية من القوّة، أساسهما قدرة عجيبة في تصوّر اللّوحة بأدواتها جميعا وخاصّة صورة الوجه من

الفتاة، وفي اشتغال آليّة المزج تُستحضر بها العناصر المتمازجة استحضارا واحدا فوريّا، كلاّ بإطاره ليكون المفهوم المزيج حادثا جديدا فريدا بديعا، ولعلّه من فضول القول أن نذكّر بأنّ هذه الآليّات تشتغل اشتغالا عفويّا إذ هي من آليّات العرفنة عامّة معنى ذلك أنّنا لا ندّعي أنّ مصمّم اللّوحة قد فكّر في جميع ما ندّعيه في ضوء نظريّة المزج هي:

إطار الصّيدلة: دواء، علاج، شفاء، وقاية، أدوات مخبريّة، تعقيم، ضمان وأمان، مراهم الحماية (50) على علبة المرهم في اللّوحة، نجاعة المراهم، تعدّد الوظائف (5 في 1)، إلخ.

إطار العلامة التّجاريّة: مخابر فيتيال، بلد التّصنيع يوحي بأصالة المستحضر والأمان فيه (بلد المصنّع على صورة العلبة: فيتيال- قراسّ- فرنسا)، الضّمان التّجاريّ، التّجريب والعناية بالمستحضر، الاسم التّجاريّ، الحرص على بيع المستحضر في الصّيدليّة، إلخ.

إطار الصّيف : الشّمس، سباحة، حرارة، زرقة السّماء، الظّلّ، التّبرُنز، مراهم الحماية من الشّمس، النّظّارات الشّمسيّة، المظلاّت، الشّاطئ،إلخ.

إطار اجتماعيّ (رفاهيّ): الحفاظ على البشَرة، البحث عن دوام علامات الشّباب وتأخير علامات الشّيخوخة، البحث عن المتعدّد الوظائف، كثرة المشاغل وانحسار الوقت، الجمال قيمة اجتماعيّة، نوع المرهم وثمنه قيمة اجتماعيّة ودليل على منزلة فيه، إلخ.

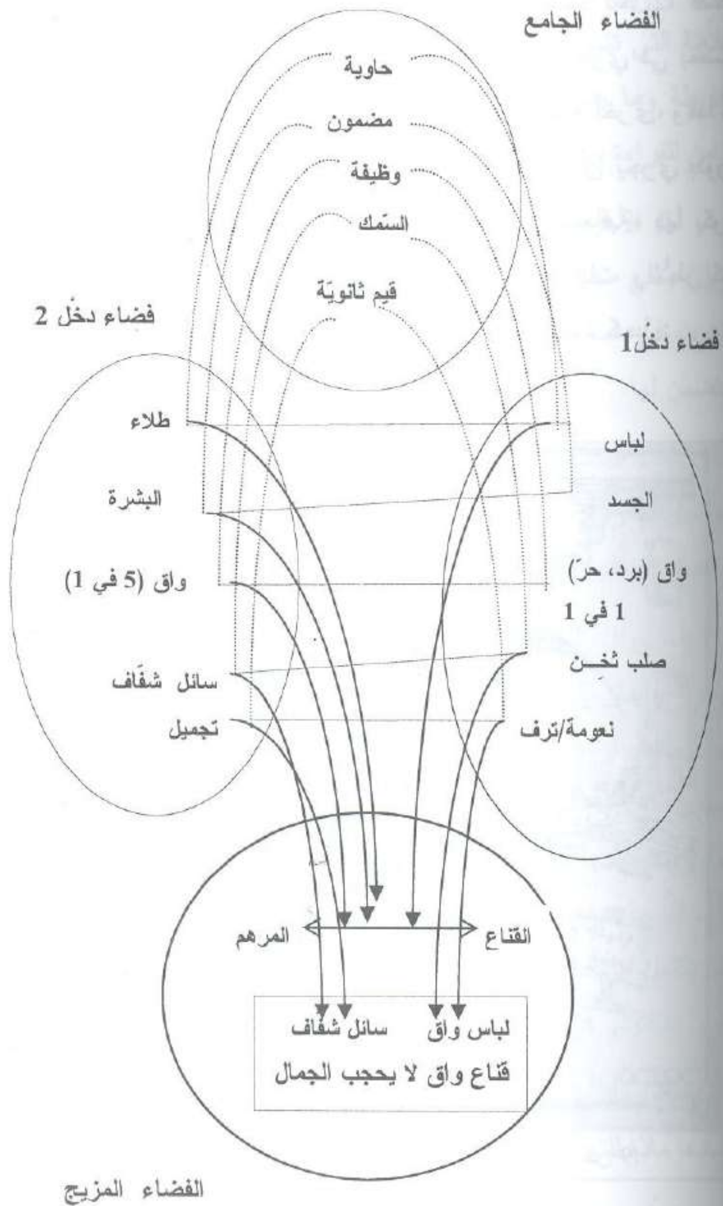
إطار الفتاة (الجمال): نضارة، صفاء البشرة، جمال، راحة، أناقة، حيويّة، الخوف من ملح البحر والشّمس، اسوداد البشرة بفعل الشّمس، التّفكير في آثار الصّيف بعد العطلة،

إطار اللّباس: قناع، ساتر، واق، المزلاج، إلخ.

القارئة: يجري إسقاطها في المزيج من حيث هي امرأة قد تحتاج إلى الخروج في الشّمس، تحافظ على نضارتها وصفاء بشرتها وجمالها وتبحث عن الرّاحة والأمان، وهي نفسها تُسقط نفسها على صورة الفتاة فترى نفسها فيها أو ترى نفسها هي.

والعلاقات ما بين الأطر عائدة إلى أنواع عديدة منها ما أساسه الزّمن به يكون الإسقاط ما بين أزمنة متعدّدة من قبيل أن يكون حاضر القارئة قبيل العطلة يُسقط على مستقبل قريب يكون فيه الذّهاب إلى البحر وقد لبست المرهم القناع، بل يكون الإسقاط في زمن ما بعد العطلة والبحر عند عودتها إلى العمل بشكل مقبول وبشرة لا تحمل آثار الصّيف، وغير هذا ممكن وكثير. ومنها ما يقوم على ارتباط السّبب بنتيجته بدءا بالمرهم وفعله في البشرة يحفظها من عوامل التّغيّر فيدوم شبابها وتتأخّر شيخوختها- لنستعمل عبارات جارية في هذا عند أهل الاختصاص- وانتهاء إلى أبعد ما يمكن تصوّره من انعكاس الرّبط بين السّبب ونتيجته عند من فاتها الأوان من القارئات فلم تتوفّر لها فرصة هذا المرهم فتتلافى أمرها باستعماله إن شاءت أو بحمل من تحبّ من بناتها أو من معارفها على استعماله نصحا وحبّا. ومنها ما أساسه المكان يُسقط من أفضية مختلفة تتمازج في واحد من قبيل حضور البحر مكانا والشّمس في مكان القراءة فتتخيّل القارئة نفسها في الشّاطئ مكتفية بوضع يدها على جبينها لاتّقاء الشّمس إن رنت إلى بعيد وهي غير محتاجة إلى ذلك، ومنها حضور مكان الصّيدليّة ومنها التّغيّر والتّحوّل بفعل الشّمس وبطلان ذلك بفعل المرهم ومنها الهويّة لا تمّحي معالمها بتطبيق المرهم إذ كان لا يحجب، وجميعها يتكثّف بما يستحضره في الفضاء المزيج "المرهم حجابا". فالمفهوم يتجسدن في الصّورة والقارئةُ تتجسدن فيها وجميع ذلك في ذهن القارئة. تمثيل ذلك في (8):

(8) شبكة المزج المفهوميّ :المرهم قناعا.



المزج في أساسه رباعيّ الأفضية (فضاء دخل1، فضاء دخل2، فضاء جامع، فضاء مزيج) ولكن يحدث أن تتراكب عمليّات المزج ليجري في بعضها وخاصّة في الفضاءين الدّخلين فضاء كان قد نشأ مزيجا من أفضية أخرى، وهذا ما يعرف بالمزج المتعدّد الأفضية[80]. ويمكن لهذا الفضاء المزيج أن يجري بدوره فضاء دخلا في عمليّات مزجيّة متعدّدة متداخلة متزامنة أو متعاقبة، بها يكون حدوث المفاهيم والمعاني الجديدة وذلك باختلاف المقامات والثّقافات والأطر كما نبيّن في ما يلي باعتماد لوحة كاريكاتوريّة من أعمال الرّسّام محمود كحيل:

(9)



محمود كحيل، الشّرق الأوسط، السّبت 4 مارس 1989، العدد 3749، ص 9.

في اللّوحة الكاريكاتوريّة مكوّنان كبيران: كتابة ورسم، المكتوب عبارتان قصيرتان:

---
[80] Multiple space blending.

واحدة مكتوبة على لافتة تشير إلى المواقع تعيّنها وبذلك يتحدّد فضاء اللّوحة الذّهنيّ وعالمها في الخارطة وما يستصحبه ذلك من إطار متّصل بها: فاللاّفتة الّتي تشير إلى "جنوب لبنان" تبني فضاء ذهنيّا أساسه المكان المعلوم على الخارطة وما يقترن به في معرفة القارئ من أحداث سياسيّة وعسكريّة بعضها مزامن للقراءة وبعضها من التّاريخ الماضي.

أمّا الأخرى فمثّلت شعارا مكتوبا على الجدار هو "وراك وراك والزّمن طويل" وهي تبني فضاء ذهنيّا ذا منابت شرقيّة عربيّة أساسها حكميّ متراكم متوارث في المعرفة العامّة المشتركة وهي مفتاح من قبيل آخر في تأويل الرّسم المتضمّن لها.

وبناء الفضاء الذّهنيّ كائن في المكان بمعنى أنّ ما تعرضه اللّوحة جار في جنوب لبنان وأنّ جميع الأحداث والأشخاص والهيئات إنّما تنقاس على ذلك المعلم من حيث اتّجاهها في المكان و/أو الزّمان ومن حيث توزّع الحدود:

فما وراء اللّوحة لبنان وما أمامها إسرائيل، فالقارئ ينظر من زاوية الرّسّام من خارج لبنان إلى داخله نظرة العين المراقبة والمتابعة للأخبار والمحلّلة لما فيه من الأحداث أو المتفرّجة، هي نظرة التّاريخ الّذي يسجّل ولا ينسى. وهذا هو مضمون العبارة الأخرى الكائنة على الجدار "وراك وراك والزّمن طويل" في عمومه ولكن فيها من المضامين الأخرى ما يتنضّد في مستويات أدخل يبين عنها تركّب اللّوحة من مفاهيم مزيج وأخرى بسيطة متظافرة متفاعلة، نبيّنها بعد هذا ريثما تكتمل لنا المفاتيح جميعها. فالمهمّ في هذا المستوى أن نشير إلى دور المكوّن اللّغويّ المكتوب في قيام اللّوحة بمكوّناتها الإيقونوغرافيّة متظافرة متفاعلة.

فالعبارتان كلتاهما مفتاح لقراءة اللّوحة وتحليلها عند القارئ. وذلك مدخل اعتمادها مادّة للتّحليل في كتاب يهتمّ بتحليل الخطاب ومبرّره.

وتمثّل صورة الحشّاش (الحصّاد) أبرز ما يملأ اللّوحة، من حيث هي مساحة بصريّة تمثّل جشطلتا إدراكيّا أي مادّة إدراكيّة تحصل في الذّهن من حيث هي كلّ متكامل منضّد من المكوّنات، بما يغلب على صورة الحشّاش من ثخونة وسواد

وغلظة في الخطّ على بساط تحتلّ مركزه بوجه تكون فيه المعروضَ الأساسيّ وسائر المكوّنات ثانويّة وإن اختلفت درجاتها في ذلك، ولذلك يكون من الضّروريّ البدء بها:

يتمثّل رسم الحشّاش القاتل[81] في هيكل عظميّ عار لا يكسوه شيء، يحمل منجلا أو محشّة[82]، وهو في الأصل مزيج ثقافيّ أوروبيّ يعود إلى القرون الوسطى يُرمز به إلى الموت من حيث كان تشخيصا له.

وقد كانت العناية بهذا المفهوم المزيج المتداول في الكثير من الأطر (السّينما، الرّسوم المتحرّكة، الأفلام المصوّرة، لعب الأطفال والعرائس المتحركة وما إليها) في الدّراسات المزجيّة عند الأعلام المؤسّسين من قبيل فوكونياي وتورنر (2002) وعند بعض المؤلّفين المعرّفين بالمبحث المزجيّ وما تعلّق به من مباحث لسانيّة عرفنيّة من قبيل إيفانس وقرين (2006).

وإذ كان الموت مفهوما تجريديّا، تجسّد بالمزج بين فضاءين دخلين هما : فضاء الوفاة وفضاء البنية الحدثيّة بما تقوم عليه من محدث وجعليّة ووسيلة (أو أداة) ونوع الحدث وما إلى ذلك، من جهة، وفضاء الوفاة البشريّة من حيث الطّريقة وحدث الموت العينيّ أي كائنا من شخص بعينه والشّخص المتوفّى، من جهة أخرى.

وإذ يمتزج الفضاءان الدّخلان يتكوّن الفضاء المزيج (الموت) بما يتضمّن من أركان من قبيل : الموت محدثا وتسبيب الموت وحدث الموت وطريقة حدوث الموت (مرض، قتل...) وذات الشّخص المتوفّى (الضّحيّة). وهذا الفضاء المزيج بدوره يجري فضاء دخلا من جملة ثالوث من الأفضية الدّخل هي فضاء الموت وفضاء القتل والاغتيال وفضاء الحصاد والحشّ.

وبين الثّالوث مظاهر تَناسُب يكون بها التّمازج بينها لإحداث فضاء الحشّاش القاتل كما يلي بيانه :

---

[81] The Grim Reaper (la faucheuse).

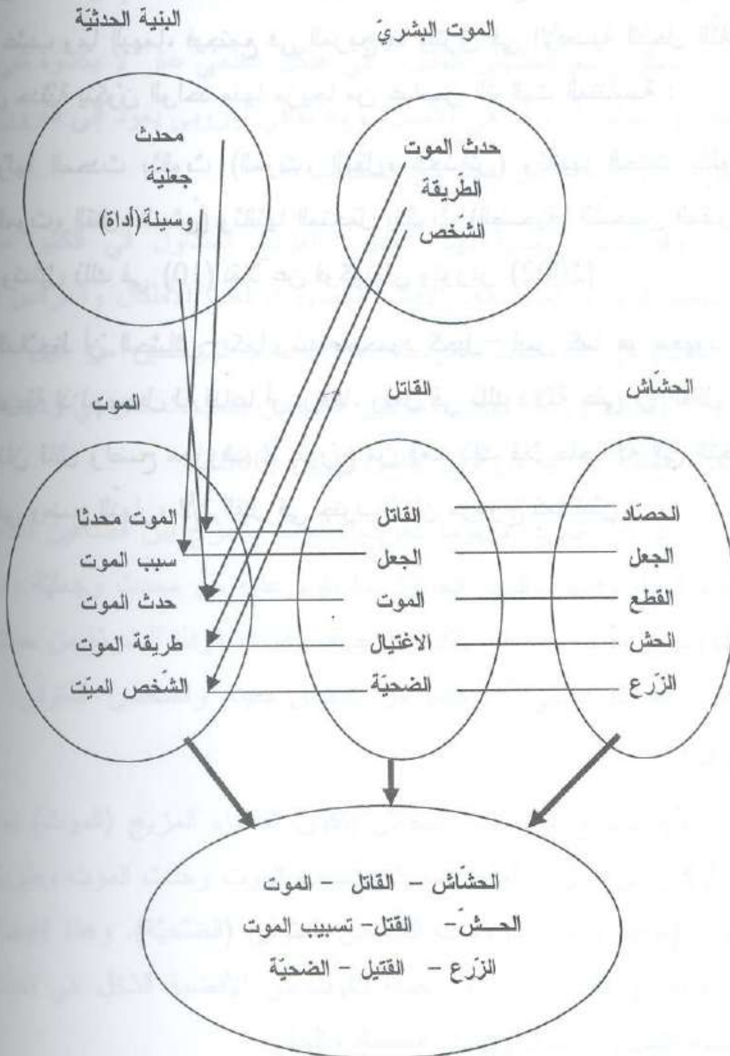
[82] ما يعرف في الرّيف التّونسيّ (مصّوج، سليانة) بالمنجل السّوري أي المنجل الإفرنجي.

فضاء دخل أوّل هو (القاتل، المجرم) بما يتضمّن من محدث للقتل وجعل وموت واغتيال وضحيّة. وفضاء دخل آخر هو (الحصاد أو الحشّ) بما يتضمّن من محدث هو الشّخص (الحصّاد أو الحشّاش)، والجعل والقطع أو الحشّ والنّبت من زرع أو عشب وما إليهما، فيجتمع في المزيج ما يفترق في الأفضية الدّخل الثّلاثة من أركان حدثيّة يتكوّن الواحد منها مزيجا من عناصر الثّواليث المتناسبة :

أوّلها المحدث بثالوث (الموت، القاتل، الحشّاش) وثانيها الحدث بثالوث (تسبيب الموت، القتل، الحشّ) وثالثها المتحمّل بثالوث (الضحيّة، الشّخص المقتول، الزّرع). وتمثيل ذلك في (10) نقلا عن فوكونياي وتورنر (2002).

والملاحظ أنّ الحشّاش- كما رسمه محمود كحيل- ليس كما هو معهود في الثّقافة الغربيّة إذ لم يجعل له قناعا أو برقعا. ولعلّ في ذلك دلالة على أنّ القاتل في جنوب لبنان قاتل واضح معروف لا يتورّع من فعله ذاك فلا حاجة له إلى التّخفّي بل يقتل في وضح النّهار، لأنّ القتل في جنوب لبنان مزدوج كما نبيّن.

(10) المزيج المركّب



المفهوم المزيج: الحشّاش القاتل

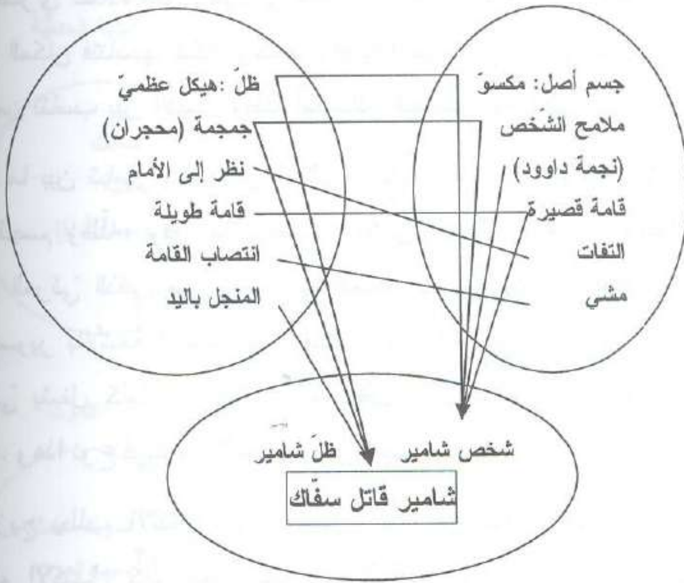
ويجري في لوحة محمود كحيل مزيج آخر من فضاءين دخلين هما فضاء الحشّاش القاتل وقد استقام رمزا في الثّقافة المشتركة العامّة وفضاء شامير، أساس ذلك تناسب بصريّ عماده قانون فيزيائيّ ضوئيّ ترتسم أو تنعكس بمقتضاه ظلال الأجسام على المكان فتناسبها شكلا وحجما وامتدادا حسب درجة الانعكاس، وذاك كلّ ما يكون من تناسب بين الأصل وظلّه أمّا سائر التّفاصيل فلا تظهر في الظلّ.

ولكن ما بين شامير والحشّاش القاتل – ظلّ شامير في اللّوحة– لا يوجد تطابق بين الجسم وظلّه، وفق ما يقتضيه انعكاس الظّلال المعهود. وإنّما هو انعكاس لغير المرئيّ الدّفين من العظام في الجسم الأصليّ (شامير هنا) كما هو الأمر في التّصوير بالأشعّة السّينيّة. فإذا بهيكل شامير العظميّ يتجلّى على صفحة الجدار اللّبنانيّ يشغل كامل مساحته ويزيد الظّلّ على صاحبه بأن كان يحمل المنجل بيمناه. وهذا نوع فريد من المزج ما بين الجسم وظلّه.

هو مزيج يطلب الالتحام بين عناصره دون أن يبلغها، هو مزيج غير مكتمل. وعدم الاكتمال كائن لعدم التّناسب والتّطابق ما بين الفضاءين شامير والحشّاش القاتل. فيظلّ الحشّاش القاتل صورة لشامير انعكست على جدران الجنوب اللّبنانيّ يحفظها الزّمن الطّويل (التّاريخ) كما كتب على الجدار، وكأنّ جمجمة الحشّاش ناطقة بها أو كأنّ تلك العبارة خارجة من شدقيها العظميّين وقد علاهما المحجران الواسعان موطنا باهتا فارغا لعَيْن التّاريخ والزّمن. وعدم الاكتمال هذا في المزج ما بين الجسم (شامير) وظلّه (الحشّاش القاتل) فاتح لإمكانيّات أخرى من المزج يكمن فيها ثراء اللّوحة وثخونتها.

فلعدم الاكتمال هذا في التّمازج أو عدم الاندماج التّامّ –بعبارة فوكونياي وتورنر– ما بين الفضاءين شامير والحشّاش القاتل، ينشأ مزيج آخر يتلازم فيه الفضاءان فيكون الواحد منهما ظلاّ للآخر، فيكون شامير، جسما وقسماتٍ وملامحَ وهيأةً، قائما في ذاته كما يتجلّى في اللّوحة، والحشّاش القاتل ظلاّ له يتبعه حيثما حلّ يلتحم به التحام السّاقين من الهيكل العظميّ بساقي شامير كما يتجلّى في اللّوحة. ولكنّ الظّلّ يتضمّن تفصيلا آخر لا يتضمّنه صاحب الظلّ الأصليّ من حيث حمل المنجل بيمينه وقد خلت يمين الأصل من كلّ شيء.

(11)



المفهوم المزيج

ولعدم الاكتمال في المزج بعد آخر في اللّوحة به ينفصل الفضاء شامير عن فضاء الحشّاش القاتل بخطّ وهميّ يُرسم ما بينهما في مستوى اللاّفتة الثّابتة الّتي تعيّن المكان (جنوب لبنان). فحركة شامير من هيأة قدميه، حركة هرولة مغادرة ذاهبة خارجة من الجنوب، ولكنّ التفاته من الرّأس دون سائر الأعضاء ينشئ فضاء مزيجا من قبيل آخر هو شامير الهارب بيدين فارغتين من ظلّه الّذي لايفتأ يطارده، فكأنّه فزِعٌ من الحشّاش القاتل يسكن الخراب والبيوت المهدّمة في الجنوب يخرج منها خروج الفزّاعة لا يُعلَم مخبؤها، فتحلّ في الحشّاش القاتل صورة المقاوم اللّبنانيّ يتعقّب بمنجله (سلاحه) شامير – في اللّوحة- وكلٍّ من يعتدي على الجنوب في المطلق.

ونشوء هذا المزيج الجديد قائم على مزج ما بين فضاءين أحدهما حاضر فوريّ والآخر مصدره الإطار المعرفيّ : فمن الغريب أنّ جنوب لبنان- في اللّوحة- لا يظهر فيه إنسيّ لبنانيّ. فيكون السّؤال عن سبب خروج شامير، وجواب

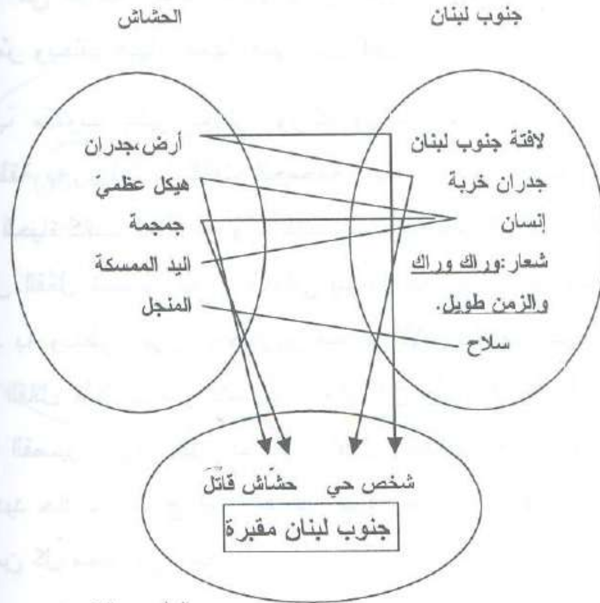
ذلك متعدّد فلعلّه قتلَ كلّ من فيه ولم يترك إلاّ الموت والجماجم، وقد فعلَ. ولكن إن كان ذلك فلمَ يهرول -في اللّوحة- طالبا الخروج من الجنوب؟ ولمَ لم يمكث هناك يعمّر الأرض الّتي دمّر ويخلف فيها وعليها أهلها الّذين قتلَ؟

ولكنّ الجوابَ مكتوب على الجدار "وراك وراك والزّمن طويل" كأنّ جمجمة الحشّاش ناطقة به. وإذا ما كانت الجمجمة ناطقة معناه غمرتها الحياة وسكنتها، وإذا كانت الحياة كانت المقاومة، وإذا كانت المقاومة كان الفرار خوفا من الموت. وإذا الحشّاش القاتل تجسيد للمقاوِم اللّبنانيّ يتعقّب الغازي شامير ويتوعّده ملوّحا بمنجله يحصد به وناظرا شزرا بمحجرين أسودين لايدرك لهما غور. وإذ كان هيكل الحشّاش القاتل ظلاّ لشامير -كما بيّنّا- وإذ كان طول الهيكل أضعافَ طول شامير بقامته القصيرة، وإذ مثّل الحشّاش القاتل المقاومةَ اللّبنانيّة، يكون لجميع ذلك معنى جديد حادث بالمزج هو "المقاومة أقوى من شامير" في مضمون اللّوحة و"هي أقوى من كلّ معتدّ" في المطلق.

وإذ غاب الفضاء الدّخل "المقاوِم" جسدا وسلاحا واستماتة وتكتيكا حلّ في الحشّاش حلولا تامّا وامتزج به واندمج فيه. فالمقاوم إنسان حيّ يقاوم بسلاح وإن اقتضى الأمر اتّخذ من المنجل البدائيّ الفلاحيّ الّذي به يحصد الحقل أداة وسلاحا به يحصد رؤوس أعدائه. ففضاء المقاوِم ممّا يستدعيه الإطار- إطار الجنوب- بركامه وقراه المهدّمة. وذاك كلّ ما فعل شامير، فقد هدّم البيوت وحصد الرّؤوس وترك المكان إذ حُصدت الرّؤوس من جيشه وكذلك خوفا من أن تُحصد رأسه ورؤوس أخرى.

وإذ غاب الفضاء الدّخل (فضاء المقاوِم) جسدا وسلاحا وحضر في صورة الحشّاش، وإذ كان شبح الحشّاش قد لابس المكان على امتداده- لاحظ سريان الحشّاش القاتل على الأرض فالجدار في اللّوحة- من حيث أرضه وجدرانه، يكون المقاوم ملابسا لأرضه وجدرانها ذائبا فيها غير منفصل عنها، وإذ كان ذلك لا يكون من الضّروريّ ظهوره شخصا باديا للعيان، فالأرض (أي جنوب لبنان) كلّها مقاوِمة. فيكون على هذا، المزيج الحادث ما بين فضاء المقاومة وفضاء الحشّاش أقوى من المزيج الحادث ما بين شامير والحشّاش كما عرضنا منذ أسطر.

(12)



فصورة الحشّاش مزيج متعدّد الأفضية حدث في طور من أطوار الثّقافة الأوروبيّة ثم انتشر فأصبح عالميّا فرسخ مفهوما رمزا مستقلاً بذاته، ثخُن فثبت في دلالته -وهذا ما حلّله فوكونياي وتورنر(2002)- ولكنّها جاريةً في هذا اللّوحة مزيج متعدّد متراكب حيّ نشيط شفّاف، يتّسع لمعان جديدة حادثة.

فيكون الحشّاش القاتل - في اللّوحة- رمزا للموت والقتل مقترنا بشامير، ويكون رمزا للمقاومة ودحرا للعدوّ وفزّاعة له مقترنا بأهل الجنوب. ومفتاح ذلك جميعا إنّما هو الإطار متمثّلا في عبارتين تجذّران جميع ذلك إبستيميّا في أرضيّة معرفيّة ذهنيّة كائنة عند القارئ أو مشتركة، هما شارة ثابتة تحمل "جنوب لبنان" وقولة متداولة في الشّرق وفي بلاد العرب بوجه عامّ هي "وراك وراك والزّمن طويل" تختصر ما هو معلوم من الحكمة الشّرقيّة.

وبتوفّر الإطار في بعديه مكانا وثقافة (جنوب لبنان) يكتمل المزيج ما بين الحشّاش القاتل من جهة وجنوب لبنان بأكمله. فإذا الجنوب كلّه مقاومة، الأرض والنّاس والجدران، رغم الخراب والتّهديم. وذاك كلّ ما نجح شامير في تحقيقه: هدم الجدار ونشر الموت ولكنّه لم ينزع الحياة.

ففضاء المقاومة فضاء مزيج دخله الأوّل حاضر فوريّ متوفّر في اللّوحة والفضاء الثّاني غائب منها ولكنّه يُقام في الذّهن باعتماد ما حضر من الأفضية (شامير، الحشّاش القاتل، جنوب لبنان). ولعلّ المزج من هذا القبيل ممّا لم نعثر على أثر له في الدّراسات المزجيّة في حدود ما اطّلعنا عليه وأساسه استدعاء الأفضية بعضها بعضا على أساس العلاقات المحلّيّة (الحاوية–المحتوى) والجزئيّة (الجزء–الكلّ) والفاعليّة (المحدث–الحدث/ الأثر) وما إليها من علاقات المجاز المرسل[83].

المزيج المركّب المنضّد

قد يخرج بنا البحث في هذا القبيل من العلاقات المجازيّة عن الوجهة الّتي رسمناها لهذا العمل ولذلك اكتفينا بالإشارة إليها، ولعلّ المبحث الجوهريّ في ما نحن فيه كائن في ما به يكون المزج المركّب على درجات تحدث في الواحدة منها أفضية مزيج صغرى تتناسل ليتولّد منها أفضية مزيج أبناء ترث من الأفضية الدّخل الأصول (أو من آبائها) جملة من السّمات يكون باكتمالها فضاء مزيج أكبر[84] يمثّل شبكة منضّدة من أفضية مزيج صغرى[85]، نصطلح عليه بالمزج المتراكب أو المتدرّج[86]، وذلك بكامل الحذر عسى أن يكون الأمر قد طُرح في الدّراسات المزجيّة ولم نطّلع عليه فيها.

فممّا يمكن أن ينشأ من الأسئلة في ما به تنشأ المضامين في اللّوحة أن نفسّر تضمّن اللّوحة لمعنيين يتعلّقان بشامير هما شامير سفّاح قاتل وشامير مهزوم ونفس الشّيء بالجنوب فهو ضحيّة بما أصيب به من قتل ودمار وهو منتصر بالمقاومة إذ أخرج شامير؟

وبعبارة أخرى إذا نشأ فضاء شامير سفّاحا بالمزج الأوّل ما بين ((شامير)(الحشّاش)) فكيف يكون بناء مزيج آخر فيه شامير مهزوم، وإذا كانت المقاومة حاضرة مستمرّة بالمزج ما بين ((جنوب لبنان)(الحشّاش)) فكيف يكون بناء مزيج آخر فيه المقاومة منتصرة؟

[83] Metonymy.
[84] Macroblend(s).
[85] Microblend(s)
[86] Complex Blend(s) ; Graded Blend(s).

وتفسير ذلك يكمن في أنّ ما تعطّل من السّمات في الدّرجة الأولى من المزج الزّوجي الثّنائيّ يشتغل في الدّرجة الثّانية لينتج مزيجا جديدا يرسّخ المزيج الأوّل وينضاف إليه. فالمنطلق أفضية دَخْل تتولّد منها أفضية مزيج تُولّد بدورها عن طريق التّمازج أفضية مزيجا أبناء ترث هذه منها شيئا مباشرا، وترث من الجذ (الفضاء الدّخل الأصل) جملة من السّمات هي جينات لم تشتغل في الجيل الأوّل ولكنّها تشتغل في اللاّحق من الأجيال. بيان ذلك في ما يلي :

يحدث المزج بين فضاء شامير وفضاء الحشّاش القاتل لينشأ فضاء مزيج هو شامير السّفّاك، ولا مبرّر في هذا المستوى لسمة الجبن أو الفرار من حيث كان معنى جديدا لا يتوفّر في الفضاءين الدّخلين. ويحدث، مزامنا لذلك، المزجُ ما بين فضاء دخل هو جنوب لبنان وفضاء الحشّاش لينشأ فضاء مزيج هو لبنان مقبرة وإن كان فضاء للمقاومة، ولا مبرّر في هذا المستوى لسمة الانتصار أو الصّمود في فضاء المقاومة وهو معنى جديد، تنصّ نظريّة المزج على ضرورة أن يكون مبرّرا أي ناتجا بصفة طبيعيّة من المزج بين الفضاءين الدّخلين. تفسير ذلك أنّ السّمات الّتي تكوّن كلاّ من الفضاءين الدّخلين لا تشتغل جميعها اشتغالا واحدا متزامنا في توليد الفضاء المزيج وإنّما يشتغل بعضها في ذلك ويتعطّل بعضها الآخر. وإذ كان المزج مزدوجا في اللّوحة -كما بيّنّا- بمعنى أنّ واحدا من الفضاءين الدّخلين يكون فضاء دخلا يمازج فضاء دخلا آخر لينتجا فضاء مزيجا آخر، وفق نفس المبدإ من حيث اشتغال سمات دون أخرى في إحداث المزيج. وإذ يستوي الفضاءان المزيجان تحدث عمليّة استدلاليّة بمقتضاها تشتغل السّمات الّتي كانت معطّلة في الدّرجة الأولى من المزج منقدحة بالمزيج الحادث عند تلك الدّرجة فيحدث مزيج من جيل ثان يرث تلك السّمات من الفضاءين الأبوين :

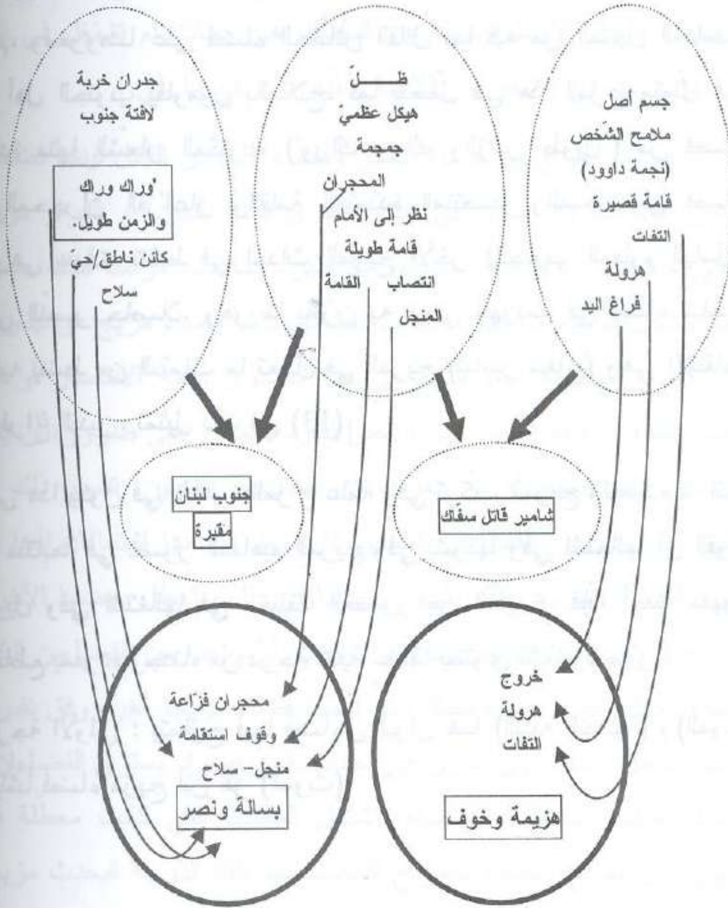
فإذا أخذنا الفضاء المزيج (شامير السّفّاح) وجدناه وارثا لسمات شامير شخصا (الملامح الفوتوغرافيّة، قصر القامة، نجمة داوود) ولسمات الحشّاش من حيث كان ظلاّ له (هيكل عظميّ، جمجمة (محجران)، المنجل باليد)، ولا يمكن في هذا المستوى تبرير الفهم أو التّأويل الّذي عليه هيأة شامير في اللّوحة (الفرار والهزيمة) إلاّ باكتمال المزيج المزامن أو الموازي لهذا، وهو مزيج (جنوب لبنان

مقبرة) هذا الّذي يرث من الفضاء الدّخل (الحشّاش) جملة من السّمات هي (الأرض والجدران، هيكل عظميّ، جمجمة) ويرث من الفضاء الدّخل (لبنان) جملة من السّمات هي (لافتة جنوب لبنان، جدران خرِبة، كائن ناطق/حيّ)، فيكون الحاصل من ذلك، معروضا على فضاء شامير ، أنّ جنوب لبنان مقبرة بمعنى قتّل فيه شامير الكثير وهدّم، ومعروضا على فضاء الحشّاش القاتل بما فيه من المنجل المناسب للسّلاح أنّ أهل الجنوب يقاومون بالسّلاح. فما يتعطّل في هذا المزج متمثّل في سمات عديدة منها الشّعار المكتوب ("وراك وراك والزمن طويل") من فضاء الجنوب، والمحجران الفزّاعان والقامة المتمدّدة المنتصبة والمنجل من فضاء الحشّاش، وهي سمات تنشط في إحداث المزيج الآخر (الجنوب المقاوم الباسل) ليكون معنى النّصر حاصلا. وهو ما يقترن به معنى الهزيمة في فضاء شامير المهزوم وفيه ينشط من السّمات ما تعطّل في المزيج (شامير سفّاح) وهي الالتفات والهرولة وفراغ اليدين. تمثيل ذلك في (13).

وعلى هذا يكون في ظاهرة المزج عامّة وفي تركّب المزيج وتنضّده مراتب أو درجات متتابعة في تصوّر المفاهيم المزيج وفي نشوئها وفي اشتغالها آن القول أو آن التّأويل وفي اشتغالها في مختلف العصور من التّاريخ. فإذا أخذنا مفهوم الحشّاش القاطع بمفرده وجدناه من درجة ثانية عندها يستوي نشأة وتصوّرا:

الدّرجة الأولى : يتمازج فيها فضاءان أبوان هما (البنية الحدثيّة) و(الموت البشريّ) لينشأ فضاء مزيج ابن هو (الموت).

(13)


شامير
الحشّاش
الجنوب
جسم أصل
ملامح الشّخص
(نجمة داوود)
قامة قصيرة
التفات
هرولة
فراغ اليد
ظــــلّ
هيكل عظميّ
جمجمة
المحجران
نظر إلى الأمام
قامة طويلة
انتصاب القامة
المنجل
جدران خربة
لافتة جنوب
وراك وراك
والزمن طويل.
كائن ناطق/حيّ
سلاح
جنوب لبنان
مقبرة
شامير قاتل سفّاك
محجران فزّاعة
وقوف استقامة
منجل- سلاح
بسالة ونصر
خروج
هرولة
التفات
هزيمة وخوف
الجنوب المنتصر
شامير المهزوم

الدّرجة الثّانية: يكون فيها (الموت) و(الحشّ) و(القتل) أفضية دخلا آباء لفضاء ابن واحد هو (الحشّاش القاتل). وعندها يستوي هذا المفهوم فضاء ذهنيّا منتظم العناصر في إطار عرفنيّ منضّد متكامل قائم برأسه من جملة المفاهيم مشتغلا في الثّقافة الواحدة أو عابرا للثّقافات.

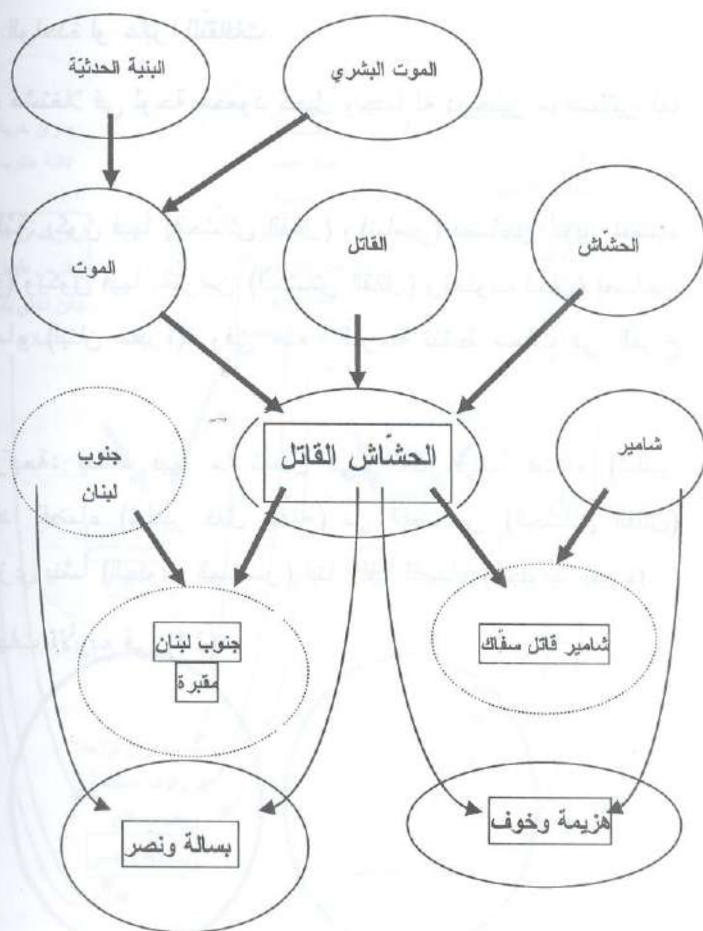
وإذا أخذناه مشتغلا في لوحة محمود كحيل وجدنا له درجتين مواصلتين لما سبق:

الدّرجة الثّالثة: يكون فيها (الحشّاش القاتل) و(شامير) فضاءين أبوين لفضاء (شامير قاتل سفّاح) ويكون فيها بالتّزامن (الحشّاش القاتل) و(جنوب لبنان) فضاءين دخلين أبوين لفضاء (لبنان مقبرة). وفي هذه الدّرجة تنشط سمات في المزج وتتعطّل أخرى.

الدّرجة الرّابعة: ينشط فيها ما تعطّل في الثّالثة فينشأ فضاء (شامير المهزوم) ابنا رافدا لفضاء (شامير قاتل سفّاح) من الفضاءين (الحشّاش القاتل) و(شامير)، وبالتّوازي ينشأ (الجنوب المنتصر) ابنا رافدا لفضاء (الجنوب مقبرة).

تمثيل الدّرجات الأربع في (14):

(14)



البنية الحدثيّة
الموت البشري
الموت
القاتل
الحشّاش
جنوب لبنان
الحشّاش القاتل
شامير
جنوب لبنان
مقبرة
شامير قاتل سفّاك
بسالة ونصر
هزيمة وخوف

خاتمة

تبيّنّا في هذا الفصل باعتماد نماذج مزجيّة متنوّعة من أطر علاميّة متنوّعة مفردة كانت لغويّة صرفا أو خليطا تجتمع فيه الصّورة والخطاب، عددا من الملاحظات لعلّ من أهمّها كون المزج المفهوميّ عمليّة متعدّدة متزامنة. فالمزج إحداث لمفاهيم ومعان جديدة تتمازج بدورها لتحدث الجديد من المعاني على اختلاف الثّقافات واختلاف العصور. يسهل ذلك لطواعية التّمازج بين المفاهيم ما توفّر سلك رابط ما بين الفضاءين المتمازجين أو الأفضية المتمازجة.

والمزج آليّة عرفنيّة جارية في جميع الأنشطة الذّهنيّة تنتج المفاهيم وتبدعها وما الاختلاف إلاّ في طبيعة الموارد الرّمزيّة فلا اختلاف ما بين العبارة اللّغويّة والرّسم – في الكاريكاتور والإشهار مثلا– في المضامين العرفنيّة وما الاختلاف إلاّ في أدوات التّمثيل ما بين لغويّة وخطّيّة تعتمد البصر بما يعوّل عليه من الأشكال والألوان وما إليها.

يكون المزج متعدّد الأفضية فيمتزج من الأفضية الكثيرة ما به يكون فضاء أو أفضية جديدة حادثة، ويكون تزامنيّا تحدث له أفضية مزيج مختلفة متنوّعة متوازية وينشأ عن هذه الأفضية المزيج بتفاعلها أفضية مزيج رافدة لها، وجميع ذلك كائن آن القول والتّأويل.

وإذا كان جميع ذلك مثّل المزج واحدة من أثرى الآليّات العرفنيّة في إنشاء المعنى، فهي على هذا آليّة لا ينضب لها معين، اشتغلت في الذّهن البشريّ منذ كان، في إنشاء الكائنات الخرافيّة الأسطوريّة – مثلا– مزيجا من الآدميّ والحيوانيّ يتجلّى ذلك في أوصافها ورسومها وتماثيلها سواء أعادت إلى الإغريق أو إلى الفراعنة أو ما عداهما من الثّقافات الغابرة أو الحاضرة بما في ذلك ما نعرفه اليوم في الخيال العلميّ. وهي لا تفتأ تشتغل في أيّامنا في المصنوعات وفي المجرّدات، فلعلّها من خصائص الإنسان ماهرا[87] فصانعا فعارفا[88] ثمّ عارفا عارفا[89]، إذا تتبّعنا تدرّجه على سلّم التّكوين، هو الإنسان في المطلق.

---

[87] Homo habilis.
[88] Homo sapiens.
[89] Homo sapiens sapiens.

الفصل الرّابع

الحوسبة الاستدلاليّة في الخطاب الملغز

السّلوك البشريّ في جميع مظاهره بحث مستمرّ في مسائلَ تطلب الحلّ (نوّل 1990).

مقدّمة

تردّدنا طويلا في إدراج هذا المبحث وتساءلنا في جدواه وقد توفّر لنا من المعطيات ما يمكن اعتماده مادّة للتّحليل، وفي ما قد يكون من مواقف إزاء هذا المبحث ولم يعهده النّاس مسألة من مسائل الدّرس في تحليل الخطاب. فحلّ المسائل[90] (أو حلّ المشاكل) مبحث من مباحث علم النّفس العرفنيّ[91] ولذلك قد يتبادر إلى الأذهان أنّه غير ذي صلة بالخطاب بل لا صلة له باللّغة. والمسائل – أو المشاكل بعبارة متداولة- أمر يوميّ يكاد لا يخلو منه وضع من الأوضاع الّتي يعيشها الفرد و/أو المجموعة. وهي متنوّعة بعضها مادّيّ وبعضها ذهنيّ وبعضها علائقيّ وبعضها مؤسّسيّ وبعضها رياضة في ذاته كما هو الأمر في الدّراسة والتّعلّم.

فمن العاديّ اليوميّ البسيط أن تتعطّل سيّارتك في رحلة من رحلاتك فتنظر في ما قد يمثّل العطب وتشخّص المسألة من حيث نوع العطب والحلول المتوفّرة (توفّر اختصاصيّ في الميكانيك، توفّر الأدوات، حصول المعرفة بالفكّ والتّركيب، إلخ) وصولا إلى غاية هي انطلاق المحرّك من جديد ومواصلة الرّحلة. ومن الجماعيّ ما يطرأ من أزمات اجتماعيّة أو اقتصاديّة سياسيّة تبحث في حلول لها مؤسّسات من أحزاب أو منظّمات أو حكومات وهي لا تختلف كثيرا في الجوهر عن المسائل العاديّة من حيث تشخيصها أي تمثيلها والبحث عن عدد من العوامل

[90] Problem solving.
[91] Cognitive Psychology.

تنطبق للوصول إلى حلّ. وقد تختلف الحلول لاختلاف التّمثيل العائد إلى اختلاف الرّؤى الإيديولوجيّة أو المواقع بأنواعها فتختلف الأدوات والإستراتيجيّات من بلد إلى آخر أو من حزب إلى آخر، وما إلى ذلك.

ومن الجماعيّ ما يترسّخ في أشكال تعبيريّة مختلفة أساسها لغويّ وبعضها طقوسيّ تختلط فيه الخرافة بالأسطورة والعلم بالماورائيّات تفسيرا للكون وانتظامه وبحثا في نشأته وتكوّنه وصيرورته وإليها تنضاف الأحلام لغزا يراه النّائم فإذا ما تحوّل إلى اليقظة ثار السّؤال طلبا لحلّ لغز تراءى له في عالم النّوم أو اللاّوعي، ويذكر كلّ من قرأ الأسطورة الإغريقيّة كيف نجا أوليس من الموت وتمهّدت أمامه السّبيل عندما اهتدى إلى حلّ اللّغز، لغز الكائن الّذي يسير على عدد من القوائم على فترات النّهار : أربع في الصّباح واثنتين في الظّهر وثلاث في المساء، وإذا اللّغز لغز الإنسان وأحجيته.

ومن المؤسّسيّ الصّناعيّ ما يطرح من المسائل في الامتحانات والمناظرات في المؤسّسات التّعليميّة بمستوياتها المختلفة سبرا لمهارات يعود جميعها إلى حلّ المسائل. فهذا هذا.

ومن المسائل ما يمثّل رياضة اجتماعيّة عفويّة تتجلّى في الخطاب بما يتضمّن من أحاج وألغاز وأمثال وعبَر واستعارات ومجازات وغير ذلك من وجوه الخطاب ممّا يستوجب الحلّ من حيث كان الفهم فيها هدفا للخروج من مشكل مطروح يحمله الخطاب وينبني عليه. ولذلك مثّل الخطاب عامّة- والأحاجي والألغاز على وجه الخصوص- موردا لمسائل تشتغل فيها مهارات عرفنيّة عليا. فاللّغز أو الأحجية- مثلا- نوع من الرّياضة الفكريّة لها ما يقابلها في الرّياضيّات الشّكليّة علما، ولها في الحياة اليوميّة والواقع ما يقابلها في البحث عن الجناة من اللّصوص أو القتلة، مهنةً عند البوليس والأجهزة الأمنيّة، وما إلى ذلك.

ويمكن أن نتوسّع في هذا الأمر إلى ما لا نهاية له فالسّلوك في المطلق البشريّ – على وجه التّحديد– لا يعدو أن يكون إلاّ بحثا مستمرّا في المسائل (المشاكل) يطلب الحلّ (نوّل[92] 1990).

وهي في جميع الأحوال متّصلة بملكة عرفنيّة مخصوصة بالبشر، وإن توفّرت عند سائر الكائنات الذّكيّة بدرجة دنيا، تتمثّل في مهارة حلّ المسائل. فإذا ما اعتبرنا كلّ عمليّة ذهنيّة معالجةً أو حوسبة كان حلّ المسائل حوسبة أيضا وكان من أسسه الاستدلال على الغائب بالحاضر حسّا أو ذهنا، وإذا كان جميع ذلك، كان فهم الألغاز وتركيبها نوعا من الحوسبة الاستدلاليّة، يبنيها المتكلّم ويفكّ السّامع مغامضَها وفق بنية استدلاليّة واحدة متناظرة بينهما هي خطاطة توجّه عمليّة الاستدلال.

وقد قادتنا المعطيات إلى أن نجعل هذا الفصل نوعا من زراعة المعالم في دراسة المسائل وضعا وحلاّ عسى أن يكون فاتحة في دراسة الخطاب سبيلا إلى دراسة العرفنة العربيّة ومدخلا فيها، وقد جعلنا المسائل نوعين : واحدا تكون فيه العناية بحلّ المسائل وتمثيلها ذهنيّا فبلوغ الحلّ في النّهاية ونموذج ذلك أحجية شعريّة أو لغز في القلم فخبر من أخبار العرب مداره دهاء شنّ وحكمة طبقة.

وأمّا النّوع الآخر فيتضمّن حلاّ لمسألة أو استدلالا، وتكون العناية فيه بتبرير ذلك الحلّ أو ذلك الاستدلال من الباحث عن الحلّ أو المستدلّ، وهذه وظيفة عرفنيّة عليا نعود إليها في إبّانها.

حلّ المسائل : معالم نظريّة

يقوم حلّ المسائل على عدد من الأركان أساسها تشخيص المسألة وفهمها بتكوين تمثيل ذهنيّ لها وتحديد عدد من الإستراتيجيّات بعضها عامّ وبعضها جزئيّ، وبعضها عفويّ طبيعيّ وبعضها صناعيّ وليد دربة ودراية، وجميعها سبيل إلى بناء الحلّ في الختام.

---

[92] All human behavior can be thought of as a search in a problem space (Newell, 1990).

ويتمثّل فهم المسألة في تركيز الانتباه في العناصر المهمّة والمفيدة في الوضعيّة[93] (أو الوضع)، وهي عمليّة تكون بها قسمة العناصر إلى أساسيّة وأخرى ثانويّة. ومن الثّابت في علم النّفس أنّ الوظيفة العرفنيّة الواحدة تقتضي اشتغال وظائف أخرى تكمّلها وتساعدها :

فحلّ المسائل مثلا وظيفة في ذاته لا يمكن أن تشتغل بمفردها وإنّما تشتغل معها وظائف الانتباه[94] وأخذ القرار[95]. فالانتباه أساس في فهم المسألة إذ يكون مركوزا في مكمن الحلّ منذ البداية أو يعاد النّظر في المسألة- بتقليبها أو بإعادة قراءتها عددا من المرّات- لتحديد موطن العناية والتّركيز (ماير[96] 1985، 1989). ويتضمّن حلّ المسائل نوعين من العمليّات عرفنيّة ذهنيّة صرف وعرفنيّة سلوكيّة حركيّة.

فالمسألة فضاء[97] يمثّل مجال بحث تتحدّد عناصره وتُبنى من خلال فهم المسألة، يضمّ هذا الفضاء حالا بدئيّة[98] أو منطلقا، وحالا غاية[99] أو هدفا ومجموعة من العوامل[100] يمكن أن تنطبق في ما بينهما توجّه الباحث عن الحلّ[101] من حال إلى أخرى. فالمسألة الفضاء هي جملة الأحوال الّتي تتضمّن الحال البدئيّة والحال الغاية وما بينهما من الأحوال (نولّ وسايمون[102] 1972).

والمسائل في العموم نوعان من حيث طبيعة وضعها أو انبنائها: مسائل محكمة الوضع وأخرى غير محكمة بمعنى عفويّة طارئة غير مخطّط لها. فمن الأوّل مسائل في التّمارين الرّياضيّة والامتحانات عموما يعرف الباحث عن الحلّ فيها جملة العوامل المعتمدة في حلّها، ومن الثّانية ما لا تُعلم العوامل في حلّها وإنّما تستجلى شيئا فشيئا بالانطلاق من تمثيل المسألة ذهنيّا وهي من قبيل المسائل أو

---

[93] Situation.
[94] Attention.
[95] Decision making (prise de décision).
[96] Mayer , R.I.
[97] Problem space.
[98] Initial state.
[99] Goal state.
[100] Operator (set of operators).
[101] Solver.
[102] Newell and Simon (1972).

المشاكل الّتي لم يسبق للفرد أن عاشها أو جرّبها كأن يجد نفسه في وضع ما عاشه قطّ إن كان فردا أو أزمة طارئة لم تعرفها المجموعة قبل ذلك من قبيل الأزمة الاقتصاديّة العالميّة وقرينتها أزمة الإنفلونزا العالميّة 2009.

ويقوم بناء التّمثيل الذّهنيّ[103] لمسألة ما على ثالوث من الأركان يضمّ الانسجام[104] والتّناسب التّامّ[105] والصّلات المفيدة[106] ما بين المسألة والمعارف العامّة (ڤرينو[107] 1977، 1991) :

فيكون تمثيل المسألة ذهنيّا منسجما ما كان الحاصل منه وحدة ذهنيّة مترابطة العناصر والمكوّنات بوجه يكون به لها معنى، ويكون ذاك التّمثيل سبيلا إلى حلّ المسألة ما كان التّناسب بينه وبين المادّة المنطلق في الوضعيّة وذلك بأن يكون بينهما توافق تامّ بصرف النّظر عن توفّر المعطيات بعضها أو أغلبها في المادّة المنطلق أو في التّمثيل، فالمهمّ أنّ التّأويل الخاطئ للمعطيات المنطلق قد يؤدّي إلى تمثيل خاطئ يكون له حلّ خاطئ، فالتّناسب التّامّ ما بين التّمثيل الذّهنيّ للمسألة والمادّة المنطلق شرط لتمثيلها ولحلّها المناسبين.

ومن نماذج ذلك ما أوردته مالطن[108] (1998ص477)- نقلا عن طوماس[109] (1989)- من شكوى الموظّفين العاملين في ناطحة من ناطحات السّحاب الأمريكيّة، من بطء المصاعد لطول الانتظار في ردهات الطّوابق. وازداد الأمر إشكالا عندما هدّدوا بهجر البناية مطلقا. وكان تمثيل المسألة قائما على التّسليم ببطء المصاعد وكون الحلّ في زيادة عددها، وكان القرار كذلك. ولكنّ واحدا من المهتمّين بالمشكل رأى حلاّ آخر غير مكلف يتمثّل في أن يُجعَل في كلّ ردهة عدد من المرائي تكسو الجدران، فتوقّف التّذمّر من البطء فجأة. فكان الحلّ في توفير ما به يتسلّى العاملون في البناية وهم ينتظرون المصاعد. فالمشكل

[103] Mental representation.
[104] Coherence.
[105] Correspondence.
[106] Relevant link(s).
[107] Greeno, J.G.
[108] Maltin, Margaret W.
[109] Thomas, J.C.

الحقيقيّ لا يكمن في بطء المصاعد وإنّما في قلّة صبر المستعملين، فحلّ المشكل بالمرائي ناتج عن تمثيل آخر للمسألة لا صلة له ببطء الآلات وإنّما في نمط التّعامل الّذي للإنسان معها.

ويقوم الرّكن الثّالث في حلّ المسائل على الاهتداء إلى الصّلات المفيدة الصّالحة ما بين المسألة المنطلق والمعارف الحاصلة مسبقا عند الباحث عن الحلّ. فكلّما كانت هذه الصّلات قويّة، كان الاهتداء إلى الحلّ أسرع وأنجع. وهذه حقيقة نعيشها في الدّراسة وفي الحياة اليوميّة فمن يدرس مادّة جديدة وكان له في معارفه أساس قديم يبني عليه أمكن له أن يستوعب الجديد دون إشكال ومن يواجه عطبا في سيّارته أو في سيّارة أخرى وكان قد سبق له أن عالجه أمكنه الاهتداء إلى الحلّ شريطة أن يقيم الصّلة ما بين المشكل المنطلق وذاك الّذي سبق له أن جرّبه فخبره.

وإلى هذه الأركان ينضاف ركنان آخران في الدّراسات المهتمّة بحلّ المسائل مدارهما علاقة المهارات العرفنيّة في حلّ المسائل بما مضى من تجارب الشّخص (لوفات وأندرسون[110] 1996، شانّ ودونبار[111] 1996)، من جهة، وعلاقة تلك المهارات بالوضع العرفنيّ بما في ذلك عناصر المحيط أو البيئة في معناها الواسع وخاصّة ما كان منها ملابسا لعمليّة البحث عن الحلّ[112] (نقلا عن : دونبار[113] 1998)، من جهة أخرى.

ويمكن قسمة المعالجة في حلّ المسائل إلى نوعين : معالجة صاعدة[114] ومعالجة نازلة[115].

أمّا المعالجة الصّاعدة فهي المعالجة الّتي توجّهها المعطيات ما توفّر منها من مختلف الموارد الحسّيّة، وقوامها اعتماد المعلومات الصّادرة من المنبّهات[116]. من أمثلة ما يكون العماد فيه على المعالجة الصّاعدة التّعرّف على شخص لأوّل مرّة

---

[110] Lovett, Marsha & Anderson, John.
[111] Schunn & Dunbar.
[112] Environment task.
[113] Dunbar ,K.
[114] Bottom-up processing (fr: traitement acsendant).
[115] Top-down processing (fr: traitement descendant).
[116] Stimuli.

والمنتظر طول معاشرة في العمل أو الإقامة أو الزّواج وما إلى ذلك حيث يبنى تمثيله الذّهنيّ عندك انطلاقا من كلّ الخصائص والسّمات أي المعلومات الّتي يبوح بها إليك قولا أو تستمدّها من مختلف المنبّهات فيه من سلوك ومظهر وعلامات خاصّة به كاللّباس ولونه والوجه وقسماته والعينين ونظراتهما وما إلى ذلك.

وأمّا المعالجة النّازلة فهي معالجة تقودها المفاهيم والتّمثيلات الذّهنيّة، وقوامها اشتغال المبادئ والقواعد والخطاطات والمضامين الذّاكريّة في حلّ المسائل وما اتّصل بذلك من الأنشطة العرفنيّة العامّة. ومن أمثلة ذلك أنّك إذا ما رأيت الشّخص المذكور قبل هذا لأوّل مرّة يدخل ويأخذ مجلسه من قاعة الدّرس وأنت طالب في الجامعة وتعلم أنّك في حصّة تحليل الخطاب، اشتغلت في ذهنك معالجة نازلة أساسها ما تتوقّعه من كونه أستاذا وأنّ اختصاصه تحليل الخطاب ينضاف إلى ذلك جميعا ما يكون قد أعلمك به زملاؤك من طبعه وحرصه وطيبته أو تساهله في إسناد الأعداد أو خلاف ذلك، جميع ذلك يشتغل آن اشتغال المعالجة الصّاعدة في شأنه كما سبق.

ولعلّ المعالجة النّازلة في حلّ المسائل غالبة في الألغاز والأحاجي غلبتها في حلّ المسائل الرّياضيّة وقد سبق لطالب الحلّ أن تلقّى دروسا أو تمارين فيها والمعالجة الصّاعدة غالبة في سائر المسائل من قبيل البحث عن مخرج من وضعيّة لم يألفها من يعيشها فيعوّل على الموارد الحسيّة المتوفّرة في محيطه، أو في أوضاع أخرى من قبيل ما سنراه من نماذج لاحقا تهمّ الاستدلال باعتماد موارد بصريّة و/أو سمعيّة في أخبار إياس بن معاوية[117].

الإسقاط الاستعاريّ في الخطاب الملغز

من أنماط الخطاب القائمة على حلّ المسائل ما يمكن أن يجتمع في تسمية واحدة تضمّ العديد من النّماذج الجارية في باب الأحاجي والألغاز. وقوامها ثالوث من الأركان : بناء اللّغز وفكّه وما بينهما من آليّات الإسقاط بأنواعه المختلفة ولعلّ أهمّها الإسقاط الاستعاريّ.

---

[117] إياس بن معاوية المزنيّ، تـ 122هـ/739 م، قاضي البصرة مشهور بعدله.

يجري بناء اللّغز عن طريق الإسقاط على أساس التّناسب، تناسب قائم بطبيعته يعطي إسقاطا آليا فيكون الإلغاز أداة يتَخفّى بها الإسقاط والتّناسب القائم بتوسّط التّعمية أو تثخين مسالك الإسقاط.

ويكون فكّ اللّغز سعيا إلى الحلّ بالاهتداء إلى وجوه التّناسب الّتي تكون بها إقامة شبكة الإسقاط المناسبة أو الصّالحة، مفتاحا لذلك الحلّ.

وأمّا شرط البناء والحلّ الكامن في الاهتداء إلى وجوه التّناسب ومسالك الإسقاط فضامنه الوحيد هو الانتماء الثّقافيّ : وهو ما به تتوفّر الخطاطات العرفنيّة نفسها عند جميع الأفراد توفّرا واحدا يضمن التّفاهم وتمثّلَ العالم بموارده المختلفة تمثّلا متناسقا وبه يتحقّق الانتماء الاجتماعيّ الثّقافيّ.

ذلك أنّ الألغاز والأحاجي مرتبطة بعصرها وبثقافة قومها وخصوصيّاتها : فمن الألغاز العربيّة – مثلا– ما قد لا يحلّه شخص من ثقافة أخرى باعتماد مناويل ثقافيّة أخرى. فالمناويل الثّقافيّة نوع من الشّفرة الّتي وفقها تركّب المسائل وتحلّ. ومن الألغاز ما يحتكم إلى خطاطات عقليّة "كونيّة" تمثّل حقائق عالميّة قد تقود إلى مفتاح التّناسب والإسقاط فالحلّ، كما ترتبط بمهارات فرديّة في بناء اللّغز وفي حلّه.

ولنا في ما يلي نموذج من الألغاز والأحاجي المنظومة شعرا في مفهوم من المفاهيم – لا نسمّيه الآن ريثما يستكشفه القارئ معنا– نموذجا نعتمده في بيان آليّة الإسقاط الاستعاريّ عاملة في بناء اللّغز وحلّه على أساس التّناسب، نشير إلى الكثير من المفاهيم إشارة إذ سبق أن بسطنا القول فيها في مواطنها :

(1) لغز

وأهيفَ مذبوح على صدر غيره   يترجم عن ذي منطق وهو أبكم
تراه قصيـــرا كلّما طال عمـــره   ويضحي بليـــغا وهو لا يتكلّم

يقوم اللّغز على مجالين أو فضاءين : مصدر وهدف. الفضاء المصدر فضاء الإنسان بسماته الأساسيّة من الهَيَف وسيلان الدّم والنّطق وطول العمر والبلاغة،

أمّا الفضاء الهدف (موطن اللّغز) فمجهول. وهذه هي المسألة في البحث عن الحلّ بتحديد المجهول قيمةً كان أو مفهوما يتوسّل طالب الحلّ، إليه بالمعلوم من القيم أو من المفاهيم[118].

فالمجال المصدر معلوم والمجال الهدف مجهول بمعنى متخفّ. ويكفي أن يعمد السّامع/القارئ إلى اختيار إستراتيجيّة الإسقاط على أساس الشّبه أي التّناسب في السّمات والخصائص ما بين المجالين ليبني المجال الثّاني شيئا فشيئا إذ تتكشف هويّة المفهوم المطلوب على درجات ليكتمل في النّهاية في عمليّة تأليفيّة يستوي بها المفهوم (قلما).

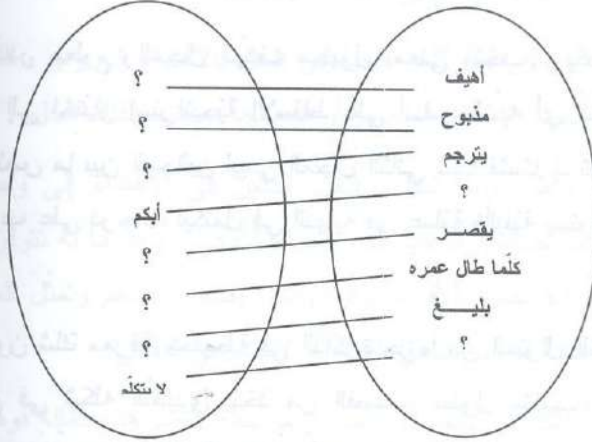
وشرط هذا دون شكّ معرفة محفوظة في الذّاكرة جزءا من المنوال الثّقافيّ، قوامها خطاطة القلم في شكله التّقليديّ يتّخذ من القصب، بطول مناسب، دقيقا لتسهيل الإمساك به، يشقّ عند طرفه المستدقّ، يُغمس في الحبر يسيل منه عند الكتابة ويتآكل فيُبرى فيقصر. ومن يعرف هذه الخصائص يمكنه الاهتداء إلى الحلّ بيسر أمّا من لا يعرف ذلك لأنّه ألف الأقلام الحديثة أو نسيها بحكم الرّقن على الحاسوب، فقد لا يُوفّق بيسر إليه وإن وفّق فإنّ شبكة الإسقاط عنده تظلّ واهية أو منقوصة.

تمثيل شبكة الإسقاط في ما يلي :

والمتصوّر أنّ هذه الشّبكة تملأ على مراحل يكون في الواحدة منها حلّ جزئيّ للّغز بأن يقترن فيها خصيصة من المجال المصدر (الإنسان) بخصيصة من المجال الهدف (القلم)، ولكنّنا نجمل جميع ذلك في مرحلتين المنطلق حيث شبكة الإسقاط فارغة كما يرد في (2) إلاّ من سمة الجماد متكرّرة في البكم وانعدام الكلام، والمنتهى حيث شبكة الإسقاط مكتملة مليئة كما يرد في (3) :

118– لك أن تقطع القراءة وتفكّر في اللّغز حلاً واستدلالا فتقارن بعد ذلك بين ما فكّرت فيه وما نحن عارضون عليك.

(2)



وعند اكتمال شبكة الإسقاط يكتمل النّسيج باكتمال مفهوم القلم على مستويات مقوليّة تصنيفيّة مختلفة متردّدة ما بين العامّ الشّامل والدّقيق الجزئيّ من الخصائص، بيانه في ما يلي :

(3)

القلم الإنسان	
فضاء الإنسان	فضاء القلم
وأهيفَ	دقيق (طويل في دقّة)
مذبوح على صدر غيره	مشقوق يسيل حبرا صفحة الدّفتر أو الورق
يترجم عن ذي منطق	يُكتب به : ينقل كلام غيره ترجمان الإنسان
وهو أبكم	جماد (أخرس، لا يبين)
تراه قصيـرا كلّما طال عمره	يبرى القلم فيقصر كلّما طال استعماله
ويضحي بليـغا	يُكتب به الكلام البليغ
وهو لا يتكلّم	جماد (أخرس، لا يبين)

ونلاحــظ أنّ الإسقاط ما بين المجالين المكوّنين للّغز، انتقائيّ بوجهين:

يتخيّر مركّب اللّغز- أو واضع المسألة بعبارة أخرى- المفيدَ الوظيفيّ من الخصائص دون سائرها، ولذلك لم تُذكر جميع خصائص الإنسان وما ذكر منها متفاوت في درجة الإفادة : فالمذكور من خصائص الإنسان يمثّل المفيد في تحديد مفهوم القلم، من حيث كانت قيما طرازيّة في المقولتين (مقولة الإنسان ومقولة القلم) بما في ذلك الشّكل والاستطالة والعمر والقصر والنّطق (أو البكم نقيضا له) أبرز خصيصة لصيقة بالإنسان وما القلم إلاّ أداة من أدوات تحقّقها، فهو ما به يكون تحويل البلاغة من شكل القول أو الكلام إلى شكل الكتابة أو الخطّ.

كما يتوفّر في بنية اللّغز عناصر تعدّل الإسقاط بنوع من التّحوير أو من توجيه الحوسبة، وهي ما به يقوم تمثيل المسألة ذهنيّا منسجما يكون له كان الحاصل وحدة ذهنيّة مترابطة العناصر والمكوّنات تكوّن بمقتضى ذلك الانسجام وحدة ذهنيّة ذات معنى، وهذا سبيل إلى حلّ المسألة إذ به يُضمن التّناسب ما بين التّمثيل والمادّة المنطلق في اللّغز.

فمن العناصر اللّغويّة الّتي تضمن، في اللّغز المسألة، التّناسبَ التّامّ ما بين التّمثيل الذّهنيّ للمسألة والمادّة المنطلق، ترجمة القلم عن ذي المنطق وهو أبكم، واتّصافه بالبلاغة دون أن يتكلّم. وهذه مفارقة تستوجب الحلّ بأن لا تؤخذ حرفيّا وجميعها يشتغل في اتّجاه واحد هو كون الشّيء المطلوب إنسانا ببلاغته ولكنّه جماد بطبيعته. وفي ذلك نوع من الحيطة يُجتنب به التّأويل الخاطئ للمعطيات المنطلق لما يقوم عليه من تمثيل خاطئ يؤدّي إلى حلّ للمسألة خاطئ، ويُضمَن به قيام التّمثيل المناسب سبيلا إلى الحلّ المناسب.

فحلّ اللّغز، من هذا القبيل، في النّهاية إجراء للعبة المرآة ببعديها المتعاكسين وهو عود بعمليّة الانعكاس إلى ثنائيّتها بعد أن محا الإلغاز والتّعمية في وضع المسألة، واحدا من الاتّجاهين. فحلّ اللّغز لا يتمثّل في النّتيجة لفظا أو مفهوما وإنّما في الآليّات الّتي يكون بها الحلّ.

تتبني بعض النّصوص على نواة معرفيّة حكميّة ذات صياغتين : مجرّدة نظريّة وأخرى سرديّة قصصيّة فيكون الحاصل انطباق القاعدة العلميّة (الفيزيائيّة أو غيرها) على واقع عينيّ (حادثة أو واقعة ذات أسس واقعيّة)، فهي الحقيقة العقليّة أو العلميّة تلبس لبوس الخبر والسّرد.

وفي هذا الباب تتدرج قصص الأمثال الّتي تنطلق من نصّ مثليّ أو عبارة جاهزة هي المثل جاريا على الألسنة تُنسى أصوله، وما الخطاب في أمثال العرب[119] إلاّ نوع من إعادة تركيب لإطار يوافق منطوق العبارة ومعناها الاستعماليّ وقد يكون تبرير هذا المعنى بوسائط لغويّة وعقليّة إذا ما لم يكن من صلة بيّنة بين المعنى اللّغويّ والمعنى الاستعماليّ.

وتتّفق جميع تلك النّصوص في قيامها على تأطير الأمثال، كلاّ حسب مقتضياته، وهي في العموم متقاربة متشابهة وإن اختلفت في الجزئيّات لعودها إلى منوال ثقافيّ واحد متعدّد المكوّنات ولكنّها في النّهاية مكوّنة لمنظومة واحدة. ولتعدّد الأطر، نجد صياغات متعدّدة للمثل أو لقصّة المثل الواحدة من محدّث إلى آخر أو من عصر إلى آخر، ومنها ما تعلّق بالمثل "وافق شنّ طبقة" نموذجا على قصّة تتضمّن عددا من المسائل تطرح للحلّ في نوع من التّظافر المتعقّد المتداخل الأطراف، مفاتيحها متعدّدة بتعدّد المسائل يعجز عنها السّامع/القارئ العاديّ كما عجز عن حلّها بعض الشّخوص في الخبر ومنهم أبو طبقة، ويملك مفتاحها شنّ وهو يصوغها في المنطلق، فتفكّها طبقة في الختام، وهو ما له يتزوّجان :

---

[119] من قبيل كتاب الأمثال للمفضّل الضّبّي ومجمع الأمثال للميداني وغير ذلك من المصنّفات الحديثة في العبارات المثليّة وما جرى مجراها.

(4) خبر شنّ وطبقة

> كان شنّ من دهاة العرب فقال : والله لأطوّفنّ حتّى أجد امرأة مثلي فأتزوّجها. فسار حتّى لقي رجلا يريد قرية يريدها شنّ. فصحبه فلمّا انطلقا قال له شنّ : أتحملني أم أحملك؟ فقال الرّجل : يا جاهل! كيف يحمل الرّاكب الرّاكبَ؟ فسارا حتّى رأيا زرعا قد استحصد، فقال شنّ : أترى هذا الزّرع قد أُكِل أم لا؟ فقال : يا جاهل! أما تراه قائما؟ فمرّا بجنازة فقال : أترى صاحبها حيّا أو ميّتا؟ فقال : مارأيت أجهل منك! أتراهم حملوا إلى القبور حيّا؟ ثمّ سار به الرّجل إلى منزله وكانت له ابنة تسمّى طبقة فقصّ عليها القصّة، فقالت : أمّا قوله أتحملني أم أحملك؟ فأراد تحدّثني أم أحدّثك حتّى نقطع طريقنا؟ وأمّا قوله أترى هذا الزّرع قد أُكِل أم لا؟ فأراد باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا؟ وأمّا قوله في الميّت فإنّه أراد أترك عقبا يحيا به ذكره أم لا؟ فخرج الرّجل فحادثه ثمّ أخبره بقول ابنته فخطبها إليه فزوّجه إيّاها فحملها إلى أهله، فلمّا عرفوا عقلها ودهاءها قالوا : وافق شنّ طبقة!.
>
> ابن الجوزي : كتاب الأذكياء
>
> دار الآفاق الجديدة، بيروت،
>
> ط4، 1980، 220-221.

وقد اعتمدنا في النّموذج السّابق مبدأ الإسقاط عامّة والإسقاط الاستعاريّ خاصّة، وهو مبدأ من جملة مبادئ تمثّل في رأينا جملة الآليّات العرفنيّة المشتغلة في وضع المسائل بأشكالها وفي حلّها، ومنها جملة من الإسقاط منقادة بجملة من الخطاطات العرفنيّة يمكن جمعها في ما نطلق عليه خطاطة عرفنيّة أساسها النّقل والتّحوّل والذّكر :

التّمثيل الغالط يعطي حلاّ غالطا عند الأب وطبقة مثّلت المسائل تمثيلا مناسبا فكان الحلّ منها مناسبا، فالأب لم يتمثّل المسائل وفق الخطاطة المناسبة

ففشل وأمّا البنت طبقة فتمثّلتها وفق الخطاطات المناسبة فاهتدت إلى الحلّ المناسب، وبين التّمثيلين كلاً بالحلّ الّذي قاد إليه تقابل في مستوى الأشخاص وفي مستوى العبارة، قارن ما بين قول الأب يتكرّر واصفا شنّا بالجهل مرّة (يا جاهل!) وجاعلا إيّاه غاية فيه مرّة أخرى (ما رأيت أجهل منك!)، وقول البنت، وقد تكرّر عندها، فعل (أراد) بل ينضاف إلى ذلك في كلامها نوع من التّبرير المفيد لقرائن الحلّ وأسسه :

(5)

	المسألة الفضاء	تمثيل المسألة عند الأب تمثيل حرفيّ ظاهريّ	تمثيل المسألة عند طبقة تمثيل باعتماد الخطاطة
المسألة الأولى	أتحملني أم أحملك؟	كيف يحمل الرّاكب الرّاكبَ؟	تحدّثني أم أحدثك حتّى نقطع طريقنا
المسألة الثّانية	أترى هذا الزّرع قد أُكل أم لا؟	أما تراه قائما؟	باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا؟
المسألة الثّالثة	أترى صاحبها حيّا أو ميّتا؟	أتراهم حملوا إلى القبور حيّا؟	أترك عقبا يحيا به ذكره أم لا؟

والمهمّ أنّ الواحدة من المسائل الثّلاث قامت على خطاطة مخصوصة كلاً بعناصرها البنيويّة وبمنطقها وبتحقّقاتها[120] كما يلي بيانه :

المسألة الأولى: أتحملني أم أحملك؟

خطاطة الحمل :

عناصرها البنيويّة (حامل، محمول، الحامل يتنقّل بالمحمول، في فضاء من موقع فيه إلى موقع آخر، ماسحا جميع ما بين الموقعين).

---

[120] انظر في هذا، نظريّة الاستعارة المفهوميّة ونظريّة الخطاطة في أعمال لايكوف (1987) أو في الزّنّاد (2010).

وتحقّقاتها متعدّدة (السّفر والرّكوب على دابّة، إلخ) ومنها التّحقّق الاستعاريّ (المحدّث حامل والسّامع محمول) وقد يتبادلان الأدوار بحكم التّداول في الحديث، وكما تقصّر الدّابّة الطّريق على راكبها (محمولها) يقصّر الحديث الطّريق على صاحبه وسامعه معا، وذاك ما أدركته طبقة، شخصا فردا، ومن ورائها منوال ثقافيّ عربيّ أنتج هذا النّصّ واحدا من كثير.

المسألة الثّانية: أترى هذا الزّرع قد أُكِل أم لا؟

تشتغل فيها خطاطتان ها خطاطة التّحوّل وخطاطة التّبادل في مزيج وتراكب:

خطاطة التّحوّل:

عناصرها البنيويّة (مادّة، حال أولى، حال ثانية، حال ثالثة... حال ن، تحوّل المادّة أو تُحوّل من حال إلى أخرى في تسلسل على درجات يكون لها في كلّ حال تركيبة وغاية محدّدة وهي متساوية القيمة في جميع الأحوال).

وتحقّقاتها متعدّدة (الحبّ > البذر > الزّرع > الحصاد > الدّراس > طحن الحبوب > العجن > الطّبخ> الأكل والغذاء).

خطاطة التّبادل:

عناصرها البنيويّة (بضاعة، قيمة نِقديّة (الثّمن)، بيع عند قبض الثّمن، وشراء عند دفع الثّمن، تساوي البضاعة قيمة تتحدّد نقدا أو بقيمة تبادليّة مع بضاعة أخرى).

تحقّقاتها معلومة كثيرة ومنها التّحقّق في مجال الغذاء والقوت (زرع– بيع بثمن/قبض الثّمن– إنفاق الثّمن).

وعند تراكب الخطاطتين يكون الحاصل مزيجا من خطاطة التّحوّل وخطاطة التّبادل ليكون العناصر البنيويّة التّالية: (الحبّ، البذر، الزّرع، البيع بثمن، إنفاق الثّمن، أكل وغذاء). ومن تحقّقات الخطاطة التّحوّل تسمية حال لاحقة باسم حال سابقة عليها – أو العكس– في سلسلة الأحوال المتعاقبة المرتّبة (وهو ما يطلق عليه

في العلاقات المجازيّة تسمية الشّيء بما يكون، من قبيل أراني أعصر خمرا) : شنّ يسمّي الزّرع أكلا، ومفتاحه في تراكب الخطاطتين المذكورتين، وهذا ما اهتدت إليه طبقة في الخبر، فالمسمّى زرع والمَعنيُّ قيمة نقديّة أنفقت فكأنّها أُكلت. ولعلّ هذا ممّا يفسّر بعض العبارات من العاميّة التّونسيّة المتداولة في مجال المال والنّقود إذ يقال "فلان كلا الفلوس" (فلان أكل الأموال) بمعنى أنفقها، أو "سلّفت لفلان فلوس، كلاني فيهم" (أعَرت فلانا نقودا فأكلني فيها) بمعنى لم يعدها إليّ.

المسألة الثّالثة:

خطاطة تتعلّق بالوظائف العرفنيّة العليا عند الإنسان، ولعلّها أعلاها، ولها من الأسماء كثير، نوردها وللقارئ أن يختار أفضلها عنده، فمنها "تسمية الأشياء استحضار لها" ومنها "نيابة الأسماء عن مسمّياتها" ومنها "اللّغة استحضار للكون"، إلخ.

عناصرها البنيويّة : شيء، اسم، شخص يطلق الاسم ويجريه، أمّا منطقها فمتعدّد المظاهر في السّلوك اليوميّ العاديّ البسيط يُذكَر الغائب من الأشخاص أو الأشياء فيحضر عقلا وتصورًا، وبالتّسمية يحكم الكائنُ المسمّي الكونَ والأرواح ويستدعيها يأمرها فتأتمر بأمره في طقوس السّحر والوساطات بل يكون بعض الأسماء مقدّسا في لفظه ينزّه كما يُنزّه مسمّاه، وفوق هذا وذاك يكون الذّكرُ حضورا وعدم الذّكر غيابا، فما ذكر لفظا حفظته الذّاكرة وما لم يُذكر نُسيَ، وهو واحد من تحقّقات الخطاطة يكون في (الحياة ذِكْر والموتُ نسيان)، فمن مات وترك نسلا من الأولاد والبنات استمرّ ذكره فكان حيّا في الأذهان ما كان موضوعا لحديث، ومن لم يترك شيئا من ذلك لم يُذكَر ولم يكن حاضرا في الأذهان، فالأوّل ميّت حيّ والثّاني ميّت ميّت، الأوّل حيّ بذكره والثّاني ميّت بنسيانه، وهذا ما أدركته طبقة وفات أباها وقد وضعه شنّ مسألة يمتحن فيها الأب فأخفق وفازت طبقة بالحلّ ففازت بشنّ وفاز شنّ بها.

وعلى هذا يكون شنّ وطبقة شخصيّتين طرازيّتين تفتح الثّانية المغالق في مسائل الأولى، فهما في المنوال الثّقافيّ العربيّ شخص طرازيّ واحد ولذلك تنتهي

جميع الأخبار الّتي تضمّهما بزواجهما، وإنّما الزّواج طقس رمزيّ ذهنيّ ثقافيّ يكون به استمرار دهاء شنّ وعقل طبقة ودهائها، وهذا ما فُتِح به الخبر وقُفِل. هذا في الأخبار أمّا الواقع فقد يكون شيئا آخر.

الحوسبة الاستدلاليّة المبرّرة

الاستدلال عمليّة عرفنيّة يكون بها الوصول إلى الغائب باعتماد الحاضر، وموارد الحاضر لغويّة أو حسّيّة مقاميّة (بصريّة، سماعيّة) أساسها المشاهدة. ويندرج هذا في ما يسمّى بالفراسة أو الفطنة. وجميعها قائم على الاستدلال باعتماد معطيات متفرّقة متباعدة لطيفة دقيقة، فالتّوليف بينها فحوسبة تقود إلى تحصيل حكم (أو قضيّة). والاستدلال عمليّة عرفنيّة موجّهة بقوالب هي خطاطات للفكر تختصر نماذج كثيرة وتختزنها وما الاهتداء إلى ظاهرة ما إلاّ ربط ما بين الأشياء وترابط الأشياء قائم على خطاطات تجتمع في خطاطة الرّبط[121].

الحوسبة المبرّرة : التّعليل أو الميتاعرفنة

يجري تقسيم العرفنة إلى قسمين كبيرين وفق نوع المعلومات أو المعارف الّتي تمثّل موضوع المعالجة أو الحوسبة، فمنها ما يتعلّق بالعالم أو الكون بما تتضمّنه من معرفة بمعاني الكلمات وبصور الأشياء وبتمثيلاتها الذّهنيّة وبالأوضاع بمختلف أنواعها وبالأحداث وبالأحوال وكلّ ما به يعيش الفرد ويحيا كائنا فردا وكائنا اجتماعيّا، وهذا يمثّل العرفنة.

ومنها ما يتعلّق بما هو من الآليّات والعمليّات الجارية في أدمغتنا من حيث وعينا بها وتحكّمنا فيها وقدرتنا على تسميتها وتبريرها وتجريدها موضوعا للوصف أو للحديث أو للتّوجيه وما إلى ذلك ممّا نتصرّف فيه منها، وجميعها يمثّل الميتاعرفنة. كأن يكون الواحد منّا مدركا للعلاقة ما بين حاله الجسديّة وحاله الذّهنيّة العرفنيّة فيربط بينهما في حال النّسيان أو التّلعثم أو زلّة اللّسان وما إلى ذلك، أو يتردّد الواحد منّا في تسمية الشّيء فكرة كان أو شخصا ويقول بكون اسمه

[121] Link schema.

على طرف لسانه ولكنّه لا يلقطه، أو يكون الواحد منّا مقدما على اجتياز امتحان في رخصة السّياقة ولكنّه يرجئ ذلك لوعيه بنقص في التّمرّن وهو قرار من مستوى عال بالقياس إلى معرفته بالسّياقة. فجميع الأحوال المذكورة وما ينقاس عليها تجتمع في حال واحدة هي معرفة بحال معرفة، وتلك هي الميتاعرفنة.

فالميتاعرفنة[122] قوامها دوران العرفنة على نفسها أو هو العرفنة على العرفنة – قياسا على "الكلام على الكلام" – على حدّ عبارة التّوحيدي. ولنا في الخبرين النّموذجين بعد هذا مظهر ميتاعرفنيّ فيه يكون تبرير الحكم أو النّتيجة باعتماد عدد من الأركان ثوابت وأخرى متغيّرات، وهي ذات موارد حسّيّة إبصارا وسماعا يذكر صاحبها ما به ترابطت لتكون أساسا للحكم. ويقترن الخبران بشخصيّة عربيّة (إياس بن معاوية) تبين فيهما فطنته وفراسته في معرفة حال النّساء وقد دخلن عليه وفي معرفة موقع الكلب وهو في الصّحراء، ومدخل التّبرير في الخبرين انقداح العمل الميتاعرفنيّ متمثّلا في تبرير الحكم وتعليله بسؤال يتردّد في الخبرين بمعنى واحد هو " بمَ علمت؟" أو "من أين علمت؟" والسّؤالان كلاهما يمثّل وضعا للمسألة توجّه إلى إياس في الخبر، ولكن يمكن تصوّرها موضوعة موجّهة إلى كلّ من يسمع الخبر أو يقرؤه.

المورد البصريّ في الاستدلال

نعتمد خبر إياس والنّسوة الثّلاث نموذجا لبيان العمليّات العرفنيّة المتداخلة في حلّ المسائل وأساسها اعتماد الموارد البصريّة فتمثّل الهيأة الباطنة أو الحال الغائبة لكلّ امرأة من النّسوة بما يتضمّن ذلك من معالجة للمعطيات نازلة و/أو صاعدة وتبرير لتلك المعالجة فبناء للحكم :

---

[122] Metacognition.

(6) خبر إياس والنّسوة الثّلاث

حدّثنا صالح بن أحمد العجليّ قال حدّثني أبي قال :

دخل على إياس بن معاوية ثلاث نسوة،

فقال : أمّا واحدة فمرضع والأخرى بكر والثّالثة ثيّب.

فقيل له : بمَ علمت؟

قال : أمّا المرضع فإنّها لمّا قعدت أمسكت ثديها بيدها،

وأمّا البكر فلمّا دخلت لم تلتفت إلى أحد،

وأمّا الثّيّب فلمّا دخلت رمقت بعينها يمينا وشمالا.

ابن الجوزي : كتاب الأذكياء

دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 64.

يتضمّن المشهد أو عالم الخبر ثلاثا من النّسوة خلوا من كلّ وصف أو هويّة، فيكون لهنّ خصائص المرأة في المنوال الثّقافيّ بما في ذلك من سمات تهمّ جنس المرأة وأخرى سلوكيّة اجتماعيّة ثقافيّة تمثّل شبكة في التّقييم. وإذ كانت المرأة الدّاخلة على إياس، مبدئيّا، متحجّبة يكون العماد ما ظهر وتجلّى أي حركة الأعضاء من اليد أو العين في هيآت مختلفة موزّعة على زمن ما، يفرضه المقام : من ذلك حركة الدّخول فالجلوس فالحديث وما إلى ذلك وبالحديث تتكشف الحال الاجتماعيّة الّتي لا يفي بها الظّاهر، أو بعبارة أخرى يمكن للواحدة من النّسوة أن تقول إن سئلت أنا مرضع أو ثيّب أو عذراء أو بترتيب آخر تتموقع به في سلسلة متتابعة من أطوار الحياة عند المرأة : بكارة فزواجا فحملا فإنجابا فإرضاعا. والزّواج يمكن أن ينتهي بالطّلاق أو بالموت فتكون المرأة ثيّبا من جهة كونها قد فارقت بكارتها أو مطلّقة بالطّلاق أو أرملة بالموت وهي ثيّب في جميع تلك الأحوال.

والمهمّ أنّ الحوسبة الاستدلاليّة عند إياس كانت ثلاثيّة المداخل :

مدخل السّلوك العضويّ (حركة الأعضاء) دون الكلام وفي ذلك تتدرج حركة النّظر من العين، غيابا وحضورا ثمّ طولا وقصرا إن كان، ومدخل الأطوار في المقام بحركات الأشخاص فيه (دخول، جلوس، كلام)، فمدخل الحال الاجتماعيّة الباطنة (حال البكارة، حال الإرضاع، حال الثّيّب).

وقوّة الحوسبة والاستدلال –عند إياس– إنّما كانت في الوصول إلى النّتيجة أو الحكم بأيسر سبيل وبالغنى عن التّصريح:

فاشتغال خطاطة اجتماعيّة تتضمّن أطوار المرأة في الحياة الجنسيّة و/أو الاجتماعيّة (بكارة، زواج، حمل...) باعتماد الحال الظّاهرة، هي السّلوك باليد أو بالعين، يمثّل أساسا لغلبة المعالجة الصّاعدة في الخبر باعتماد حال الأشياء أو السّلوك الظّاهر علامةً على حال باطنة. كما يوفّر أساسا للمعالجة النّازلة باعتماد علاقة الحال الشّاهد بالتّجربة الماضية، تجربة إياس شخصا والمجموعة من ورائه.

فإذا ما تصوّرنا المسألة مشهدا بما يقوم عليه من مكان وأشخاص وأحوال للأشياء هي هيئات وأوضاع وحركات وجدنا المكان مجلسا والأشخاص ثالوثا من النّساء وبعض الرّجال وعلى رأسهم إياس. وأمّا السّلوك فيتضمّن حركتين دخولا وجلوسا يقترن بالواحد منهما عمل هو النّظر عند الدّخول وحركة اليد عند الجلوس وكلاهما محكوم بمتغيّر أو أكثر، أمّا عمل الجلوس فمحكوم بمتغيّر واحد هو الإمساك بالثّدي وأمّا عمل النّظر فمحكوم بمتغيّرين هما المدّة قصرا وطولا مستفادة من "رمق"[123]، والاتّجاه يمينا وشمالا. ويكون الحاصل من تعامل الأعمال بمتغيّراتها حكما يمثّل نتيجة لاستدلال يُسأل عنه صاحبه فيبرّره بأن يبرز القرائن فالعمليّات الحوسبيّة الّتي قادته في استدلاله، بيان ذلك في ما يلي:

---

123 رمق: نظر نظرا خفيفا، أطال النّظر وحدّق.

(7)

الحكم	المشهد				
	الجلوس	الدخول			
	الإمساك باليد	النظر بالعين			
	الثدي	الاتجاه		المدة	
		شمال	يمين	طويلة	قصيرة
مرضع	+	–	–	–	–
بكر	–	–	–	–	–
ثيب	–	+	+	+	–

المورد السّمعي في الاستدلال

نتّخذ من خبر إياس والكلب سندا في تحليل الاستدلال باعتماد الموارد السّمعيّة :

(8) خبر إياس والكلب

> قال الجاحظ : وحجّ إياس فسمع نباح كلب،
>
> فقال : هذا كلب مشدود.
>
> ثمّ سمع نباحه،
>
> فقال : قد أرسِل فانتهزوا إلى الماء!
>
> فسألوهم، فكان كما قال.
>
> فقيل له : من أين علمت؟
>
> قال: كان نباحه وهو موثق يسمع من مكان واحد ثمّ سمعته يقرب مرّة ويبعد أخرى.
>
> ابن الجوزي : كتاب الأذكياء
>
> دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 65.

صيغت المسألة صوغا خبريّا فنّيا ترابطت فيه أركانها بالفاء مفيدة التّرتّب في مراحل الاستدلال بالمعلوم على المجهول : فالصّوت معلوم مدرك يستدلّ به على موقع بصريّ غير مدرك تحدّد به المسافة.

وقد كان للمسألة حلّ عند إياس سُبر بوجهين :

أوّلهما التّثبّت في صحّة الحكم من مصدر آخر غير ذي علم بها ولا بحلّها وهم القوم أصحاب الكلب، عاشوا التّجربة عيانا وقد عاشها إياس سماعا، فاستدلّ بالسّماع على العيان. وكان استدلاله مطابقا للعيان من القوم.

وثانيهما التّثبّت في بنية الاستدلال ذاتها عمليّة حوسبيّة قائدة إلى الحكم المعلوم من وضع الكلب مربوطا وطليقا على مراتب مسافيّة مختلفة بعدا وقربا.

وعلى هذا تكون المسألة قد وُضعت بوجهين ضمنيّ وصريح: الضّمنيّ في القسم الأوّل والصّريح في السّؤال عن كيفيّة العلم. ويمثّل هذا السّؤال، في الواقع، مسألة للسّامع تروى عليه القصّة، ليكون الحلّ على لسان الشّخصيّة الرّئيسيّة (إياس).

ويمكن ترجمة المسألة إلى نوع من الجدول متعدّد المداخل، متعدّد المسائل الجزئيّة تتألّف منها مسألة كبرى تضمّ الأجزاء على أساس التّناسق والانسجام وقوامها جميعا المعرفة بالكون (بما فيها هيأة المساكن من خيام أو بيوت وتوزّعُها في المكان، وموقعُ البئر أو العين مصدرا للماء وما إليها، جميع ذلك إزاء مخطّط القرية) وبعامل التّنقّل كائنا من الجسم مصدر الصّوت:

تتحدّد بالتّنقّل المسافة باعتماد قرب الصّوت وبعده، دليلين على قرب صاحب الصّوت وبعده، وتحدُّد الحركة، من حيث ثباتها وتنقّلها، مواقعَ الكلب في المكان وبها تتحدّد المسافة قربا وبعدا من موقع السّامع، وبها تتحدّد كذلك درجات الصّوت، صوت النّباح، من حيث مداه أو وضوحه وخفوته، وكلاهما أي المدى والوضوح يحدّدان موقع الكلب بنباحه.

فهذه طبقة أولى من المسألة، وثمّة طبقة ثانية منها تتمثّل في حكم يقوم على الأوّل : فالصّوت الثّابت دليل على كون الكلب مربوطا فيمكن لأصحاب إياس أن

يتمهّلوا في الذّهاب إلى الماء، أمّا الصّوت الّذي يقرّب مرّة ويبعّد أخرى فدليل على كون الكلب قد أرسل وعلى هذا يقوم حكم إياس على جماعته صراحة بالانتهاز إلى الماء وهذا في حال بُعدِ النّباح، وضمنا بالمكوث في حال ما كان الأمر على خلاف ذلك أي في قرب النّباح دليلا على هجوم الكلب. إجمال ذلك في (9):

(9)

المشهد			الحكم
نباح الكلب			
ثابت	متنقّل		
	قريب	بعيد	
+	−	−	مربوط
−	+	+	مرسَل
−	−	+	انتهزوا إلى الماء
−	+	−	هجوم الكلب

ويقرأ الجدول باعتماد علامات الإيجاب والسّلب دالّة على توفّر المدخل أو غيابه، كما يلي :

- (إذا كان نباح الكلب ثابتا، كان الكلب مربوطا)،
- (إذا كان نباح الكلب يقرّب مرّة ويبعّد أخرى فالكلب مرسَل)،
- (إذا كان نباح الكلب بعيدا فانتهزوا إلى الماء)،
- (إذا كان نباح الكلب قريبا فقد (يـــ)هجم الكلب).

وهي كما يتجلّى قراءة شرطيّة تقبل صوغا رياضيّا على أساس متغيّر المسافة والثّبات مصدرا ومدى. نترك شأن صوغها في شكل مسألة رياضيّة قوامها حساب الاحتمالات[124] (العشوائيّة) لأهل الاختصاص.

[124] Calcul de probabilités.

خاتمة

قرّرنا في هذا الفصل أنّ المسائل وحلّ المسائل أمر يوميّ عاديّ لا يخلو منها وضع من أوضاع العيش. يعيشها الأفراد والمجموعات في بعدين ماديّ عمليّ ورمزيّ ذهنيّ تتقاسمه الأنشطة الماديّة والأنشطة التّجريديّة والرّمزيّة تقاسما واحدا.

فالمسائل واحدة ولكنّ صوغها مختلف، يعيشها الكائن المعرفن فيجد لها حلولا ماديّة سلوكيّة بيئيّة كما يجد لها حلولا ذهنيّة تجريديّة. ويمكن أن تتحول المسألة من صياغة عاديّة طبيعيّة ساذجة أومن شكل عاديّ بسيط إلى صياغة شكليّة رياضيّة، ويكون الحلّ كذلك ساذجا من جهة ورياضيّا من جهة أخرى، وهما محكومان بالعمليّات العرفنيّة الاستدلاليّة نفسها. وهذا ما برهنّا عليه بالتّحليل من خلال معطيات هي أخبار أو نصوص صيغت فيها المسائل بحلولها واستدلالها صياغة لغويّة طبيعيّة تبيّنّا أركانها وعواملها بمتغيّراتها بما يكفي من الإفادة في فتح سبيل أخرى لدراسة الخطاب والنّصوص بأنواعها موردا للعرفنة وسبيلا لاستكناهها.

الفصل الخامس

تناقل النّصوص: آليّة التّذكّر في بناء النّص

مقدّمة

طرحنا في ما مضى من فصول هذا الباب جملة من الآليّات في بناء الخطاب من قبيل الأفضية الذّهنيّة والمناويل الاستعاريّة والمزج وحلّ المسائل، ويكون التّركيز في هذا الفصل الأخير في اشتغال الأنماط الذّاكريّة في تناقل المضمون الواحد في النّصوص المختلفة يُنشئه أشخاص مختلفون زمانا و/أو مكانا.

وكان من الممكن البحث في ثلاث صحف أو أكثر، تنقل خبرا واحدا من قبيل حادث سير أو مرور أو ثلاثة شهود أو أكثر، يروون نفس الأمر، ولكنّنا خيّرنا الاشتغال على نصوص من التّراث، المضمون فيها واحد وصياغاته متعدّدة، نموذج ذلك قصّة "العصفورة والفخّ". وقد سبق أن عرضنا صياغة منها نموذجا في اشتغال النّص الاستعارة وفي المزج.

يكون ذلك بالبحث في اشتغال الذّاكرة وفي عوامل التّعدّد أو التّنوّع في الصّياغات للمضمون الخبريّ الواحد يُتناقل عبر الأجيال أو عبر الثّقافات وما يحكم ذلك من أبنية خطاطيّة مفهوميّة ولغويّة (نحويّة معجميّة) واجتماعيّة ثقافيّة.

التّذكّر استحضار للخطاطات

الخطاطة بنية ذهنيّة قوامها تمثيل منضّد لجملة من المعلومات، بما فيها التّجارب الماضية وعناصر المحيط بما تتضمّنه من الأحداث والعلاقات بين الأشياء فيها. وهي من المفاهيم الأساسيّة في دراسة الذّاكرة من حيث طبيعتها وعملها وعناصرها. وقد درس بارتلات (1932) الذّاكرة استحضارا واستعادة، وذلك من خلال دراسة نوعين من النّشاط التّذكّريّ:

(أ)- الاستحضار المتكرّر[125]: فيه يطالَب الشّخص، بعد أن يتمكّن من رؤية

[125] Repeated reproduction.

صورة أو منظر أو من سماع حكاية، بإعادة إنتاجها في مناسبات عديدة متباعدة في الزّمان.

(ب)-الاستحضار التّتابعي[126] : يعيد فيه الشّخص تلك الصّورة أو تلك الحكاية لشخص آخر يتولّى بدوره إعادة إنتاج ما وصله من الأوّل لشخص آخر، وهكذا دواليك.

ولاحظ بارتلات أنّ الاستحضار في الحالين لم يكن حرفيًا يعيد إنتاج الأصل على وجه المطابقة وإنّما كان إعادة بناء له يقوم على تذكّر التّفاصيل الكبرى فيه ثمّ ملء ما تبقّى باعتماد عناصر أخرى من موارد ذاكريّة أخرى.

وتفسير ذلك عنده أنّ كلّ حدث محفوظ في الذّاكرة جزء من خطاطة تعمّ جميع الأحداث اللاّحقة. فمكوّنات الذّاكرة ليست مجرّد آثار مخزونة سكونيّة تنتظر لحظة إنشاط[127] لتعود كما هي، وإنّما هي محفوظة في شكل أجزاء أو أقسام تتضمّنها خطاطات كبرى ويمكن لتلك المكوّنات أن تتبدّل أو تُحوّر كلّما كان هناك تذكّر.

وفي هذا التّوجّه، أثبت هارّيس وجماعته[128] (1988) أنّ الخطاطات الّتي ترتبط بثقافة الفرد يمكن أن تؤثّر في فهمه لحكاية (خرافة، قصّة، نادرة...) تتعلّق بثقافة أخرى، وأنّ نسيان بعض التّفاصيل دافع إلى إنشاء معلومات موافقة لخطاطاته الثّقافيّة.

المضمون واحد والصّياغة متعدّدة: نماذج

نورد في ما يلي النّسخ الثّلاث من قصّة "العصفورة والفخّ" كلاّ من مصدره ثمّ نجمعها في جدول واحد مدخلا لدراسة المقاطع الخبريّة فيها، فجدولا تحليليًا في المفاهيم الواردة فيها من حيث تواترها، وجميع ذلك تمهيدا لتناول تحليليّ مفصّل مرّة ومقتضب في أخرى حسب الحاجة إلى التّأنّي للتّوضيح أو انعدام الحاجة إلى ذلك.

---

[126] Serial reproduction.
[127] Activation.
[128] Harris et alee (1988).

قصّة العصفور والفخّ :

(1) صياغة (1)

حدّثنا عثمان بن عطاء عن أبيه قال : نصب رجل من بني إسرائيل فخّا من ناحية الطّريق فجاء عصفور فسقط ثمّ انطلق إلى الفخّ.

فقال للفخّ : ما لي أراك متباعدا عن الطّريق؟

قال : أعتزل شرور النّاس.

قال : فما لي أراك ناحل الجسم؟

قال : أنحلتني العبادة.

قال : فما هذا الحبل على عطفيك؟

قال : المسوح والشّعر لبس الرّهبان والزّهّاد.

قال : فما هذه العصا في يدك؟

قال : أتوكّأ عليها.

قال : فما هذه الحبّة في فيك؟

قال : رصدتها لابن السّبيل أو محتاج.

قال : فأنا ابن سبيل ومحتاج.

قال : فدونك.

فوضع العصفور رأسه في الفخّ فأخذ بعنقه. فقال العصفور : سيق سيق، ثمّ قال : لا غرّني بعدك قارئ مراء مرّة أخرى.

ابن الجوزي : كتاب الأذكياء

دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 242.

(2) صياغة (2)

قال مالك بن دينار : مثل قرّاء هذا الزّمان كمثل رجل نصب فخّا ونصب فيه برّة. فجاء عصفور.

فقال : ماغيّبك في التّراب؟

قال : التّواضع.

قال : لأيّ شيء أنحلت؟

قال : من طول العبادة.

قال : فما هذه البرّة المنصوبة فيك؟

قال : أعددتها للصّائمين.

فقال : نعمَ الخيّر أنت.

فلمّا كان عند المغرب دنا العصفور ليأخذها فخنقه الفخّ.

فقال العصفور : العبادة تخنق كخنقك فلا خير حينئذ في العبادة بعد اليوم.

ابن الجوزي : كتاب الأذكياء

دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980، 242.

(3) صياغة (3)

قال يحيى بن عبد العزيز بإسناده عن وهب بن منبه :

نصب رجل فخّا فجاءت عصفورة فوقعت عليه.

فقالت : ما لي أرك منحنيا؟

قال : لكثرة صلاتي انحنيت.

قالت : فما لي أراك باديةً عظامك؟

قال : لكثرة صيامي بدت عظامي.

قالت : فما لي أرى هذا الصّوف عليك؟

قال : لزَهادتي في الدّنيا لبست الصّوف.

قالت : فما هذه العصا عندك؟

قال : أتوكّأ عليها وأقضي بها حوائجي.

قالت : فما هذه الحبّة في يديك؟

قال : قربان، إن مرّ بي مسكين ناولته إيّاه.

قالت : فإنّي مسكينة.

قال : فخذيها.

فقبضت على الحبّة فإذا الفخّ في عنقها، فجعلت تقول : قعي، قعي.

قال الخشنيّ : تفسيره لا غرّني ناسك مراء بعدك أبدا.

ابن عبدربّه (940) (العقد الفريد ج3، 152)

عبد الأمير علي مهنّا : طرائف من التّراث العربيّ،

دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، ط1، 1990، ص324.

بنية المقاطع في تناقل النّصوص

(4)

صياغة 1	صياغة 2	صياغة 3
حدّثنا عثمان بن عطاء عن أبيه	قال مالك بن دينار	قال يحيى بن عبدالعزيز بإسناده عن وهب بن منبه
	مثل قرّاء هذا الزّمان كمثل	

المقطع الأوّل

نصب رجل من بني إسرائيل فخّا من ناحية الطّريق.	رجل نصب فخّا ونصب فيه برّة.	نصب رجل فخّا
فجاء عصفور	فجاء عصفور	فجاءت عصفورة
فسقط	–	فوقعت عليه
ثمّ انطلق إلى الفخّ	–	–

المقطع الثّاني

–	–	فقالت : ما لي أرك منحنيا؟
–	–	قال : لكثرة صلاتي انحنيت.

المقطع الثّالث

فقال للفخّ : ما لي أراك متباعدا عن الطّريق؟	–	–
قال : أعتزل شرور النّاس.	–	–

المقطع الرّابع

–	فقال : ماغيّبك في التّراب؟	–
–	قال : التّواضع.	–

المقطع الخامس

قال : فما لي أراك ناحل الجسم؟	قال : لأيّ شيء أنحلت؟	قالت : فما لي أراك باديةً عظامك؟
قال : أنحلتني العبادة.	قال : من طول العبادة.	قال : لكثرة صيامي بدت عظامي.

المقطع السّادس

قال : فما هذا الحبل على عطفيك؟	–	قالت : فما لي أرى هذا الصّوف عليك؟
قال : المسوح والشّعر لبس الرّهبان والزّهّاد.	–	قال : لزَهادتي في الدّنيا لبست الصّوف.

المقطع السّابع

قال : فما هذه العصا في يدك؟	–	قالت : فما هذه العصا عندك؟
قال : أتوكّأ عليها.	–	قال : أتوكّأ عليها وأقضي بها حوائجي.

المقطع الثّامن

قال : فما هذه الحبّة في فيك؟	قال : فما هذه البرّة المنصوبة فيك؟	قالت : فما هذه الحبّة في يديك؟
قال : رصدتها لابن السّبيل أو محتاج.	قال : أعددتها للصّائمين	قال : قربان، إن مرّ بي مسكين ناولته إيّاه.

المقطع التّاسع

قال : فأنا ابن سبيل ومحتاج.	فقال : نعمَ الخيّر أنت.	قالت : فإنّي مسكينة.
قال : فدونك.	–	قال : فخذيها.

المقطع العاشر

وضع العصفور رأسه في الفخّ	فلمّا كان عند المغرب دنا العصفور ليأخذها	فقبضت على الحبّة
فأخذ بعنقه	فخنقه الفخّ	فإذا الفخّ في عنقها،

المقطع الحادي عشر

فقال العصفور : سيق سيق	–	فجعلت تقول : قعي، قعي.
ثمّ قال : لا غرّني بعدك قارئ مراء مرّة أخرى.	فقال العصفور : العبادة تخنق كخنقك فلا خير حينئذ في العبادة بعد اليوم.	قال الخشنيّ : تفسيره لا غرّني ناسك مراء بعدك أبدا

سلّميّة المفاهيم وتواترها في تناقل النّصوص

نورد في ما يلي عرضا مفصّلا لتواتر المفاهيم في الصّياغات الثّلاث (ص
يشير اختصارا إلى صياغة):

(5)

المفاهيم	ص 1	ص 2	ص3	التواتر
نصب	+	++	+	4
رجل	+	+	+	3
بنو إسرائيل	+	–	–	1
فخّا	+	+	+	3
ناحية الطّريق	+	–	–	1
برّة	–	–	–	1
فـــ				
جاء	+	+	+	3

عصفور	+	+	−	2
عصفورة	−	−	+	1
فـــ				
سقط	+	−	−	1
وقعت	−	−	+	1
عليه (الفخّ)	−	−	+	1
ثمّ				
انطلق	+	−	−	1
إلى الفخّ	+	−	−	1
فـــ				
قالت	−	−	+	1
ما لي أراك	−	−	+	1
منحنيا؟	−	−	+	1
قال	−	−	+	1
انحنيت	−	−	+	1
لكثرة صلاتي	−	−	+	1
فـــ				
قال	+	−	−	1
للفخّ	+	−	−	1
ما لي أراك	+	−	−	1
متباعدا	+	−	−	1
عن الطّريق؟	+	−	−	1
قال	+	−	−	1
أعتزل	+	−	−	1
شرور النّاس	+	−	−	1
فـــ				
قال	−	+	−	1

ماغيّك	–	+	–	1
في التّراب؟	–	+	–	1
قال	–	+	–	1
التّواضع.	–	+	–	1
قال	+	+	+	3
مالي أراك	+	–	+	2
لأيّ شيء	–	+	–	1
ناحل الجسم	+	–	–	1
أنحلت	–	+	–	1
بادية عظامك	–	–	+	1
قال	+	+	+	3
أنحلتني	+	–	–	1
العبادة	+	–	–	1
طول العبادة	–	+	–	1
كثرة صيامي	–	–	+	1
بدت عظامي	–	–	+	1
قال	+	–	+	2
ما / ما لي أرى	+	–	+	2
هذا الحبل	+	–	–	1
هذا الصّوف	–	–	+	1
عليك	–	–	+	1
على عطفيك	+	–	–	1
قال	+	–	+	2
المسوح	+	–	–	1

1	−	−	+	والشّعر
2	+	−	+	لبس/لبست
1	−	−	+	الرّهبان
1	−	−	+	الزّهّاد
1	+	−	−	زَهد في الدّنيا
1	+	−	−	الصّوف.
2	+	−	+	قال
2	+	−	+	فما هذه العصا
1	−	−	+	في يدك؟
1	+	−	−	عندك؟
2	+	−	+	قال
2	+	−	+	أتوكّأ عليها
1	+	−	−	أقضي حوائجي
2	+	−	+	قال
2	+	−	+	ما هذه الحبّة
1	−	+	−	ما هذه البرّة
1	−	−	+	في فيك؟
1	−	+	−	المنصوبة فيك
1	+	−	−	في يديك
3	+	+	+	قال
1	−	−	+	رصدتها
1	−	+	−	أعددتها
1	−	−	+	ابن السّبيل
1	−	−	+	محتاج
1	−	+	−	الصّائمون

قربان	−	−	+	1
للمسكين المارّ	−	−	+	1
قال	+	+	+	3
أنا/ إنّي	+	−	+	2
ابن سبيل	+	−	−	1
محتاج	+	−	−	1
مسكينة	−	−	+	1
نعمَ الخيّر أنت.	−	+	−	1
قال/قالت	+	−	+	2
دونك	+	−	−	1
فخذيها.	−	−	+	1
العصفور(ة)	+	+	+	3
وضع	+	−	−	1
رأسه	+	−	−	1
في الفخَ	+	−	−	1
دنا	−	+	−	1
الحبّة/البرّة(ها)	−	+	+	2
يأخذ	−	+	−	1
قبضت	−	−	+	1
المغرب	−	+	−	1
فـــ المفاجأة			إذا:	
الفخَ	+	+	+	3
أخذ (بالعنق)	+	−	−	1
خنق	−	+	−	1
العنق	+	−	+	2
العصفور(ة)	+	+	+	3

فـ				
قال	+	–	–	1
جعلت تقول	–	–	+	1
العصفورة	+	–	+	2
سيق سيق	+	–	–	1
قعي قعي	–	–	+	1
	ثمّ	فـ	ϕ	
قال	+	+	+	3
العصفور	+	+	–	2
الخشنيّ	–	–	+	1
تفسيره	–	–	+	1
لا غرّني	+	–	+	2
قارئ	+	–	–	1
ناسك	–	–	+	1
مراء	+	–	+	2
بعدك	+	–	+	2
بعد اليوم	–	+	–	1
أبدا	–	–	+	1
مرّة أخرى	+	–	–	1
العبادة تخنق كخنقك	–	+	–	1
لا خير حينئذ في العبادة	–	+	–	1
122	70	37	63	

تقوم دراستنا لتعدّد الصّياغات وأسسها الخطاطيّة الذّاكريّة على رباعيّ من الخطاطات العرفنيّة تأتلف في ما بينها وهي الخطاطة الحدثيّة والخطاطة النّحويّة فالخطاطة الدّلاليّة (المعجميّة) فالثّقافيّة العامّة:

أ- الخطاطة الحدثيّة (الأحداث والشّخصيّات) : تمثيل الأحداث في جريانها وشخوصها وترتيبها تتابعيًا في الزّمان وفي المكان، وتبدّل الأوضاع وفق تبدّل الأحداث والأعمال.

ب-الخطاطة النّحويّة : أساسها خطاطة حواريّة ثنائيّة : بنية الاستفهام (سؤال فجواب).

ج- الخطاطة المعجميّة : الوحدات المعجميّة بدورها خطاطيّة في المطلق في مستويين في تحقيق الخطاطة الحدثيّة والخطاطة النّحويّة.

د- الخطاطة العامّة وهي ثقافيّة تهمّ مستويات عليا من العرفنة (الوعظ، ضرب المثل، تصوّر اليهود ومراءاتهم، تصوّر القرّاء النّسّاك وخداعهم)، وجميع الخطاطات السّابقة يخدم هذه الخطاطة.

أ- الخطاطة الحدثيّة

تتضمّن الخطاطة الحدثيّة في المطلق عددا من الأركان، للواحد منها وظيفة في تحقّق الحدث (الوظائف أو الأدوار الدّلاليّة في تسمية جارية) : الحدث، المحدث، المتحمّل، الهيأة، الغاية، المكان، الزّمان، الأداة، إلخ. وإذ تتحقّق هذه الخطاطة في أحداث متنوّعة تكون متكرّرة بتنوّع تلك الأحداث، وتنتظم في تتابع زمانيّ و/أو مكانيّ. والملاحظ أنّ المكان والزّمان الخارجيّ غير مفيدين في خبر العصفور والفخّ.

والخطاطة الحدثيّة الجامعة في الخبر هي خطاطة الصّيد أو القنص نوردها في ما يلي دون تفصيل لوضوحها : فالصّيد خطاطة عناصرها صيّاد (محدث) يستعمل فخّا (أداة بخصائصها المعلومة) بأن ينصبه مموّها أو مغطّيا إيّاه وجاعلا فيه طعما (الطّريقة) ليوقع بفريسة أو بصيد (الفريسة) :

الصّيد (صيّاد (أداة، طريقة، فريسة)

الصّيّاد (رجل من بني إسرائيل)

الفريسة (عصفور)

الأداة (فخّ)

الفخّ (انحناء، أسلاك معدنيّة دقيقة، إبزيم، مشدّ الطّعم، رباط يمنع الفريسة من الهرب بالفخّ...)

الطّريقة (نصب الفخّ، تمويه، إغراء)

التّمويه (تغطية (تراب، صوف...)

الإغراء (الطّعم (دود، حبّ،...)

وقد استُصفي من خطاطة الصّيد، ثالوث من العناصر : الأداة (الفخّ) والفريسة (العصفور(ة)) والطّريقة (التّمويه والإغراء)، وذلك لكونها مفيدة في بناء التّمثيل الاستعاريّ الّذي يقوم على المحاورة. والمحاورة خطاطة قوامها متخاطبان (العصفور،الفخّ) وموضوع (التّمويه). فعمود الخبر حوار ما بين الفخّ والعصفور(ة) في التّمويه أو الخداع المحكَم، هو حوار ما بين المرائي (المحتال، المخادع) والضّحيّة، في التّمثيل الاستعاريّ.

وبالجمع بين الصّياغات الثّلاث. نجد في الخبر. أحد عشر مقطعا (انظر الجدول(4))، وتتفاوت تلك الصّياغات في عدد ما تتضمّنه الواحدة منها. ويكون في ضوء ذلك ما تكرّر من المقاطع فكان مشتركا بينها جميعا أساسيّا في بنية الخبر وما اشترك بين صياغتين منها أساسيّا ولكن من درجة ثانية، وما انفردت به واحدة ثانويّا. وتكون تبعا لذلك التّفاصيل منتظمة على نفس السّلّميّة (انظر الجدول(5)).

وكلا المدخلين (المقاطع والتّفاصيل) قائد إلى نفس النّتيجة : المشترك في المقاطع وفي التّفاصيل أساسيّ في تبيّن البنية الخبريّة المنطلق في حكاية العصفور والفخّ وما طرأ عليها من إعادة صياغة أو إنشاء لها عند تناقلها عبر العصور.

ونكتفي في ما يلي ببعض الإشارات وقد غابت عنّا الصّياغة الأصليّة لهذه الحكاية ولعلّها محفوظة بشكل من الأشكال في تراث بني إسرائيل، لنتبيّن ما قد تكون كانت عليه في أصلها:

يقودنا صهر الصّياغات الثّلاث في واحدة إلى حكاية جامعة واحدة يمكن اعتبارها وافية ممثّلة للصّياغة المثلى كائنة في الأصل أو ناشئة بالتّراكم ما بين

الرّوايات. وهي ما يمكن التّوصّل إليه بقراءة الجدول (6) قراءة يعاد بها تجميع المقاطع المفترقة بين الصّياغات الثّلاث في صياغة جامعة واحدة :

(6)

الصّياغة الجامعة	ص1	ص2	ص3
نصب رجل من بني إسرائيل فخّا من ناحية الطّريق. ونصب فيه حبّة.			
فجاء عصفور.			
فسقط.	+	−	+
ثمّ انطلق إلى الفخّ.	+	−	−
فقال : ما لي أرك منحنيا؟	−	−	+
قال : لكثرة صلاتي انحنيت.	−	−	+
قال : ما لي أراك متباعدا عن الطّريق؟	+	−	−
قال : أعتزل شرور النّاس.	+	−	−
فقال : ماغيّبك في التّراب؟	−	+	−
قال : التّواضع.	−	+	−
قال : فما لي أراك ناحل الجسم، باديةً عظامك؟			
قال : أنحلتني العبادة، ولكثرة صيامي بدت عظامي.			
قال : فما هذا الحبل على عطفيك و ما لي أرى هذا الصّوف عليك؟	+	−	+
قال : المسوح والشّعر والصّوف لبس الرّهبان والزّهّاد.	+	−	+
قال : فما هذه العصا في يدك؟	+	−	+
قال : أتوكّأ عليها وأقضي بها حوائجي.	+	−	+
قال : فما هذه الحبّة في يديك؟			
قال : قربان، رصدتها لابن السّبيل أو محتاج، وللصّائمين. فإن مرّ بي مسكين ناولته إيّاه.			
قال : نعمَ الخيّر أنت. فأنا ابن سبيل ومحتاج، وإنّي مسكين.	+	+	+
قال : فدونك.	+	−	+
فلمّا كان عند المغرب دنا العصفور ليأخذها، فوضع رأسه في الفخّ وقبض على الحبّة.			
فأخذ الفخّ بعنقه فخنقه.			
فقال العصفور : سيق سيق.	+	−	+
ثمّ قال : العبادة تخنق كخنقك فلا خير حينئذ في العبادة بعد اليوم. لاغرّني بعدك ناسك أو قارئ مراء مرّة أخرى.			

تستقيم الصّياغة الجامعة في جميع مظاهرها من حيث تسلسل المقاطع وترتيب الأحداث والمبادلات الحواريّة دون ضير، وذلك دون الحاجة إلى إجراء تعديل كبير، ما عدا تعديل المطابقة في الجنس تأنيثا أو تذكيرا في ضوء الاختيار بين العصفور أو العصفورة. والمهمّ أنّنا نتبيّن بيسر المقاطع الأساسيّة باعتماد ما كان من الخانات أبيض إلى يسار الجدول تلك هي المقاطع الّتي تتفق فيها الصّياغات الثّلاث: وهذه المقاطع ممثّلة للبنية الخطاطيّة الأساسيّة: نصب الفخّ ومجيء العصفور+ الهزال + القربان+ الوقوع في الفخّ+ النّدم على الانخداع (العبرة).

وإذا ما كان التّركيز في مقطع واحد نجد أنّ الصّياغات الثّلاث قد تتكامل في توفير أركان الخطاطة العينيّة الجارية في ذلك المقطع، فتكتمل لها أركان الخطاطة عند اجتماعها في الصّياغة الجامعة. وذلك من قبيل التّفاصيل المكوّنة لمقطع الوقوع في الفخّ، فقد اكتفت الواحدة من الصّياغات الثّلاث بمظهر واحد من الخطاطة وإذا ما جمعنا ثلاثتها وجدناها متكاملة مرتّبة منضّدة:

(7)

المقطع العاشر

صياغة 1	صياغة 2	صياغة 3
وضع العصفور رأسه في الفخّ	فلمّا كان عند المغرب دنا العصفور ليأخذها	فقبضت على الحبّة
فلمّا كان عند المغرب دنا العصفور ليأخذها، فوضع رأسه في الفخّ وقبض على الحبّة.		

والمهمّ أنّ الصّياغات الثّلاث تمسك الواحدة منها بطور من الأطوار والبقيّة تكمّلها الخطاطة، أو بعبارة أخرى إذا سمع واحد من الحاضرين واحدة من الصّياغات الثّلاث وقد ورد فيها طور واحد من أطوار الحدث تمثّل ذلك الحدث مكتملا، في إطار خطاطته الذّهنيّة الكائنة عنده دون أن يرد في الخبر ما يفيد سائر المكوّنات من الخطاطة لفظا صريحا. وهذا ثابت في اشتغال الخطاطات العرفنيّة

من حيث كانت بنيتها الذّهنيّة 'قالبا' يكتمل به الكلّ وإن غابت بعض أجزائه أو تفاصيله. ونفس الأمر مشتغل عند الرّاوي – آليّا– تكتمل الخطاطة بجميع عناصرها ويكتفي بالتّعبير عن واحد منها. فقد تنقص العبارة ولكنّ الخطاطة مكتملة بها يكتمل التّمثيل الذّهنيّ لمضمون الخطاب.

والمهمّ أن نثبت أنّ مضمون الحكاية واحد مكتمل منضّد العناصر يُتمثّل متكاملا منسجما في شكل خطاطيّ، وصوغه اللّغويّ قد يختلف في المتكلّمين وفي الأزمنة وفي السّامعين وفي ما يتضمّن من المقاطع و/أو التّفاصيل من حيث الكمّ ومن حيث النّوع، ويكون به التّناقل والتّفاهم محتكما إلى المكوّنات الخطاطيّة العامّة. وينشأ لذلك تمثيل خطاطيّ لمضمونها في ذهن المخاطب/القارئ، وهو ما يضمن استمرار الحكي والتّناقل. ويبقى أن ننظر في المظهر الخطاطيّ من البنية النّحويّة.

ب- الخطاطة النّحويّة

من الثّابت في الدّراسات اللّسانيّة العرفنيّة كون البنية اللّغويّة خطاطيّة من أبسط مكوّناتها إلى أقصاها تركّبا : الصّواتم، الأبنية الصّرفيّة الاشتقاقيّة، والأبنية الإعرابيّة (لانقاكر 1987) وهو كذلك في الدّلالة اللّغويّة ما كان منها بسيطا في الوحدات المعجميّة وما كان منها مركّبا من المضامين الاستعاريّة وما إليها (لانقاكر 1987، لايكوف 1987، طالمي 2000)، يعنينا في هذا الفصل من المظاهر الخطاطيّة اللّغويّة ما حكم الخبر كاملا في صياغاته الثّلاث من خطاطة حواريّة ثنائيّة متحقّقة أساسا في بنية الاستفهام :

فقوام القصّة أحداث وعمليّات محدودة (نصب الفخّ ووقوع العصفور) فأقوال متبادلة في شكل حواريّ ما بين الفخّ (النّاسك المخادع) والعصفور (المغفّل المخدوع)، يستفهم الثّاني فيجيبه الأوّل على تدرّج يخدم استراتيجيّة القنص. فالعناصر الخطاطيّة في المحاورة ثابتة وهي متوفّرة في الصّياغات الثّلاث توفّرا واحدا في المشترك بينها من المقاطع وفي ما تتفرّد الواحدة منها عن قريناتها. ولا فائدة من أن نطيل في ذلك. والمهمّ أنّ خطاطة الاستفهام (سؤال فجواب) حاضرة مشتركة غالبة وإن تبدّلت صيغها ومضامينها وترتيبها.

كما تتّفق الصّياغات الثّلاث في خطاطات نحويّة أخرى متحقّقة في المقاطع المشتركة بينها مضمونا وترتيبا، وجميعها كائن في ترجمة تصويت العصفور(ة) إلى كلام بشريّ ترجمة ضمنيّة مباشرة أو معلنة ظاهرة :

(8)

	لا (دعاء، نفي)، بعد اليوم، الفاعل، الظّرف أو التّعبير عن الامتداد			
صياغة1	لا غرّني	قارئ مراء	بعدك	مرّة أخرى
صياغة2	لا خير	في العبادة	بعد اليوم	حينئذ
صياغة3	لا غرّني	ناسك مراء	بعدك	أبدا

والمهمّ أنّ الصّياغات الثّلاث مشتركة في ثالوث من الخطاطات النّحويّة العامّة يتحقّق الواحد منها في الواحدة منها بأشكال متقاربة هي تنويعات عليها، وتتناوب الخطاطتان النّحويّتان السّرديّة والحواريّة بتناوب المضامين الخطاطيّة والمضامين الخبريّة الموزّعة على المراحل الأربع في جميع الصّياغات تبعا لمراحل القنص ببعديه المادّيّ كائنا من الصّيّاد بالفخّ والتّجريديّ الرّمزيّ كائنا من النّاسك بالتّحيّل، ملخّص ذلك في ما يلي :

(9)

الخطاطة	المضمون الخطاطيّ	المضمون الخبريّ	المقطع	الرّمز
سرديّة	أحداث وعمليّات	نصب(فخّ) مجيء(عصفور)	بداية الخبر	سلوك النّاسك
محاورة	استخبار واستفسار	أدوات التّمويه في الفخّ	نواة الخبر	أدوات التّحيّل
سرديّة .	أحداث وعمليّات	وقوع في الفخّ	نهايةالخبر	انطلاء الحيلة
حوار باطنيّ	تصويت العصفورة	ترجمة التّصويت لغويّا	خاتمة الخبر	العبرة والاعتبار

فهذا كلّ ما تحتفظ به الذّاكرة الفرديّة في مستوى أوّل يتناقل ليصبح من الذّاكرة الجماعيّة عابرا للعصور متجاوزا الأفراد والشّعوب فينتشر بين الأمم وما ينتشر في الواقع هو خطاطات ليس غير بها يقوم الخبر مضمونا عرفنيّا يجري التّعبير عنه في مختلف اللّغات. ولذلك تجد في ما تباعد منها صياغات متشابهة في

المضمون والرّمز، وليس في ذلك من دليل على عود شعوبها إلى أصل واحد وإنّما هو دليل على ما به تتناقل تلك الشّعوب ما ينشأ في الواحد منها من القصص والخرافات ومن المفاهيم والصّنائع والفنون. وهذا باب يخرج بنا التّخول فيه عمّا نحن فيه، فليكن هذا دعوة إلى استكماله بحثا وتمحيصا.

ج- الخطاطة الدلاليّة (المعجميّة)

من الثّابت في الدّراسات اللّسانيّة العرفنيّة أنّ الدّلالة المعجميّة خطاطيّة بمعنى أنّها تتنضّد في بنية مفهوميّة مكتملة في إطار معرفة موسوعيّة. ومن الثّابت كذلك أنّ تلك البنية المفهوميّة يجري التّعبير عنها من زوايا نظر مختلفة، وهذا من صميم العرفنة البشريّة تملك موارد رمزيّة متنوّعة يمكن أن يُنقل المضمون العرفنيّ الواحد من زوايا أو نوافذ متنوّعة. والأمر ليس اختيارا وإنّما هو من طبيعة اشتغال اللّغة واشتغال الذّهن.

هذا في النّظريّ المطلق، ولنا في الصّياغات المعتمدة في عملنا ما به يثبت ذلك وما به نجد تفسيرا لاستقامة الصّياغات المختلفة للخبر الواحد في العصور المتباعدة وفي الثّقافات المتنوّعة. وقد عرضنا جملة من المداخل الخطاطيّة في مستوى المضامين الخبريّة وفي مستوى الأبنية النّحويّة ونحلّل في ما يلي مثالين اثنين الواحد منهما يكون نموذجا لكثير ممّا هو من قبيله، وذلك للاختصار ليس غير: فالأول منهما متعلّق بمفهوم الخنق لوقوع العصفور في الفخّ وثانيهما تصويت العصفور وقوامه المحاكاة اللّغويّة[129] :

(10)

صياغة 1	صياغة 2	صياغة 3

المقطع العاشر

وضع العصفور رأسه في الفخّ	فلمّا كان عند المغرب دنا العصفور ليأخذها	فقبضت على الحبّة
فأخذ بعنقه	فخنقه الفخّ	فإذا الفخّ في عنقها،

[129] Onomatpeia.(Onomatopée)

فقال العصفور : سيق سيق	–	فجعلت تقول : قعي، قعي.
ثمّ قال : لا غرّني بعدك قارئ مراء مرّة أخرى.	فقال العصفور : العبادة تخنق كخنقك فلا خير حينئذ في العبادة بعد اليوم.	قال الخشنيّ : تفسيره لا غرّني ناسك مراء بعدك أبدا

فالخنق عمل شدّ باليد أو الحبل أو بغيرهما يكون في الحلق من العنق ينحبس له مرور الهواء للتّنفّس وجريان الدّم إلى الرّأس، حتّى الموت. وإن اكتفت بعض المعاجم[130] بكونه شدّا لحلق الشّخص حتّى الموت. فالمتصوّر الخطاطيّ واحد وتحقّقاته عديدة منها خنق الإنسان وخنق الحيوان بصيد أو غيره ومنها الاختناق 'مجازا' في حركة المرور من الطّريق بالمارّة وما إلى ذلك.

ولكنّ المهمّ في الصّياغات الثّلاث أنّ هذا المفهوم تحقّق في ثلاثة من الأشكال، يُقتطع في الواحد منها من عمليّة الخنق مقطع واحد له موضع واحد في مسلسلتها كما يلي بيانه :

أ-"خنقه الفخّ": شكل شامل يتضمّن تصوير العمليّة تصويرا مجملا تُمسح فيه مسحا مجملا دون تفصيل أو تبعيض، وهو مساير للاستعمال الجاري.

ب- أخذ الفخّ بعنقه: يقتطع من مسلسلة الخنق بدايتها أي بداية الشدّ على العنق، وإن كان هذا الشّكل قائما على إسقاط عمل الإنسان على عمل الفخّ، فالأخذ يكون باليد واليد للإنسان، فالخنق مأخوذ على أساس التّأنسن[131] (التّشاكل الأنسنيّ) هنا.

ج- فإذا الفخّ في عنقها: شكل 'محايد' يثبت وجود الأداة في موضع عملها، هو كون الفخّ في العنق، فيستقيم ذلك عند بداية الخنق وعند نهايته. ومدخله مطلق الوجود والحلول في موضع العمل.

[130]- خنقه: شدّ حلقه حتّى يموت (المنجد في اللّغة والأعلام).

[131] Anthropomorphism.

فمفهوم الخنق بتفاصيله الّتي ذكرنا قد جرى تصويره من زوايا مختلفة انفردت كلّ صياغة بواحدة منها، فكانت مجملة في صياغة، مأخوذة في بدايتها في صياغة أخرى، وكائنة قبلها وأثناءها وبعدها في صياغة ثالثة. وجميعها تنويعات متوفّرة في اللّغة قد تؤخذ على أنّها مترادفة ولكنّها عند التّأمّل مختلفة. وما تأويلها على أنّها واحدة كافية للتّعبير عن الحدث وتصويره إلاّ لكونها تحقّقات متعدّدة من خطــاطة واحدة تمسك الواحدة منها بمقطع واحد ويستكمل الذّهن سائر المقاطــع باعتماد خطاطة حدثيّة عامّة هي خطاطة الخنق. فالخــنق خنق سواء خــنق الفخّ العصفور أو أخذ بالعنق أو حلّ فيه.

ومن الأشكال الخطاطيّة ما توفّر في التّنويع الكائن في محاكاة الصّوت، وقد كان بشكلين هما "سيق سيق" و" قعي قعي" تحقّقين لخطاطة عامّة تهمّ تصويت الطّير. وهو ممّا يصعب تصويره باللّغة ولا رسمه بالأصوات اللّغويّة (الأبجديّة) كما هو معلوم في اللّغات، فهي عناصر خارجة عن النّظام اللّغويّ كما هو معلوم، وغاية ما تبلغه اللّغة في ذلك أن تحاكيها. والمواصلة في تفاصيل هذا قد تخرج بنا عن مشغلنا. والمهمّ أنّ العصفورة قد صوّتت وكلّ ناقل لهذا الخبر ينشئ تصويتا يراه أقرب ما يكون من الأصوات الطّبيعيّة الّتي للعصافير كلاّ حسب جنسه أو نوعه. فقد يكون "صاق صاق" أو " سيو سيو" وما إلى ذلك ممّا يمكن تخيّله.

ومهما يكن من أمر في هذا، فإنّنا نلاحظ اشتمال التّحقّقين في صياغات الخبر، على ثالوث من الأصوات (س، ق، ع) تتوالف في ثنائيّات (س ، ق) في " سيق سيق" و(ق ، ع) في " قعي، قعي". ويبدو لنا أنّ تحقّق التّصويت في " سيق سيق" أقرب من التّصويت الخطاطيّ من التّحقّق الثّاني "قعي، قعي". وفيه تصرّف من الرّاوي بأن جعله خاضعا للتّصريف مشتقّا من الحروف الأصول (و ق ع (في الفخّ)) مسندا إلى المخاطب المؤنّث المفرد.

د- الخطاطة الثّقافيّة العامّة

تجتمع الصّياغات الثّلاث بما تتّفق فيه وبما تختلف فيه بحكم عودها إلى خطاطات حدثيّة ونحويّة، كما تجتمع في كونها جارية في منوال ثقافيّ خادمة

لخطاطة ثقافيّة واحدة، هي بكلّ إيجاز جملة السّياقات الّتي يروى فيها هذا الخبر بصياغاته تلك وبسائر صياغاته ممّا لم نطّلع عليه عند العرب وعند سائر الشّعوب. وهذه الخطاطة الثّقافيّة العامّة مزيج من الاجتماعيّ البشريّ ومن الحيوانيّ الطّبيعيّ ومن الحياة في أعمّ مظاهرها. وهي خطاطة مزيج كذلك من حيث كانت أداة حجاجيّة يكون بها الإقناع بالتّخييل والإمتاع والإبداع في آن. ومفتاح هذه الخطاطة الثّقافيّة تحمله الصّياغات الثّلاث حملا واحدا لا خلاف فيه هو ما تقفل به جميعها من عبرة وموعظة أو درس بعبارة حديثة، ولعلّ أوضح مفتاح في جميعها ما توفّر في الصّياغة2 من أدوات يتجذّر بها الخبر في محيطه الثّقافيّ الاجتماعيّ زمانا ومكانا في قول الرّاوي في بداية الخبر : "قال مالك بن دينار : مَثل قرّاء هذا الزّمان كمثَل..."

هي خطاطة جامعة لخطاطة القنص في الطّبيعة جاريا بالأعضاء الطّبيعيّة عند الحيوان سواء أكان بالمطاردة أو بالمباغتة أو بنصب الفخاخ (الرّتيلاء مثلا)، وجامعة لخطاطة الصّيد عند الإنسان جاريا بأعضائه أو بما يصطنعه من الأدوات والحيل، وجامعة لخطاطة "القنص بالعقل" جاريا في المجتمع بين أفراده، وفي العالم بين شعوبه وأممه، في المراتب العرفنيّة العليا عند الإنسان فردا ومجموعة فشعبا أو أمّة، بوسائل العقل تخطيطا وقصدا وخداعا وإغراء وما إلى ذلك.

خاتمة

لعلّ أحسن خاتمة في هذا أن نقرّر أنّ الاستحضار المتكرّر والاستحضار التّتابعيّ عمليّتان جاريتان في ما بين الأفراد وما بين الأجيال على مرّ الزّمن وما بين الشّعوب على اختلاف المكان، جريانا عفويّا طبيعيّا. وفي جميع ذلك يثبت ما قرّره بارتلات وما تبلور في الدّراسات النّفسيّة المخبريّة اللاّحقة عليه. فالتّناقل عمليّة إنشاء للمنقول وليست مجرّد استحضار حرفيّ له وقد بيّنّا مظاهر ذلك في خبر العصفور(ة) والفخّ.

فقد تتبدّل الصّياغات ولكنّها متكافئة ما اتّفقت في الخطاطات بمستوياتها المختلفة، فالنصّ خطاطات مندرج بعضها في بعض بداية من الوحدة المفردة فالجملة فالمقطع الحدثيّ فالمقام بأبعاده الثّقافيّة الاجتماعيّة المختلفة.

ونتصوّر أنّ التّاريخ في عمومه وتناقل القصص فيه قوامه خطاطات ثابتة تتحقّق في تنويعات متبدّلة، هي تنويعات على ما تقبله الخطاطة من حيث تضمّنت جملة من التّحقّقات الممكنة. وما ينطبق على عدد محدود من النّاس المتناقلين وإن تقاربت الأزمنة، ينطبق على الأجيال المتباعدة من النّقَلة عن طريق المشافهة. ولعلّ هذه الدّورة تعطّلت نسبيّا بحدوث الكتابة والتّوثيق في الحضارة البشريّة ولكنّنا نراها تعود من جديد في أسلوب آخر من التّناقل قريب من المشافهة في كونه افتراضيّا، هو الوسائط الرّقميّة الافتراضيّة تنضاف إلى الوسائط الشّفويّة، ولا ندري ما يكون مآلها، ولكنّنا يمكن أن نجزم أنّها ستظلّ محكومة بالأبنية المجرّدة العليا احتكام الذّهن البشريّ إليها لأنّها صنيعته.

خاتمة الباب

اخترنا البحث في ما مضى من هذا الباب في خمس من الآليّات البانية للخطاب، وهي الأفضية الذّهنيّة والاستعارة والمزج وحلّ المسائل فالتّذكّر الخطاطيّ. وهي قليل من كثير، وقد كانت عنايتنا فيه بالمظاهر الّتي بها تتأسّس المضامين المختلفة بالآليّة الواحدة ولكنّها في الواقع متظافرة متداخلة في بناء النّصّ الواحد، فلم يكن الفصل بينها إلاّ لضرورة منهجيّة علميّة، ولكنّ نسب الاشتغال منها متفاوتة من مضمون إلى آخر حسب طبيعة المفاهيم المتعاملة والمتوالفة في ضوء مقتضيات المقام المباشر أو الثّقافيّ الواسع :

تبنى الأفضية في الخطاب على تدرّج يوافق تدرّج القول والسّماع تبعا لخطّيّة الكلام، وهي تتناسل وتترابط في ما بينها. وقد تبيّنّا أنّ انتظام الأفضية التّجريديّة أساسه شبكيّ ولا تخضع لترتيب أو تعريشة إلاّ في إجرائها في شكل لغويّ، فيكون لترتيب الأفضية وترابطها مظهران : ذهنيّ عرفنيّ صرف وذهنيّ لغويّ، قد يتطابقان في التّشكّل اللّغويّ للمضامين السّرديّة وما شاكلها وقد يختلفان في التّشكّل اللّغويّ للمضامين العلميّة وما شاكلها.

والاستعارة آليّة من آليّات بناء الخطاب يبنى بها النّصُّ الاستعارةُ، فيكون بها استعارة كبيرة يجري الإسقاط فيها ما بين مجالين خطاطيّين بينهما تناسب في الخصائص العامّة دون التّفاصيل، وتُستكمل التّفاصيل من الإطار المعرفيّ العامّ بمكوّنيه النّشيطين زمن إنتاج الخطاب و/أو تأويله. وأثبتنا كذلك أنّ النّصّ الاستعاريّ الرّمزيّ قوامه مناويل استعاريّة متظافرة في بناء الرّمز، وهي منتظمة مفردة ثمّ مجتمعة على أساس منوال مفتاح يكون خلاصة لها على أساسه يقوم نسيج التّرابطات الاستعاريّة، فإذا كانت الاستعارة المفردة تمثّلا لمفهوم أو مجال على أساس مفهوم أو مجال آخر، يكون المنوال الاستعاريّ تمثّلا لمنوال ذهنيّ أو مناويل ذهنيّة كاملة على أساس منوال أو مناويل ذهنيّة أخرى.

كما أثبتنا أنّ عمليّة المزج آليّة عرفنيّة شاملة لجميع العمليّات الذّهنيّة بها يكون خلق المفاهيم والأشياء وإبداعها. تكون في نظم علاميّة متنوّعة بصفة إفراديّة في الواحد منها أو بالجمع بينها، فيجري باللّغة صرفا أو بالصّورة، صرفا أو بهما معا. وهذا متوفّر في المحادثات اليوميّة تتزامن فيها اللّغة والإشارة وما إليها وهو كذلك من خصائص الإشهار والكاريكاتور جاريين بالرّسم وبالخطّ. والمفاهيم المزجيّة متدرّجة بساطة وتركّبا على عدد المفاهيم المتمازجة فيها وعلى طواعية في إعادة مزج المزيج خلال الزّمن وعبر الثّقافات.

كما أثبتنا أنّ حلّ المسائل ملكة عرفنيّة مشتغلة في جميع الأوضاع بما فيها اليوميّ العاديّ والمؤسّسيّ التّعليميّ، فتعمّ مظاهر الحياة جميعها عند الأفراد وعند المجموعات في جميع المظاهر التّجريديّة و/أو المادّيّة، وقد بيّن لنا تحليل المعطيات من الخطاب أنّ صياغة المسائل بحلولها واستدلالها صياغة لغويّة طبيعيّة لها أركانها وعواملها بمتغيّراتها، فيكون الخطاب العفويّ سبيلا إلى استكناه اشتغال العرفنة من مدخل لغويّ تتوفّر فيه العرفنة والميتاعرفنة.

وأثبتنا أنّ الذّاكرة تحفظ المضامين النصّيّة في خطاطات تتدرج الصّغرى منها في الكبرى بتدرّج يوافق مستويات التّركّب المفهوميّ واللّغويّ والاجتماعيّ الثّقافيّ. وهذه الخطاطات متحقّقة في شكل لغويّ يروى/يسمع من شخص بعينه فيخزّن في خطاطات يجري تحقيقها بصياغات متنوّعة بتنوّع الأفراد المتناقلين في المقامات والأزمنة المتنوّعة.

ثبت المصطلحات الواردة في الكتاب

المصطلح الإنجليزي	المصطلح العربيّ
Access	الاهتداء
Access (point of)	نقطة الاهتداء (مدخل الاهتداء)
Access Principle	مبدأ الاهتداء
Accretion	الازدياد
Activation	الإنشاط
Agent	المحدث
Anaphora	الإحالة بالضّمير
Anti-cernes	مقاوم لتحويق العينين
Argumentation strategies	إستراتيجيّات حجاجيّة
Attention	الانتباه (العناية)
Backstage cognition	العرفنة الخلفيّة (الباطنة)
Base	الأساس
Blending (conceptual integration)	المزج
Bottom-up processing (fr : traitement ascendant)	معالجة صاعدة
Causal effect(s)	آثار سببيّة
CENTER-PERIPHERY schema	خطاطة المركز–الأطراف
Centrality	المركزيّة
Characteristic	مميّز (خصوصيّ، تخصيصي)
Characteristic knowledge	معرفة مخصوصة (خصوصيّة)
Circumstance(s)	ملابسات
Code	شفرة
Cognition	العرفنة
Cognitive grammar(s	النّحو العرفنيّ

Cognitive Linguistics	اللّسانيّات العرفنيّة
Cognitive model(s)	منوال عرفنيّ
Cognitive process(es)	عمليّة/عمليّات عرفنيّة
Cognitive processing	المعالجة العرفنيّة
Cognitive Psychology	علم النّفس العرفنيّ
Cognitive routine(s)	روتين عرفنيّ
Cognitive Science	العلوم العرفنيّة
Cognitive semantics	الدّلالة العرفنيّة
cognize (to)	عرفَن / يُعرفِن
Cognizer	المعرفن
Coherence	الانسجام
Cohesion	التّرابط (الاتّساق، التّماسك)
Cohesion marker(s)	مؤشّرات التّرابط
Combinatorial principle(s	مبادئ التّوليف
Combinatoriality	التّوليفيّة
Communicative event	حدث تواصليّ
Completion	الإكمال
Complex Blend(s)	المزج المركّب
Composition	التّركيب (التّركّب)
Compositionality	التّركيبيّة
Compression	التّكثيف
Conceptual mapping(s)	الإسقاط المفهوميّ
Conceptual Metaphor Theory (CMT)	نظريّة الاستعارة المفهوميّة (التّصوّريّة)
Conceptual representation	تمثيل المفاهيم (التّصوّرات)
Conceptual structure(s)	بنية/أبنية مفهوميّة (تصوّريّة)

Conceptual system	النّظام المفهوميّ (التّصوّريّ)
Conceptualization	المفهمة
Conjunction	رابط جمعيّ (ترابط جمعيّ)
Connectedness	التّرابط
Connective(s)	الرّوابط
Construal	الانبناء (زاوية/نمط التّناول)
Construction	البناء
Constructive inference	الاستدلال البنائيّ
Constructivism	البنائيّة
CONTAINER schema	خطاطة الحاوية
Container(s)	الحاوية
Context model(s)	مناويل المقام
Contextual analysis	التّحليل المقاميّ
Contextual meaning	معنى مقاميّ
Conventional	المواضعة
Conventional knowledge	معرفة تواضعيّة
Convergence	التّراكز
Correspondence	التّناسب
Creativity	الطّاقة الإبداعيّة (الخلق)
Crème hydratante	مرهم مروٍّ (دهن مرطّب)
Critical Discourse Analysis (CDA)	التّحليل النّقديّ للخطاب
Critical Linguistics	اللّسانيّات النّقديّة
Cross-cultural communication	التّواصل عبر الثّقافات
Cross-domain mapping(s)	إسقاط عابر للمجالات
Cultural model(s)	المنوال الثّقافيّ

Decision making (prise de décision)	أخذ القرار
Discourse	الخطاب
Discourse Analysis	تحليل الخطاب
Discourse marker(s)	مؤشّرات الخطاب
Discourse practice	ممارسة خطابيّة
Discursive event	حدث خطابي
Dynamic	حركيّ
Dynamic situation	وضع حركيّ
Ecran teinté	مرهم ملوّن
Ecran Total	غشاء تامّ
Elaboration	البلورة
Ellipsis	الاختزال بالحذف
Embodied Cognition	العرفنة المجسدنة
Encyclopaedic knowledge model	منوال المعرفة الموسوعيّة
Encyclopaedic meaning	معنى موسوعيّ
Epistemic Grounding	التّجذّر الإبستيميّ
Event model(s)	منوال/مناويل الأحداث
Event scenario(s)	سيناريو الأحداث
Event structure metaphor	استعارة البنية الحدثيّة
Experience	التّجربة
Experiencer	من يعيش التّجربة
Experientialism	التّجريبيّة
Experientialist view	نظرة تجريبيّة
Extended blend	مزيج موسّع
Extra-spatial	عابر للأفضية

Figure/ground	ثنائيّة الرّسم والأرضيّة
Focalization	التّبئير
Focus	بؤرة
Fond de Teint	ملوّن أساسيّ للبشرة
Frame conventions	مواضعات الإطار
Frame semantics	نظريّة الدّلالة الإطاريّة
Frame structure	بنية الإطار
Frame(s)	إطار/أطر
Framing	تأطير
Function(s)	وظيفة/وظائف
Generalisation Commitment	الالتزام بالتّعميم
Generic knowledge	معرفة جامعة
Generic space	فضاء جامع
Genre	الجنس الخطابيّ
Genre mixing	الخلط الأجناسيّ الخطابيّ
Goal state	حال غاية (أو حال هدف)
Good Reason	التّبرير
Graded Blend(s)	المزج المتراكب (المتدرّج)
Grounding Box	إطار التّجذير
Group(s)	فئة/فئات
Humaoid(s)	كائن متآدم /كائنات متآدمة
Hybridization	التّهجين الأجناسيّ الخطابيّ
Idealized cognitive model (ICM)	المنوال العرفنيّ المؤمثل
Ideational function	وظيفة استحضاريّة تمثيليّة
Identity	التّطابق
Identity Principle	مبدأ التّطابق

Image Schema	الخطاطة الصّورة
Incongruity-Resolution	حلّ مشكل اللاّتطابق
Incongruity-Resolution process	عمليّة حلّ مشكل اللاّتطابق
Individual knowledge	فرديّة (شخصيّة)
Inference(s)	الاستدلال
Informal (context)	المقام غير الرّسميّ
Inheritance hierarchy	سلّميّة الإرث
Initial state	حال بدئيّة (أو منطلق)
Innovation	التّجديد
Input space(s)	فضاء دخْل/ أفضية دخْل
Instantiation(s)	تحقق (تحقّقات)
Institution(s)	مؤسّسة/مؤسّسات
Institutional/formal (context)	مقام مؤسّسيّ (رسميّ)
Instrument	وسيلة (أداة)
Integration	الإدماج
Interaction(s)	التّفاعل
Interdiscursivity	التّداخل الخطابيّ
Interface	تصافح
Interpersonal context	سياق التّفاعل ما بين المشاركين
Interpersonal function	وظيفة تفاعليّة
Intertextuality (intertextualité)	التّناصّ
Intra-spatial	علاقات داخل الفضاء
Intrinsic	ذاتيّ داخليّ
Intrinsic knowledge	معرفة ذاتيّة
Intrinsic property	خصيصة ذاتيّة داخليّة
Knowledge representation	تمثيل المعرفة

Lexical cohesion	التّرابط المعجميّ
LINK schema	خطاطة الرّبط
Literary schemas	خطاطة/خطاطات أدبيّة
Macro-actions	أحداث كبرى (جامعة)
Macroblend(s)	مزيج أكبر
Macrostrcture	بنية كبرى
Mapping	الإسقاط
Matching	التوافق
Meaning making	إنشاء المعنى
Meaning potential	المعنى الممكن/المعاني الممكنة
Medium	وسيط
Members' resources (MR)	موارد الأعضاء في المجموعة
Mental imagery	التّصوير الذّهنيّ
Mental Grammar	النّحو الذّهنيّ
Mental Lexicon	معجم ذهنيّ
Mental model(s	منوال ذهنيّ/ مناويل ذهنيّة
Mental representation	التّمثيل الذّهنيّ
Metacognition	الميتاعرفنة
Metonymy	المجاز المرسل
Microblend(s)	مزيج أصغر
Microstructure	بنية صغرى
Minimalism	الأدنويّة
Minimalist Program	البرنامج الأدنويّ
Model(s)	منوال/ مناويل
Multifonction(s)	متعدّد الوظائف
Multiple space blending	المزج المتعدّد الأفضية

Multiple viewpoints	زوايا النّظر المتعدّدة
Narrative(s)	وظائف سرديّة
Network (Model) of Conceptual Integration	شبكة المزج المفهوميّ
Objectivism	الموضوعيّة
Objectivist view	نظرة موضوعيّة
On line	آنَ-قوليّ (آن-القول)
Ontological correspondences (fixed patterns of	التّناسب الأنطولوجيّ
Operator (s)	عامل /عوامل
Order of discourse	ناموس خطابيّ
Paralinguistic	لغويّ محايث
Parameter(s)	برامتر(ات)
Participant(s)	مشارك
PART-WHOLE schema	خطاطة الكلّ-الجزء
Patient / Undergoer	متحمّل
Perspective	زاوية النّظر (المنظور)
Pofiling	العرض
Pominence	البروز
Position(s)	مرتبة/مراتب
Poudre Compacte	مسحوق ملمّع
Primitives	أوّليّات
Private context	مقام خاصّ
Problem-solving	حلّ المسائل (المشاكل)
Processing cycle(s) Cycle(s) de traitement	المعالجة المرحليّة
Profile	المعروض

Properties	خصائص
Prosodic context	سياق عروضيّ
Public contex	مقام عامّ
Purport	مدى الوحدة المعجميّة
Reference	التّرابط الإحاليّ
Referential coherence	الانسجام الإحاليّ
Relational coherence	الانسجام العلائقيّ
Relational unit(s)	وحدة علائقيّة
Relations	علاقة/علاقات
Relative prominence	البروز النّسبيّ
Relevance (fr : pertinence)	الإفادة
Relevant link(s)	صلة/صلات مفيدة
Repeated reproduction	الاستحضار المتكرّر
Restructuring	إعادة التّنضيد
Role(s), participant role	دور/أدوار المشارك
Scanning	المسح
Schema	خطاطة
Schema disruption	تشويش (انهيار) الخطاطة
Schema preserving	الحفاظ على الخطاطة
Schema reinforcing	ترسيخ الخطاطة
Script(s)	خطيطة (خطائط)
Selection	الانتقاء
Selective processing	المعالجة الانتقائيّة
Selective projection	الإسقاط الانتقائيّ
Semiosis	الأنشطة العلاميّة
Sentential context	السّياق الجُمليّ (الإعرابيّ)

Serial reproduction	الاستحضار التّتابعيّ
Setting	الموضع
Shared knowledge	المعرفة المشتركة
Shift	نقل
Simultaneous mapping	الإسقاط الاستعاريّ التّزامنيّ
Situated meaning	المعنى المُمَوضع
Situation model(s)	مناويل الأوضاع
Situation(s)	وضع/أوضاع
Situational context	السّياق المقاميّ (المموضع)
Situation-based knowledge	المعرفة المموضعة
Social frame(s)	إطار اجتماعيّ/أطر اجتماعيّة
Social cognition	العرفنة الاجتماعيّة
Social Constructivism	البنائيّة الاجتماعيّة
Social event(s)	حدث اجتماعيّ/أحداث اجتماعيّة
Social order	ناموس اجتماعيّ
Social practice(s)	ممارسة/ممارسات اجتماعيّة
Social representation(s)	التّمثيلات الاجتماعيّة
Social structure(s)	بنية/أبنية اجتماعيّة
Solver	الباحث عن الحلّ
Source domain	مصدر
SOURCE-PATH-GOAL schema	خطاطة المصدر–المسلك–الغاية
Source-Path-Goal	المصدر–المسلك–الغاية
Space builders	بناة الأفضية
Speech event frame	إطار الحدث القوليّ إطار حدث القول
Spreading	النّشر

Standard	مقاس/ معلم
Static	سكونيّ
Static situation(s)	وضع سكونيّ/ أوضاع سكونيّة
Stimulus/Stimuli	منبّه/منبّهات (مثير/مثيرات)
Substitution	التّرابط الاستبداليّ
Symbolic correspondence	التّناسب الرّمزيّ
Systemic Functional Grammar (SFG)	النّحو النّظاميّ الوظيفيّ
Target domain	مجال هدف
Target	هدف
Text	النّصّ
Text Grammar	نحو النّصّ
Text Linguistics	لسانيّات النّصّ
Textual function	وظيفة نصّيّة
The Grim Reaper (la faucheuse)	الحشّاش القاتل
Theory of the social mind	نظريّة الذّهن الاجتماعيّ
Top-down processing (fr : traitement descendant)	معالجة نازلة
Topology	ثبات التّعالق
Transfer	نقل
Trigger	قادح
Tuning	التّعديل
Unpacking	التّفكيك/ قابليّة التّفكيك
Upward floating	الطّفاوة
Usage based model(s)	المناويل القائمة على الاستعمال/ المناويل الاستعماليّة
Vantage	زاوية النّظر (أو المنظور)

Vital relations	العلاقات الأساسيّة
Web	شدّة الاتّصال
Zoom(ing)	التّزويم
zooming in	التّزويم الدّاخل
Zooming out	التّزويم الخارج

ثبت المراجع

المراجع العربية

ابن الجوزي (تـ597هـ/1201م) : أخبار الحمقى والمغفلين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980.

ابن الجوزي: كتاب الأذكياء، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980.

ابن خلدون، عبد الرّحمان : المقدّمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت 1979.

الجرجاني، عبد القاهر(تـ 471هـ) : أسرارالبلاغة، تـ : عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دارالجيل، بيروت 1991.

الأصبهانيّ، أبو الفرج : الأغاني، دار الكتب العلميّة، بيروت.

حسين، طه : الأيّام، في مجلد واحد، مركز الأهرام للتّرجمة والنّشر، 1992.

الزّناد، الأزهر: نسيج النّصّ: بحث في ما به يكون الملفوظ نصا، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، ط1، 1993.

الزّناد، الأزهر : نظريّات لسانيّة عرفنيّة، دار محمّد علي للنشر (العربيّة)، تونس، 2010.

السّياب، بدر شاكر : ديوان بدر شاكر السّيّاب، المجلّد الأوّل، دار العودة، بيروت، 1989.

علي مهنّا، عبد الأمير : طرائف من التّراث العربيّ، دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، ط1، 1990.

الهمّامي، الطّاهر : تأبّط نارا، دار سحر للنشر، تونس، 1993.

References

Allwood, Jens. 2003. Meaning potentials and context : some consequences for the analysis of variation in meaning, in H. Cuyckens, R. Dirven and J. Taylor (eds), *Cognitive Approaches to Lexical Semantics*. Berlin : Mouton de Gruyter, pp. 29–66.

Anderson, J.A. 1993. *Rules of the Mind*. Hillsdale, NJ : Erlbaum.

Attardo, Salvatore. 1994. Linguistic Theories of Humor. Berlin/New York : Mouton de Gruyter.

Attardo, Salvatore. 1997. The semantic foundations of cognitive theories of humor. *Humor* 10 : 395–420.

Augoustinos, M. and Walker, I. 1995. *Social Cognition : An Integrated Introduction*. London : Sage.

Barcelona, Antonio (ed.). 2003. *Metaphor and Metonymy at the Crossroads*. New York : Mouton de Gruyter.

Barsalou, Lawrence. 1992. Frames, concepts and conceptual fields, in A. Lehrer and E. Kittay (eds.), 21–74.

Bartlett, Frederik. 1932. *Remembering : A Study in Experimental and Social Psychology*. London.

Bechtel, W. & Graham. G. (eds.). 1998. *A Companion to Cognitive Science*. Oxford : Blackwell Publishers..

Brown, Gillian and Yule, George. 1983. *Discourse Analysis*. Cambridge : Cambridge University Press.

Bruder, Gail ; Duchan, Judy and Hewitt, Lynne (eds.). 1995. *Deixis in Narrative : A Cognitive Science Perspective*. Hillsdale, N.J. : Erlbaum.

Castellan Jr, N.J.; Pisoni, D.B. & Potts, G.R. (eds.) 1977. *Cognitive Theory* (vol.2). Hillsdale, NJ : Erlbaum.

Clyne, M. 1994. *Intercultural Communication at Work*. Cambridge : Cambridge University Press.

Cole, M. 1996. *Cultural Psychology : A Once and Future Discipline*. Cambridge, MA : Harvard University Press.

Cole, M.; Gay, J.; Glick, J.A. & Sharp, D.W. 1971. *The Cultural Context of Learning and Thinking*. New York : Basic Books.

Coulson, Seana and Oakley, Todd. 2005. Blending and Coded Meaning : Literal and Figurative Meaning in Cognitive Semantics. *Journal of Pragmatics*. 37 : 1510-1536.

Cruse, D. Alan. 2000. *Meaning in Language*. Oxford : Oxford University Press.

D'Andrade, R. 1995. *The Development of Cognitive Anthropology*. Cambridge : Cambridge University Press.

D'Yidewalle G.; Elen, P. and Bertelson, P. (eds.).1993. *International Perspectives on Psychological Science.* Vol.2 : The State of the Art,. Hove, England : Erlbaum.

Dirven, René & Verspoor, Marjolijn. 2004. *Cognitive Exploration of Language and Linguistics.* John Benjamins.

Dunbar, K. 1998. Problem Solving, in Bechtel, W. & Graham. G. (eds.). 289-298.

Eades, D. 1982. "You gotta know how to talk : information-seeking in South-East Aboriginal Society", *Australian Journal of Linguistics* 2 : 61-80.

Enkvist, Nick E. 1978. Coherence, pseudo-coherence and non-coherence, in Östman, J.K. (ed.) (1978).

Evans, Vyvyan and Green, Melanie. 2006.*Cognitive Linguistics. An Introduction.* Edinburgh : Edinburgh University Press.

Evans, Vyvyan; Bergen, Benjamin and Zinken, Jörg, (eds.). 2007. *The Cognitive Linguistics Reader.* London-Oakland : Equinox.

Evans,V. 2004. *The Structure of Time : Language, Meaning and Temporal Cognition.* Amsterdam : John Benjamins.

Evans,V. 2007. How we Conceptualize Time : Language, Meaning and Temporal Cognition, in Evans; Benjamin and Zinken (eds.). 2007, 733-765.

Fairclough, N. 1989. *Language and Power*, London : Longman.

Fairclough, N. 1993. Critical discourse analysis and the marketization of public discourse. *Discourse and Society* 4-2, 133–168.

Fairclough, N. 1995. *Critical Discourse Analysis : The Critical Study of Language.* London : Longman.

Fairclough, N. 2000. *New Tabour, New language.* London : Routledge.

Fairclough. N. 2003. *Textual Analysis for Social Research.* New York & London : Routledge.

Fauconnier, Gilles and Sweetser E. (eds.). 1996. *Spaces, Worlds and Grammar.* Chicago : The University of Chicago Press.

Fauconnier, Gilles and Sweetser, Eve. 1996. Cognitive Links and Domains : Basic Aspects of Mental Sapce Theory in : Fauconnier. G. and Sweetser E. (eds.) 1996.

Fauconnier, Gilles and Turner, Mark. 1995. Conceptual Integration and Formal Expression, *Metaphor and Symbolic Activity*, 10 : 183-204.

Fauconnier, Gilles and Turner, Mark. 1998. Conceptual Integration Networks, *Cognitive Science*, Vol. 22 (2) : 133-187.

Fauconnier, Gilles and Turner, Mark. 2000. Compression and Global Insight. *Cognitive Linguistics*, Vol. 11 (3-4) : 283-304.

Fauconnier, Gilles and Turner, Mark. 2002. *The Way We Think. Conceptual Blending and the Mind's Hidden Complexities*. New York: Basic Books.

Fauconnier, Gilles and Turner, Mark. 2007. Conceptual integration networks. In Evans, Vyvyan; Bergen, Benjamin and Zinken, Jörg, (eds.).2007.

Fauconnier, Gilles. 1985. *Mental Spaces*. Cambridge : MIT Press.

Fauconnier, Gilles. 1994. *Mental Spaces Aspects of Meaning Construction in Natural Language*, Cambridge : Cambridge University Press (first published by MIT 1985).

Fauconnier, Gilles. 1996. Analogical Counterfactuals in Fauconnier, G. and Sweetser, E. (eds.) 1996, 57-90.

Fauconnier, Gilles. 1997. Blends. In *Mappings in Thought and Language*. New York : Cambridge University Press.

Fauconnier, Gilles. 2001. Conceptual Integration , Emergence and Development of Embodied Cognition (EDEC 2001).

Fauconnier, Gilles. 2005. Compression and Emergent Structure. In S. Huang (ed.). *Language and Linguistics*. 6.4 : 523-538.

Fillmore, C. 1975. An alternative to checklist theories of meaning, *Proceedings of the First Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society*. Amsterdam : North Holland, pp. 123–131.

Fillmore, C. 1977. Scenes-and-frames semantics, in A. Zampolli (ed.), *Linguistic Structures Processing*. Amsterdam : North Holland, pp. 55–82.

Fillmore, C. 1982. Frame semantics. The Linguistic Society of Korea (ed.), *Linguistics in the Morning Calm*, Seoul : Hanshin, pp. 111-137.

Fillmore, C. 1985. Frames and the semantics of understanding, Quaderni di Semantica, 6, 222–254.

Fillmore, C. and B. T. Atkins. 1992. Toward a frame-based lexicon : The semantics of RISK and its neighbors. In A. Lehrer and E. F. Kittay (eds.), *Frames, Fields and Contrasts*. Hillsdale, NJ : Lawrence Erlbaum, pp. 75-102.

Foss, D. J. and Speer, S. R.. 1991. Global and local context effects in sentence processing, in Hoffman, R.R. & Palermo D.S. (eds.). 115-139.

Franklin, Nancy & Tversky, Barbara 1990. Searching Imagined Environments. *Journal of Experimental Psychology : General*, 119, 63-76.

Geeraerts, Dirk and Cuyckens, Hubert (eds.). 2005. *Oxford Handbook of Cognitive Linguistics.* Oxford : Oxford University Press.

Gernsbacher, M. A. (ed.). 1994. *Handbook of Psycholinguistics.* San Diego, CA : Academic Press.

Gilhooly, K.J. (ed.). 1989. *Human and Machine Problem Solving*, New York : Plenum

Gilhooly, K.J. (ed.). 1989. *Human and Machine Problem Solving*. New York : Plenum.

Goldsmith, J. (ed.). 1993. *The Last Phonological Rule, Reflections on Constraints and Derivations*, Chicago : Chicago University Press.

Grady, Joseph, Oakley, Todd and Coulson, Seanna (2007) "Blending and metaphor". In Evans, Vyvyan, Bergen, Benjamin, Zinken, Jörg, eds., Cognitive Linguistics Reader. London-Oakland : Equinox.

Greeno, J.G. 1977. Process of Understanding in Problem Solving, in Castellan Jr, N.J.; Pisoni, D.B. & Potts, G.R. (eds.). 43-84.

Greeno, J.G. 1991. A view of Mathematical Problem Solving in School, in Smith, M. U. (ed.). 69-98.

Grison, B. 2004. Des Sciences Sociales à l'Anthropologie Cognitive. Les généalogies de la Cognition Située, *@ctivités, 1* (2), 26-34. http : //www.activites.org/v1n2/grison.pdf

Gumperz, J. J. 1982. *Language and Social Identity*, Cambridge : Cambridge University Press.

Halliday, M. A. K. and Hasan, R. 1976. *Cohesion in English.* London : Longman.

Harris, R.J.; Hensley, D.J. and Schon, L.M. 1988. The Effect of Cultural Script Knowledge on Memory for Stories Over Time. *Discourse Processes* 11, 413-431.

Hobbs, J. R.1979. Coherence and coreference. *Cognitive Science* 3, 67–90.

Hoffman, R.R and Palermo, D.S. (eds.). 1991. *Cognition and the Symbolic Processes : Applied and Ecological Perspectives*, Hillsdale, New Jersey : Erlbaum.

Jakobson, Roman. 1960. Closing Statements : Linguistics and Phonetics, in Seboek, T.A. (ed.). 1960. *Style in Language*. New York.

Jakobson, Roman. 1963. *Essais de Linguistique Générale.* Traduit de l'anglais et préfacé par Nicolas Ruwet, Paris : Minuit.

Jackendoff. R. 2002. Foundations of Language : Brain, Meaning, Grammar, Evolution. Oxford : Oxford University Press.

Jeffrey H. Goldstein and Paul McGhee (eds.). 1972. *The Psychology of Humor*. New York : Academic Press. 81-100

Johnson, M. 1987. *The body in the mind. The bodily basis of meaning, imagination, and reason*. Chicago : University of Chicago Press.

Kemmer, S. and Barlow, M. 2000. Introduction : A Usage-based Conception of Language, in Kemmer, S. and Barlow, M. (eds). *Usage Based Models of Language*, i-xxi. Stanford : CSLI Publications.

Kintsch. 1993. Discourse Processing, in D'Yidewalle G.; Elen, P. and Bertelson, P. (eds.). Vol.2, 135-155.

Kintsch. 1994. The Psychology of Discource Processing, in Gernsbacher, M. A. (ed.). 721-739.

Kitchin, R. M. 1994. Cognitive Maps : what ae they and why study them? *Journal of Environmental Psychology*, 14, 1-19.

Koestler, Arthur. [1964] 1989. *The Act of Creation*. London : Arkana, Penguin Books.

Kronenfeld, D. 2008. Cultural models, *Intercultural Pragmatics* (Walter de Gruyter), 5-1, 67–74.

Lakoff, G. 1987. *Women, Fire and Dangerous Things : What Categories Reveal About the Mind*. Chicago : University of Chicago Press.

Lakoff, G. 1990. 'The invariance hypothesis : Is abstract reason based on image schemas?' *Cognitive Linguistics*, 1, 1, 39-74.

Lakoff, G. 1993. Cognitive Phonology, in Goldsmith, J. (ed.). *1993*. 117-145.

Langacker, R. W. 1987. *Foundations of Cognitive Grammar, Volume I : Theoretical Prerequisites*. Stanford : Stanford University Press.

Langacker, R.W. 1990. *Concept, Image and Symbol : The Cognitive Basis of Grammar*, Berlin : Mouton de Gruyter.

Langacker, R.W. 1991. *Foundations of Cognitive Grammar, vol.2 : Descriptive Applications*. Stanford : Stanford University Press.

Langacker, R.W. 1999. Grammar and *Conceptualization* Berlin : Mouton de Gruyter.

Langacker, R.W. 2001. Discourse in Cognitive Grammar. *Cognitive Linguistics* 12(2) : 143-188.

Lave, J. 1988. *Arithmetics in Practice*. Cambridge, MA : Harvard University Press.

Lee, David. 2001. *Cognitive Linguistics : An Introduction*. Oxford : Oxford University Press.

Lehrer, A. and Kittay, E. (eds.). *Frames, Fields and Contrasts*. Hillsdale, NJ : Lawrence Erlbaum.

Lovett, M. and Anderson, J.A. 1996. History of Success. *Cognitive Psychology*, 31, 168-217.

Maltin, Margaret W. 1998. *Cognition*. Hartcourt.

Marin-Arrese, Juana I. 2008. Cognition and Culture in Political Cartoons. Intercultural Pragmatics 5-1,1-18.

Mayer, R. E. 1985. Implications of Cognitive Psychology for Instruction in Mathematical Problem Solving, in Silver, E.A. (ed.). 123-138..

Mayer, R. E. 1989. Human non adversary problem solving, in Gilhooly, K.J. (ed.). 39-81.

McNamara, T.P; Hardy, J.K., & Hirtle, S.C. 1989. Subjective Hierarchies in Spatial Memory, *Journal of Experimental Psychology : Learning, Memory and Cognition*. 15, 211-217.

Michon, J. A. 2004. Time lost and found : the role of memory in the experience of time. *Paper presented at the 12th triennial conference of the International Society for Time*, Clare College, Cambridge, July 2004.

Moscovici, S. 2001. *Social Representations : Explorations in Social Psychology*. New York : New York University Press.

Newell, A. and Simon, H. A. 1972. *Human Problem Solving*. Englewood Cliffs NJ : Prentice-Hall.

Newell, A. 1990. *Unified Theories of Cognition*. Cambridge Mass. : Harvard University Press.

Oakley, Todd (1998) Conceptual blending, narrative discourse, and rhetoric. Cognitive Linguistics 9, 321-360.

Oakley, Todd. 2005. Image Schemas, in: Geeraerts, D. and Cuyckens, H. (eds).

Östman, J.K. (ed.). 1978. *Cohesion and Semantics*. Abo, Finland: Abo Academi Foundation.

Poppel, E. 1994. Temporal mechanisms in perception. In O. Sporns & G. Tononi (eds), *Selectionism and the Brain : International Review of Neurobiology, vol. 37* (pp. 185–201). San Diego, CA : Academic Press.

Sanders, José & Redeker, Gisela. 1996. Perspective and the representation of speech and thought in narrative discourse. In Fauconnier, G. & Sweetser, E. (eds).1996. 290–317.

Sanford, A. 2006. Coherence : Psycholinguistic Approach, *Encyclopedia of Language and Linguistics*, Elsevier.

Sanford, A. J. & Moxey, L. M. 2003. New perspectives on the expression of quantity. *Current Directions in Psychological Science* 12, 240–242.

Schank, R.C. and Abelson, R.P. 1977. *Scripts, Plans, Goals, and Understanding : An Inquiry into Human Knowledge Structures.* Hillsdale, NJ : Erlbaum.

Schlanger, J. 1990. *La situation cognitive*, Klincksieck.

Schourup, L. 1999. Discourse markers. *Lingua* 107, 227–265.

Schunn, K. and Dunbar, K. 1996. Priming, Analogy and Awareness in Complex Reasoning, *Memory and Cognition*, 24, 271-284.

Schütz, A. 1964. *Collected Papers.* The Hague : Nijhoff.

Scollon, R. & Wong Scollon, S. 1995. *Intercultural Communication : A Discourse Approach.* Oxford : Balckwell.

Silver, E.A. (ed.).1985. *Teaching and Learning Mathematical Problem Solving*. Hillsdale, NJ : Erlbaum.

Smith, M. U. (ed.). 1991. *Toward a Unified Theory of Problem Solving*. Hillsdale, NJ : Erlbaum.

Stockwell, P. 2002. *Cognitive Poetics, an Introduction.* New York : Routledge.

Suchman, L. 1987. *Plans and Situated Actions : the problem of human-machine communication.* Cambridge : Cambridge University Press.

Suchman, L. 1988. Representing Practice in Cognitive Sciences. *Human Studies, 11* (2-3), 305-325.

Suls, Jerry M. 1972. A two-stage model for the appreciation of jokes and cartoons : An information processing analysis. In Jeffrey H. Goldstein and Paul McGhee (eds.).1972. 81-100.

Talmy, Leonard 2000. *Toward a Cognitive Semantics (2 volumes).* Cambridge, MA. : MIT Press.

Talmy, Leonard. 1995. Narrative Structure in a Cognitive Framework, in Bruder, Gail ; Duchan, Judy and Hewitt, Lynne (eds.)

Talmy, Leonard. 2000. *Toward a Cognitive Semantics*, Vol. 1 : Concept Structuring Systems. Cambridge, Mass. : MIT Press.

Talmy, Leonard. 2000. *Toward a Cognitive Semantics*, Vol. 2 : Typology and Process in Concept Structuring. Cambridge,Mass. : MIT Press.

Taylor, John R. 2002. Cognitive Grammar. Oxford : Oxford University Press.

Thomas, J.C. 1989. Problem solving by human-machine interaction, in Gilhooly, K.J. (ed.). 317-362.

Turner website : http : //markturner.org/blending.html

Turner, F., & Poppel, E. 1983. The neural lyre : poetic meter, the brain and time. *Poetry Magazine, 142*(5), 277–309.

Turner, Mark and Fauconnier, Gilles. 1995. Conceptual integration and formal expression. *Metaphor and Symbolic Activity* 10, 183-204.

Turner, Mark and Fauconnier, Gilles. 2003. Metaphor, metonymy, and binding. In Barcelona, Antonio (ed.).2003.

Tversky, Barbara. 1991. Spatial Mental Models. The *Psychology of Learning and Motivation*, 27, 109-145.

Van den Broeck, P. 1994. Comprehension and Memory of Narrative Texts, in Gernsbacher, M. A.(ed.).539-588.

Van Dijk, Teun A. 1991. Cognitive Context Models and Discourse. Excerpted from : Congressional Record. Proceedings and Debates of the 102d Congress, First Session, June 04, 1991, Vol. 137, No. 84. pp189-226.

Van Dijk, Teun A. 1993. Discourse and Cognition in Society, in: Crowley, D. and Mitchell, D. (eds.). *Communication Theory Today*, Oxford : Pergamon Press. 107-126.

Van Dijk, Teun A. 1993a. Principles of critical discourse analysis. *Discourse and Society* 4-2, 249–283.

Van Dijk, Teun A. 1993b. Elite Discourse and Racism. London : Sage.

Van Dijk, Teun A. 2004 a. Context and Cognition : Knowledge Frames and Speech Act Comprehension.211-231. Available at http : //www.daneprairie.com.

Van Dijk, Teun A. 2004 b. From Text Grammar to Critical Discourse Analysis : A brief academic autobiography, Version 2.0. August 2004. Universitat Pompeu Fabra, Barcelona.

Van Dijk, Teun A. 2006. Discourse and Manipulation, *Discourse and Society*, 17(2) : 359-383.

Van Dijk, Teun A. and Kintsch, W. 1983. *Strategies of Discourse Comprehension*. New York : Academic Press.

Vygotsky, L. 1934. *Thought and Language*, Cambridge, Mass : MIT Press. (1986).

Wundt, W. M. 1916. *Elements of Folk Psychology: outlines of a psychological history of the development of mankind.* New York : Macmillan.

ثبت المحتويات

الباب الثّالث : المضامين العرفنيّة في النّصّ

الباب الرّابع: آليّات بناء النّصّ

المؤلّف في سطور:

د.الأزهر الزّنّاد

حاصل على الأستاذيّة في اللّغة والآداب العربيّة من الجامعة التّونسيّة سنة 1982 فشهادة الكفاءة في البحث سنة 1982، فالتّبريز سنة 1984، فشهادة الدّراسات المعمّقة في اللّسانيّات من جامعة باريس8 سنة 1993 فدكتورا الدّولة من الجامعة التّونسيّة سنة 1998. باحث زائر في بعض أقسام اللّسانيّات بمختلف الجامعات الأمريكيّة في إطار برنامج فولبرايت في مناسبات عديدة. حاليًا، أستاذ التّعليم العالي بكلّية الآداب والفنون والإنسانيّات بمنّوبة، تونس: مدرّسا باحثا في اللّسانيّات العرفنيّة وفي التّرجمة، مديرا لفريق بحث في اللّسانيّات العرفنيّة واللّغة العربيّة منذ 2002، بجامعة منّوبة. zanned_lazhar@yahoo.fr

صدر له:

- دروس في البلاغة العربيّة، 1992 (ط1)، 1994 (ط 2).

- نسيج النّصّ: بحث في ما به يكون الملفوظ نصّا، 1993.

- الإشارات النّحويّة: بحث في تولّد الأدوات والمقولات النّحويّة من الأصول الأحاديّة الإشاريّة في اللّغة العربيّة، منشورات كلّية الآداب والفنون والإنسانيّات بمنّوبة (تونس)، 2005.

- نظريّات لسانيّة عرفنيّة، دار محمّد علي، العربيّة، تونس 2010.

- فصول في الدّلالة ما بين المعجم والنّحو، دار محمّد علي، العربيّة، تونس 2010

- نصوص في التّرجمة من الإنجليزيّة، مركز النّشر الجامعيّ، تونس، 2010 .

- بُناة اللّغة، كلود حجاج (ترجمة من الإنجليزيّة) تحت الطّبع.

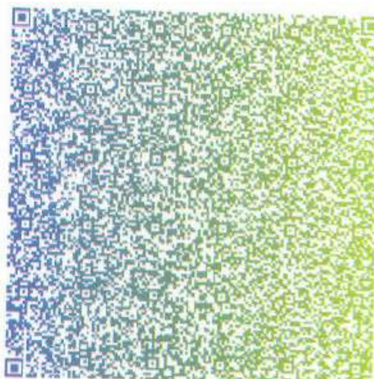
- جملة من المقالات المتفرّقة بالعربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة يهمّ جلّها المنوال الاحتماليّ في انتظام المعجم العربيّ، وجميعها مواصلة لأطروحة دكتورا الدّولة.

تمثّل اللّسانيات العَرفَنية تيّارا جامعا للكثير من الرّوافد النّظرية، وشاملا بالوصف والتّحليل للكثير من الظّواهر اللّغوية في مستوياتها المختلفة بما فيها النّصّ والخطاب وما يكتنف جميع ذلك من مظاهر تداوليّة وتفاعليّة اجتماعيّة ثقافيّة.

يأتي هذا الكتاب، ليبيّن أثر المقاربات العرفنيّة في دراسة الخطاب في الإطار العرفنيّ العام وفي العرفنة الاجتماعيّة على وجه الخصوص وفيه تناول آخر للمعهود من القضايا في هذا المجال سبيلا إلى إقامة نهج مستحدث في تحليل النّصوص العربيّة في إطارها اللّغويّ والثّقافيّ.

هذا الكتاب يفتح للباحث العربي آفاقا جديدة في مجال التّعامل مع النّص بأدوات عرفنيّة بأن يوفّر له أهمّ ما انتهت إليه البحوث اللسانيّة العرفنيّة في مظهرين نظريّ صرف وتحليليّ متين، لبنة في بناء مدخل جديد في الدّرس اللّغويّ يكون به استجلاء بعض الخصوصيّات العرفنيّة الثّقافيّة العربيّة.

دار محمد علي للنشر
www.edition-medali.com



مركز النشر الجامعي

السعر: 25.000

